
امثال القرآن

بسم الله الرحمن الرحیم

امثال القران

کاتب:

آیت الله العظمی ناصرمکارم شیرازی (دام ظله)

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

امثال القرآن

اشارة

سرشناسه : مکارم شیرازی ناصر، - ۱۳۰۵ عنوان و نام پدیدآور : امثال القرآن تالیف مکارم الشیرازی اعداد ابوالقاسم علیان‌نژاد؛ تعریب تحسین البدری مشخصات نشر : قم مدرسه الامام علی‌بن ابیطالب ع ، ۱۳۸۲. مشخصات ظاهری : ص ۵۵۲ شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۹۴-۷ وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی یادداشت : عنوان اصلی مثالهای زیبای قرآن (امثال القرآن . یادداشت : عربی یادداشت : کتابنامه به‌صورت زیرنویس موضوع : قرآن -- امثال شناسه افزوده : علیان‌نژادی ابوالقاسم ۱۳۴۳ - ، گردآورنده و مصحح شناسه افزوده : بدری تحسین مترجم رده بندی کنگره : BP۸۴/۴/م۷م۳ ۲۰۴۳ ۱۳۸۲ رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۵۴ شماره کتابشناسی ملی : م۸۲-۱۳۱۸۱

الإهداء

إلی المتعطشین لزلال معارف القرآن الطاهرة. إلی الباحثین فی علومه الرفیعة. إلی عشاقه الذین أحبوا العیش فی ظله والحشر معه.

إنارة

إنّ کتاب (امثال القرآن) عبارة عن محاضرات القاها سماحة آیة الله العظمی مکارم الشیرازی خلال شهری رمضان من عامی ۱۴۱۸ و ۱۴۱۹ و قد قام بتدوینها و اعدادها حجةالاسلام والمسلمین ابوالقاسم علیان نژادی و قام دار النشر (نسل جوان) بنشر نسختها الفارسیة، کما قام بنقلها إلی العربیة الشیخ تحسین البدری و صُففت حروفها فی المؤسسة الإسلامیة للبحوث و المعلومات (دانا فجر) و برعایة خاصة منها. و الموضوع باعتباره طُرح علی شکل محاضرات قد یفقد بعض الترتیبات الفنیة التی یستلزمها أی کتاب، لذا نأتی بعنوان مکتب المؤلف لتقبّل الاقتراحات و الانتقادات البناءة، ولإتاحة الفرصة لابداء الرأی لمن أحب ذلک. ایران- قم- شارع الشهداء- مدرسة الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام مرکز نشر و تدوین آثار سماحة آیةاللّه العظمی المکارم الشیرازی (مدّظلّه). gro .izarihsmerakam .www

المقدمة

الحمد لله رب العالمین، والصلاة والسلام علی جمیع الانبیاء والمرسلین، لا سیّما أفضلهم خاتم النبیین، وعلی آله الطاهرین المعصومین المنتجبین. لقد عدّ الرسول صلی الله علیه و آله (فی الخطبة الشعبانیة المعروفة) شهر رمضان شهر المغفرة والبرکة. «۱» انه شهر الرحمة، لان أعمال الانسان الروتینیة مثل النوم والتنفس فی هذا الشهر لها ثواب العبادة فضلًا عن العبادة نفسها. إنّه شهر المغفرة والعفو، لأن بحر لطف الله وعفوه موّاج فی هذا الشهر. أبواب الجنة فیه مفتوحة وأبواب جهنم مغلقة، والشیاطین فی غلّ وسلاسل. یغفر فی کل لیلة منه- حسب ما فی روایة- لسبعین الف وفی لیلة القدر یغفر بعدد الذین غفر لهم خلال هذا الشهر الا اولئک الذین یحملون البغض والعداوة عن اخوانهم فی الدین، ولا یغفر لهم حتی یتصالحوا. «۲» انه شهر البرکة، لان فیه نزول انواع النعم والمواهب المعنویة والالهیة، انه شهر نزول وابل الرحمة علی الانسانیة، واهم نعمة فیه هو نزول القرآن المجید (أی مائدة السماء العظمی). هنیئاً امثال القران، ص: ۸ لاولئک الذین ینهلون من زلال معارفه ویتأملون فیها ویتدبرون ویلتقطون من بحر تعالیمه الجواهر ومن حدیقة حکمه ومواعظه الازهار. ان بعضاً من الدول الاسلامیة وبخاصة ایران الاسلامیة تعطّر نفسها فی هذا الشهر بالتبلیغ والاعلام للمعارف الالهیة.

ان النـاس بـدخولهم فى ضـيافة الله يسـتقبلون المبلغين وعشـاق المعـارف الالهيـة، لـذلك نرى جلسات القرآن وتلاوته وتفسـيره وبيان معـارفه والاحكـام الدينيـة والتوسـل بأهل البيت عليهم السـلام فى كل شارع وزقاق. إنّ جلسات المرجع الكبير آيـة الله العظمى مكارم الشـيرازى (مد ظله) من جملة تلك الجلسات حيث اختصت بتفسير القرآن، فانه فى محاضراته هذه يسقى عشاق هذا الكتاب من زلال معارف القرآن المجيد. ان موضوع التفسـير فى محاضرات آية الله مكارم الشيرازى لعامى ۱۴۱۸ و ۱۴۱۹ ه. ق هو (أمثال القرآن) وهو موضوع رغم بساطته يعدّ من اهم وأعقد المفاهيم القرآنية. مع الالتفات إلى قوة طرح الموضوع وسلاسة بيان هذا المفسر الجليل وغنى المطالب التى تضـمنتها المحاضـرات، بادرت إلى جمع هذه المطالب وتدوينها وتنظيمها ونشرها بعد اخذ الرخصة من سماحته. وما فى متناول ايدينا هنا هو عبارة عن الشكل المنظم والمرتب لمحاضراته تقدم لعشاق المعارف الالهية والقرآنية. وننبه هنا على النقاط التالية: ١- قـد يظن بعض القراء الاعزاء انّ آيات (أمثال القرآن) قـد فسرت بالمقـدار الكافى فى تفسـير (الأمثل)، الا ان مطالعـة هـذا الكتاب يكشف لنا ان الاسـتاذ الجليل قـد توصل فى هـذه المحاضـرات إلى حقائق جديدة وبديعة ومفيدة جداً لم يشـر لها فى تفسـير (الامثل) رغم كـل مزايـاه وامتيـازاته، وهو لا يغنينا عن مطالعـة هـذا البحث. ٢- ينقل الاسـتاذ آيـة الله العظمى مكارم الشـيرازى (زيـد عزه): انّ البعض اعترض عنـدما بـدأت بتأليف تفسـير (الامثل) قائلًا بكفاية (مجمع البيان) ولا ضـرورة لتفسـير جديد، الا ان امثال القران، ص: ۹ مضى الزمان وتدوين تفاسير جديدة مثل (الميزان) و (الامثل) كشف عن حاجة الناس وتطلعهم للجديد مما يستشف من كتاب الوحى الالـهى. انه كتـاب مصـداق للحـديث الشـريف للرسول صـلى الله عليه و آله: «لاـ تشـبع منه العلمـاء ولا يخلق عن كثرة رد ولا تنقضـى عجائبه». «۱» وان المفسـرين فى كـل عصـر موظفون للنهل من مسـتجداته وذلك بالافادة من العلوم والإكتشافات الجديـدة؛ وكما قيل (كم ترك الاـول للاخر). ٣- نقرّ بنواقص التـدوين والتنظيم، لـذلك نمـدّ اليكم- أيها القراء الإفاضل- يـد العون لنسـتقبل الإقتراحات والانتقادات البناءة. ربنا أحينا مع القرآن وامتنا معه، واحشـرنا معه، آمين يا رب العالمين. ربنا تقبل منا انك انت السـميع العليم. الحوزة العلميـة فى قم ابو القاسم عليان نژادى ۱۸/ ۱۲/ ۱۳۷۶ الموافق للحادى عشـر من ذى القعدة يوم ولادة الامام على بن موسى الرضا عليه السلام.

تحليل لأمثال القرآن

أهمية القرآن وشهر رمضان

شهر رمضان الـذى هو شـهر نزول القرآن له علاقة محكمة بالقرآن. ولأجل بيان هذه العلاقة نقوم بدراسة اجمالية لبعض آيات القرآن المجيـد. يبيّن القرآن فى الآية ۱۸۳ من سورة البقرة حكم وجوب الصوم، وإيضاحاً لأهميته يطرح قضـية شـمولية الصوم للنحل الاخرى ويقول: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم» ثم يعتبر التقوى وتربية الروح هى نتيجة الصيام. ثم يستثنى ثلاث طوائف من وجوب الصوم فى الايـة ۱۸۴ اما الطائفـة الاخيرة فملزمـة باداء الكفارة وهى بحجم ۷۵۰ غراماً من الحنطـة او ما شابه. كما أن هـذا العجز المـذكور فى الايـة يرفع وجوب الصوم على البنـات اللاـتى بلغن تواً باعتبـارهن لم يتجـاوزن العشـر؛ فان البلوغ هو احـد شـروط وجوب الصوم؛ والاطاقـة هو الشـرط الاـخر له، وبـذلك تحل مشـكلة هـذه البنات، فان الصوم غير واجب على البالغات تواً واللاتى لم يطقن الصوم لضـعف جسـمهن وصغر سنهن. وفى الاية ۱۸۵ من نفس السورة يعلن القرآن أن شـهر رمضـان شـهر الصوم، ويبين اهمية هذا الشـهر من حيث انه شـهر نزول القرآن ويقول: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدَىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى والفُرْقَان ...» ان المسـتشف من هـذه الآيـة هو ان نزول القرآن فى ليلـة القـدر على صدر الرسول صـلى الله عليه و آله هو اهم خصوصـية يمتاز بها هذا الشهر الكريم.

علاقة شهر رمضان المبارك بالقرآن

شهر رمضان شـهر العبادة والتربیـة وترک المعصـیة واداء الطاعـة. لاجل القیام بهـذه المهمة نحتاج إلی التعلیم والتربیة معاً. ان (القرآن) یعلم الانسان و (الصوم) یربیه. ولا یصل الانسان إلی الکمال الا بهما. وفی الحقیقـة؛ ان (القرآن) من دون فریضـة (الصوم) تعلیم ناقص ومن دون تربیة. والصوم من دون (قرآن) تربیة فاقدة للعلم والمعرفة. ولذلک فعلی المسـلم ان یصوم ویحیی شـهر رمضان لکی یتربی، وباقترابه بالقرآن وانسه معه یهتـدی، وذلک لان القرآن هدایـة وبینات وفرقان «هُدَیً لِلنَّاسِ وَبَیِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَی والفُرْقَانِ» إن کتاباً کهذا نزل فی شهر رمضان، کما قد وجب الصوم فی الشهر ذاته لذلک ینبغی الالتفات الخاص إلی هذین الهدیتین.

موضوع البحث

تلاوة القرآن فضـیلة کبری، وبخاصـة فی شـهر رمضان المبارک فان فضـیلة ذلک لا تعد ولا تحصـی. وهذه الفضـیلة تحصل فی وقت تتزامن فیه التلاوة مع التدبر والتفکّر الذی یطهر الروح ویوفر الأرضـیة للعمل. ولهذا الغرض ارتأینا ان یکون لنا درس تفسـیر القرآن فی شهر رمضان هـذا العام «۱» وقـد اخترنا موضوع (أمثال القرآن) لیکون ارضـیة جدیـدة فی التفسیر ولکی تعم فائدته. لماذا جاء القرآن بالامثال؟ یشاهد فی القرآن اکثر من خمسین مثلًا «۲» ففی سورة البقرة التی هی ثانی سورة یوجد عشـرة امثال علی أقل تقدیر. فما هی الحکمـة فی الامثال بحیث جاء بها القرآن وبهـذا الحجم؟ امثال القران، ص: ۱۳ الجواب: ان المثل یعنی تشبیه الحقائق العقلیـة بالامور الحسـیة الملموسـة. فمن جـانب هنـاک أمور عقلیـة کثیرة لا یفهمها اکثر الناس. ومن جانب آخر، فإن الناس اعتادوا علی المحسوسات والعینات الملموسة، ولهذا کان المثل (عقول الناس فی عیونهم) وهو یعنی ان ادراک الناس للامور الملموسة والمرئیة اسـهل لهم. ومن هنـا طرح القرآن بعض المفـاهیم العقلیـة الرفیعـة فی قالب الامثال لیسـهل علی الناس ادراکها. وعلی هـذا؛ فان فلسـفة امثال القرآن هو تنزیل القضایا العمیقة والرفیعة إلی مستوی یتناسب مع أفق تفکیر الناس.

الأمثال العملیة واللسانیة

اشارة

ینبغی الالتفات هنا إلی نقطة وهی ان بعض الامثال عملیة وتبین بلسان العمل، وبعضـها لفظیة تبین باللسان والقول. ان أمثال القرآن هی من النوع الثانی، الا انه یشاهد بعضاً ما فی سـیرة الرسول صـلی الله علیه و آله واهل بیته الاطهار علیهم السـلام امثال عملیة، وهی بالطبع ذات تأثیر اکثر، «۱» نأتی هنا بنموذجین من ذلک.

۱- عندما تتراکم الذنوب الصغیرة

إنَّ رسول الله صـلی الله علیه و آله نزل بارض قرعاء فقال لاصحابه: «ائتونا بحطب»- قد هدف الرسول من ذلک شیئاً غیر الاعداد للنار- فقالوا: یا رسول‌اللّه نحن بارض قرعاء ما بها من حطب. قال: «فلیأت کل انسان بما قـدر علیه»، فجاؤوابه حتّی رموا بین یـدیه بعضه علی بعض. فقال رسول الله صـلی الله علیه و آله: «هکذا تجتمع الذنوب» ثم قال: «ایاکم والمحقرات من الذنوب فان لکل شیء طالباً الا وان طالبها یکتب ما قدموا وآثارهم. وکل شیء احصیناه فی امام مبین». «۲» نعم ان الذنوب الصغیرة قد تتراکم لتبلغ مستوی الجبل ارتفاعاً، وکثافة جبلٍ من النار. ان خطر الذنوب الصغیرة هو عدم الإنتباه إلیها واتخاذ موقف اللامبالاة تجاهها، فذکَّر الرسول صلی الله علیه و آله بخطرها بهذا المثل العملی.

۲- ترسیم نار جهنم

عندما كان الامام على عليه السلام خليفة كان له اخ صاحب اطفال وعائلة وما كانت تكفيه مؤنة بيت المال فطلب من الامام سهماً اكبر من بيت المال فكان جواب الامام على عليه السلام ... ولنقرأ القصة على لسان الامام نفسه: «والله لقد رأيت عقيلًا وقد املق «۱» حتى استماحنى «۲» من بركم «۳» صاعاً، ورأيت صبيانه شعث «۴» الشعور، غبر الالوان «۵» من فقرهم، كانما سودت وجوههم بالعظلم «۶» وعاودنى مؤكداً وكرر على القول مردداً فاصغيت اليه سمعى فظن انى ابيعه دينى، واتبع قياده «۷» مفارقاً طريقتى، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذى دنف «۸» من ألمها، وكاد ان يحترق من ميسمها. «۹» فقلت له: ثكلتك الثواكل «۱۰» يا عقيل! أتئن من حديدة احماها انسانها للعبه وتجرنى إلى نار سجرها جبارها لغضبه! اتئن من الاذى ولا ائن من لظى! «۱۱» وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة «۱۲» فى وعائها ومعجونة شنئتها «۱۳» كانما عجنت بريق حية او قيئها، فقلت أصِلة «۱۴» ام زكاة ام صدقة؟ فذلك محرم علينا اهل البيت؟ امثال القران، ص: ۱۵ فقال: لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية. فقلت هبلتك الهبول! «۱» أعن دين الله اتيتنى لتخدعنى؟ امختبط انت او ذو جنة «۲» ام تهجر» والله لو أعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها على ان اعصى الله فى نملة اسلبها جلب «۴» شعيرة ما فعلته، وان دنياكم عندى لاهون من ورقة فى فم جرادة تقضمها «۵» ما لعلى ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى!! نعوذ بالله من سبات «۶» العقل، وقبح الزلل «۷» وبه نستعين». «۸» ان هذه الامثال تسهل ادراك وهضم كثير من المفاهيم، ولها وقع وتأثير يفوق النصيحة الموعظة ان هذا المثل لا يختص بعقيل وفى ذلك الزمن والعصر فحسب بل انه مثل للجميع وفى كل العصور والازمنة. ولهذا الغرض استخدم القرآن الامثال.

الهدف من الامثال من لسان القرآن

لقد بُيِّن الهدف من الأمثال فى بعض آيات القرآن، نأتى هنا بثلاثة نماذج: ۱- فى الاية ۲۵ من سورة ابراهيم بعد ما شبّه (الكلمة الطيبة) بالشجرة الطيبة- وسيأتى بحث ذلك- يقول فى اخر الاية: «وَيَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ للنّاس لَعَلّهُم يَتَذَكّرون» وعلى هذا فالتذكير هو من أهداف الامثال. ۲- فى الاية ۲۱ من سورة الحشر بعد ما يشبّه بعض القلوب بالجبال وان امكانية التأثير على الجبال اكثر من امكانية التأثير على هذه القلوب يقول فى نهاية الاية: «وتِلْكَ الأمَثال نَضْرِبُها للناس لَعَلّهُم يَتَفَكّرُون» وعلى هذا فالتفكّر هو من اهداف هذه الامثال. امثال القران، ص: ۱۶ ۳- وفى الايات ۴۰- ۴۳ من سورة العنكبوت، بعد ما يشبّه من اتخذ اولياء من دون الله بالعنكبوت الذى يتخذ بيتاً وهناً. يقول فى نهاية الاية ۴۳: «وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُها للنّاسِ ومَا يَعْقِلُها إلّا العَالِمُون» وحسب ما فى هذه الاية فإنَّ تعقل العلماء هو من اهداف تلك الامثال. يمكننا استنتاج ثلاث مراحل لتأثير الأمثال على النفوس، هى كالتالى: الاولى: مرحلة التذكر وهى مرحلة مرور حقيقة الخطاب الالهى فى الذهن. الثانية: مرحلة التفكر، وهى مرحلة التفكير فى موضوع المثل وحكمته. الثالثة: مرحلة التعقل وهى مرحلة ادراك وهضم الحقائق. «۱»

أهمية خطاب المثل

إن الناس فى كثير من الأمور يعدّون الكبير دليلًا على العظمة والصغير دليلًا على قلة الأهمية، لكن الواقع ليس كذلك فالمهم هو الخطاب الذى يحمله ذلك الشيء أو يستهدف المتكلم بيانه. والأمر كذلك فى القرآن فالمهم هو الخطاب الذى يوجهه ويهدفه من خلال المثل لا عظمة او حقارة (الممثل به). يقول الله فى الاية الشريفة ۲۶ من سورة البقرة: «إنَّ اللهَ لا يَسْتَحى أنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فأَمَّا الذَّينَ آمنُوا فيَعْلَمُونَ أنَّهُ الحَقّ منْ رَبِّهِمْ وأمَّا الذين كَفَرُوا فيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلّا الفاسقين».

تأمُّل فى الآية

إنَّ التأمل فی الایـة یرشـدنا إلی النتائـج التالیـة: الاولی: ان الله تعالی اعتبر الهدف من الامثال هو هدایهٔ البشـر. الثانیهٔ: ان موضوع المثل ومحتواه یحظی بأهمیهٔ تفوق اهمیهٔ المضـمون الظاهری امثال القران، ص: ۱۷ والموجودات المذکورهٔ فی المثل. الثالثهٔ: إن المخلوقات جمیعاً ولو کانت بعوضهٔ تکشف عن عظمهٔ الخالق.

الشرح والتفسیر

قبل البـدء بتفسیـر الایـهٔ ولأجل اعداد الاذهان للاستیعاب الاعمق نذکر هنا باقتضاب شأن نزولها. ان التحجج او التذرع بالحجج هو من مواصـفات المنـافقین. ان المنـافق یتحجـج ویماطـل ویتـذرع بالتبریرات الباطلـهٔ فی کل قضـیهٔ ومسألـهٔ، انه لا یهتم بتوجهات المخاطب ومواقفه؛ وذلـک لانـه ینظر إلی القضـیهٔ من موقف مخـالف ویعمـل علی اساس هـذه الرؤیـهٔ. وکمثال علی ذلک نفرض ان شـخصاً او اشـخاصاً بنوا مرکزاً اسـلامیاً یضم مسـجداً و مکتبـهٔ ومصـلی ومستشـفی وداراً للعجزهٔ و .. ففی هذه الحالهٔ سـیعرب المنافق عن شـعوره بالکلمات التالیـهٔ: هل من الصـحیح بناء مرکز بهـذه الضـخامهٔ والکلفـهٔ فی هذه المدینهٔ رغم ما تضم من الفقراء والجیاع؟ الم یکن من الصـحیح ان تصـرف هذه المبالغ لاجل اشـباع الفقراء وسد رمقهم؟ الم یکن من الأفضل ان تصـرف هذه المبالغ لاجل تزویج الشباب العزاب؟ ألم یکن من الأفضل أن یـداوی بهذه المبالغ المرضـی من المحتاجین والفقراء؟ ألم یکن من الافضل أنْ تصـرف هذه المبالغ فی سبیل تعلیم الشـباب وتربیتهم؟! إنّ هذا الشـخص او الاشخاص الخیرین لو صرفوا هذه المبالغ لاجل اطعام المساکین واعانهٔ الشباب ومداواهٔ المرضـی و .. لاحتج هذا المنافق بحجج اخری ولتمسک بذرائع من قبیل قوله: أی اسـلام هذا وای مسلمین هؤلاء، فانا لا نجد فی هذه المدینهٔ مسـجداً، وقد خصصتم هذه المبالغ الطائلهٔ لامور تافههٔ لا فائدهٔ فیها، انکم قد ضیّعتم الاسلام باعمالکم هذه! تعلّموا من الیهود والنصاری؛ فانهم یبنون معابـد فخمـهٔ وجمیلـهٔ تجـذب الانسان نحوها تعلموا من الهنـدوس فإنهم یبنون معابد عظیمهٔ لاصـنامهم الجامـدهٔ. والخلاصـهٔ؛ إنّ غایـهٔ المنافق هی المشاکسـهٔ والمخالفهٔ وزرع بذور الشک والاختلاف وایذاء الآخرین. امثال القران، ص: ۱۸ ومع الالتفات إلی هـذه المقدمـهٔ نقوم بشـرح الایـهٔ المـذکورهٔ. عنـدما نزلت بعض الامثال القرآنیـهٔ بـدأ المنافقون بالتردیـد فی المسألهٔ والاشـکال فیهـا والقول: (مـا هـذه الامثـال التی جاءت فی القرآن)؟ إنّ شأن الله أرفع من ان یمثل بموجودات ضـعیفهٔ مثل الـذباب «۱» والعنکبوت، او ان یمثل بموجودات جامـدهٔ مثل الرعد والبرق «۲» وقد کانوا یهدفون من هذا الحدیث القاء التشکیک فی الهیهٔ القرآن ومصـدره الربـانی، وان القرآن لیس من الوحی الالـهی. بـالطبع، لو لم تنزل هـذه الایـات والامثال او نزلت بکلمات وصـیاغات معقـدهٔ لتمسـک المنـافقون- قطعاً- بـذرائع اخری ولقالوا: (کیف یمکن لهـذا ان یکون کلام الله مع انا لا نفهم منه شـیئاً)؟ او لقالوا: (لماذا لم ینزل الله هذه المفاهیم والحقائق بلغهٔ بسیطهٔ یفهمها الجمیع)؟ کما ان هذا قد حصل لشـعیب علیه السلام وقد حکته الآیهٔ الشریفهٔ (۹۱) من سورهٔ هود: «قَالُوا یَا شُعَیْبُ ما نَفْقَه کَثِیراً مِمّا تَقُولُ وَإنَّا لَنَرَاکَ فِینَا ضَعِیفاً ولَوْلا رَهْطُکَ لَرَجَمْنَاک وَمَا أنْتَ عَلَیْنَا بِعَزِیز». یستفاد من الآیـهٔ ان التمسـک بالـذرائع کان منطقهم، من جانب اخر کانوا یقولون: «لا نَفْقَهُ کَثِیراً مِمّا تَقُولُ» أی لا نفهم ما تقول، ومن جانب اخر یقولون: «لَوْلا رهْطُکَ لَرَجَمْنَاکَ» أی لولا قبیلتک لقتلناک فیجیبهم شـعیب علیه السلام: «قَالَ یَا قَوْم أرَهْطِی أعزُّ عَلَیْکُمْ مِنَ الله؟!». «۳» بما ان المنافقین اللجوجین کانوا یشـککون ویحتجون علی التمثیل بالجمادات او الموجودات الضعیفهٔ جاءت الایهٔ ۲۶ من سورهٔ البقرهٔ لتجیب علیهم وتـدحض حججهم: «إنّ اللهَ لاـ یَسْتَحِی أنْ یضـرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَـهً فَمَا فَوْقَها ...». إنّ بلاغـهٔ الکلام تقتضـی تارهٔ التمثیل بالموجودات الکبیرهٔ وتارهٔ بالموجودات الصـغیرهٔ؛ فکلما ارید من التمثیل بیان العظمهٔ شـبّه بشیء کبیر، واذا ما ارید بیان ضعف الشیء وخواءه امثال القران، ص: ۱۹ شبّه بشیء ضعیف وصغیر من الحیوانات والجمادات. وعلی هذا؛ فان التمثیل بالشیء الکبیر لا یدل علی فصاحهٔ الکلام وبلاغته دائماً. اذن، لا اشـکال علی القران عند تمثیله بشـیء یتناسب مع موضوع المثل والهدف منه مهما کان صـغیراً او کبیراً. ان المؤمنین والصـالحین، حیث یعلمون بحقیقـهٔ هـذه الامثـال ومحتواهـا، یعلمون بانهـا الحق وأنهـا من ربهم ولا ینکرونها، لکن المنافقین والکافرین لتعصبهم ولجاجتهم یقولون: «مَاذَا أرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَیَهْدِی بِه کَثِیراً»؟!.

خطأ المنافقين

إنّ خطأ المنـافقين الكبير هو عـدم توجههم او عـدم رغبتهم للتوجه إلى أنّ بلاغـة القرآن وفصاحته أحـد وجوه إعجاز القرآن المجيد والرسول الكريم. «۱» إنّ الفصاحة والبلاغة- وهما من العلوم التى تدرس فى الحوزة العلمية؟- بتعبير مقتضب هما عبارة عن ما يلى: إنّ ظاهر البيان إذا كان جميلًا قيل انه فصـيح، واذا كان ذات معنى رفيع شاناً قيل انه بليغ. وعلى هـذا؛ الفصاحـة والبلاغـة- وهما من وجوه اعجـاز القرآن- يعنيان الجمال الظاهرى والرفعـة فى محتوى الخطاب. حقاً ان القرآن فصـيح وبليغ أى ان ظاهره جميل وجـذاب يـدعو إلى الإصـغاء اليه، ومحتواه رفيع معنى وشأنـا. ان بلاغـة القرآن وفصاحته إلى درجـة جعلت الاعـداء تسـميه السـحر! وذلك لأنه يجعل الصاغى يسلّم اليه ويخضع له، وهـذا بحد ذاته اقرار واعتراف بجاذبية القرآن امثال القران، ص: ۲۰ الشديدة والخارجة عن المتعارف. إنّ كثيراً من الناس آمن اثر سماعه آيات من القرآن.

جاذبية القرآن وانقاذ المسلمين

هاجر الكثير من المسلمين فى صـدر الإسـلام إلى الحبشـة اثر الضـغط المتزايد الذى لاقوه من المشـركين فى مكة. ولهذا بعث الكفار مبعوثين عنهم حاملين معهم هدايا وافرة إلى النجاشى ملك الحبشة لارجاع المسلمين إلى مكة. طمَّع المبعوثان فى البداية حاشية ملك الحبشـة ثم جاءوا للملك قائلين له: (أيها الملك، انه قـد ضوى (أى لجأ) إلى بلـدك منا غلمان سـفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بـدين ابتـدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا اليك فيهم اشـراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم، فهم أعلى بهم عيناً، واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه). كان المجلس لصالـح الكفار من جميع النواحى وقـد كان المشـركون اعدوا من قبل المقدمات لكسب الموقف لصالحهم. لكن باعتبار كياسة النجاشـى ورفعته، طلب من المسلمين بيان مواقفهم؛ فبدأ جعفر بن أبى طـالب (رض) بالحـديث وعرّف بالاسـلام وبـالرسول صـلى الله عليه و آله والقران فطلب النجاشـى منه قراءة بعض من الآيـات. وباعتبـار الزمان والمكان وباعتبار ان الحضور ينتمون إلى الديانـة المسـيحية قرأ آيات من القرآن تناولت ولادة عيسـى- على نبينا وآله وعليه السـلام- وهنا انقلب المجلس الـذى كان قـد أعـد ليكون لصالـح الكفار وبضـرر المسـلمين فى البداية، انقلب لصالحهم وبدأت عيون النجاشـى و رجال دينه تغرورق بالدموع. ان فصاحة القرآن وبلاغته وجاذبيته كانت بدرجة من التأثير على النجاشـى حيث جعلته يرد هدايا الكفار ويسمح لجعفر والمسلمين بالاقامة فى الحبشة إلى أى وقت شاءوا. «۱»

نموذج آخر لتأثير القرآن

ان النموذج الآخر لتأثير فصاحة القرآن وبلاغته هو قصة اسـعد بن زرارة. ان قبيلة اسـعد كانت لفترة طويلة فى صـراع محتدم بينها وبين قبيلة اخرى. فغادر اسـعد يوماً ما المدينة إلى مكة قاصداً زيارة بيت الله والأصـنام التى فيها، فواجه فى الطريق احد المشركين حذره من السـماع لسـاحر يجلس قرب حجر إسـماعيل، فانشـغل اسعد بالطواف الا انه عنـدما شاهـد وجه الرسول النورانى فكر، ورجـح السـماع والاصـغاء لمـا يقوله الرسول صـلى الله عليه و آله وقرر ان يعرض عنه إذا كان كلامه غير منطقى «۱» وعندما اقترب من الرسول وسـمع منه بعض الايات انجذب له إلى مستوى طلب منه تلاوة آيات أُخرى، فتلى الرسول له .. ثم أسـلم. وحكى للرسول قصة الاختلاف بين قبائل المدينة ودعى الرسول للمجيء إلى المدينة لأجل حل هذه الاختلافات. «۲»

خطابات الاية

۱- البعوضة ليست حيواناً حقيراً!

إنّ کثیراً من المفسرین المعروفین ومنهم المرحوم الطبرسی (ره) فی تفسیره القیم (مجمع البیان) ینقل حدیثاً عن الامام الصادق علیه السلام فی ذیل الایة، حیث قال: «إنما ضرب الله المثل بالبعوضة لأن البعوضة علی صغر حجمها خلق الله فیها جمیع ما خلق فی الفیل مع کبره وزیادة عضوین آخرین فأراد الله تعالی أن یُنبّه بذلک المؤمنین علی لطیف خلقه وعجیب صنعه». «۳» ان الله فی الحقیقة أراد بهذا المثال بیان ضرافة الخلق، وان التفکّر فی هذا الحیوان الضعیف ظاهراً- الذی خلقه الله شبیهاً لأکبر حیوان فی الیابسة- لیرشد الانسان إلی عظمة خالقه. امثال القران، ص: ۲۲ التوضیح: فی جسد البعوضة ضعیفة الجسم نفس الاعضاء الموجودة فی فیل ضخم. ففیه جهاز الهضم، وخرطوم دقیق ذات منفذ رفیع، وأعضاء للحرکة واجهزة للتناسل و .. اضافة إلی هذا، فان للبعوضة قرنین تشبه الهوائیات وذلک للتواصل فیما بینها وبین البیئة المحیطة بها وهو أمر یفقده الفیل.

۲- حجابان عظیمان: کثرة النعم والتعود علیها

إنّ سبب غفلة الإنسان عن نعم الله العظیمة وعدم تفکره فی دقة الخلق وضرافته هو شیئان: الاول: حجاب کثرة النعم؛ فإن وفرة النعم تجعل الإنسان یستهین ولا یعتد ولا یفکر بها. وکمثال علی ذلک: ان البعوضة لو کانت نادرة فی العالم ووقعت بأیدی العلماء، لاعتبرها هؤلاء العلماء موجوداً ذات اهمیة وأهلًا للدراسات والتحقیق العلمی. الثانی: حجاب التعود؛ فان العین مثلًا من آیات الخلق العظمی؛ الا انا لم نفکر بها ولا نتمعّن فی خلقها. الاذن کذلک، فهو مستلم قوی ودقیق وعجیب الا انا بسبب تعودنا علیه لا نعرف قدره ولا نثمنه مع انا لو دققنا لیس فی هذین فقط بل فی کل اشیاء العالم لوجدناها عجیبة ومدهشة وتکشف عن اسرار الخلق والعظمة والتوحید.

۳- الهدایة والضلالة فی القرآن

فی نهایة الآیة یجیب الله المنافقین الذین قالوا: «مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَیَهْدِی به کَثِیرَاً» حیث قال: «وما یُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِینَ» فی هذه الایة وامثالها «۱» نسبت الضلالة إلی الله کما نسبت الهدایة فی آیات اخری «۲» الیه کذلک. إذا کانت الهدایة والضلالة من الله ونحن مجبورون علیهما ولا إرادة لنا فی ذلک فلماذا یثیب امثال القران، ص: ۲۳ الله المهتدین ویعاقب الضالین رغم انهم مجبورون علی ذلک؟ هناک آراء مختلفة فی تفسیر هذه الآیة وأمثالها، فبعض قال: ان المراد من (یضل) هو (یمتحن) أی ان الله یرید امتحان الناس من خلال هذه الامثال. «۱» ویقول البعض الاخر: ان الهدایة والضلالة تعنیان إعداد المقدمات لهما لا نفسهما والقرار النهائی فیهما یرجع إلی ارادة الإنسان نفسه. وکأن الله یسلب الموفقیة من الإنسان اللجوج، فیراد من الضلالة- علی هذا- سلب الموفقیة. «۲» ان سبب الاختلاف بین المفسرین یرجع إلی صعوبة معنی المفردتین وتعقدهما، ولهذا علینا ایضاحهما اولًا ثم البتّ فی حل مشکلة الاختلاف فی تفسیرهما.

معنی الهدایة والضلالة

انتبهوا إلی هذا المثال: ان قطرات الغیث الشفافة والسلیمة والمانحة للحیاة تنزل علی الکرة الارضیة اجمع، کما ان الشمس تسطع علی هذه الکرة وتمنحها نوراً وطاقة. انّ الغیث والشمس کلاهما من رحمة الله الا ان المحاصیل الزراعیة التی تنتجها الأراضی التی تتمتع بهذین النعمتین تختلف، ففی الاراضی المالحة تنبت الادغال، بینما فی الاراضی الاخری تنبت الازهار والنباتات المطلوبة. هل سبب هذا الاختلاف الغیث والشمس ام سببه ملوحة الارض؟ لا شک فی ان منشأ الاشکال هو الارض فلو نثرت بذور الازهار مکان بذور الادغال فی هذه الارض لتبدلت الارض إلی حدیقة أزهار. وعلی هذا فلو قیل: ان المطر جاء لنا بالادغال فان ذلک لا یعنی ان المطر هو السبب فی ذلک بل الارض کانت سقیمة. ان قضیة الهدایة والضلالة تجری هذا المجری، فان وابل الرحمة الالهیة نزل بواسطة الرسول صلی الله علیه و آله علی قلوب جمیع البشر، وقد اصغی الجمیع لوحی القرآن، فالذین قد أعدوا أراضی قلوبهم من ذی قبل،

اهتدوا، اما اولئک الذین لم یغسلوا ملوحة قلوبهم بزلال الایمان ولم یعدوا انفسهم فضلّوا. امثال القران، ص: ۲۴ إنّ آیات القرآن تؤید هـذا الادعاء، فالایـة الثانیـة من سورة البقرة تقول: «ذَلک الکِتَابُ لا رَیْبَ فِیْهِ هُـدیً للمُتَّقِین» أی ان الهدایـة تتغمد اولئک الذین ازالوا ستـار التعصب واللجاجـة عن نفوسـهم ولهم اذن صاغیـة. وفی الایـة المبحوثـة هنـا (۲۶ مـن سـورة البقرة) یقـول الله: «مَـا یُضِـلُّ بِهِ إلّا الفاسِقِینَ» أی انهم کانوا فاسـقین واراضـی قلوبهم مالحة لذلک اضلهم الله، ونبتت فی قلوبهم- اثر نزول مطر الرحمة والإیمان- أدغال الکفر. ویقـول الله فی سـورة الروم الآیـة ۱۰: «ثُمَّ کَانَ عَاقِبَةُ الّذِینَ أسَاءوا السُّوأی أن کَذَّبُوا بِآیاتِ اللهِ ..» أی أنّ تکـذیب آیات الله والضـلالة کانا نتیجـة أعمال الظالمین انفسـهم. «۱» وعلی هـذا؛ فالهدایـة والضـلالة نتیجـة لاعمالنا والله- الحکیم علی الاطلاق- وضـع مقـدرات للعباد حسب حکمته. إذا خطوتُ و خطوات لاجل کسب الالطاف الالهیة فانی سافوز بهدایته واذا ما خطوتُ و فی طریق غیر الحق فـانی سـاکون مصـداقاً للآیـة الشـریفة «إنَّ الله یُضِلُّ مَنْ یَشَاءُ ویَهْـدِی إلَیْهِ مَنْ أنَابَ» وکان مصـیری الضـلالة. ذیل الایـة یفیـد ان الهدایـة لیست من غیر حساب، بل تتغمـد الإنسان هدایة ربانیة إذا ما خطی باتجاه طریق الحق وتاب إلی الله، إلّا أنّ الذی یعادی الله فلا یکون مصـیره الا الضلالة. الخلاصة: لا جبر فی البین، وان الهدایة والضلالة هما نتیجتان لاعمال الإنسان ذاته، وان الضلالة سم قاتل فلا یلوم الشـخص إلّا نفسه إذا ما تجرّعه بارادته. إن آیات (الهدایـة والضـلالة) لیست بتلک الدرجة من التعقید؛ وقد فسـرتها آیات أخری من القرآن. وفی النهایة ان تکلیف المسلم هو العمل ما فی وسعه لاجل اعداد ارض القلب لاستقبال مطر الرحمة الإلهیة، وان یطلب من الله التوفیق والعفو عما صدر منه من أخطاء. امثال القران، ص: ۲۵

المثل الأول: المنافقون

اشارة

المثل الاول لموضوع بحثنا هو ما ورد فی الآیات ۱۷ و ۱۸ من سورة البقرة: «مَثَلُهُم کَمَثَلِ الَّذی اسْتَوقَدَ نَاراً فلمَّا أضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَب الله بِنُورِهِمْ وَتَرَکهُم فی ظُلُمَاتٍ لا یُبْصُرون صُمٌّ بُکم عُمیٌ فَهُمْ لا یَرْجِعُونَ».

تصویر البحث

تحـدثت الایـة عن المنافقین الـذین تستروا بسـتار النفاق؛ الا ان التمزق کان عاقبة هذا السـتار، والخزی هو عاقبة المنافقین انفسـهم. ان المنافق شُبِّه هنا بانسان ضلّ وحیداً فی صحراء یسعی للحصول علی طریق لانقاذ نفسه من خلال استیقاد النار، إلّا أنّ ذلک لم ینفعه ولا زال فی حیرة من أمره.

الشرح والتفسیر

دُوِّن تفسیران للآیة الشریفة:

التفسیر الأول: إنَّ مثل المنافقین مثل الذین یضـلون فی صـحراء ظلماء ومخوفة. افرضوا أنّ مسافراً تخلف وحیداً عن قافلته فی صـحراء ظلمـاء، فهو لاـ یملـک نوراً ولاـ ضوءاً ولاـ دلیلًا یرشـده، ولاـ یعرف الطریق ولاـ یملک بوصـلة. فهو یخاف قطاعی الطرق والحیوانات المفترسـة من جهـة، ویخـاف الهلاک من الجوع والعطش من جهـة أخری. وهـذا یـدفعه للتفکیر بجدیـة امثال القران، ص: ۲۶ بطریق والسـعی الأوفر للخلاص مما هو فیه. فیجد حطباً بعد البحث المتوالی فیسـتوقد ناراً ثم یأخذ بشـعلة نار بیده، إلّا أنّ الریح تطفیٔ الشـعلة فیبـادر إلی جمع حطب آخر لیوقـد نـاراً أخری إلّا ان بحثه هـذا لاـ یؤدی به إلا إلی ضـلال آخر وانحراف عن الطریق تارة اخری. إنَّ المنافقین کهـذا المسافر فهم قـد ضـلوا الطریق. انهم یعیشون فی ظلمات فی حیاةٍ مضـیئة. تخلفوا عن قافلـة الانسانیة والایمان. ولا دلیل

لهم على الطريق، لأنّ الله سلب عنهم نور الهداية، وتركهم فى ظلمات. للمنافقين شخصيات مزدوجة، ظاهرها مسلمة وباطنها كافرة؛ ظاهرها صادقة وباطنها كاذب؛ ظاهرها مخلص وباطنها مرائى، ظاهرها أمين وباطنها خائن، ظاهرها الصداقة وباطنها العداوة و .. انهم يصنعون من ظاهرهم إنارة خادعة. يتظاهرون بالاسلام وينتفعون بمزايا الإسلام؛ فذبيحتهم حلال واعتبارهم وعرضهم محفوظ وأموالهم محترمة، ويتمتعون بحق الزواج من المسلمين و .. انهم يتمتعون بمنافع مادية ودنيوية قليلة يحصلون عليها من خلال تلك النار التى استوقدوها، إلا ان هذه النار تخمد بعد الموت «ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ» ويتركهم الله آنذاك فى ظلمات القبر والبرزخ والقيامة وحينئذ يدركون ان لا فائدة فى اسلامهم الظاهرى وايمانهم الريائى. النتيجة هى أن فى الآية أو المثل تشبيهاً، المنافقون هم المشبهون والمسافر المحتار فى الصحراء هو المشبه به ووجه الشبه هو الحيرة والضلالة وأن لا أثر لسعيه الظاهرى. التفسير الثانى: فيما يخص التفسير الأول ينبغى التذكير هنا بان الاضاءة الظاهرية لتلك النار والظلمات التى تلحق تلك الإضاءة لا تختص بعالم القيامة المعنوى؛ بل إنّ لها نتائج فى هذه الدنيا كذلك. لا يتمكن المنافق اخفاء نفاقه للابد فانه سيفتضح فى النهاية؛ وهذا يحصل فيما لو وجد نفسه أو مصالحه عرضة للخطر والفناء، فانه يفصح عن خلده القذر آنذاك كما افصح المنافقون فى صدر الإسلام عن بواطنهم فى الحروب والحوادث المختلفة؟! ألم نرَ بأم اعيننا فى الثورة الاسلامية وخلال النهضة التى سبقتها كم من المنافقين كشفوا بمرور الزمن عن بواطنهم النتنة وأزالوا نقاب النفاق عمّا فى دواخلهم وافتضحوا فى هذه الدنيا امثال القران، ص: ۲۷ – أعاذنا الله من شرور أنفسنا– وعلى هذا؛ فان «ذَهَبَ الُله بِنُورِهِم» لا يختص بالاخرة والقيامة بل انه أمر يتحقق فى هذا الدنيا كذلك.

خطابات الآية

۱– أقسام المنافقين

ان المنافق ليس شخصاً بالضرورة، بل يمكن ان يكون جماعة أو منظمة أو حزب بل وحتى حكومة دولة ما. لقد شاهدنا افتضاح بعض الدول التى تتقمص بالاسلام ظاهراً وتشترك فى المجالس والمؤتمرات الاسلامية. وذلك إثر اتضاح العلاقة بينها وبين أكبر أعداء الإسلام أى اسرائيل الغاصبة، وافشاء أمر العقود المبرمة بينها وبين اسرائيل ما خفى منها وما ظهر. فان ضوء نار ادعاءاتها اخذت بالخمود وثبتت ازدواجيتها ورياءها. نعم؛ ان ذلك هو عاقبة النفاق «فاعْتَبِرُوا يَا أوِلى الأَبْصَار».

۲– صور النفاق

من الأمور التى تستنتج من البحث الاجمالى السابق هو صور النفاق المختلفة وهى كالتالى: أ– النفاق فى العقيدة: وذلك مثل الذى يدعى بلسانه الإسلام، الا انه لا يعد مسلماً، أو أنه يتظاهر بالايمان لكنه لا يحسب من زمرة المؤمنين. ب– النفاق فى الكلام: وهو كالذى ينطق بكلام لا يعتقد به. وعلى هذا، فان الكاذب منافق لأنه لا يتطابق قلبه مع لسانه. ج– النفاق فى العمل: وهو مثل الذى يتضاد ويختلف عمله مع نيته وباطنه، كالذى يتظاهر بالصلاة أو الامانة لكنه فى الواقع لا يصلى وخائن. «۱»

۳– علائم النفاق

يحكى الرسول صلى الله عليه و آله فى رواية له عن علائم المنافق حيث يقول: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً امثال القران، ص: ۲۸ وان صام وصلى وزعم انه مسلم، من إذا أؤتمن خان، و إذا حدث كذب و إذا وعد اخلف ...». الأولى: الخيانة، ان الخائن منافق وذلك لانه يتظاهر بالأمانة وهو فى الواقع خائن. وعلى هذا لا يمكننا أن نأتمنه بيت المال. قد يكون البعض امناء تجاه الأموال القليلة إلا انهم

يفصحون عن واقعهم الخائن عند ائتمانهم على الأموال الطائلة. الثانية: الكذب، ان الكاذب منافق وذلك لانه يبطّن نوايا قذرة ومخالفة للحقيقة والواقع من خلال تملقه الكلامى، رغم انه يصلى ويقرأ دعاء الندبة والتوسل وغيرهما. الثالثة: خلف الوعد، ان الذى يخلف الوعد منافق، وذلك لأنَّ الوفاء بالوعد ضرورى من الناحية الاخلاقية ومن الناحية الفقهية قد يكون واجباً أحياناً. «۱» وخلاصة الكلام هنا ان كل نوع من الأزدواجية يعدّ نفاقاً.

۴- نبذة من تاريخ المنافقين

اشارة

لم تخل المجتمعات البشرية من المنافقين ابداً، ويمكن ان يقال ان النفاق وجد منذ ان بدأ الإنسان حياته على الكرة الأرضية، وعداء المنافقين للبشرية اتضح منذ ذلك الحين. إذا عد المنافقون اخطر أعداء المجتمعات البشرية فذلك بسبب انهم يتقمصون قميص الاصدقاء ويبطنون العداء. ان مقارعة الأعداء هى احد صفات المجتمعات البشرية، وهى آلية تفقد فاعليتها عند المنافق، وذلك لانه يظهر نفسه صديقاً، ولهذا كان ألد الأعداء، ولأجل ذلك كانت التعابير القرآنية فى حقه شديدة جداً.

المنافقون فى القرآن

كلما قلنا سابقاً، فإنَّ القرآن أشار إلى المنافقين بتعابير شديدة نشير إلى بعضٍ منها هنا: أ- يقول الله فى الآية ۴ من سورة المنافقين: «هُمُ العَدُوُّ فاحْذَرْهُمْ». امثال القران، ص: ۲۹ لقد أشار القرآن المجيد إلى أعداء المسلمين «۱» من خلال آياته الشريفة لكنه لم يستخدم هكذا اسلوب تجاه أيٍّ من الأعداء. وحسب قواعد اللغة العربية فان الجملة تفيد ان المنافقين هم الاعداء الحقيقيون للانسان. ب- يقول الله فى تتمة الاية: «قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» أى ينحرفون عن الحق. إنَّ هذا الخطاب الشديد فريد ولم يستعمله القرآن فى مورد اخر. «۲» ج- يقول الله فى الاية ۱۴۵ من سورة النساء: «إنَّ المُنَافِقِينَ فِى الدَّرْك الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ ولَنْ تَجِدَ لهُمْ نَصِيراً» وعلى هذا ينبغى تجنب صداقة أعداء الله التى هى من علائم النفاق. إن (الدرج) أو (الدرجة) ذات معنى واحد وهو نفسه الذى فى (دَرْك) أو (دَرَك) إلّا أنّ المفردتين الأوليتين تستخدمان للسّلم بلحاظ الاتجاه إلى الأعلى، بينما تستخدم المفردتان الاخيرتان بلحاظ اتجاه السلم إلى الأسفل. كما أنّ كلًا منهما استخدم مرة واحدة فى القرآن. «۳» ان (الدرك الاسفل) هو قعر جهنم أو اخفض نقطة فيها، ومن البديهى ان يكون العذاب فى هذه النقطة اشد، ومن هنا نستنتج أنّ الله أعدّ أشد العذاب للمنافقين. وهذا يكشف عن مدى حساسية موضوع النفاق وخطر المنافقين فى جميع العهود ماضياً وحاضراً.

خطر المنافقين من وجهة نظر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله

ينقل المرحوم الشيخ عباس القمى (رض) فى كتابه القيّم (سفينة البحار) تحت مادة (نَفَق) حديثاً ملفتاً عن الرسول صلى الله عليه و آله نأتى به هنا: امثال القران، ص: ۳۰ «إنى لا أخاف على أمتى مؤمناً ولا مشركاً، أمّا المؤمن فيمنعه الله بايمانه وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكنى أخاف عليكم كل منافق عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون». «۱» وفقاً لهذه الرواية، إنَّ الرسول صلى الله عليه و آله كان قلقاً على المجتمع الاسلامى من خطر المنافقين، وقلقه لم ينحصر فى العهود الماضية وفى الحجاز فحسب؛ بل ان قلقه

شامل لجميع العصور والبلاد الاسلامية وحتى الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

۵– التعبير ب (النار) فى القرآن

هنـاک نتيجتـان تترتبان على استخدام القرآن لمفردة (نار) لا (نور): الاولى: ان الـدخان والرماد من لوازم النار، والمنافق يبلى الآخرين بما ينجم من مضار عن هذه النار التى اججها بنفسه، المضار التى نتيجتها التفرقة والضـغوط التى تفرض على الناس، هذا مع ان المؤمن ينهـل من النور الخـالص والمشـعل المضـىء للايمـان. الثانيـة: رغم تظـاهر المنافقين بنور الإيمان الا ان واقعهم نار، واذا تمتعوا فبشـعلة ضعيفة وقصيرة مدتها. «۲»

۶– النور والظلمات

يقول الله «وَتَرَكَهُمْ فى ظُلُمَاتٍ لاـ يُبْصِرُونَ». إنَّ مفردة (ظلمات) اسـتخدمت ۲۳ مرة فى القرآن، ولم تسـتخدم فى مـورد من المـوارد بصـيغتها المفردة بـل كانت فى جميع هـذه الموارد جمعاً. أما مفردة (النور) فقـد اسـتخدمت ۴۳ مرة فى القرآن وفى صـيغة المفرد لا الجمع. ويا ترى أليس فى ذلک خطاب؟ سـر هذا يرجع إلى أنّ القرآن يريد بيان ان النور واحد مهما كان نوعه، وهو نور الله «اللهُ امثال القران، ص: ۳۱ نُورُ السَّمَواتِ والأَرْضِ». «۱» أمـا نـور الايمـان ونور العلم ونور اليقين ونور الاتحـاد والتلاـحم وفكلهـا ترجع إلى نور واحدٍ، وهو نور الله ولا نور غيره؛ لذلک لم يسـتخدم القرآن النور الا بصـيغة المفرد. أمّا النفاق والكفر والاختلاف والتفرقة فهى ليست ظلمـة واحـدة، بل ظلمات متعـددة، هناک ظلمـة الجهل وظلمـة الكفر وظلمـة البخل وظلمـة الحسد وظلمة عدم الخوف من الله وظلمة الهوى والهوس وظلمة الوساوس الشيطانية و .. وخلاصة الظلمات متنوعة وليست واحدة، لذلک استخدمت بصيغة الجمع.

۷– خصال المنافقين الثلاث

إنّ المنافقين– حسب هـذه الآية (۱۸)– لهم ثلاث خصال: الأولى: صمّ، وهى صـيغة جمع لأصم وتعنى عدم السـمع. الثانية: بكم، وهى صيغة جمع لأبكم وتعنى أخرس. والآية تعنى أنهم لا يسـمعون ولا ينطقون. إنّ الاصم لا يسـتطيع التكلم رغم سلامة جهاز النطق عنده؛ لأنَّ الإنسان لا يمكنه ان ينطق بكلمة لم يسمعها ولم يتعلمها، ولذلک جاء القرآن بصفة الاصم قبل صفة الابكم، وهى تعنى فى النهاية ان المنافقين صمّ وبكم دائماً. الثالثة: عمى، وهى جمع (أعمى) وتعنى فاقد البصر، وعلى هذا فان المنافقين صم بكم وعمى، أى لا اذن لهم يسـمعون بهـا ولاـ لسان لهم ينطقون به ولا عين لهم يبصـرون بها. ومع هـذا الحال، كيف يمكنهم معرفـة الطريق الصـحيح وكيف يمكنهم ادراک انحرافهم وخطأهم؟ إنَّ هذه الحواس والعناصـر الثلاثة هى وسائل معرفة الإنسان، فالاذن وسـيلة للتعلم، واللسان وسـيلة لنقـل العلوم من جيـل إلى آخر، والبصـر هو وسـيلة لاكتشاف العلوم والظواهر الجديـدة، والـذى يفقـد هـذه العناصـر الثلاثـة لا يمكنه الخروج من الطريق المنحرف كمـا لا يمكنه الرجوع إلى طريق الحق. لكن يطرح سؤال هنا وهو: انا نشـهد المنافقين يتمتعون بالحواس الثلاث، فلم القرآن ينفيها عنهم؟ امثال القران، ص: ۳۲ نقول فى الجواب: للقرآن منطقاً خاصاً فيُنظر إلى كل شـىء فى معجم القرآن من حيث الاثـار التى تترتب عليه، ووجود الشـىء وعـدمه يتوقف على وجود آثاره وعـدمها. وعلى هـذا؛ فالـذين يتمتعون بنعمـة النظر لكنهم لم يستخدموه لمشاهـدة آيات الله والاعتبار من مناظر الـدنيا هم فى الحقيقـة عمى حسب رؤية القرآن. واولئک الذين يتمتعون بنعمة السـمع لكنهم لا يصغون لكلام الله ولا صوت المظلومين والمستضعفين فهم صم فى منطق القرآن. واولئک الذين يتمتعون بنعمة اللسـان لكنهم لا يشـغلونه فى ذكر الله والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وارشاد الجاهل و .. فهم بكم فى معجم القرآن. ووفقاً لهـذا المعجم فى مقيـاس اوسع اعتبر بعض الاحيـاء من النـاس أمواتـاً، وبعض الاموات احياءً، كمثال على ذلک يصف القرآن شـهداء طريق

الحق بأنهم احياء رغم انهم اموات ظاهراً. «وَلَا تَحْسَبَنَّ الّذين قُتِلُوا فِى سَبِيْلِ اللهِ أمْوَاتاً بَلْ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ». «۱» إنَّ الشهداء من وجهة نظر القرآن احياء؛ وذلك لانهم يحضون بالتأثير الذى يحضى به الإنسان الحى، فانهم يقوّون الإسلام وذكرهم يداعى فى الاذهان المعروف والحسنات. ويقول القرآن فى مكان آخر: «إنْ هُوَ إلّا ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القَولُ على الكَافِرِينَ». «۲» إنّ الأحياء من وجهة نظر القرآن المجيد وفق هذه الاية هم طائفتان: الاولى: المؤمنون الذين يعيشون حياة قرآنية. الثانية: غير المؤمنين وهم اموات يعيشون بين الأحياء، فإنّ الذين يفقدون الأذن الصاغية أموات حسب رأى القرآن. وفى النتيجة إنّ المنافقين رغم ما يحضون به من اذن وعين ولسان، يفقدون الآثار الوجودية المترتبة على هذه الحواس. لذلك عُدّوا صمّاً وبُكماً وعُمياً من وجهة نظر القرآن، فهم إذن (لا يْرجِعُونَ) أى لا يرجعون عن طريق الباطل؛ وذلك لأنهم يفقدون آليات المعرفة؛ شأنهم شأن الذى تجتمع فيه صفات الصم والبكم والعمى وقد أخذ بالسقوط، فإنّا لا يمكننا انقاذه أبداً؛ امثال القران، ص: ۳۳ لأنه لا لسان له ليستنجد ولا اذن له ليسمع تحذيرنا، ولا يملك عيناً ليرى بها علائم الخطر قبل أن يسقط.

۸- منشأ (النفاق)

للنفاق ثلاثة مناشىء:

الأول- العجز عن المواجهة والنزاع المباشر: ان الاعداء عندما يخسرون النزاع ويفقدون القدرة عليه بشكل مباشر، يتقمصون قميص النفاق ليستمروا بالعداء والخصومة. إنّ اعداء الرسول صلى الله عليه و آله كانوا يتظاهرون بالعداء له، لكنهم تظاهروا بالاستسلام عندما تغلب الرسول عليهم واستمروا يبطنون الكفر والعداء له وللإسلام وإنَّ أبا سفيان وأمثاله ضلوا منافقين إلى آخر عمرهم. «۱» ولأجل ذلك كان الإعتقاد بأن النفاق بدأ من المدينة؛ لأن الإسلام فى مكة كان ضعيفاً، وما كان أحد يخافه. لذلك ما كان حاجة للتظاهر بالإسلام وتبطين الكفر الا انا نعتقد ان النفاق بدأ من مكة رغم ان دواعى النفاق فى مكة لم تكن الخوف، بل داعى النفاق آنذاك هو توقع البعض مستقبلًا زاهراً للإسلام، الأمر الذى يضمن لهم مستقبلًا وموقعاً جيداً. يمكننا مشاهدة هذا الاسلوب من النفاق فى جميع الازمنة والثورات منها الثورة الإسلامية فى ايران؛ فان بعض المنافقين هم الأعداء الذين خسروا المعركة ضد الثورة وعيوا النزاع المباشر والعلنى. الثانى- الإحساس بالحقارة الباطنية: ان الشخصيات الضعيفة والجبانة والتى تفقد الشجاعة اللازمة لابراز الاعتراض والتفوه بما يخالف الآخرين، تسعى هذه الشخصيات ان تسلك النفاق منهجاً لحياتها ولتتجنب المواجهة بل تتظاهر بالاتفاق مع الجميع. إن المنافق يتظاهر بالإسلام عند المسلمين ويتظاهر بعبادة النار عند عبدة النار، ويتظاهر امثال القران، ص: ۳۴ بالعلمانية عند العلمانيين؛ وذلك لضعف الشخصية، فهو لا يتجرأ التفوه بعقيدته الواقعية. «۱» الثالث- حب الدنيا: إنّ النفاق الدولى والعالمى لهذا العصر ينبع من هذا المنشأ. إن سبب الازدواجية فى التعامل وانطلاق دعواتٍ لاحترام حقوق البشر من قبل بعض الدول الاستكبارية فى موارد، وسكوت ذات الدول فى موارد أخرى، رغم ما تحصل من انتهاكات وجرائم ضد البشرية، هو حب الدنيا. فالدول تطلق هذه الدعوات متى ما تعرضت مصالحها للخطر وتستخدم هذه الحربة ضد الدول التى تعرض مصالحها للأخطار؛ إلّا أنها تتغاضى عن هذه الانتهاكات إذا ما صدرت عن احد صديقاتها التى لا تعرّض مصالحها للخطر، حتى لو كانت الانتهاكات واضحة ولا شبهة فيها ولا تبرير لها. القرآن المجيد يحكى نماذج بارزة ومؤلمة عن هذه الطائفة من المنافقين فى الايات ۷۵- ۷۷ من سورة التوبة: «وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللَه لَئِنْ آتينا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصدّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمّا آتاهُم مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُو بِه وتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فأعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فى قُلُوبِهِمْ إلى يَوم يَلْقَوْنَهُ بِمَا أخْلَفُوا الله مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». هذه الايات نزلت فى ثعلبة بن حاطب، وكان من الانصار فقال للنبى صلى الله عليه و آله: ادع الله ان يرزقنى مالًا. فقال: «يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه» أمّا لك فى رسول الله اسوة حسنة؟ والذى نفسى بيده لو أردت ان تسير الجبال معى ذهباً وفضة لسارت». ثم اتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله ان يرزقنى مالًا والذى بعثك بالحق،

لئن رزقنی الله مالًا لاعطین کل ذی حق حقه. «۳» فقال صلی الله علیه و آله: «اللهم ارزق ثعلبة مالًا». امثال القران، ص: ۳۵ فاتخذ غنماً فنمت کما ینمو الدود فضاقت علیه المدینة فتنحی عنها فنزل وادیاً من أودیتها، ثم کثرت نمواً حتی تباعد من المدینة فاشتغل بذلک عن الجمعة والجماعة. وبعث رسول الله صلی الله علیه و آله الیه المصدق لیأخذ الصدقة فابی وبخل وقال: ما هذه الا اخت الجزیة، «۱» فقال رسول الله صلی الله علیه و آله: «یا ویح ثعلبة، یا ویح ثعلبة»، وأنزل الله الآیات. «۲» أرجع القرآن سبب نفاق ثعلبة إلی بخله وحبه للدنیا وخلفه للوعد. والمدهش أنّ الآیة الشریفة اعتبرت نفاق امثال ثعلبة مستمراً إلی یوم القیامة ولا یخرج من قلوبهم إلی یوم یلقون الله. اللهم اجعل عواقب امورنا خیراً. إذا اردنا ان لا نبتلی بهذا المرض الخطر علینا تجنب مناشیء النفاق والابتعاد عنها، وبخاصة أنا فی لیالی شهر رمضان المبارکة، علینا ان ننهل من برکة هذه اللیالی فی الاسحار وذلک باداء صلاة اللیل ولو باختصار ومن دون المستحبات جمیعها والسجود واللجوء إلی الله والعوذ به من النفاق وجمیع الذنوب والرذائل الأخلاقیة. امثال القران، ص: ۳۷

المثل الثانی: تمثیل آخر للمنافقین

اشارة

یقول الله فی الآیتین ۱۹ و ۲۰ من سورة البقرة: «أَوْ کَصَیِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِیهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، یَجْعَلُونَ أَصابِعَهُم فِی آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ واللّه مُحِیطٌ بالکَافِرِینَ یَکَادُ البَرْقُ یَخْطِفُ أبصارَهُمْ کُلَّمَا أضاءَ لهُم مَشَوا فیه وإذا أظْلَمَ علیهم قامُوا ولو شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِم وأبصَارِهِم إنّ اللّهَ عَلی کُلِّ شَیءٍ قَدِیْرٌ».

تنوع أمثال القرآن

أمثال القرآن متنوعة جداً. والله استعان بمختلف الأمثال لاجل ایضاح حقائق مهمة لها تأثیر بالغ فی تربیة الإنسان وسعادته. تارة یمثل الله بالجمادات کما فی الآیة ۱۷ من سورة الرعد: (أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَالَتْ أودِیَةٌ بِقَدَرِها فاحْتَمَلَ السَّیْلُ زَبَداً رابیاً وَمِمَّا یُوقِدُونَ عَلَیْهِ فی النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْیَةً أو مَتَاعٍ زَبَدٌ مثلُهُ کَذلک یَضْرِبُ اللُّه الحقَّ والبَاطِل ..». لأجل ایضاح ماهیة الحق والباطل استعان القرآن هنا بالتمثیل بالمطر، فانه عندما ینزل من السماء ینزل زلالًا طاهراً، الا انه عندما یجری علی الارض یتسخ بالوحل وبما علی الارض من أوساخ، وتتبدل الاوساخ أحیاناً إلی رغوة (زبد) وعندما یصل هذا الماء الجاری إلی أودیة یفقد رغوته تدریجیاً لیرجع إلی زلاله. والحق والباطل مثل هذا الماء فالرغوة الوسخة بمثابة الباطل والماء الجاری الطاهر بمثابة الحق. وقد یمثل القرآن بالنباتات کما هو الحال فی الایة ۲۴ من سورة ابراهیم: «أَلَمْ تَرَ کَیْفَ ضَرَبَ امثال القران، ص: ۳۸ اللهُ مَثَلًا کَلِمَةً طَیِّبَةً کَشَجَرَةٍ طَیِّبَةٍ أصلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُهَا فِی السَّماء». إنّ أبرز مصداق للکلمة الطیبة هو کلمة (لا اله الا الله) فمثّلها الله بالشجرة الطیبة الخضراء دائماً. وقد یمثل القرآن بالحیوانات ونموذج ذلک ما جاء فی الایة ۲۶ من سورة البقرة: «إنَّ اللهَ لا یَسْتَحِی أنْ یَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ...» فمثّل هنا بحیوان صغیر، کما مثل فی سورة العنکبوت الآیة ۴۱ بالعنکبوت. وقد یمثل القرآن بإنسان کما فعل فی الآیة ۱۷۱ من سورة البقرة: «وَمَثَلُ الّذینَ کَفَرُوا کَمَثَلِ الذی یَنْعِقُ بِمَا لا یَسْمَعُ إلّا دُعاءً ونِدَاءً صُمٌ بُکْمٌ عُمْیٌ فَهُمْ لا یَعْقِلُونَ». مثل الله تعالی الرسول صلی الله علیه و آله فی الایة بالراعی والکفار بالحیوانات التی یرعاها الراعی. إنّ اهم سبب لتنوع أمثال القرآن هو تبسیط الفهم وتعمیقه عند المخاطبین الاوائل للقران وهم العرب الامیون فی عهد الجاهلیة وکذا المسلمون فانهم باستثناء عدد قلیل منهم کانوا امیین وما کانوا یتمتعون بحظ وافر من الفهم والتعقل. وما کان بالامکان تفهیمهم المفاهیم القرآنیة الا بهذا الأسلوب وبآلیة التمثیل التی تجسد المفاهیم القرآنیة الرفیعة. علی الجمیع وبخاصة العلماء والفقهاء والخطباء و .. ان ینتهجوا منهج القرآن هذا، لیسهلوا علی المخاطب إدراک المفاهیم ویؤثروا فی نفسه ویجذبوه نحوها. إنَّ القرآن الذی هو من تجلیات الجمال الإلهی هو بنفسه مظهر للجمال الکلامی. وعلی هذا ینبغی اتباع القرآن فی

تسـهيل الكلام وتنميقه، ونحن نعـدُّ هذا أصـلًا قيمياً. اولئك الذين تحضـى كتابتهم بالتعقيد وصـعوبة الفهم ويعدون اسـتخدام اسـلوب التسـهيل فى الكتابة علامة على قلة العلم، هم فى الحقيقة انتهجوا منهجاً عكس المنهج الذى سـلكه القرآن. «۱» نأمل من الجيل الشاب للحوزة العلميـة وطلاب الجامعة ان يعدوا سـهولة البيان فناً امثال القران، ص: ۳۹ وقيمة ويعدوا صـعوبة الكلام وتعقده كعمل غير قيمى بل مخالف للقيم.

الشرح والتفسير

الآيات ماضية الذكر «۱» تحـدثت عن المنافقين وخطر النفاق، وقـد تكون آيات المثل السابق ناظرة إلى مجموعة خاصة من المنافقين؛ وهـذه الايات ناظرة إلى مجموعـة أخرى من ذوى الوجهين. إنَّ مثل هؤلاء المنافقين حسب هـذه الايات كمثل المسافر الذى يضل فى صحراء ويتخلف عن قـافلته فى يوم ممطر ولا- ملجأ يـأويه ولا- صـديق يعينه ولا- يعلم الطريق ولا- ضوء ينير له الطريق، فى وقت ملئت ظلمات الغيوم السـماء بحيث لا يصـله حتى نور النجوم الضعيف، والسماء ترتعد، والبرق لا يزيده الا خوفاً ودهشة، وذلك لشدة صوت ووقع الرعـد والـبرق فى الصـحارى، وكـأنّ البرق يريـد أن يخطف بصـره ويعميه، وخوفه من الرعـد يجره لوضع اصـابعه فى اذنيه وهو مرتجف خوف موت الصاعقة. ان المنافق بمثابة هذا المسافر. «... واللهُ مُحِيطٌ بالْكَافِرِينَ» لقد فسـرت الاحاطة فى الاية بتفسيرين: الاول: الاحاطـة العلميـة لله. الثانى: احاطـة الله من حيث قدرته. فاذا كانت الاحاطة بمعناها الاول فالاية تعنى أنَّ الله يعلم بالكافرين. واذا كانت الاحاطـة بمعناها الثانى فالاية تعنى ان الله قادر على كل شـىء ولا يخرج شـىء عن دائرة قدرته. «يَكَادُ البَرْقُ يَخْطِفُ أبْصَارَهُم» وذلك لأنَّ الإنسان إذا اعتاد على مكان مظلم، ثُمَّ يُسـلِّط على عينه ضوءً قوياً، فانه سيكون حينئذٍ عرضة للعماء وفقدان البصر. «كُلَّمَا أضَاءَ لَهُم مَشَوْا فِيه» هـذا المسـافر عنـدما يشاهـد البرق يفرح لأ ـنّه اضاء له الطريق، لكن فرصـته لم تـدم؛ لأن الضوء سـريعاً ما ينطفئ. «وإذا أظْلَمَ عَلَيْهِم قَامُوا» أى يتوقف المسافر بعد ان انطفئ نور البرق، ويرجع إلى حيرته السابقة. امثال القران، ص: ۴۰ «وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأبْصَـارِهِمْ». شـأن المنـافق شـأن هـذا المسافر حيث يفيـد من نور الايمان، لكن بما أنّ ايمانه ظاهرى لم يسـتمر الا لمـدة محـدودة وما يمضى زمن طويل حتى يفتضح ويغرق تارة أخرى فى ظلمات ريائه وكفره ونفاقه.

خطابات الآية

۱- كيفية ايجاد البرق والرعد والصاعقة

إنّ البرق يحصل اثر اصـطدام غيمتين أحـدهما تحمل شـحنات موجبـة واخرى شـحنات سالبـة والاصـطدام هـذا يولد الضوء المعروف بالبرق؛ كما ان صوتاً شديـداً يحصل اثر هذا الاصـطدام يعرف بالرعد. وكلما كانت الغيمتان كبيرتين كان البرق والرعد أعظم؛ وذلك لكثرة الشـحنات المحمولـة من قبل كل من الغيمتين. أمّا الصاعقـة فتحصل اثر اصـطدام غيمة ذات شـحنات موجبة مع مانع ارضـى من قبيل الجبل أو الشـجرة أو الإنسان، ونتيجة ذلك هى اشـتعال الشىء المصطدم به- إذا كان قابلًا للاشتعال- وتبدله إلى كومة من الرماد بسـرعة مدهشـة، ولـذلك يقـال: إنَّ الصاعقـة خطرة على الإنسـان إذا كان فى سـهل. ما يلفت الانتباه هنا هو أنَّ بعض الروايات عـدت الرعـد والبرق نتيجتين لاعمال موجودات ميتافيزيقيـة، فاعتبرت الرعـد اصواتاً للملائكة والبرق من آثار جلد الملائكة للغيوم والسـحب. «۱» وهذا أمر يتنافى مع المسـلمات العلمية للعصـر الحاضر، كما ان هذا الاختلاف يطبع تساؤلًا فى ذهن المتأمّل. يا ترى أى الامرين هو السبب الحقيقى والواقعى للرعـد والبرق؟ فى الجواب نقول: لا- تضـاد بين التبرير العلمى والـدينى لظاهرتى البرق والرعـد؛ وذلك لأنَّ احـد معانى مفردة الملك الواردة فى الروايات هو القوى الطبيعية التى خلقها الله، فالجاذبية امثال القران، ص: ۴۱ والسحاب وغيرها من الظواهر الطبيعيـة التى سـميت فى الروايات ملكاً. لقد جاء فى رواية أنَّ كل قطرة تنزل من السـماء يحتضـنها ملك وينزلها إلى الارض.

«۱» وبهـذا التبرير أى اعتبار الجاذبيـة ملكاً يمكن القول بعدم التضاد بين الرؤى والكشـفيات العلمية مع ما ورد فى الروايات الدينية، بل ينطبق احدهما على الاخر وتحل بذلك عقدة التضاد الظاهرى بينهما.

۲- الاختلاف بين المثلين

المثلان يتعلقان بالمسافر الذى ضل الطريق فى صحراء؛ لكن المسافر فى المثل الأول يواجه خطر المجاعة والعطش والافتراس من قبل الحيوانات، أمّا فى المثل الثانى فان الأخطار التى تحدق به هى الاعصار والسيول والرعد والبرق والصاعقة. ومن الطبيعى ان تكون شدة الاخطار فى المورد الثانى اكثر من المورد الأول وتجعل حياته عرضة للموت بشكل اشد. يعتقد البعض أنَّ المثلين يحكيان حال طائفة خاصـة وهى طائفـة المنـافقين عمومـاً، إلّا أنّى أرى أنَّ كلًا من المثلين يحكى حـال قسم من المنـافقين، فـان المنافقين ينقسـمون إلى قسـمين: القسم الاول: هم المسـلمون الذين ضعف ايمانهم عن مواجهة المطامع المادية والدنيوية مثل المال والجاه والمقام، فلا يهابون الكذب وخلف الوعد ونكث العهد؛ وصولًا لمآربهم الشخصـية، فهم فى النتيجة (مسـلمون ضعيفو الإيمان) امثال ثعلبة بن حاطب الذى تكلمنا عنه فى الصـفحات الماضية. والقسم الآخر للمنافقين: هم اولئك الذين لم يدخل الايمان فى قلوبهم ابداً وقد تظاهروا به فحسب دون ان يحملوه، وذلـك خوفاً من قـدرة الإسـلام أو طمعاً بمصالـح المسـلمين، فهم فى النتيجـة (كفار متظاهرون بالاسـلام) أمثال أبى سفيان ومعاوية ومروان. ومن الواضح أنّ القسم الثانى هم الاعداء اللدودون للإسـلام ووجودهم يشـكل خطراً على الإسلام والمسلمين يفوق خطر القسم الاول بمرات، ولـذلك نرى أنّ المثل الأول ناظر إلى امثال القران، ص: ۴۲ القسم الاول من المنافقين، والمثل الثانى ناظر إلى القسم الثانى من المنافقين الذين يعدّ خطرهم أشد وأعظم من خطر القسم الأول.

۳- عالم النفاق أو النفاق العالمى

للنفـاق مسـتويات مختلفـة، فمنه ذات المسـتوى الفردى ومنه ذات المسـتوى الجمـاعى والحكومى والعالمى. ومما يؤسف له أنّ عالمنا اليوم عالم منافق حيث يدعو لشيء ويعمل بما يخالف دعوته، والحدث الآتى ذكره من أبسط مظاهر النفاق العالمى واوضحها فى ذات الوقت. أرسل الإنسان فى سنة من السـنوات الماضـية كلباً فى مركب فضائى وذلك لدراسة تأثير الفضاء على الموجودات الحية، وبعد هبوط المركبـة على وجه الارض وجـد الكلب ميتاً. اذاعـة هذا الخبر آثار إعتراضاً من قبل منظمات الدفاع عن حقوق الحيوانات وكذا غيرهـا من المؤسـسات والجمعيـات وقـد كـان محور الاعتراضات هو: لماذا قتلتم حيواناً فى سبيل تجربـة علميـة؟ إنَّ هـذه الاعتراضات تكشف عن الوجه الظاهرى النزيه للمجتمع الدولى، إلّا أنا نشاهد حالياً مقتل العشرات بل المئات والآلاف من المواطنين الجزائريين فى مجازر جماعيـة دون أنْ تطلق صـرخات ضد هذه المجازر. لمن تلك الايادى التى ترتكب هذه المجازر من دون ان تلاقى اعتراضات معتـد بهـا؟ يـا لهـا من أيـد لا تسـتطيع الشـرطة بل ولا الجيش ان تقف امامها؟ انها ايـدى العالم المتستر والمتقمص قميص الـدفاع عن حقوق الحيوانـات فضـلًا عن حقوق البشـر. ألاـ يمكن ان نقول: ان هـذا العـالم هو عـالم منـافق؟ واى نفـاق يرتكبه؟ انه نفاق وقـح، فيه صرخات تعلو وتشتد لاجل قتل كلب، كما فيه سـكوت على قتل الشـعوب وارتكاب المجازر الجماعية. إن الإسـلام ووجدان البشـرية ينفر من هذا النفاق العالمى ونحن مطمئنون بان زعماء النفاق سيفتضـحون يوماً ما. الهى اكف المستضعفين وبخاصة المسلمين شر هذا النوع من النفاق.

۴- ظهور المنافقين فى الإسلام

هل (جـذور النفاق) بـدأت من المدينـة ام من مكـة؟ قضـية مختلف فيها. ولاجل ايضاح الموضوع ودراسة تاريخ النفاق والمنافقين فى الإسـلام نسـتعين بالقرآن المجيـد، فقـد جاءت آيات كثيرة فى مجال النفاق، والدراسة الاجمالية للموضوع يكشف عن اسـتخدام هذه

المادة ۳۷ مرة فی القرآن. لکن أمر النفاق والمنافقین لا ینحصر فی هذه الموارد المحدودة؛ وذلک لانا نجد الکثیر من الایات تعرضت لهذه القضیة من دون ذکر لهذه المادة أبداً، کما هو الحال بالنسبة لثلاثة عشر آیة من الایات الاوائل لسورة البقرة «۱» فقد کان موضوعها النفاق من دون ان یأتی ذکر لمادة النفاق مباشرة بل استخدمت مواد مرادفة لمادة النفاق. إنَّ الایات السبع والثلاثین التی تضمنت مادة النفاق، نزلت کلها فی المدینة؛ ومن هنا یمکننا ان نستنتج ان القائلین ببدء النفاق من المدینة نظروا إلی ظاهر القرآن، إلّا أنّ الافضل لنا ان نرجع إلی الوراء قلیلًا لننظر إلی تاریخ حیاة الرسول صلی الله علیه و آله والنبوة وکیفیة التبلیغ ومراحل جهاد الرسول لاعداء الإسلام.

مراحل جهاد الرسول لاعداء الإسلام

اشارة

ان مواجهة الکفار و المشرکین للرسول صلی الله علیه و آله والدین الاسلامی الحنیف ذات مراحل ست:

المرحلة الاولی: الاستهزاء والاستخفاف بالدین

بُعث محمد نبیاً فی غار حراء ونزلت آنذاک اول آیات القرآن علیه، وأصبحت دعوته علنیة بعد ثلاث سنوات من الکتمان والتستر فی دعوة الناس إلی الدین الجدید. کان المشرکون والوثنیون یعتبرون هذا الدین خطراً علی مصالحهم، لکنهم ما کانوا یأخذونه مأخذاً جدیاً لذا بادروا إلی الاستهزاء بالرسول ونسبة الجنون الیه. یقول الله فی هذا المجال فی الایة ۶ من سورة الحجر: «قَالُوا یَا أَیُّها الّذی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرَ إِنَّکَ امثال القران، ص: ۴۴ لَمَجْنُونٌ» «۱» وکانوا یستهدفون من ذلک عدم اخذ الناس هذا الدین مأخذاً جدیاً، وعدم الاعتناء والتصدیق بکلام الرسول؛ إلّا أنّ المسلمین رغم هذه الاتهامات کانوا یزدادون یوماً بعد اخر، وکان الناس وبخاصة الشباب «۲» منهم یصغون لکلام الرسول وینجذبون الیه، لذلک باءت مواجهتهم فی هذه المرحلة بالفشل، وباتوا یفکرون بمواجهة أخری ومرحلة أخری من التصدی.

المرحلة الثانیة: نسبة السحر والشعر للرسول صلی الله علیه و آله

بما أنّ الکفار لم ینجحوا فی الحد من تأثیر الرسول علی الناس، من خلال المرحلة الاولی من المواجهة، بادروا إلی التصدی له بنعته بالکذب والشعر والسحر. إنّ النسبة هذه تعنی أنهم قالوا للناس: إنّ تأثیر الرسول فیهم لأجل کونه- نعوذ بالله- ساحراً ذکیاً وشخصیة مرموقة ویجذب النفوس نحوه لعلمه بالشعر وامتهانه مهارة انشاده. ولو کان کلامه کلاماً عادیاً ما کان یجذب الناس بهذه الشدة. یقول القرآن فی هذا المجال فی الایة ۴ من سورة (ص): «وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الکَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ کَذّابٌ». «۳» لم توفّر آلیة المواجهة هذه جمیع الاهداف التی کانوا یستهدفونها، وذلک لأن عدد المسلمین لا زال فی تزاید مستمر والرجال والنساء والشباب والشیوخ لا زالوا یتوافدون علی الرسول لیعلنوا الإسلام، وکان نتیجة ذلک ان بادر الکفار إلی تغییر اسلوبهم فی المواجهة.

المرحلة الثالثة: المحاصرة الاقتصادیة وقطع العلاقات

إنَّ فشل أسالیب التهم ونسبة الجنون وغیره إلی الرسول جعلت الکفار والمشرکین یفکرون بالمواجهة العملیة، لذلک فرضوا حصراً علی المسلمین وحبسوهم فی مکان یدعی (شعب ابی طالب)، فمنعوا التردد علیهم والتعامل معهم. لقد صبر المسلمون مدة ثلاث سنوات فی ذلک الشعب الخالی من الماء والکلاء، وتحملوا المشاکل التی واجهتهم آنذاک وثبتوا ولم تزل أقدامهم. «۱» والمکان هذا

رغم انه مشجر حالیاً إلّا أن الإنسان لا یطیق قراءة الفاتحة علی قبر ابی طالب علیه السلام هناک، وذلک لشدة الحرارة، والمسلمون آنذاک صمدوا وثبتوا، وقد قضی البعض نحبه هناک، رغم ذلک لم یستسلموا للاعداء. وبعد تجییش عواطف اهالی مکة بادر البعض إلی فک الحصار عنهم شیئاً فشیئاً إلی ان فقد الحصار تأثیره وباءت جهود الکفار مرة أخری بالفشل الذریع وما باتت هذه الآلیة تجدی نفعاً.

المرحلة الرابعة: التدبیر لاغتیال الرسول صلی الله علیه و آله

لقد شاهد المشرکون من جانب فشل آلیات التصدی للرسول والمسلمین ومن جانب اخر شاهدوا انتشار الدعوة الاسلامیة بشکل سریع بین الناس وإدبارهم عن الاصنام؛ لذا فکروا باجراءات جدیة وخطرة اکثر من ذی قبل وقد استهدفوا فی هذه المرحلة شخصیة الرسول صلی الله علیه و آله ذاتها. فقد وجد زعماء قریش حلولًا ثلاثة لمشکلتهم: الأول: نفی الرسول صلی الله علیه و آله خارج مکة حفظاً لمصالح الکفار فی مکة. الثانی: حبسه للحیلولة دون اتصاله بالناس والمسلمین. الثالث: قتله. امثال القران، ص: ۴۶ نتیجة شوراهم کان قرار قتل الرسول فی لیلة المبیت «۱» حیث حاصر أربعون شخصاً من شجعان العرب بیت الرسول صلی الله علیه و آله لیقتلوه فی صباح تلک اللیلة. اطّلع الرسول صلی الله علیه و آله علی مؤامرتهم بوحی الهی فامر الامام علی علیه السلام ان ینام فی فراشه آنذاک، وخرج بشکل معجز من بیته قاصداً یثرب (المدینة)، إلّا أنه تحرک خلاف اتجاه وطریق المدینة لخداع المشرکین، وبعد ان اطلع المشرکون علی تملُّص الرسول قاموا بتعقیبه وتتبع خطواته، لکنَّ الله شاء بقدرته ان یصل الرسول المدینة بسلامة لیقیم اول حکومة اسلامیة زادت من قدرة المسلمین وشوکتهم.

المرحلة الخامسة: الحروب المتوالیة ضد المسلمین

بعد ما نجع الکفار من النیل من شخصیة الرسول صلی الله علیه و آله سلکوا طریق المواجهة المسلحة، وذلک لعدم نجاح آلیات الحرب النفسیة التی سلکوها ضد المسلمین لردهم عن دینهم وللحد من توسع رقعة الإسلام. إنّ الإسلام یهدد سلطة الکفار ومصالحهم؛ ولاجل القیام بمهمة المواجهة العسکریة هموا فی البدایة اعداد رجال مکة ثم رجال القبائل الاخری لبدء سلسلة حروب عسکریة متوالیة ومتواصلة کانت معرکة (بدر) البدایة ومعرکة الاحزاب «۲» هی الذروة. لقد استفاد کفار قریش فی معرکة الاحزاب من جمیع ما توفر لهم من امکانیات وقوی، وکما یبدو من اسمها فان جمیع قبائل العرب وطوائفهم اجتمعوا واعدوا انفسهم للنزال ضد الإسلام ولقتل الرسول ورجال المسلمین وللإغارة علی اموالهم ولهدم بیوتهم، وسبی نسائهم والقضاء علی الإسلام فی النهایة. تشیر الآیتان ۹ و ۱۰ من سورة الاحزاب إلی هذه المرحلة من المواجهة: «یَا أیُّها الّذِیْنَ آمَنُوا اذْکُرُوا نِعْمَةَ اللِهِ عَلَیْکُم إذْ جَاءَتْکُم جُنُودٌ فأرْسَلْنَا عَلَیهِمْ رِیْحاً وجُنُوداً لَم تَرَوْهَا وَکَانَ الله امثال القران، ص: ۴۷ بِمَا تَعْمَلُون بَصِیْراً، إذ جَاؤوکُم مِنْ فَوْقِکُم وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْکُمْ وَإذْ زَاغَتِ الأبْصَارُ وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجرَ وتَظُنُّونَ باللِهِ الظُّنُونا». إنّ هذه الایات أهل للتأمل من حیث أنها تکشف عن معاناة المسلمین فی صدر الإسلام. وحسب هذه الآیات، فإنّ العَدُو حاصر المدینة مِنْ جمیع الجهات، وقد بلغت اعدادات الاعداء وعدتهم إلی مستوی جعلت أبصار المؤمنین تزیغ، وقلوبهم تبلغ الحناجر؛ وذلک لأن المسلمین قلیلون وعدتهم محدودة وأسلحتهم بسیطة، وهذا هو السبب فی نفوذ الرعب والخوف فی قلوب ضعاف الایمان من المسلمین حیث کانت عبارات التزلزل والشک تدور فی اذهانهم وقد یکون المسلمون جمیعاً باستثناء الرسول صلی الله علیه و آله والإمام علی علیه السلام وعدة قلیلة من المسلمین تزلزلوا إیماناً. فان ضعیف الإیمان یتزلزل عند مواجهته لأزمة شدیدة، عکس قوی الایمان حیث یقوی ایمانه ویزداد ثباته عند مواجهة الأزمات والمشاکل. إنّ معرکة الاحزاب کانت ساحة للإختبار لتمییز المؤمنین الحقیقیین عن غیرهم من ضعاف الایمان والمترددین فی إیمانهم. إنّ نهایة هذه المعرکة کان لصالح المسلمین ولم تحصل مواجهة واراقة دماء الا فی مورد واحد، حیث قتل الإمام علی علیه السلام عمرو بن ود.

عسکر الاعداء ابتلی باعصار شدید، ولشدته کانت تقلع خیامهم من اماکنها وتقلب قدور الطعام، کما سادهم خوف واضطراب وخیبة امل اجبرت أبا سفیان وغیره من زعماء الکفر علی الرجوع کالجیش الخاسر، وبذلک تحقق وعد الله بنصر المؤمنین تارة أخری، ونجی المؤمنون من خطر کبیر کان یهدد وجودهم ودینهم، فکان نصراً للمسلمین اضفی علیهم قدرة وعظمة جعلت مکة وضواحیها لا تفکر بعدئذ بحرب مع المسلمین. ولاجل هذا استسلمت بعد فترة من الزمن مکة واهالیها لیصبح الإسلام القوة الوحیدة فی بلاد الحجاز.

المرحلة السادسة، اللجوء إلی اخطر سلاح (النفاق)

رغم انتکاسة الاعداء فی حرب الاحزاب وخسرانهم الحرب آنذاک، ورغم ما ترتب علی هذه الانتکاسة من عدم تفکیرهم بعدئذ بدخول حرب مع المسلمین، إلّا أنّ ذلک ما کان یعنی ترکهم لمعارضة الإسلام ومخالفته. إنّ الأعداء، اثر ادراکهم فشل وسائل المواجهة السابقة امثال القران، ص: ۴۸ واقرارهم بذلک، بدأوا یفکرون بوسیلة ناجحة وفضلی للتخریب والدمار، وما کانت وسیلتهم الجدیدة إلّا النفاق. إنّ الأعداء خسروا الحرب مع المسلمین، وهو أمر جعلهم فی النهایة یستسلمون ویفتضحون إلّا أنهم لم ینسوا حربهم مع الإسلام وعدائهم له، وقد تستروا فی هذه المرحلة من المواجهة بنقاب النفاق وانتظروا یترصدون الفرصة للنیل من الإسلام وانزال الضربة القاصمة فیه. والآیة الشریفة الأولی من سورة المنافقین ناظرة إلی هذه المرحلة من المواجهة «إذا جاءَکَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنّکَ لَرَسُولُ اللهِ واللُه یَعْلَمُ إنّکَ لَرَسُولُه واللهُ یَشْهَدُ إنّ الْمُنَافِقِینَ لکَاذِبُونَ». وبهذا الشکل تشکّل تیار النفاق لیصبح تدریجیاً کالسیل الجارف، «۱» وظاهر هذه الآیة وایات أخری هو أنّ النفاق بدأ من المدینة. لکن هذا لا یعنی أنّ مکة کانت تخلو من النفاق والمنافقین، فقد یملک البعض قدرة حدس وتخمین المستقبل وفکراً سیاسیاً قویاً، وکان من خلال ذلک قد رأی النصر النتیجة الحتمیة لنشاطات الرسول صلی الله علیه و آله، ولا یمکن بلوغ المقامات العلیا آنذاک إلا من خلال التظاهر بالایمان الواقعی والقوی والتماشی مع هذا التیار.

نتائج الأمثال

یمکننا الخروج بالنتیجة التالیة من الآیات الأربع للمثلین السابقین: (المنافق لا- ثبات له) وانه یعانی من حالات نفسیة منها الوحدة والخوف والوحشة والاضطراب والفضیحة، کما تُتصور فی حقه جمیع الأخطار التی عدت للمسافر الذی ضلّ الطریق فی الصحراء. أمّا المؤمن فیحضی بهدوء وسکینة واطمئنان خاص یحصل فی ظلّ الإیمان الخالص باللّه. ما أحسن ما قال الله تعالی فی هذا المجال: «الّذِینَ آمَنُوا وَلَمْ یَلْبِسُوا إیمَانَهُم بِظُلْم أُولئِکَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ». «۲» امثال القران، ص: ۴۹ وقد فسّر الظلم فی الایة بتفسیرین، الاول: هو الشرک، أی أنّ «إیْمَانَهُمْ بِظُلْم» تعنی الإیمان الخالص الذی لم یمتزج بالشرک. والثانی: هو المعنی المعروف والمتبادر من المفردة، أی أنّ المؤمن الذی لم یمتزج ایمانه بظلم لأحد فله الأمن وهو مهتد. ونقرأ فی آیات أخری: «ألا- إنّ أوْلِیَاءَ الله لا خَوْفٌ عَلَیْهِم وَلَا هُمْ یَحْزَنُونَ الّذینَ آمنُوا وَکَانُوا یَتَّقُونَ لَهُم البُشرَی فِی الحیوةِ الدُّنْیا وفی الآخِرَةِ لا- تَبْدِیلَ لِکَلِماتِ اللهِ ذَلکَ هُوَ الفَوْزُ العَظِیمُ». «۱» إنَّ عدم الأمن والاضطراب والخوف والوحشة فی الدنیا، وعذاب جهنم فی الآخرة هو نصیب المنافقین، أمّا المؤمنون فنصیبهم الأمن والسعادة والفلاح. وهذا أمر اثبت العلم الحدیث صحته، ففی مؤتمر حمل عنوان (تأثیر الدین علی نفس الإنسان)، توصل العلماء المشترکون فیه إلی ان المؤمنین قلیلًا ما یبتلون بالامراض النفسیة وکثیراً ما نجد هذا النوع من الامراض فی الذین یفقدون الایمان بالله؛ وذلک لأنّ غیر المؤمن یشعر بالوحدة دائماً وتهزه ابسط المشاکل. أمّا المؤمن فیری الله معه، یتوکل علیه فی الحوادث ویبدی الثبات والصبر من نفسه دائماً، فإذا فقد أحد أعزته قال: «إنَّا للهِ وإنَّا إلَیْهِ رَاجِعُونَ» «۲» وبهذا الإعتقاد تسهل علیه الوطئة وتتغمده رحمة الله وألطافه کما تقول الایة ۱۵۷ من سورة البقرة. وهو إذا فقد رأس ماله لا یأسی ولا یحزن، کما انه إذا اتاه شیء ثمین لا یفرح ولا یفخر «لِکَیْلا تأسَوْا عَلَی مَا فَاتَکُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاکُمْ واللهُ لا یُحِبُّ کُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» «۳» وإذا حصلت له حوادث أخری

فیعـدها امتحانات الهیة تسـلک به نحو الکمال فی الدنیا وتدرُّ علیه الثواب والأجر فی الآخرة. فهو لا یلعن الزمان ولا المکان بل یشـکر الله ویحکّم ایمانه بالله ویقوّیه. واذا ما تصفحنا سیرة عظمائنا لوجدنا مفاهیم هذه الایات متجسدة فیهم عملیاً.

سعید بن جبیر عند الموت

إن سعید بن جبیر من العظماء والأولیاء، کما انه من انصار الامام السجاد علیه السلام، فقد کان مؤمناً حنیفاً ومتوکلًا علی الله فی اعماله، وقـد ابتسم عند مقتله. عندما جی بسـعید بن جبیر إلی الحجاج «۱» دار نقاش بینهما اسـتهدف الحجاج عبره النیل والاستهزاء بسعید، إلّا أنَّه ما اسـتطاع، لقدرة سعید علی الکلام، فامر بقتله وقال له: اختر أی قتلة شئت! قال: اختر لنفسک فان القصاص امامک. ولما أمر بقتله قال «وَجَّهْتُ وَجْهِی للّذی فَطَرَ السَّمَواتِ والأَرْضَ حَنِیفاً مُسْلِماً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِکینَ» «۲» فقال: شـدوا به لغیر القبلة. فقال: «أیْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ». «۳» قال: کُبوَّه علی وجهه. فقال: «مِنْها خَلَقْنَاکُم وَفِیْها نُعِیـدُکُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُکُمْ تَارةً أُخْرَی». «۴» وبعدما أمر الحجاج بقتله دعی سعید بهذا الدعاء (اللهم لا تسلّطه علی احد بعدی)، وقد استجیب دعاؤه ولم یبق الحجاج بعده الا خمسة عشرة لیلة «۵» ولم یقتل بعـده الحجاج احـداً. وقـد مات الحجاج اثر مرض کان یشـعر خلاله بالبرودة والرعشة بحیث کان یدخل یدیه فی النار وتحترق وهو لا یشـعر بها. ولما جاءه احـد الوجهاء وطلب منه ان یدعو له، ذکّره بما قد أوصاه سابقاً من عدم الاکثار فی القتل. نعم إنَّ الامان فی الدنیا للمؤمنین فقط دون المنافقین، ودین الله لیس للاخرة فقط بل هو منهج للحیاة الدنیا کذلک.

المثل الثالث: قسوة القلب

اشارة

یقول الله فی الایـة المبارکة ۷۴ من سورة البقرة: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُکُمْ مِنْ بَعْـدِ ذَلـک فَهِیَ کالحِجَـارَةِ أوْ أشَـدُّ قَسْوَةً وإنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا یَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وإنَّ مِنْهَا لَمَا یَشَقَّقُ فَیَخْرُجُ مِنْهُ المَاءَ وإنّ مِنْهَا لَمَا یَهْبِطُ مِنْ خَشْیَةِ اللهِ وما اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ». الآیة الشریفة جاءت فی بنی اسـرائیل وضـربت مثلًا جمیلًا فی قسوة قلوبهم؛ فـان دفتر أعمالهم مسوَّد علی طول التاریـخ. وإن التعصب واللجاجة والتحجج والغرور والضـغینة تجاه الانبیاء والمقاومـة قبال الحق من خصال هـذا القوم العاصـی والکافر لنعم الله. لقد شاکس هذا القوم المسـلمین ونافق ضـدهم، فمن جانب کانوا یتعاهـدون مع المسـلمین ومن جانب اخر ینالون منهم بخنجر من الخلف. إنَّ عـداء هـذا القوم المعاند للمسـلمین لم تنته ابـداً ولا زال مشـهوداً فی عصـرنا هـذا، بل هو حالیاً بلغ ذروته. ویمکن القول: إنَّ اکبر صـفعة نالتها الامـة الاسـلامیة کـانت من بنی اسـرائیل ومن قسم خـاص منهم معروف بـاسم (الصـهاینة)؛ انهم فی الـدول الاسـلامیة منشأ الفسـاد والقتـل والنزاعـات والاختلافـات والفحشـاء واللامبالاـة تجاه الاحکام الاسـلامیة والربا و .. إنَّ انتهاکاتهم ومظالمهم لو جمعت فی مکان واحـد لاصبحت کتاباً ضـخماً بل کتباً. إنَّ قسوة قلوبهم بلغت درجة حیث لا یرحمون حتی انبیائهم فضـلًا عن غیرهم، وقد حمل منهم نبیهم موسـی علیه السلام الکثیر.

قصة بقرة بنی اسرائیل

الایة الشـریفة جاءت بعد آیات حکت قصة بقرة بنی اسرائیل؛ وخلاصة القصة محکیة فی الایات ۶۷- ۷۳ من سورة البقرة نأتی بها هنا: قُتِل شـخص من بنی اسـرائیل من دون ان یعرف القاتل، وهو أمر سـبب اختلافاً بین القوم. وعادة عندما یُقتل شـخص یسـعی البعض ان یرجعه إلی عملیة تصـفیة الحسابات فیلقی القتل علی عاتق اطراف خاصة. وقد کان اصل الحادث ان شـخصاً قتل عمه الثری، وقد کان الشـاب الوارث الوحیـد لعمه وکان منزعجاً من جراء تأخر وفاة عمه فقتله لینال نصـیبه من الارث فی وقت مبکر. وقـد عـدَّ البعض حبّ

الشاب لابنة عمه هو سبب القتل؛ وذلک لان العم رغم حبه لابن اخیه زوج ابنته من شخص آخر. إنَّ بث خبر مقتل هذا الشخص اثار ضجة شدیدة جعلت البعض ومنهم القاتل الحقیقی یبحثون عن القاتل، فکانت الفتنة العظیمة وکان الموقف یوشک علی نزاع بین القبائل لیتبدل إلی حرب شاملة، فطلبوا من موسی ان یحل لهم المشکلة فکانت المساءلة التالیة حسب ما دونها القرآن: «وإذْ قَالَ مُوسَیَ لِقَومِهِ إنَّ الله یَأمُرُکُم أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أتتَّخذُنا هُزُواً»؟ «قَالَ أعُوذُ باللهِ أن أکُون مِنَ الجَاهِلِینَ». أی أنَّ الاستهزاء من عمل الجاهلین، والانبیاء مبرؤون من ذلک. بعد أن ایقنوا جدیة المسألة، «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّک یُبَیِّنُ لَنَا مَا هِی»؟ أجابهم موسی علیه السلام: «قَالَ إنَّهُ یَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلَا بِکْرٌ عَوَانٌ بَیْنَ ذَلک»، أی لا کبیرة هرمة ولا صغیرة بل متوسطة بین الحالتین «فافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ» لکن بنی اسرائیل لم یکفوا عن لجاجتهم، «قَالُوا ادعُ لَنَا رَبَّک یُبَیِّنُ لَنَا مَا لَوْنُها» أجابهم موسی «قَالَ إنَّهُ یَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُها تُسِرُّ النَاظِرِینَ» أی أنَّها حسنة ولا یشوبها لون آخر. ثم لجوا مرة أخری وعاودوا السؤال: «قَالُوا ادْعُ لَنَا ربَّک یُبَیِّنُ لَنَا مَا هِیَ إنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَیْنَا وإنَّا إنْ شَاءَ اللهُ لمُهْتَدُونَ». أجابهم موسی «قَالَ إنَّهُ یَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُول تُثِیرُ الأرضَ ولا تُسْقِی الحَرْثَ»، أی لیست امثال القران، ص: ۵۳ من النوع المذلل لحرث الارض وسقیها. وبعد المساعی الحثیثة وجدوا هذه البقرة وذبحوها ولمسوا الاعجاز الالهی.

الشرح والتفسیر

المفروض بهذه الایة العظیمة ان تزید من ایمان القوم إلا أنَّ ذلک لم یحصل، بل الآیة الشریفة حکت حالهم بعد ذلک بالقول: «قَسَتْ فَهِیَ کالحِجَارَةِ أوْ أشدُّ قَسْوَةً» أی لم تزد هذه الایة الکبری القوم الا لجاجة وقسوة وتمرداً وعصیاناً وانتهاکاً لحرمات الانبیاء و .. وذلک بسبب قسوة قلوبهم تحجّرها. ان مفردة (قلب) استخدمت مائة وثلاثین مرة فی القرآن، لکن یا تری هل یراد من هذه المفردة ذلک العضو الصنوبری الذی یدق فی الدقیقة اکثر من سبعین مرة فی الجسم لیضخ دم الإنسان إلی جمیع اجزاء جسمه مرتین فی الدقیقة؟ إنَّ هذا العضو من عجائب خلق الله حقاً وله فی الجسم وظائف مهمة، لکن مراد الله من القلب فی القرآن لیس ذلک العضو. نشیر هنا باقتضاب إلی مهام هذا العضو وذلک لایضاح اهمیته: أولًا: تغذیة جمیع خلایا الجسم؛ إنَّ الاغذیة التی تصل المعدة تمتزج مع ترشحات المعدة لتتهیّأ للذهاب إلی الأمعاء؛ وتتم عملیة هضم وجذب الاغذیة فی الامعاء من خلال الدم، والأخیر یوزعها علی جمیع خلایا الجسم وبذلک تتم عملیة تغذیة الجسم. ثانیا: ارواء الإنسان؛ إنَّ الجزء الاکبر من جسم الإنسان عبارة عن الماء واذا ما قلت نسبة الماء فی الجسم فانه قد یؤول ذلک الامر إلی الموت إذا ما بلغ مستوی الجفاف. ثالثاً: ایصال الحرارة الموحدة للجسم؛ ان جسم الإنسان حار، لکن هل فکرتم من این قدمت له هذه الحرارة؟ ان الاوکسجین یدخل الجهاز التنفسی ومن خلال هذا الجهاز یدخل الدم لیصل من خلاله إلی جمیع خلایا الجسم، واثر الاحتراق الذی یوجده الاوکسجین عند ترکبه مع اغذیة الخلایا تتولد حرارة تنتقل هذه الحرارة بشکل ثابت إلی جمیع اجزاء الجسم بواسطة الدم. رابعاً: جمع المواد الزائدة والسمیة ودفعها. ان احتراق الاغذیة فی الجسم یولد مواد سمیة امثال القران، ص: ۵۴ وزائدة یطرح جسم الإنسان بعضها من خلال الزفیر وبعضها الاخر من خلال الکلیة والادرار، وهذه العملیات کلها تتم من خلال الدم. حقاً ان القلب مع هذه الظرافة والعمل المتواصل آیة إلهیة عظمی، فلو کان هذا القلب من حدید لصدأ وتلف خلال سبعین سنة من عمر الإنسان الا ان قدرة الله اللامتناهیة صنعت منه عضواً یعمل اکثر من مائة سنة فی بعض الموارد. والمدهش هنا أنَّ القلب من الاعضاء التی تعمل لیل نهار وفی النوم والیقظة رغم أنَّ نشاطه عند النوم أقل. ومن هنا نجد سر تعظیم المؤمنین وتمجیدهم مقولة الله تعالی: «وفِی الأرْضِ آیاتٌ لِلْمُوقِنِینَ وَفِی أنْفُسِکُمْ أفَلَا تُبْصِرُونَ». «۱» لو لم یکن لدینا دلیل علی عظمة الخالق غیر القلب لکان کافیاً لادراک قدرته وحکمته السرمدیة. ولأجل استیعاب عظمة الخلق وادراک اکبر لهذه الهدیة الالهیة القیمة نقرأ الموضوع التالی:

القلب الصناعی مرآة لعظمة قلب الإنسان

كلّفت صناعة قلب صناعى قبل عدة سنوات ثلاثين مليون دولاراً، إلّا أنَّ هذا القلب لم يدم عمله اكثر من ستة أيام، كما أنَّ المستفيد منه لم يكن قادراً على الحركة والمشى خلال هذه الفترة. كيف يمكننا شكر الخالق على نعمة القلب التى منحها ايانا مجاناً؟ ما أجمل ما قاله القرآن: «وَفِى أنْفُسِكُم أفَلَا تُبْصِرُونَ». وبعد ما عرفنا أنَّ المراد من القلب فى الاية ليس ذلك العضو الصنوبرى نقول هنا: إنَّ المراد منه هو العقل والعاطفة. يقول الله فى سورة الاعراف الاية ۱۷۹: «وَلَهُم قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا» فالمراد من القلب هنا هو العقل والعاطفة؛ لأن الفهم والادراك من شأن العقل، كما أنّ الإحساس والشعور والحب والمعرفة من شأن العاطفة والعقل، وكنموذج على ذلك يقول الله فى الاية ۱۰ من سورة البقرة: «فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَهُم اللهُ مَرَضَاً». امثال القران، ص: ۵۵ هل إنَّ قلب المنافق الصنوبرى يعطل من جراء مرض النفاق؟ أو أنَّ مرض النفاق يؤدى إلى اتساع فى صمام القلب؟ من الواضح أنَّه لا يراد من القلب ذلك العضو الصنوبرى، ولا يراد من المرض تلك الحالة الطبيعية التى تعرض للإنسان وأعضائه. إنّ القلب هنا هو العقل والعاطفة اللتان قد يضعفان بسبب مرض النفاق إلى مستوى يسمحان للانسان قتل الابرياء فى حرم الامام الرضا عليه السلام، فهما فى الحقيقة يموتان. نقرأ فى رواية أنّ للأمر بالمعروف ثلاث مراحل: الأمر بالقلب أولًا، وباللسان ثانياً، وبالعمل ثالثاً. فاذا كانت المرحلة الأخيرة غير ممكنة فتتوجب المرحلتان الاوليتان. وإذا استحالت المرحلة الثانية والثالثة فعلينا بالاولى أى علينا ان نكون متذمرين من الظالمين وسلوكهم وأن نكون محبين للمؤمنين والمصلحين. واذا ترك شخص الامر بالمعروف بمراحله الثلاث فقد صدق عليه الحديث التالى: «فمن لم يعرف بقلبه معروفاً ولم ينكر منكراً قُلبَ؛ فَجُعِلَ أعلاه اسفله». «۱» وهل يراد من القلب هنا هو ذلك العضو الصنوبرى؟ بالطبع لا، لان ذلك العضو لا يتحرك من مكانه ولا يتزلزل بل المراد منه هو العاطفة والادراك. مما مضى نستنتج ان للقلب معينين فى القرآن والروايات: ۱- العقل الانسانى ۲- العواطف الانسانية. وهما ظاهرتان روحيتان يعدان مركزاً للادراك والشعور. ولهذا عندما يقال: (لهم قلوب لكن لا يفقهون) فان المراد كونهم يملكون القلب لكن ملكة الادراك عندهم معطلة وإذا قيل (قَسَتْ قُلُوبُهُمْ) فإنَّ المراد أنَّ عواطفهم ميتة. القلب الذى فى الاية ۴۶ من سورة الحج «فإنَّهَا لا تَعْمَى الأبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ التى فِى الصُّدُورِ» قد يعنى ذلك العضو الصنوبرى بقرينة (فى الصدور)، لكن هل الواقع كذلك؟ رغم أنَّ العقل ليس فى صدر الإنسان، إلّا أنَّ له ارتباطاً بالدماغ ولذلك نرى البعض قد تعطل دماغه لكنَّ قلبه لا زال يعمل. وعلى هذا فالصدر الذى فى الاية ليس ذلك الجزء من البدن المكسو بالقفص بل المراد منه الروح. وعليه فالقلب هنا يعنى العقل والإدراك، فمفهوم امثال القران، ص: ۵۶ الآية هو (العقول التى فى الأرواح). وهناك إحتمال آخر وهو: رغم أنّ هذا العضو الصنوبرى ليس مركزاً للعواطف والعقل، إلّا أنَّ الأمر لا يخلو عن علاقة بينهما؛ وذلك لان هناك علاقة مباشرة بين القلب والروح أو العقل والعاطفة فان القلب يتأثر مباشرة وأولًا فى أى ظاهرة تطرأ على الإنسان، فاذا واجه الإنسان موقفاً مفرحاً ازدادت ضربات قلبه وسرعت؛ وإذا واجه موقفاً مؤلماً شعر فى قلبه التعب والثقل، وكذا الامر فى كل الحوادث والقضايا الروحية. إنَّ العلاقة بين القضايا الروحية والقلب هى كالعلاقة بين الماء والعين وسطح الارض. إنَّ الماء يعلو من الطبقات التحتية للارض ثم ينبع من نقطة خاصة من الارض والظواهر الروحية مثل ذلك، فإنها تنبع من القلب. ومن خلال التفاسير الماضية يمكننا معرفة الكلام الالهى فى الاية الكريمة «قَسَتْ قُلُوبُهُمْ». تصوير القرآن لقلوب بنى إسرائيل لقد وصف القرآن قلوب بنى اسرائيل فى الاية ۷۴ من سورة البقرة بانها كالحجارة أو اشد قسوة: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُهُم مِنْ بَعْدِ ذلك فَهِىَ كالحِجَارةِ أو أشدّ قَسْوَةً» وقد اختلف المفسرون فى تفسير «فَهِىَ كالحِجَارَةِ» وفى «أو أشَدَّ قَسْوَةً». بما أنَّ الآية نزلت فى المنافقين وبما أنَّ للنفاق درجات ومراتب فإنَّ صفة كالحجارة ترجع إلى طائفة خاصة من المنافقين، وأمّا «أو أشَدُّ قَسْوَةً» فترجع إلى طائفة أخرى أسوء حالًا من السابقة. لكن كيف يمكن للقلب أنْ يَكُون أشدَّ قسوةً من الحجارة؟ إنَّ القُرآن يعدّ ثلاث بركات من بركات الحجارة: الأُولى: بعض الاحجار فى الجبال تتفجر لينبع منها الماء والأنهار وبجريانه تُروى المزارع والنباتات والحيوانات. نعم، ان للحجارة بركة التفجر لينبع الماء، وهى بركة عظيمة إلّا أنَّ قلوب بنى اسرائيل لا ينبع منها الفضيلة ولا العلم ولا الحكمة كما انها ليست مراكز للعواطف والحب والحنان؛ إنَّ قُلُوبهم أشدّ قَسوة من الحجارة حقاً. الثانية: إنَّ من الاحجار تتشقق لتضم فى شقوقها مقداراً من الماء. ورغم أنَّ هذا الماء لا يروى المزارع والحيوانات،

إلّا أنه قـد ينقـذ حيـاة سـائرٍ عطشان. أمّا قلوب بنى اسـرائيل فهى لا امثال القران، ص: ۵۷ تضم حتى ذلـك المقـدار القليل من المحبة والحنان. الثالثة: بعض الاحجار تهبط وتسقط خشية من الله وخضوعاً امام قدرته واستطاعته العظمى كما تؤكد ذلك الآية ۲۱ من سورة الحشر «لَوْ أنْزَلْنا هذا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأيْتَه خاشِعاً مُتَصَدّعاً مِن خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُها للنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَفكَرُونَ».

تسبيح الموجودات جميعا

إن خضوع وخشوع الاحجار والجبال امام قدرة الله وعظمته وتسبيحها عموماً أمر يمكن اسـتظهاره من الايات العديدة للقران، والاية ۴۴ من سورة الاسـراء نموذج على ذلـك: «وَإنْ مِنْ شَـىءٍ إلّا يُسَبِّحُ بِحَمْـدِه وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيْحَهُم ...» «۱» وقد اعتبر بعض المفسـرين الجمادات حية ومنحها حياة ذات نوع خاص من الشـعور والاحساس الذاتى يختلف عن الشـعور الإنسانى، فشعورها مثل تسبيحها الذى لاـ يُفقه «لاـ يَفْقَهُونَ تَسْـبِيحَهُم» حيث نجـد مقابـل الحمـد والخشوع والخضوع امـام الله القـادر الـذى يشـهد من الموجودات وبخاصـة الاحجار قلوباً قاسية لا تسبّح ولا تذكر الله ولا تخضع أمامه.

القسوة

للانسـان قوتـان قوة العقل والفكر وقوة العاطفـة الإنسانيـة، الجهاز الـذى يسـتطيع الإنسان من خلاله فهم الحقائق يقال له عقل، وكل ما يـدركه الإنسان ويفهمه يتم من خلال عقله. أمّا العاطفة فهى القوة التى يتمكن الإنسان من خلالها ادراك القضايا الاخلاقية مثل الحب والبغض، فنحن مثلًا نتأثر من جراء سـماعنا للمجازر الجماعية التى ترتكب من قبل اناس فقدوا العاطفة فى الدولة المسلمة (الجزائر). أو نتـأثر بالاوضـاع المتأزمـة لافغانسـتان الـذى ابتلى بحب وبغض بعض الزعماء الانانيين. امثال القران، ص: ۵۸ إنّ هذه الاحاسـيس تتعلق بقوة العاطفـة الإنسانيـة، والشـعوب الانسانيـة حيـة ما دامت عواطفها حيـة، وفى الحقيقة ان موت هذه العواطف يعنى موت المجتمعات البشـرية. تباً للإنسان فى اليوم الذى تموت فيه عواطفه حباً للدنيا؛ فإنّه يصبح انذاك انساناً خطراً اخطر من الحيوان المفترس والوحشى! من الذى صنع القنابل الكيمياوية؟ العلماء الذين فقدوا عواطفهم حباً للدنيا، اولئك الذين اشتروا العواطف الانسانية بالدولارات وغضوا اطرافهم عن الـذين قتلوا فى حلبجة! من هم الذين قصـفوا مدينتى هيروشـيما وناكازاكى وقتلوا فيهما مئات الالاف بالقنابل النووية فى لحظة. «۱» انهم العلماء الذين ماتت عندهم العواطف والذين لم يأثروا من الإنسانية شيئاً، والذين يرون اللذة فى تدمير الاخرين! من هم الذين زرعوا اكثر من عشـرين مليون لغم من النوع المضاد للافراد على سطح الكرة الارضية؟ هم اولئك الذين اتسموا بصفات حيوانية ولم يـأثروا من الانسانيـة الا اسـمها وما كان لهم نصـيب من العواطف الإنسانيـة. إنَّ العالم قرر منع تصـنيع هـذا النوع من اللغم؛ وذلك لاجل كونها غير اخلاقية وذات ابعاد غير انسانية؛ إلا أن الدولة العطوفة والمهتمة بحقوق البشـر، أى امريكا، خالفت ذلك، كما خالفت مشـروع حضـر تصنيع اسلحة الدمار الشامل رغم تظاهرها بالدفاع عن حقوق البشر وتزعمها لمنظمات انسانية تهتم بهذه المجالات. هذا كله بسـبب الضـغوط التى تمارسـها اسـرائيل والصـهاينة المنافقين على أمريكا، وهى تسـتخدم هذه المنظمات والآليات الاعلامية دائماً لاجل تدمير الأعداء، وكأنّ رعاية حقوق البشر أمر ينبغى ان يحصل فى الدول المناهضة لامريكا فحسب دون الصديقة لها.

العلم والعاطفة وجه تمايز الإنسان عن الحيوان

اختلاف الإنسان عن الحيوان فى أنَّ الاول يتمتع بالعقل والعاطفة، أو بتعبير آخر يمكنه الادراك والشعور، أمّا الحيوان فانه يفقد هذين الامتيـازين. ورغم أنَّ بعض الحيوانـات تحضـى بـذكاء واحسـاس ضـعيفين وفى بعضـها نرى نوعاً خاصاً من العاطفـة البسـيطة، كـدفاع الدجاجـة عن افراخهـا عنـد الاحساس بالخطر، فإنَّ هـذا لا يعـد شـيئاً بالنسـبة للعاطفـة الإنسانيـة، بل إنَّ بعض الحيوانات تأكل أفراخها وبعضـها الاخر تطرد افراخها عند البلوغ. إن الإنسان إذا فقد عقله عُدَّ احمقاً ولا يستحق اطلاق الإنسان عليه، أمّا إذا فقد العاطفة فسوف

لا يرى معنى للترحم والمروة والحب والعشق، فهو حينئذ بهيمة بل أسوأ حالًا.

دنيا دون عاطفة

من المؤسف أنَّ عالم اليوم عالم يخلو من العواطف رغم أنَّ الإنسان بلغ المدارج العليا فى مجال العلم والمعرفة وقد حصل على المزيد من التقنيات، إلَّا أنَّه بنفس المقدار فقد العواطف والاحاسيس البشرية فى ذات الوقت. إنَّ القيم فى الدول الصناعية هى المال والمادة؛ أمّا سلعة المحبة والعاطفة فغير متوفرة، واذا وجدت فلا مشترى لها! إنَّ العواطف هناك حتى فى العائلة الواحدة قليلة وضعيفة. الوالدان يتخلّان عن أبنائهما بمجرد ان يبلغوا، والأولاد يتخلون عن والديهم بمجرد ان يشيبوا ويضعفوا، واذا شعروا بعاطفة جزئية تجاههم أودعوهم فى دار العجزة، وتركوا السؤال عنهم حتى الموت. إنّ نسبة الطلاق فى هذه الدول كبيرة جداً وقد تقدر هذه النسبة فى بعض الدول إلى اكثر من خمسين بالمائة، أى أنَّ نصف حالات الزواج أو اكثر من ذلك تؤول إلى الطلاق. إلَّا أنَّ نسبة الطلاق فى بلدنا هى واحد بالعشرين رغم ذلك نعدها نسبة كبيرة. إنَّ البيئة التى تفقد العواطف لا تجد معنى لاعانة الفقراء والمحتاجين، فلا نسمع شيئاً عن امثال القران، ص: ۶۰ (حفلة العواطف) و (تعالوا لنتقاسم افراحنا) «۱» ولا شأن للناس هناك حتى لو سمعوا بشخص يوشك ان يموت من الجوع والعطش. لقد ورد فى الأخبار أنَّ شخصاً نفد وقود سيارته فى طريق مزدحم وفى يوم بارد جداً، فأخذ بوعاء البنزين يؤشر للسيارات المارة طلباً للوقود، إلَّا أنَّه لم يجد عوناً رغم انتظاره مدة احدى عشرة ساعة هناك، وما كانت النتيجة الا موته فى الطريق. فى الحقيقة ان موت العواطف فى هكذا مجتمعات ادى إلى موت هذا الشخص. ولاجل هذه الشواهد نعتقد أنَّ الغرب لا قدرة له على استيعاب المفاهيم الاسلامية الرفيعة، مثل الشهادة والجهاد والايثار واعانة المحتاجين وغيرها، وحتى دفاعهم عن حقوق البشر لا يكشف عن عواطفهم، بل انها وسيلة لتدمير وتسقيط أعدائهم. فاذا قُتل اسرائيلى مثلًا على يد فلسطينى فى عملية استشهادية ارتفعت اصوات مدوية لهذه الموجودات الفاقدة للعواطف؛ وذلك دفاعاً عن حقوق البشر، إلَّا أنه عند مقتل النساء والرجال والاطفال والشباب فى الجزائر وتقطّع أبدانهم إرباً إرباً لا تثار حفيضة هؤلاء المنافقين المترائين، وكأنه لم يحدث شيء ابداً.

الدين أو المذهب يقويان العاطفة

الدين أو المذهب هو اهم عامل يقوى العاطفة الانسانية؛ وذلك لأن الدين عُرّف فى الروايات (بالحب والبغض) أى محبة المسلمين وبغض الكافرين. جاء فى رواية عن الصادق عليه السلام يسأله فضيل بن يسار عن الحب والبغض، أمن الايمان هو؟ فقال: «وهل الايمان الا الحب والبغض»؟! «۲» ونقرأ فى رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه و آله قبّل امثال القران، ص: ۶۱ الحسن والحسين عليهما السلام فقال الاقرع بن حابس: إنَّ لى عشرة من الاولاد ما قبلت واحداً منهم. فقال: «ما على ان نزع الله الرحمة منك». «۱» القلب الذى يخلو من الحب ليس قلباً بل قطعة من الحجر، وليس اهلًا لاستقبال نعم الجنة، بل اهل لعقوبة جهنم. ببركة دين الإسلام وببركة تمتع شعبنا المؤمن بالعواطف الإنسانية النبيلة نرى تسارع الإيرانيين للخيرات ونصبهم للخيم لاجل جمع الاعانات فى الشوارع والاحياء بمجرد حصول حادثة أو كارثة تستدعى المساعدة والاعانة .. ياله من منظر رائع وجميل للعواطف الانسانية.

عوامل القسوة فى القرآن

يشير الله من خلال الايات التالية إلى عوامل القسوة وأسبابها. الأول: يقول فى الاية ۱۳ من سورة المائدة: «فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلوبَهُمْ قَاسِيَةً». القرآن هنا يعتبر (نقض الميثاق) من عوامل قسوة القلب، نقض الميثاق مع الله ومع الرسول صلى الله عليه و آله ومع الفطرة الانسانية ومع البشرية. نعم إنّ بنى اسرائيل لم يحترموا أيّاً من المواثيق وكأنّهم- لأجل الدعامة العسكرية القوية التى كانوا يتمتعون بها- لم يبرموا ميثاقاً إلّا مع مصالحهم الدنيوية ولم يفوا بميثاق إلّا به. الثانى: يقول الله فى الآية ۱۶ من سورة الحديد: «أَلَمْ يَأْنِ

لِلّذِينَ آمنوا أنْ تَخْشَعَ قُلوبُهُم لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكونُوا كَالَّذِين أوتُوا الكِتَاب مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيْرٌ مِنْهُم فَاسِقُونَ». إنَّ الآيـة الشريفة توقظ فى البداية الغافلين بكلام حق. يا انسان متى تصدق الموت وانت ترى موت اعزتك وأقاربك؟! امثال القران، ص: ۶۲ إلى متى تستمر فى تعلقك بالدنيا رغم ما ترى منها من الفناء وعدم الوفاء. ثم تحذّر المؤمنين خوف ان يصبحوا مثل بنى اسرائيل الذين قست قلوبهم بعد ما طالت اعمارهم، وتأخرت بعثة الرسول اللاحق، ونسيانهم تدريجاً لتعاليم نبيهم، وعدم نزول العذاب الإلهى عليهم، فكانت الغفلة التى لحقتها قسوة القلوب وكثرة الذنوب. يمكننا معرفة السبب الثانى لقسوة القلب من خلال هذه الآية وهو (الابتعاد عن تعاليم الأنبياء والأولياء والأديان الإلهية). ومن خلال هذه العوامل التى بينها القرآن يتضح لنا أن بعضاً من العذاب الالهى فى الحياة الدنيا هو نوع من ألطافه تعالى؛ وذلك لأنَّه يؤدى إلى التوبة والابتعاد عن الذنوب والرجوع إلى الله، وهو فى الحقيقة الحائل دون الابتلاء بقسوة القلب. «۱» إخوتى وأخواتى الأعزاء! اتصلوا بالشباب والأشبال من خلال المجالس الدينية واذهبوا بهم إلى هكذا مجالس لتعريفهم بالتعاليم الدينية الاسلامية لكى لا يبتعدوا عنها فيبتلوا بقسوة القلوب وترحل عنهم العواطف الإنسانية.

القسوة فى الروايات الاسلامية

اشارت روايات المعصومين عليهم السلام إلى عوامل عديدة يمكنها ان تؤدى إلى قسوة القلب نشير إلى بعض منها هنا: الاول: يقول الامام على عليه السلام: «ما جفَّت الدموع الا لقسوة القلوب وما قست القلوب الا بكثرة الذنوب». «۲» إذا شاهدنا إنساناً لم يتأثر بالمصائب الدنيوية ولا يبكى ولا يشتاق للعبادة والمناجاة، أو يفتقد العواطف والترحم على أبناء جنسه ولا يفكر الا بنفسه وضمان مصالحه، ولا يقلقه ما يصيب الآخرين، فتلك جميعها بسبب كثرة الذنوب وتراكمها. امثال القران، ص: ۶۳ فى إحدى رحلاتى إلى بيت الله الحرام كنت جالساً فى المسجد الحرام، جاءنى شاب وقال لى: إنّى احج الصرورة ولم اسبق بالمجئ إلى هذا المكان المقدس رغم ذلك لا اشعر بالمعنوية ولا بالحيوية فى هذا المجال، فلم اشتق للمناجاة والبكاء والتضرع؟ فكان يريد معرفة سبب ذلك. اجبته يبدو أنّك ارتكبت ذنوباً كثيرة فى حياتك؟ عليك اولًا طلب المغفرة من الله على تلك الذنوب، ثم اشتغل بالزيارة والعبادة والمناجاة. الثاني: طول الامل هو من العوامل الاخرى لقسوة القلب. جاء فى احدى الروايات أنَّ الله قال لموسى عليه السلام: «لا تطول فى الدنيا أملك فيقسو قلبك والقاس القلب منى بعيد». «۱» الثالث: حب الدنيا والغرق فى الطلبات المادية. ان هذه الأمور من شأنها ان لا تترك مجالًا لنمو وبروز العواطف الانسانية ولا لتقرب الإنسان لله؛ وذلك لان اكبر هدف للانسان العطوف هو الوصال بالحق. وعلى هذا فحب الدنيا والابتعاد عن الله هو ثالث عامل لقسوة القلب. يقول الرسول صلى الله عليه و آله: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فان كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسو القلب». «۲» فالرسول صلى الله عليه و آله هنا يصرح بان كثرة الكلام بالاشاعة والكذب والاتهام والمزاح الخارج عن حده والتدخل بما لا يعنى الشخص وغيرها من مظاهر كثرة الكلام هى اسباب لقسوة القلب. الرابع: هناك رواية أخرى عن الرسول صلى الله عليه و آله يقول فيها: «ثلاث يُقِسْنَ القلب استماع اللهو وطلب الصيد واتيان باب السلطان». «۳» إنَّ الاصغاء إلى الموسيقى حرام ويؤدى إلى قسوة القلب وينبغى هنا أنْ نكون نبهين دون الوقوع فى مصيدة الشيطان بتبريرات من قبيل: إنّ الموسيقى تنشطنا روحياً، وأنَّ الموسيقى امثال القران، ص: ۶۴ ليست للنزهة فقط، أو أنَّ الموسيقى المحلية والتقليدية جائزة وما شابه ذلك. الصيد إذا كان طلباً للمعيشة فلا اشكال فيه، أمّا إذا كان لاجل التسلية والترفيه فهو حرام فى الإسلام، وعلى الصيّاد حينئذٍ التمام فى الصلاة دون القصر؛ وذلك لان سفره معصية. أكثر الملوك والحكام كانت لهم اماكن خاصة يصطادون فيها للتسلية والترفيه. كيف يمكن ان يكون سلب روح حيوان ما سبباً للتسلية والترفيه؟! إنَّ الحكام أشخاص قساة القلب، كما أنَّهُم ظلمة وهم مستعدون لارتكاب ابشع الجرائم لاجل حفظ كراسيهم ومواقعهم القيادية، وقد يستعد الحاكم لقتل أبيه أو اخيه لديمومة عرشه، كما فعل المأمون بالأمين العباسيين، فقد قتل الأول الثانى، رغم انه كان أخاه. وفى الفترة الاخيرة قتل احد الملوك العرب اباه ليحكم بذلك موقعه القيادى. ان

الاشخاص الذين يرتبطون بهذه الطبقة من الناس تقسو قلوبهم ويبتعدون عن الله لما يرون من زخارف الدنيا التى تجذبهم إليها. نسأل الله ان يمنحنا قلباً عطوفاً، قلباً ينضح من حبه، ويجرى دموع العين من ذكره. الخامس: يقول الامام على عليه السلام: «كثرة المال مفسدة للدين ومقاساة للقلب». «۱» مما لاشك فيه أنَّ المال وسيلة جيدة لبلوغ المقامات المعنوية العليا ولعمل الخير، وقد يكون هذا هو مغزى مقولة القرآن فى الآية ۱۸۰ من سورة البقرة «... انْ تَرَكَ خَيْراً الوَصِيَّةَ» فقد فسّر المفسرون (خيراً) هنا بالمال والثروة. لكن الذين يحسنون الافادة من المال هم العدة القليلة بل نادراً ما يحصل ذلك. «۲» إنَّ اكثر المتمولين لا ينفقون اموالهم فى مجالات الخير وهذا يعنى أنَّ كثرة اموالهم سبب لابتعادهم عن الله، الامر الذى يؤدى إلى قسوة القلب. السادس: يقول الامام الصادق عليه السلام فى احدى الروايات المنقولة عنه: «أنهاكم أنْ تطرحوا امثال القران، ص: ۶۵ التراب على ذوى الارحام فإنّ ذلك يورث القسوة ومن قسى قلبه بَعُدَ من ربّه عزوجل». «۱» لقد وضع الإسلام منهجاً لجميع شؤون الإنسان حتى فى القضايا التى تبدو قليلة الاهمية، فعند استقبال الضيف مثلًا يأمر الإسلام إعانة المضيف للضيف فى حمل امتعته لادخالها فى البيت، إلَّا أنَّه عند التوديع يأمر بعدم اعانة الضيف على اخراج امتعته؛ وذلك لأن هذا يعنى رغبة صاحب البيت فى التخلص من الضيف وهذا يؤدى إلى قسوة فى القلب. وفى هذا الحديث اشارة أخرى لاحد القوانين الدقيقة التى تصب فى هذا المجال، فبما أنَّ ذوى الارحام يحملون العواطف الوافرة تجاه احدهم الاخر فان طرح التراب ونثره على موتاهم يحد من العواطف ويجلب للناس قسوة فى القلب وابتعاداً عن الله. السابع: يقول الامام على عليه السلام: «النظر إلى البخيل يقسى القلب» «۲» إنَّ الشخص إذا نظر إلى البخيل تذكّر بخله، وتذكُّر البخل يتداعى معه تذكُّر القساوة، وتذكُّر القساوة يؤثر تدريجياً على الإنسان. امثال القران، ص: ۶۷

المثل الرابع: الكفار

اشارة

يقول الله فى الآية ۱۷۱ من سورة البقرة: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ». العقبة الكبرى امام دعوة الانبياء هو التقليد الأعمى إنّ تقليد الآباء والاسلاف كان مانعاً مهما ومتواصلًا امام دعوة الأنبياء. عندما كان الانبياء يدعون اممهم للتوحيد والدين كانوا يسمعون الجواب التالى: «بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَائَنا». «۱» وفى الحقيقة، إنَّ سبب رد دعوة الانبياء هو عبادة الاصنام من قبل الاسلاف، والتقليد الأعمى للمعاصرين والأنبياء. وعندما دعى رسول الإسلام صلى الله عليه و آله الناس إلى الإسلام وعبادة الله الواحد كان رد فعلهم هو التعجب مما يدعو اليه الرسول من عقائد مخالفة لسننهم وتقاليدهم وكان وتبريرهم لرد دعوته هو اتباعهم لما كان عليه اسلافهم من عبادة اصنام كانوا يصنعونها بايديهم من التمر، ويأكلونها عند شعورهم بالجوع. يقول الله فى هذا المجال حكاية عن لسان الكافرين: «أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً واحداً إنّ هَذَا لَشَىءٌ عُجَابٌ». «۲» امثال القران، ص: ۶۸ جاء فى بعض كتب التاريخ أنّ أبا طالب (رضى الله عنه) مرض يوماً وكان محمد ابن أخيه منشغلًا بالتبليغ خارج البيت فاتى اشراف قريش ابا طالب بحجة العيادة له وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضى بيننا وبين ابن اخيك فانه سفّه احلامنا وشتم الهتنا. فدعا ابو طالب رسول الله صلى الله عليه و آله وقال: يا بن أخى! هؤلاء قومك يسألونك فقال: «ماذا يسألوننى»؟ قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك. فقال صلى الله عليه و آله: «اتعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم»؟ فقال ابو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك عشر أمثالها. فقال: «قولوا لا إله الا الله». فقاموا وقالوا: أجعل الالهة الهاً واحداً. «۱» وهو يدعوهم للتوحيد فى عبارته الأخيرة.

الشرح والتفسير

شُبِّه الکفار فی هـذا المثل القرآنی بالحیوانات؛ ولاجل تبریر هذا التمثیل اکد علی تقلیدهم التام والأعمی لأسـلافهم. یقول الله فی الآیة ۱۷۰ من سورة البقرة: «وَإِذَا قِیْلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَیْنَا عَلَیْهِ آبائَنا أَوَلَو کَانَ آبَاؤُهُمْ لَا یَعْقِلُونَ شَیْئاً وَلَا یَهْتَدُونَ». وکأنّه یَقول: یا جهّال! هل أنَّ اتباعکم للاسـلاف الذین لا یعقلون شیئاً اتّباع عن بصیرة؟! ثم یمثل الرسول (عندما یقرأ الایات علی هذا القوم المشـرک) بـالراعی الـذی ینادی رعیته بالاصوات لتوجیه حرکتها، إلّا أنَّ هـذه البهائم لا تعقل من کلامه شـیئاً إلَّا الأصوات التی تتأثر بها، فاذا کانت اصوات الراعی شدیدة وذات ایقاع قوی اثرت فی البهائم وإلّا فلا. إنّ مثل المشرکین کمثل هذه البهائم لا تفهم ما تقرأه علیهم من المعـانی والمفـاهیم الرفیعـة لکنهم یفهمون الأـصوات وموسـیقی کلامک فحسب لـذا یسـتمرون فی تقلیـدهم الأعمی للاسلاف.

خطابات الآیة

الاـول: إن الآیـة جواب لاـئق للسؤال التـالی: إذا کـان القرآن المجیـد وحیاً الهیاً فینبغی أن ینفـذ فی القلوب ویترک اثره فیها، فلماذا لا نشاهـد هـذا الامر فی بعض المشـرکین الـذین ظلّت قلوبهم نائمة دون یقظة إلی اخر عمرها؟ إنَّ التأثیر علی أی شـیء یسـتدعی وجود عاملین: ۱- فاعلیة الفاعل. ۲- قابلیـة القابـل. وممـا لاـ شـک فیه أنَّ القرآن فاعل وذات تأثیر ونفوذ، إلّا أنَّ الکافرین لیست لهم القابلیة لاستقبال مفاهیم القرآن واستقطابها. لا خلاف فی لطافة طبع الغیث لکنه إذا هبط علی الحجر فانا لا نتوقع منه انبات الشجر؛ وذلک لان الحجر لیست له قابلیـة علی تنمیـة البذور، وکذلک هو شأن الکافرین. فإنَّ کلام الله بروعة قطرات المطر وقلوب الکافرین بقسوة وشدة الحجر ولا تؤثر هـذه القطرات اللطیفـة فی الحجر، لکن بمجرد أن تحصل ادنی قابلیـة لهذه الأحجار علی الانبات نری الغیث یؤثر فیها. وقلوب الکافرین المتحجرة إذا تبلورت فیها أی قابلیـة علی التأثر کان کلام الله نافـذاً فیها وتارکاً اثره. وعلی هذا فتأثیر المؤثر غیر کافیة بل قابلیة القابل مهمة أیضاً، والکافرین ما کانت لهم تلک القابلیة. الثانی: افادة الناس من المعارف القرآنیة یتوقف علی مستوی لیاقتهم وقدرتهم علی الافادة. القرآن حدیقة یسـتطیع أنْ یتمتع بها کل شـخص بمسـتوی ذوقه، أو هو ینبوع من الماء الزلال یستطیع کل واحد أنْ ینهل منه ماء الحیاة ویروی عطشه. والاختلاف بین الجمیع فی مقـدار ما ینهلون منه. إنّ هؤلاء الکفار لا هم یملکون الاناء للنهل من هـذا الینبوع، ولا هم قادرون علی تجرع الفیض والرحمـة الالهیـة؛ وذلک لأنّ تقلیدهم الأعمی لدین آبائهم یمنعهم من النهل من زلال المعرفـة الربانیـة. امثال القران، ص: ۷۰ وبتعبیر آخر: إنَّ اتبـاعهم لـدین آبـائهم ضـرب حجاباً ضـخماً علی وسـائل معرفتهم حال دون سمعهم أو ابصارهم أو نطقهم فاصـبحوا عمیاً بکماً صـماً لا یفقهون شـیئاً. وقد فسرت الآیة المذکورة بشکل آخر، هو: أَیُّها المشرکین! إنَّکم ترکعون لاصـنام تعبـدونها وتناجونهـا وهی لاـ تسـمع حاجـاتکم ولاـ تری اعمـالکم ولا تسـتطیع النطق والکلام معکم، فهی بکم وعمی وصم کالبهائم. أیُّها الإنسان! إنَّک قـد کسـرت شخصـیتک بنفسک من خلال العبادة والخضوع لهـذه الاصـنام الجامدة. بما أنَّ ضمیر (هم) فی (فهم) والضـمیر الذی فی (لا یعقلون) یشـیران إلی العقلاء لذا کان التفسـیر الاول اقرب للمنطق والعقل. علی أی حال، فإنَّ الخطاب الرئیسی للایة هو رفض التقلید الاعمی للاسلاف والآباء.

التقلید فی القرآن

تحـدثت آیات کثیرة عن التقلیـد، ومن الایات ما تـذم التقلید وتعتبره عملًا مضاداً للقیم، ونموذج ذلک الآیة ۱۷۰ من سورة البقرة. «۱» لکن بعض الایات التی وردت فی التقلیـد لا أنّها لم تذمه فحسب، بل دعت له وشـجعت الناس علیه، کما فی الآیة ۷ من سورة الأنبیاء: «فاسْئَلُوا أَهْلَ الـذِّکْرِ إنْ کُنْتُمْ لَـا تَعْلَمُونَ». ومع الالتفـات إلی التضاد الظاهری بین هـذین الطائفتین من الایات، ما هی وظیفـة المسـلم المؤمن؟ هل التقلید أمر مستحسن ام ممنوع ومحرم؟ وهل یتمکن المؤمن من تقلید أهل العلم؟

أقسام التقليد

لاجل ايضاح الموضوع من الافضل ان نـدرس اقسام التقليد. ۱- تقليد الجاهل للجاهل: ومثل هذا هو تقليد الكفار والمشـركين الجهال لابـائهم الجهال. امثال القران، ص: ۷۱ وهـذا النوع من التقليـد ممنوع وغير صـحيح حسب الموازين الشـرعية والعقلية. ۲- تقليد العالم للعالم: إنَّ العالم هو صاحب الرأى وليس من الصـحيح ان يقلد العالم عالماً اخر؛ لانه إذا كان صاحب رأى فعليه أن يفكر فى أن يبدى رأيه ويفيـد من علمه الذاتى، ولهذا قيل فى الفقه (يحرم التقليد على المجتهد). ۳- تقليد العالم للجاهل: بأن يترك صاحب الرأى رؤاه وافكـاره ويبحث عن رأى الجاهـل ليعمل على اساسه. من المؤسف أنَّ هـذا النوع من التقليـد يكثر فى عالمنا اليوم، ونموذج ذلك هو الديمقراطية الغربية، فإنّ أصحاب الرأى والمفكرين يتركون من خلال هذه الديمقراطية رؤاهم فى مجال تخصصهم ويبحثون عن آراء الناس فيها فاذا ابـدى الناس خلاف ما يمنحهم تخصصـهم من افكار طرحوا افكارهـم واخذوا بما يشاء الناس. ۴- تقليد الجاهل للعالم: بأنْ يَسْأل الشـخص الـذى يفقـد المعرفة فى مجال أو تخصـص ما من العالم والمتخصـص فى ذلك المجال، فالمريض يراجع الطبيب، والـذى يريد بناء بيت يراجع المهندس، والفلاح الذى يريد حفر بئر يراجع المهندس المختص فى هذا المجال و .. والناس يرجعون فى مسائلهم الشـرعية إلى مرجع تقليـدهم. وخلاصة الكلام هنا أنَّ تقليد الجاهل للعالم يعنى الرجوع إلى المتخصصـين والخبراء، وهذا أمر متـداول فى جميع شؤون الحياة، كما أنَّه أمر معقول. وعلى هـذا، فالانواع الثلاثـة الاولى من التقليـد هى الاقسام الممنوعة منه، والآيات التى تـذم التقليـد ناظرة إلى هـذه الأقسام. أمّا القسم الرابع فهو ممـدوح لا جائز فحسب، والايات التى تشـجع التقليد وتحث عليه ناظرة إلى هـذا النوع منه. «۱» لكن ينبغى الالتفات هنا إلى ان التخصـص والعلم فى مجال ما، هو الشـىء الوحيـد الـذى يمنح الانسان امكانية ابـداء الرأى، ولا شـىء اخر يجيز للانسـان ابـداء الراى فى موضوع ما. ومن المؤسف أنَّا نشـهد مؤخراً البعض يبـدى رأيه فى مواضـيع مختلفـة قـد لا تدخل فى مجال تخصـصه. إنَّه يُبدى رأياً فى مجال الحجاب والقصاص والعاقلة والارث وقضاء النساء واجتهادهن امثال القران، ص: ۷۲ والـديات وغيرهـا، رغم أنَّه لا يملك الارضـية اللازمـة فى هـذه المجالات. لكن يا ترى هل هؤلاء يجيزون لانفسـهم الـدواء عنـد التمرض من دون مراجعـة الطبيب؟ وهل هؤلاء يقومون بعمليات جراحيـة عند الابتلاء بامراض حادة؟ بالطبع لا. اذن كيف يمكن لهم أن يسـمحوا لانفسـهم فى ابـداء الرأى فى القضايـا الشـرعية من دون أن يحملوا المعرفـة الكافيـة فى مجـال الفقه والمسـائل الشرعية؟

المثل الخامس: الإنفاق

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية ۲۶۱ من سورة البقرة: «مَثَلُ الّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ أمْوَالَهُم فِى سَبِيْلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّهٔ أنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَهٍٔ مِائَهُٔ حَبَّهٍٔ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ».

تصوير البحث

تحـدثت الآيـهٔ الشـريفهٔ عن (الإنفـاق) وذكرت مثالًا رائعاً للانفاق فى سبيل الله. إنَّ الفقر معضـلهٔ، والبشـر لا زال يعانى منها فى مختلف مجتمعاته، وهى مشـكلهٔ ترجع فى الحقيقـهٔ إلى عدم التوزيع العادل للثروهٔ، الأمر الذى يؤدى إلى تقسـيم البشـر إلى فقير وغنى. التاريخ يشـهد بأنَّه كانت هناك شخصـيات مثل قارون تمتلك ثروات عظيمهٔ، بحيث حمل مفتاح مخازن ثروته يحتاج إلى طاقهٔ عدهٔ اشخاص أقوياء. «۱» وفى مقابل هؤلاء كان هناك اشـخاص بحاجهٔ إلى قرص من الخبز يقضوا بها ليلتهم. إنَّ هذه المشـكلهٔ اشـتدت فى عصـرنا الحاضـر. كمثال على ما نقول: إن بعض الاحصائيات حكت عن أن نسبـهٔ ۸۰٪ من ثروهٔ الكرهٔ امثـال القران، ص: ۷۴ الارضيهٔ يمتلكها

نسبة ۲۰٪ من النـاس فاذا كان مجموع البشـر فى الكرة الارضـية عبارة عن خمس مليارات؛ فان ۸۰٪ من الثروة تحت تصـرف مليار من البشـر و ۲۰٪ من الثروة العالميـة يتقاسـمها اربعـة مليارات. وبعبارة أخرى: إذا كان مجموع شـعوب الـدول الصـناعية يقـدر بمليار فهـذا المليار يملك اربعة اخماس من ثروة الكرة الارضـية وما تبقى من البشـر فلهم خمس تلك الثروة. والمدهش هنا أنّ هذه النسبة وتلك المفارقات تزداد يوماً بعد آخر ولصالح الأغنياء.

طرق علاج الفقر

لحل هذه المعضـلة قدّم العلماء منذ القدم علاجات، والبشرية جربت علاجين مختلفين. الأول: يعتقد الاشتراكيون والشيوعيون أنَّ الفقر مشـكلة نجد جذورها فى الملكية الخاصة، فاذا ما اجتثثنا جذور هذه المشـكلة فانَّ المشكلة ستُحل. إنّ اصحاب هذه الفكرة جربوا هذا العلاج مدة سبعين عاماً، قتلوا خلالها الملايين من البشر، وارتكبوا جرائم كثيرة وتحلموا التكاليف الباهضة وواعدوا الناس وعوداً كاذبة كثيرة، وأمّلوهم بحيـاة متعاليـة، وتحـدثوا مع النـاس عن جنـة الأـرض، بـل اعتبروا جنـة الانبيـاء هى نتيجـة اعمالهم و .. إلّا انهم اعترفوا بفشـلهم بعـد هـذه التجربـة وتلاشـى نظامهم، الامر الـذى أراح الناس الـذين كانوا يرضـخون تحت حكومتهم. الثانى: رسـمت الـدول الرأسمالية خططاً اخرى لرفع معظلة الفقر، فشكلوا لأجل ذلك مؤسسات و منظمات كثيرة، مثل: الهلال الأحمر و صندوق النقد الدولى و البنك الدولى و صـندوق التعاون و مؤسـسات الاعانات الاقتصادية و الغذائية للدول الفقيرة، و خصصوا لأجل ذلك ميزانيات، لكنها جميعاً كانت تعانى من نقطتى ضـعف: الاولى إجراءاتها محـدودة و قليلـة و غير متناسـبة مع نفوس الـدول الفقيرة، و لذلك لم تحدث تغييراً فى مسـتوى الفقر فى هـذه الـدول. الثانيـة: كثيراً ما تقترن هذه الاعانات بأغراض سياسـية، فاذا اقتضت مصالح هذه الدول الاعانة أعانوا و الَّا امتنعوا عن الاعانـة، و أحياناً يعترف بعض مسؤولى هذه الدول بهذه امثال القران، ص: ۷۵ الامور. «۱» وعلى هذا فان العلاج الثانى ما حل عقدة من عقد الفقر العالمى.

علاجات الإسلام

إنّ العلاـج الاـخر لمعضـلة الفقر هو وصايـا الإسـلام، فـإنَّ العمـل بهـا يؤدى إلى مـلء فجوة الفقر وتقليل الفاصـلة بين الطبقات الفقيرة والغنيـة. لقـد حصل هذا فى عهد الرسول صـلى الله عليه و آله فإنَّ العمل بها حصل لاول مرة فى التاريخ فى ذلك العهد وكانت نتيجة ذلك هو مجتمع غير مقسم إلى طبقات، أو مجتمع مع مفارقات طبقية محدودة جداً. إذا تمكنا اليوم تطبيق هذه الوصايا والاوامر الالهية فى مجتمعنـا هـذا بـل وفى المجتمعـات البشـرية لكانت الثروة موزعـة على البشـر بشـكل عادل ولصـغرت الفجوة بين الفقير والغنى فى مجتمعات الكرة الارضية.

الإنفاق طريق لرفع الفقر

الانفاق هو احـد الوصايا والأوامر الالهية القيمة التى هى موضوع بحثنا هنا. إنَّ القرآن المجيد أكَّد كثيراً على موضوع الانفاق وقد كان هـذا الامر موضوعاً لكثير من آياته، والآيات التى تضـمنت مادة الانفاق تقـدر بسـبعين آيـة، وإذا اضـفنا اليها الايات التى اشارت لهـذا الموضوع من دون أنْ تأتى بمادة الانفاق، فالعـدد يتجاوز عن هـذا الحد بكثير. أمر الله فى القرآن الإنسان أنْ يدفع مقداراً مما كان من نصيبه فى هذه الحياة الدنيا. الآية ۱۹ من سورة الذاريات أمرت بهذا بتعبير جميل: «وَفِى أمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ والمَحْرُوم»، وبناء على هذه الآيـة فـان للفقراء والمساكين حقاً فى أموال الناس. امثال القران، ص: ۷۶ ولأجل تشـجيع الناس على الإنفاق جاء القرآن بآيات عبرت عن الأمر بتعابير جميلـة: ۱- يقول الله فى الآيـة ۹۶ من سورة النحـل: «مَا عِنْـدَكُم يَنْفَـدُ وَمَا عِنْـدَ اللهِ بَاقٍ». يا له من تعبير جميل! فالعبارة تضم معان كثيرة رغم صـغرها. وهى تعنى أنّ الإنسان إذا صـرف الملايين من امواله فان تلك الملايين تعد نافدة ومسـتهلكة، بينما إذا

صرف اقل مقدار من امواله انفاقاً فی سبیل الله فإنَّ ذلک سیبقی فی خزینة الله الغیبیة ولا ینفد، وهذا خلاف ما یتصوره اکثر الناس. ۲- جاء فی الآیة ۸۹ من سورة النمل: «مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها» ونفسها فی سورة القصص الآیة ۸۴. وحسب ما صرحت به هذه الآیة، فإنَّ الصدقة والانفاق لا یذهبان سدی فحسب، بل یمنح الله علیهما شیئاً افضل منهما عوضاً عن ذلک. ۳- الآیة ۱۶۰ من سورة الانعام رفعت من قیمة الانفاق لتصرح بما یلی: «مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا». الآیة تحدثت عن الحسنات عموماً، وباعتبار أنَّ الانفاق من الحسنات العظیمة فهی تشمله. وحسب ما صرحت به، فإنَّ للإنفاق عشرة أضعاف من الثواب والأجر. أمّا الآیة المبحوث هنا (۲۶۱ من سورة البقرة) فقد رفعت مستوی الانفاق إلی أعلی مستوی ممکن، فمثلت الانفاق بالسنابل التی تضمّ حبات کثیرة وکل حبة تنبت سنابل کثیرة، وهی بذلک تشیر إلی التضاعف التصاعدی للثواب المترتب علی الانفاق. ولکی تجیب الآیة عن بعض التساؤلات التی تتراود فی اذهان البعض عن مصدر هذه العطاءات أشارت إلی أن ذلک کله من کنوز الله العظیمة، وهو واسع وأوسع من أنْ یتصور.

خطابات الآیة

۱- المراد من (فی سَبِیلِ اللِّهِ)

اشارة

إنَّ اصطلاح «فِی سَبِیْلِ اللهِ» استخدم اکثر من ۴۵ مرة فی القرآن، واصطلاح «عَنْ سَبِیْلِ اللهِ» استخدم ۲۵ مرة. وقد أُرید من «سَبِیْلِ اللهِ» الجهاد فی کثیر من الموارد کما فی الآیة امثال القران، ص: ۷۷ الشریفة ۱۶۹ من سورة آل عمران التی جاءت لبیان المقام الرفیع للشهداء: «وَلَا تَحَسَبَنَّ الَّذِیْنَ قُتِلُوا فِی سَبِیْلِ اللهِ أمْوَاتاً بَلْ أحْیاءٌ عِنْدَ رَبِهِمْ یُرْزَقُونَ» فقد ارید من «سَبِیْلِ اللهِ» هنا الجهاد کما ارید منه هذا المعنی فی موارد کثیرة أخری. إلَّا أنَّ (سبیل الله) اختلف معناه فی الآیة ۲۶ من سورة (ص): «وَلَا تَتَّبِع الهَوَی فَیضِلَّکَ عَنْ سِبِیلِ اللهِ ..» فقد نهت الآیة النبی داود علیه السلام عن اتباع الهوی فی القضاء ودعته للقضاء فی سبیل الله، أی القضاء العادل والذی یصل المحق إلی حقه من خلاله. وعلی هذا؛ فلا نصحح ما ادعاه البعض من أنَّ المراد من «فِی سَبِیْلِ اللهِ» هو الانفاق لاجل الجهاد فقط؛ وذلک لأنَّ المُراد منه مطلق سبیل الله سواء کان فی الجهاد العسکری أو الجهاد الثقافی أو الجهاد العمرانی أو تأسیس مکتبة أو اعانة المحتاجین أو بناء المستشفیات والمستوصفات أو تأسیس صندوق للقروض أو غیر ذلک. بالطبع، إنَّ رعایة الأولویات والضروریات أمر مهم وفی محله، کما أنَّ الابداع فی هذا المجال سوف یؤدی إلی جذب الناس إلی هذه الاعمال بشکل واسع، نأتی هنا بنموذجین لهذه المقولة:

الأول: صندوق إعانة عوائل السجناء

مهما کان سبب سجن الرجل فإنه غالباً ما یکون معیلًا لعائلته. وخلال فترة حبسه- بخاصة إذا کانت طویلة- تواجه عائلته مشاکل جمة، فمن جانب تهددهم مشکلة الفقر المالی، ومن جانب آخر تترصدهم المشاکل الإجتماعیة والأخلاقیة، وهنا إذا لم نلتفت إلی الأوضاع التی تعیشها عوائل السجناء ولم نجد حلًا لها فإنَّ عملیة حبس رب العائلة سوف تورث بالقوة سجناء ومجرمین آخرین. ومن المؤسف أنَّ هذا الأمر لم یُلتفت الیه فی المجتمع وقلما نجد شخصاً یفکر فیه. إذا قمنا بمثل العمل الذی حصل فی بعض المحافظات وهو تأسیس صندوق القرض الحسن فإنَّ عملنا هذا سیکون علاجاً لکثیر من المشکلات الخاصة بعوائل السجناء وبالسجناء انفسهم، وبذلک نقی المجتمع من کثیر من الشذوذ والجرائم المحتمل وقوعها. إنَّ شخصا إذا کان سجیناً بسبب دین فی ذمته یعطی من هذا الصندوق قرضاً لکی یطلق سراحه، وبعد أن یحصل علی عمل شریف یقوم بالدفع لهذا الصندوق. وبذلک نکون قد امثال القران، ص: ۷۸ عالجنا مشکلته ومشکلة عائلته وانقذناهم من المشاکل الأخلاقیة والإجتماعیة التی تترصدهم.

الثانی: جمعیة اعانة مرضی الکلیة

هناك الكثير ممن يعانون من امراض الكلية وقد يحتاج بعضهم للديلزة اكثر من مرة فى الاسبوع وخلال هذه الفترة يعانون آلاماً حادة. واكثر هؤلاء يشفون إذا ما زرعت لهم كلية جديدة، لكنهم فى الغالب غير قادرين على دفع مبلغ الكلية الجديدة، وفى هذه الحالة إذا تشكّلت جمعية لاعانة هؤلاء المرضى المحتاجين لأجل زرع كلية فإن الجمعية ستقوم بعمل جبار فى سبيل انقاذهم من الالام التى يعانون منها، كما تخرج عوائلهم من حالة الاضطراب والقلق. ويمكن تأسيس جمعيات مشابهة لهذه الجمعية تعم منافعها قطاعات ومجالات أخرى، وذلك سعياً لتقليل المشاكل الاجتماعية والمالية عن الناس.

۲– المراد من «الحبّة» فی الآیة الشریفة

هناك بحوث كثيرة قام بها المفسرون متناولين فيها موضوع الحبة والمراد منها. قيل: معنى ذلك أنَّ الله يقوم بهذه المضاعفة لمن يشاء، وهى قد تصل إلى سبعمائة ضعف. «۱» إنّ هذا المثل قد لا يكون له وجود فى الخارج لكن هذا لا يضر، فإنَّ شأن أكثر الأمثال هو هذا سواء كانت بالفارسية أو العربية أو باى لغة أخرى. فالعنقاء وغيرها من الحيوانات التى لا وجود لها فى الخارج تستخدم فى الامثال. لكن بما أنَّ المثل صدر من الله الحكيم والعالم، فلابد وأن يكون له وجود خارجى. ولاجل ذلك قال البعض: المراد من الحبة فى المثل هو حبة الدِّخن لا حبة القمح؛ لأنَّ حبة الدخن قد تنتج سبعمائة حبة. لكن بما أنَّ مزارعاً بوشهرياً (مدينة فى جنوب إيران) استطاع فى امثال القران، ص: ۷۹ السنوات الأخيرة ان ينتج ۴۰۰۰ حبة من حبة واحدة، لذلك فسرنا الحبة هنا بالقمح، وأمكننا القول بان لذلك وجوداً خارجياً. «۱»

۳– المراد من (يضاعف) فی الآیة الشریفة

اشارة

هل المراد من عبارة «واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ» أنَّ الله يمنح للمحسن والمنفق ما يشاء من دون حساب بأن يمنح الشخص (أ) ضعفين من الثواب بينما يمنح الشخص (ب) ثلاثة أضعاف؟ أو أنَّ المضاعفة لها حساب خاص وقواعد خاصة؟ إنّ حكمة الله تقتضى بأن لا يكون منح الثواب بشكل اعتباطى ومن دون حساب، بل جعل الأمر مرتبطاً بمفارقات من قبيل درجة الاخلاص وكيفية الانفاق ومورده وشخصية المُنْفِق والمنفَق عليه، أى أنَّ ثواب الشخص الذى انفق خالصاً لوجه الله يختلف عن ثواب الشخص الذى لم يبلغ تلك الدرجة من الاخلاص، والشخص الذى ينفق سراً ومن دون منة واذى يختلف ثواباً عن الشخص الذى ينفق علناً، فهما يقعان فى مرتبتين لا مرتبة واحدة. والمسلم الذى ينفق قرصاً من قرصى الخبز اللذين يمتلكهما يختلف عن المسلم الذى ينفق قرصاً وهو يملك عشرة أقراص من الخبز. كما أنَّ الشخص الذى يعين عائلة مسكينة لم يتفوهوا بحاجتهم لاحد يختلف عن الشخص الذى يعين عائلة طلبت الاعانة منه.

أرفع نموذج للإنفاق فى القرآن

فى القرآن سورة باسم (الدهر) أو (الإنسان) أو (الابرار) نزلت فى شأن الانفاق الخالص، وقد ادرجت هذه السورة اجمل نعم الجنة للمنفقين. العامة والخاصة نقلوا أنَّ السورة نزلت فى الامامين الحسن والحسين عليهما السلام حيث مرضا فنذر الامام على عليه السلام صيام ثلاثة ايام لشفائهما، فالتحقت فاطمة عليها السلام بهذا النذر، ثم فضة كذلك. وبعد الشفاء صام الجميع وقد اعدت فاطمة فى

الیوم الاول خمسة اقراص من خبز الشعیر امثال القران، ص: ۸۰ وعند الافطار طرق فقیر الباب طالباً العون فاعطی الجمیع اقراصهم له وافطروا علی الماء فحسب. وفی الیوم الثانی جاءهم یتیم، وفی الیوم الثالث جاءهم اسیر، وقد أعطوهما مثل ما اعطوا الفقیر فی اللیلة الاولی، وفی الیوم الرابع نزلت هذه السورة فی حقهم، «۱» وفیها توصیف وتمجید للانفاق ووعود بنعم عظیمة فی الجنة. وعلی هذا، فإنّ هذه العائلة حصلت علی ثواب عظیم اثر انفاقها لخمسة عشر قرصاً من الخبز. تقول الایات ۹ و ۱۰ من سورة الدهر: «إِنَّمَا نُطْعِمَکُم لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِیْدُ مِنْکُم جَزَاءً وَلَا شُکُوْراً إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا یَوْماً عَبُوْساً قَمْطَرِیْراً». النموذج المذکور وغیره من النماذج التی اثرناها عن المعصومین علیهم السلام، هی فی الحقیقة موارد نتأسی بها نحن المسلمون لنسیر قدماً نحو مجتمع اسلامی مقبول خلو من المفارقات الإقتصادیة. مما یمکن أنْ یُستشف من الاحادیث والروایات هو: أنَّ عدم الفقر والحاجة من خصائص المجتمع الاسلامی المطلوب. أی أنَّا إذا بلغنا یوماً مستوی اقتصادیاً رفیعاً وتنمیة صحیحة بحیث توزع الثروة فی المجتمع الاسلامی توزیعاً عادلًا فی جمیع البلاد الاسلامیة فانا قد بلغنا- من الناحیة الاقتصادیة- مستوی المجتمع الاسلامی المطلوب. إنَّ هذه العقیدة لیست شعراً ولا شعاراً ولا کلاماً عاطفیاً وذات صبغة احساسیة بل إنَّه مضمون روایة منقولة عن الامام الصادق علیه السلام: محمد بن مسلم من اصحاب الامام الصادق علیه السلام ینقل عن الامام قوله: «إنَّ الله عزوجل فرض للفقراء فی مال الأغنیاء ما یسعهم ولو علم أنَّ ذلک لا یسعهم لزادهم. إنهم لم یؤتوا من قبل فریضة الله عزوجل ولکن اوتوا من منع من منعهم حقهم لا مما فرض الله لهم ولو أنَّ الناس ادوا حقوقهم لکانوا عایشین بخیر». «۲» امثال القران، ص: ۸۱ المجتمع الذی یضمُّ فُقَرَاء، لا یکون الفقراء المتضرّرین الوحیدین من هذا المجتمع، بل اضرار الفقر تعم جمیع المجتمع، فإنَّ الفقر منشأ کثیر من الذنوب منها: السرقة والاعمال المنافیة للعفة وغیر ذلک. وقد جاء فی روایة أخری للامام الصادق علیه السلام: «ولو أنَّ الناس ادوا زکاة اموالهم ما بقی مسلم فقیراً محتاجاً لاستغنی بما فرض الله وأنَّ الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا الا بذنوب الأغنیاء». «۱» وحسب هذه الروایة فإنَّ الحقوق الشرعیة الواجبة مثل الخمس والزکاة تسد حاجة المحتاجین، واذا ما تم العمل بهذه الواجبات، فإنَّ هذه المعضلة ستُجتث جذورها بالکامل. یطرح هنا تساؤل وهو: ما الحاجة إلی الانفاق والتبرعات المستحبة إذا کانت التبرعات الواجبة تعمل عملها وتسد حاجة الفقراء إلی المال؟ وعلی هذا فما دور الآیة ۲۶۱ من سورة البقرة فی هذا المجال؟ یمکننا الاجابة عن هذا السؤال بطریقتین: الاولی: قد یتخلّف بعض المتمولین والاغنیاء عن وظائفهم الشرعیة ولا یدفع ما علیه من الزکاة الواجبة- کما هو الحال فی الوقت الحاضر فان کثیراً من المتمولین غیر موفقین فی دفع ما علیهم من الزکاة الواجبة، وفی هذه الحالة یأتی دور الصدقات والتبرعات المستحبة لتملأ الفراغ الناشئ عن عدم دفع الاغنیاء لما علیهم من صدقات واجبة. وعلی هذا، فالمحسنون من المؤمنین یقومون بدور الاغنیاء العصاة ویتحملون نتائج عصیانهم، هذا اضافة إلی ما یتحملون من دفع الصدقات الواجبة علیهم. الثانیة: إنّ الزکاة وغیرها من التبرعات الواجبة والمفروضة علی الاغنیاء تسد الحاجة الضروریة للفقراء إذا ما دفعت. واما الانفاق فدوره یبرز فی التوسیع علی الفقراء لیبلغ بهم مستوی رفاهی نسبی ومعتد به. فی النتیجة: إذا اخذنا بنظر الاعتبار مستوی الفقر ونوعیته فی المجتمع یمکننا الحکم فی ضوئه علی مستوی اقترابنا من المجتمع الاسلامی المطلوب.

۴- دراسة المشبَّه فی آیة الانفاق

للمفسرین رأیان فی تحدید المشبّه فی الآیة ۲۶۱ من سورة البقرة، فبعض قال بأنه المال المنفق، حیث شُبِّه بالحبة المبارکة التی تنتج سبعمائة حبة. وقال بعض آخر: بأنَّ المشبَّه هو المنفِق الذی ینمو ویتکامل إلی مستوی رفیع جداً. اکثر المفسرین یعتقد بأنَّ المشبَّه هو المال المنفق ویقدرون جملة محذوفة هنا لتکون حقیقة الآیة کالتالی: (مثل اموال الذین ینفقون ..). ونحن نعتقد أنَّ الآیة لا تحتاج إلی التقدیر، وحسب الظاهر فإنَّ المشبَّه هو الإنسان المنفِق الذی تعلو شخصیته وتتکامل وتنمو إلی مستوی سبعمائة ضعف، ومصداق هذا الاعتقاد هو الایات والروایات التی دلت علی أنَّ الإنسان کالنبات ینمو ویتکامل. أولًا: یقول الله فی الایات ۱۷ و ۱۸ من سورة نوح: «واللهُ أَنْبَتَکُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ثم یُعیدُکُمْ فیهَا ویُخْرِجُکُمْ إخْرَاجاً» فقد شُبّه الإنسان هنا بالنبات الّذی یُزرع لینمو ویتکامل ثم یجف ثم

یحیا مرة أخری ثم یجف ثم یحیا وهکذا ... ثانیاً: یقول الله فی الآیة ۳۷ من سورة آل عمران: «فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيا ...» فقد استخدم هنا مادة الانبات للاشارة إلی تربیة مریم من قبل زکریا، والشاهد هو تشبیه تربیة الإنسان بتنمیة الزرع بعد انباته. ثالثاً: جاء فی حدیث نقل عن الرسول صلی الله علیه و آله: «إیاکم وخضراء الدمن!» قیل وما خضراء الدمن؟ قال: «المرأة الحسناء فی منبت السوء» «۱» فقد شبه الإنسان هنا بالنبات الذی قد ینبت فی مکان سیء. من جانب آخر، انَّ فی هذا الحدیث خطاباً واضحاً ووصیة مهمة للشباب المقبلین علی تشکیل عائلة. ففی هذا الحدیث یوصی الرسول صلی الله علیه و آله المؤمنین أنْ لا یجعلوا الجمال المقیاس الوحید لانتخاب الزوجة بل اضافة الیه ینبغی النظر إلی العائلة، أی المکان الذی تربت فیه الزوجة، وذلک رغم أنَّ الجمال بحد ذاته قیمة إلّا أنّه یرضی الزوج فی الفترة الوجیزة الاولی من امثال القران، ص: ۸۳ الحیاة المشترکة، أمّا القیم الأساسیة والمهمة فی الحیاة العائلیة، وهی التربیة والثقافة والفکر والقیم المکتسبة فی البیت فیبرز دورها فی المراحل اللاحقة من حیاة الإنسان. والجمیلة إذا لم تتمیز بسیرة حسنة واخلاق جمیلة بدلت محیط العائلة المقدس إلی جهنم یصعب تحملها. کما شاهدنا فی الایات والروایات السابقة، فإنَّ الإنسان شبّه بالنبات الذی ینمو ویتکامل، وبهذا یمکن أنْ نستدل علی أنَّ المُراد من المشبَّه فی الآیة هو الإنسان نفسه. وفی النتیجة یکون مفهوم الآیة کالتالی: أیها الإنسان أنت کالنبات والإنفاق بمثابة الماء الذی یسقی النبات لیمنحه حیاة ونمواً. وبعبارة أخری: إنَّ الانفاق یُحیی فی الإنسان الصفات العلیا مثل السخاء والعطاء والمروة والانصاف والشجاعة وغیر ذلک. إنَّ هذه الصفات فی البدایة تکون (فعلًا) أو عملًا مجرداً، واذا ما تکررت تصبح عادة وفی صورة الاستمرار تصبح (حالات) وفی النهایة تکون (ملکة) «۱» وجزءاً من وجود الإنسان. وعلی هذا، فالانفاق، قبل ان تکون له عوائد مادیة، له مردودات معنویة، وکلما کان الانفاق عن اخلاص اشد وکلما کان اطهر وانسب کلما کانت هذه المردودات اکثر وأوسع. وقد نکون جمیعاً جربنا عطاءنا مسکیناً لم یصّرح بحاجته لنا مقداراً من المال (رغم حاجتنا له) وجدنا فی ذلک لذة معنویة احسسناها بکل وجودنا، وبلغنا إثر ذلک هدوءاً باطنیاً وحالة روحانیة ومعنویة خاصة. ذلک هو النمو والتعالی الذی تشیر الیه الآیة من خلال مثلها. إنَّ الله القادر والحکیم بامکانه أنْ یغنی الجمیع ویجتث جذور الفقر من المجتمعات، لکنه شاء أن تکون هناک فجوة بین الفقراء والأغنیاء یسعی المؤمنون فی ملئها لیروا آثار أعمالهم الحسنة وبرکات انفاقهم فی الدنیا ویشعروا بهذه الاثار ویبلغوا اثر ذلک الدرجات العلیا من الکمال والمعنویة. وعلی هذا فلا نمن علی الله بالانفاق ولا ـ علی المنفق علیه، بل الله هو الذی یمن علینا أنْ وفقنا لهذا العمل العظیم (اللهم وفقنا لما تحب وترضی). امثال القران، ص: ۸۴ ومن مجموع ما مضی یمکننا ان نفسر الآیة ۲۶۱ من سورة البقرة بصراحة من دون حاجة إلی تقدیر جملة محذوفة. رغم ذلک فانا لا نصر علی تفسیرنا بل نعتبر أنَّ کلا التفسیرین مقبولان، أی یمکننا القول: الآیة تفید أنَّ مال الفرد المنفق ینمو کما أنَّ شخصیته تنمو من خلال نمو وتکامل خصالها الحسنة. «۱»

نمو المال المنفق فی کلام الرسول صلی الله علیه و آله

فی مجال نماء المال المنفق، للرسول صلی الله علیه و آله کلام جمیل ننقله هنا: «ما تصدق احد بصدقة من طیب- ولا یقبل الله الا الطیب- إلَّا أخذها الله الرحمن بیمینه وإن کانت تمرة فتربو فی کف الرحمن حتی تکون اعظم من الجبل». «۲» فی هذه الروایة نری عدة نقاط أهلًا للإنتباه: الاولی: الروایة صرحت بأنَّ الله یاخذ الصدقة بیمینه وهذا أمر یطرح تساؤلًا: هل لله جسم وأعضاء؟ من البدیهی أنّ الله غیر مجسم، وتعبیر (الاخذ بالیمین) کنایة عن قدرة الله الکاملة، وذلک لأنَّ الیمنی عند الإنسان غالباً اقوی، لذلک کان مفهوم العبارة أنَّ الله یأخذ الصدقة بقدرة کاملة مع احترام. الثانیة: انّ ما یحضی بالأهمیة فی الإسلام هو کیفیة العمل ودوافعه لا کمیته وظاهره. وعلی هذا، فإنّ اعطاء تمرة حلال لمسکین من دون منة ولا أذی افضل عند الله من تمر کثیر غیر حلال أو تزامن مع منة أو أذی. الثالثة: وفقاً لهذه الروایة، فإنّ المال المنفق ینمو إلی سبعمائة ضعف أو أکثر. وعلی هذا الأساس، فإنَّ المال یبقی عند الله ینمو ویرد إلی صاحبه یوم القیامة لیکون سبباً لانقاذه من نار الجحیم.

(الانفاق) فی تعابیر القرآن الجمیلة

لاجل بیان اهمیة الانفاق فی الإسلام وقیمته فی القران، وردت فی القرآن تعابیر کثیرة عن هذا الأمر، وهی اهل للالتفات والدقة نکتفی هنا بـذکر نموذجین منها: الأول: جاء فی الآیة الشریفة ۲۴۵ من سورة البقرة مـا یلی: «مَنْ ذَا الّذِی یَقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَیُضَاعِفَهُ لَهُ أضْعَافاً کَثِیْرَةً». التعبیر بـالقرض الحسن عن الانفـاق تعبیر بـدیع ومـدهش. کیف یمکن لله القـادر والمالک لکل شـیء أنْ یقترض من الإنسان الفقیر والمحتاج لربه فی کل حرکاته وسکناته وحتی فی الشـهیق والزفیر؟ ومع لحاظ أنَّ القرض الربوی فی الإسلام حرام فإنّ التعبیر عن الانفاق بالقرض الحسن لا یکشف إلّا عن اهمیـة الانفاق وتشـجیع للعباد لاجل اداء هذا العمل بإخلاص. ویبدو أنَّ ذکر هذه النقطـة ضروری، وهی أنَّ (القرض الربـوی) نـاظر إلی العبـاد وسلوکهم بینمـا القرض الحسن نـاظر إلی رب العبـاد، وهو یعنی أنَّ من یقرض الله قرضاً فالله یرجعه مع اضـعاف مضاعفة. والنقطة المدهشة کثیراً هنا هی أنَّ یَد الفقیر- حسب الآیة والروایات المذکورة- هی یـد الله، وبیته هو بیت الله. وفی الحقیقة ان ما یوضع فی ید الفقیر یوضع فی ید الله، ولذلک کانت الروایات توصـینا بأنْ نضع ایدینا فی مستوی ادنی من ید الفقیر عند التصدق إلیه، لأجل أنْ یَأخذها من أیدینا، ولأنَّ یده هی ید الله وقدرته الکاملة، وهو الذی یستلم المال من المتصـدق. حـذارا أن تصـدر منا اهانـة أو تحقیر لفقیر. وقـد تکررت العبارة المذکورة هنا فی الآیة ۱۱ من سورة الحدیـد، کما قد اضـیف لهـا جملـة أخری: «مَنْ ذَا الـذی یُقْرِضُ اللهَ قَرْضَـاً حَسَناً فَیُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أجْرٌ کَرِیمٌ ...». الثانی: جاء فی الآیـة ۹۲ من سـورة آل عمران: «لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَیءٍ فإنَّ اللهَ بِهِ عَلِیمٌ ...». وکذا جاء فی الآیة الشریفة ۲۶۷ من سورة البقرة «یَا أیُّهـا الَّذِینَ آمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَیّباتِ مَا کَسَبْتُم وَمِمَّا أخْرَجْنَا لَکُمْ مِنَ الأرْضِ»، أی علیکم أن لا تنفقوا الا من الطیبات فلا تنفقوا من امثـال القران، ص: ۸۶ الاشـیاء التی لا ـ فائـدة فیها أو مضـرة مثل الملابس الخلقـة أو الفواکه والمأکولات الفاسـدة وما شابه ذلک، بل تـذهب الآیـة إلی ابعـد من ذلک لتأمر بانفاق ما یحبه الإنسان، والـذی هو أهل لان یعطی بید الله، فإنَّ غیر ذلک لیس أهلًا لوضـعه بید الله، فالانفاق بالاکل ینبغی أنْ یکون من النوع الـذی یحبه المنفق له ولعیاله وفی الملابس من النوع الذی یحب لبسه المنفق واهل بیته. إنَّ نظام القیم الحاکم فی الإسـلام یحکی عن منـح الإسـلام القیمـة والاهمیـة لکیفیة العمل لا کمیته ومقداره، ولهذا یضاعف الله أجرة تمرة واحدة ألف ضعف، بینما لا یفعل ذلک فی تمرة أُخری؛ لأنَّها قد لا تکون مکتسبة من حلال أو قد تنفق بنیة الریاء وما شابه. ننقل هنا حکایـة عن الرسول صـلی الله علیه و آله تکشف عن دقائق الانفاق: کان الرسول یعدُّ العدة لاحد غزواته وکان المسـلمون یتبرعون لاجل هـذه الغزوة .. فجاء رجل فتصـدق بشـیء کثیر فقالوا: مراء، وهذا القول صدر من المنافقین الذین لا یامن احد من لسانهم، وجاء أبو عقیل، الـذی ما کان مورده یسعه للتصـدق فاضـطر للعمل لیل نهار لاجل الاشتراک فی هـذه التعبئة الجماهیریة، بنصف صاع فقال المنافقون: إنّ الله لغنی عن صدقة هذا، فنزلت الآیة ۷۹ من سورة التوبة: «الّذِیْنَ یَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِینَ مِنَ المُؤمِنِینَ فِی الصَّدَقَاتِ والّذینَ لَا یَجِدُونَ إلّا جُهْدَهُم فَیَسْخَرُونَ مِنْهُم سَخِرَ اللهُ مِنْهُم وَلَهُمْ عَذَابٌ ألِیْمٌ». «۱» امثال القران، ص: ۸۷

المثل السادس: الإنفاق مع المنِّ والأذی

اشارة

یقول الله تعالی فی الآیة ۲۶۴ من سورة البقرة: «یَا أیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَـدَقَاتِکُمْ بِالمَنِّ والأذَی کَالّـذِی یُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النَّاسِ وَلَا یُؤمِنُ بِاللهِ وَالیَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ صَـفْوَانٍ عَلَیْهِ تُرَابٌ فأصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَکَهُ صَـلْداً لَا یَقْـدِرُونَ عَلی شَـیءٍ مِمّا کَسَـبُوا وَاللهُ لَا یَهْدِی القَوْمَ الکَافِرِیْنَ». المثلاـن الخـامس والسـادس کلاهما حول الانفاق لکنهما غیر مکررین، بل إنَّ المثل الخامس حکی فضل الانفاق وقیمته، أمّا فی المثـل السـادس فالحـدیث عن الانفـاق ذات الصـبغة السـلبیة وأنَّ المؤمنین لا ینبغی أنْ یبطلوا صـدقاتهم وانفاقهم بالمنّ وأذی الآخرین.

الشرح والتفسير

الآية بدأت حديثها بخطاب المؤمنين، ومعنى ذلك أنَّ ما ورد في الآية من اوامر فهى خاصة بالمؤمنين، وشرطها الاول هو الايمان وأن الـذى خرج مصداقاً عن هذه الآيـة وكـان غير عامـل بها فهو ليس بمؤمن. عبارة «لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالمَنِّ والأذَى» تفيـد أنَّ شيئين يبطلان الصدقـة، الأول: المنّ، والثانى: ايصال الاذى للاخرين؛ وذلك لأنَّه قـد لوحظ أنَّ البعض يتصـدق على آخرين لكن صـدقته تتزامن مع اذى إلى آخر العمر، بأن يقول له: (لولاى لكنت محتاراً وما كان لك شأن واعتبار) أو (خذ هذا المبلغ ولا ترينى وجهك بعد ذلك). امثال القران، ص: ۸۸ ليس المنّ والاذى هما الوحيدان اللذان يبطلان الصدقة، بل قطع كلام الفقير الذى يريد حكاية حاله ومشاكله أيضاً أمر غير صحيح ومرفوض. جاء فى رواية: «لا تقطعوا على السائل مسألته، فلولا أنَّ المساكين يكذبون ما افلح من ردهم». «۱» لا بأس هنا ان نبتّ بتوضيح مفردة (المنّ). إنَّ أصل هـذه المفردة هو (مَن) وهو وزن خاص، وقد استخدمت هذه المفردة للاشارة إلى المعنى المراد فى الآية؛ لأجل أنَّ الشخص المانَّ يحمّل الممنون عليه عبئاً وثقلًا يشعر به. من جانب آخر، فإنَّ انعام الشخص على آخر يقال له (منّ) وهو على قسمين: الأول: المنّ العملى بأنْ ينعم شخص عملياً على شخص اخر، وهذا أمر مستحسن. الثانى: المنّ الادعائى بان ينعم شخص على اخر بالقول دون العمل، فهو عملياً لم ينعم عليه أبداً. وقد استخدمت هذه المادة فى القرآن المجيد عشرين مرة. من موارد استخدام هذه المادة هو ما جاء فى الآية ۱۷ من سورة الحجرات: «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أنْ أسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أنْ هَدَاكُم للإيمَانِ». فالمنُّ الاول فى الآيـة هو منٌّ إدعائى، وذلك لأنّ الاعراب لم يمنوا على النبى بأى نعمـة. فإنَّ المريض إذا جاء طبيباً وطلب منه الدواء فكتب الطبيب الدواء له وشفى من جرّاء استخدام هذا الدواء، فهل هذا يعنى انعام المريض ومنه على الطبيب؟! أمّا المنُّ الثانى فى الآيـة فهو مَنٌّ عَمَلَيٌ؛ وَذلك لأنّ الله أنعم عليهم نعمة الإسلام، فَمَنَّ عليهم بهذا العطاء. وعلى هـذا، فـالمَنّ الصـادر مـن الله يعنى البـذل والعطـاء أو المنّ العملى، أمّا المنّ الصـادر من الإنسـان فيحتمـل كلا المعنيين العملى والإدعائى. والمنّ الأول فى الآية هو منّ ادعائى وقولى. ثم تمثل الآية هؤلاء الاشخاص بقطعة من الحجر وتقول: «... كالّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ باللهِ واليَومِ الآخر فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فأصَابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا امثال القران، ص: ۸۹ يَقْدِرُونَ عَلى شَيءٍ مِمَّا كَسَبُوا ...». فالذى ينفق مع منّ واذى (كالكافر المرائى) انفاقه غير مقبول عند الله؛ لأنَّ الإيمان هو شرط القبول، ومثل هذين (أى المـان والمؤذى من جهـة والكـافر المرائى من جهـة اخرى) كمثـل صـفوان، أى قطعـة من الحجر تراكمت عليها طبقـة من التراب بحيث تبدو صالحة للزراعة، فاذا بوابل (مطر) يصيبها ليكشف عن واقعها الصلد المتحجر وعدم صلاحيتها للزراعة، فيجدون أنفسهم «لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ» فـذهبت مساعيهم هباءً؛ لأنَّ عَملهم لم يكن عن علم ومعرفة بل كان بناءً على النظر إلى الظاهر لا الباطن والعمق. الغيث نعمـة يمكنه أنْ يروى المزارع وينمى البـذور، كما يمكنه ان يدمر الزرع. كذلك سائر آيات الله فهى تفيد المؤمنين والصالحين من بركاتها، كما تفضح وتضل الكافرين والمنافقين. إنَّ كلفـة وزحمـة المزارع الذى يزرع بذور الاخلاص والمزارع الذى يزرع بذور الرياء واحـدة لكنَّ حاصل الزرعين ليس واحداً، فاحدهما يحصل على سبعمائة ضعف والاخر قد لا يحصل على ادنى شىء بل يفقد كل ما كان لديه.

خطابات الآية

۱- خطابـات القرآن المجيـد غالباً ما تكون عامـة (يا أيُّها النَّاس) و (يا بَنِى آدَمَ) و (يا أيُّها الإنْسَانُ) و (يَا أيُّها الَّذِين آمَنُوا) وهـذا يعنى تعميم خطابـات القرآن لجميع البشر مهما كان جنسـهم ومهما كانت قوميتهم، ولـذلك لا نجـد فى خطاباته عبارات من قبيل: (يا أيُّهَا العَرَبُ) أو (يا قريش) وما شابه ذلك. هذه الخطابات تتضـمن نقطة ظريفة وهى عولمة الدين الاسلامى، أى ان الإسلام دين لا يختص بقوم أو بلدٍ أو قبيلـة أو جنس بل هو للجميع اينما وجـدوا. ۲- إنَّ الريـاء والتظـاهر عمـل لا أساس له ولا تواصل، والمترائى والمتظاهر

يحكم عليه بالفضيحة؛ وذلك لأنَّ كلّ وقتٍ يحتمل أنْ طروّ ظاهرة تكشف عن وجه الحقيقة، كما كشف الوابل فى الآية عن حقيقة الصخرة المتحجرة. ۳- إنَّ الذين ينفقون مع المنِّ والأذى كالحجارة وقلوبهم بشدة الحجارة. وما يلفت امثال القران، ص: ۹۰ الانتباه هنا هو أنَّ المطر اللطيف يكشف عن قسوة قلوب هؤلاء وطبيعتهم. إنَّ الغيث يروى البذرة لتنمو، لكن دوره هنا هو تدمير هذه البذرة. إنَّ الغيث من الآيات الالهية تنفذ فى قلب المترائى فتغسل فيه طبقة الرياء وتكشف عن صلابة القلب، ليفتضح صاحبه. ۴- انّ المترائين والمنفقين، الذين يمنون، لا يحصلون على ثمرة من جرّاء عملهم هذا، كما هو الحال بالنسبة للمزارع الذى ينثر البذور فى الارض الصلبة فانه يفقد بذوره كما تذهب مساعيه هباء، وفى النهاية لا يحصل على أى ثمرة، كذا المنفق مع الرياء فهو لا يحصل على أى ثواب كما يفقد المال المنفق. ۵- بناء على التفكير الفلسفى لاكثر المدارس، وبناء على ما يعتقده عامة الناس، فإنَّ المال شيء ثمين، والغنى يُعدُّ من القيم. وحسب ما يرى الإسلام- مع الاخذ بنظر الاعتبار اهمية المال ودوره فى الحياة الدنيا- فإنَّ مفاهيم مثل الايمان والايثار والشهادة و .. لها قيمة اكبر من المال. ومن جملة تلك القيم التى يعتقد بها الإسلام هى احترام الانسانية وحفظ حرمة المؤمن وكرامته. وعلى هذا، هل يمكن عدُّ عمل الشخص، الذى يمنح مبلغاً لمسكين أمام أعين الناس ويُذهب بذلك اعتباره وماء وجهه، صدقة أو انفاقاً؟ وهل من الصحيح أنْ يتوقع هذا الشخص الأجر والثواب من الله؟ من المؤسف أنَّ نظام القيم للمذاهب المادية هو المال، ومظهره الراهن هو الدولار، وهو بامكانه ان يبرر كل شيء حتى الجرائم التى ترتكب فى حق الإنسانية. من تلك الجرائم هو مبايعة الإنسان وبخاصة البنات والبنين الصغار، فإنَّ دلالى البشر يقومون بشراء البنات والبنين من الدول الفقيرة وبخاصة الشرقية بابخس قيمة ثم يبيعونهم فى الدول الغربية المدافعة عن حقوق البشر بمبالغ باهضة. وقد يساء استخدام هؤلاء الاطفال بقطع اعضائهم وزرعها فى أجسام بعض المتمولين فى العالم الغربى، كما قد يستخدمون لاغراض جنسية وتجارية. ومن جملة اجراءات الغربيين التى بررتها دولاراتهم هى (الديمقراطية) التى تشكل البنية الاساس لدعوى حقوق البشر عندهم، فقد تم المعاملة على هذه القضية بالدولارات. ومثل امثال القران، ص: ۹۱ ذلك هو أصوات الشعب الجزائرى المظلوم حيث أبطلت وبتوا علاوة على ذلك بسلسلة من اجراءات تعسفية ومجازر جماعية، لكنّ مدعيى حقوق البشر فى الجزائر عمى وصم وبكم، فلا سمعوا بهذه المجازر ولا رأوا صورها ولا غير ذلك. إنَّ ذلك فى الحقيقة من الاثار القيمة للدولار؛ وذلك لأنَّ هذه الحوادث تؤمّن مصالحهم، بل انفسهم مباشرة أو بشكل غير مباشر يقومون بهذه الاجراءات؛ حفظاً لمصالحهم. هذا الامر لا ينحصر فى الجزائر بل الامر عام فى العالم أجمع، فإنَّ أى حكومة فى العالم تؤمن مصالحهم ولا تحول دون زيادة مواردهم تعد حكومة جيدة مهما كانت قبلية أو بدوية أو لا يلحظ فيها أى دور لآراء الناس، بينما الحكومة التى تعرض مصالحهم واموالهم للخطر فهى حكومة غير انسانية ومخالفة لحقوق البشر ولو كانت تحضى بمعالم انسانية عالية وتدار بواسطة نظام سياسى متقدم. إنَّ الأمر فى الإسلام يختلف، فنظام القيم فيه يبتنى على قيم من قبيل الايمان والكمال الانسانى وكرامة الإنسان واعتباره وشرفه وحيثيته الرفيعة.

سيرة الائمة فى الإنفاق والبذل

إنَّ طريقة بذل الائمة وكيفيتها من الحكايات التى يُعتبر ويُتعلم منها الدروس. ينقل العلامة المجلسى عند ذكر سيرة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام الحكاية الجميلة التالية التى ملؤها العبر والدروس: «خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر (زوج زينب عليها السلام) حجاجاً ففاتهم اثقالهم، فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز فى خباء لها فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم فاناخوا بها وليس الا شويهة فى كسر الخيمة، فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها، ففعلوا ذلك وقالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا إلَّا هذه الشاة، فليذبحنّها احدكم حتى اهيئ لكم شيئاً تأكلون. فقام اليها أحدهم فذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا ثم اقاموا حتى ابردوا فلما ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فاذا رجعنا سالمين فالمى بنا فانا صانعون اليك خيراً، ثم ارتحلوا. امثال القران، ص: ۹۲ واقبل زوجها واخبرته عن القوم والشاة، فغضب الرجل وقال: ويحك تذبحين شاتى لاقوام لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من

قريش. ثم بعد مدة الجأتهم الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها وجعلا ينقلان البعير اليها ويبيعانه ويعيشان منه فمرت العجوز فى بعض سكك المدينة، فاذا الحسن عليه السلام على باب داره جالس فعرف العجوز وهى له منكرة، فبعث غلامه فردها فقال لها: يا امة الله تعرفينى؟ قالت: لا. قال انا ضيفك يوم كذا. فقالت العجوز بأبى أنت وأمى فامر الحسن عليه السلام فاشترى لها ما شاء الصدقة ألف شاة «۱» وامر لها بألف دينار وبعث بها مع غلامه إلى اخيه الحسين عليه السلام فقال: بكم وصلك اخى الحسن؟ فقالت: بألف شاة والف دينار، فامر لها بمثل ذلك، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر عليه السلام فقال: بكم وصلك الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقالت: بألفى دينار والفى شاة فامر لها عبد الله بألفى شاة والفى دينار». «۲»

الصدقة تدفع ميتة السوء «۳»

لقد قلنا سابقاً: إنَّ الصدقة تفيد المنفق قبل أنْ يفيد منها المحتاج، وقد درسنا فى السطور السابقة ما يترتب على الصدقة من صفات كمالية اضافة إلى الاجر والثواب المعنوى، ونقول هنا: بأنَّ الصدقة تدفع البلاء والموتة السيئة، والرواية التالية تكشف عن هذا الامر. مرَّ يهودى بالرسول صلى الله عليه و آله فقال: السام عليك «۴» فاجاب الرسول: «وعليك»، فقال النبى صلى الله عليه و آله: «إنَّ هذا اليهودى يعضه اسود فى قفاه فيقتله»، قال: فذهب اليهودى فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله ثم لم يلبث أنْ انصرف فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله: «ضعه» فوضع الحطب امثال القران، ص: ۹۳ فاذا اسود فى جوف الحطب عاض على عود فقال: «يا يهودى أى شىء عملت اليوم؟» فقال: ما عملت عملًا إلّا حطبى هذا احتملته فجئت به وكان معى كعكتان فاكلت واحدة وتصدقت بواحدة على مسكين، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: «بها دفع الله عنه» وقال: «إنّ الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان». «۱»

المثل السابع: الإنفاق اللائق

اشارة

يقول الله الرازق فى الآية ۲۶۵ من سورة البقرة: «وَمَثَلُ الّذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُمْ ابتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أنْفُسِهِم كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أصَابَهَا وابِلٌ فأتَتْ أُكلَهَا ضِعْفَيْنِ فإنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيْرٌ». رغم أنَّ هذا المَثل كَسَابقه عن الإنفاق لكن يختلف عنه فى أنَّه يعكس الجوانب الايجابية للانفاق والمناظر الجميلة له غير تلك المناظر التى تحدث عنها المثل السابق والتى تزامنت مع المنّ والأذى، لأنَّ الحديث هنا عن الانفاق المتزامن مع الاخلاص.

الشرح والتفسير

يقول الله فى هذه الآية: إنّ مثل الذين ينفقون باخلاص ومن دون رياء وأذى كمثل البستان فى مكان مرتفع ذات تربة خصبة يسقيها الغيث، والشمس تسطع عليها من كل مكان، فكانت النتيجة هى محاصيل وافرة ومضاعفة، قياساً لمحاصيل الأراضى المماثلة، والذين ينفقون بمثابة البستان ويكون انفاقهم كمحاصيل هذا البستان وافراً ومتضاعفاً. إنَّ دَوافِع الإنفاق عند هؤلاء وفقاً لهذه الآية هى كالتالى: الاول: «ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ» وهذا اشارة إلى الحديث المعروف عن الامام على عليه السلام: «ما عبدتك خوفاً من نارك» رغم أنَّ ناره مخيف تصورها فضلًا عن واقعها. «ولا طمعاً فى جنتك» رغم أنَّ نعمها ثمينة وقيّمة جداً ولا يمكنها أن تدخل فى مخيلة الانسان. «۱» امثال القران، ص: ۹۶ «لكن وجدتك اهلًا للعبادة فعبدتك» «۱» أى أنَّ أهليته للعبادة هى التى دفعت الامام للعبادة لا الخوف والطمع. إنَّ النوع الاول من العبادة هو عبادة العبيد؛ لأنَّ العبد يَمتثل الاوامر خوفاً من مولاه وسوطه. والنوع الثانى من العبادة هو عبادة التجار؛ لأنَّ العبادة هنا يُتوخَّى منها الثمن والعوض. والنوع الاخير من العبادة هو عبادة الاحرار، حيث إنَّ اطاعتهم لمولاهم لا خوفاً ولا طمعاً بل

لله خالصة. «۲» وقـد تکون الآیـة الشـریفة هنـا نـاظرة إلی النوع الاخیر من العبادة، أی أنَّ الإنفاق هنا لم یتوخَّ منه إلّا وجه الله ورضوانه. الثانی: الدافع الثانی للمنفقین فی الآیة الشریفة هو بلوغ الکمالات النفسانیة والملکات الروحانیة، حیث قالت الآیة: «تَثْبِیتاً لأنْفُسِهِمْ»، وقد جـاء فی مفردات الراغب أنَّ التثـبیت یعنی التقویـة والتحکیم. بـالطبع لیس المراد من التثـبیت فی الـدعاء «اللَّهُمَّ ثَبِّتْ أقْدَامَنَا» هو تقویة الاقدام وتحکیمها، بل المراد تقویة خطی الاقدام وتحکیم هذه الخطی. «۳»

خطابات الآیة

۱- فی هـذا المثل شُبِّه المنفِق بالجنة «۴» والبسـتان الـذی یقع فی ارضٍ مرتفعـة، وفی هکـذا أرض توجـد عدة خصائص هی کالتالی: الف- نور الشـمس من العوامـل المهمـة لنمو النباتـات، والارض المرتفعـة تنال نور الشـمس من کل صوب؛ لأنه لا شـیء یحول دون السـطوع المباشـر علیهـا. امثال القران، ص: ۹۷ بـاء- جو المنـاطق المرتفعـة کثیراً مـا یکون نقیـاً وذلـک یعـد من عوامل نمو الاشـجار وإثمارها. جیم- الأراضـی المرتفعـة محفوظة من السـیول والفیضانات، بینما البساتین التی تقع فی السـهول والودیان والشواطئ کثیراً ما تکون عرضـة للفیضانات. دال- أنَّ جمال وعظمـة بسـتان یقع فی مرتفع اکثر بکثیر من جمال وعظمة بسـتان فی سـهل. وعلی هذا، فإنَّ منفقین کهؤلاء یتلقون انوار الهدایـة اکثر من غیرهم هـذا أولًا. وثانیاً: ینالون من نسـیم بذل الله وعطاءه النقی بشـکل افضل. وثالثاً: قلما یکونون عرضـة للبلایا ومیتـة السوء. ورابعاً: یبـدون محبوبین عنـد الاخرین اکثر؛ لما یحضون به من معنویات عالیـة. المشـکلة الوحیدة لهکذا بساتین هی أنَّها محرومة من امکانیة جریان قنوات وسواقی فیها، ولاجل ذلک ینزل الله وابلًا من المطر کثرته تروی تربة البسـتان بالمقدار الکافی. ۲- أشارت الآیة الشـریفة إلی نوعیة المطر (وابل) وهی قد تکون ناظرة بذلک إلی درجات الانفاق؛ باعتبار أنَّ الوابل أو المطر الکثیر یروی البسـتان بالکامـل ونتیجـة ذلک هو الثمار والفواکه الکثیرة أمّا المطر القلیل فلا یروی الاشـجار ولا ینضـج الثمار جیـداً. هنـاک فرق فی الانفاق فی سبیل الله بین أن یکون المنفق بحاجـة إلی المال المنفَق وبین أنْ لا یکون هناک حاجـة له. رغم أنَّ الإنفـاق فی کلاـ الحالتین رضاء لوجه الله. کما أنَّ هناک فرقاً بین أنْ یصل المال المنفق إلی من یحتاجه حقاً وبین أنْ یصل بیـد من لا یحتاجه حقاً. ذیل الآیة القائل: «واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیْرٌ» شاهد قیِّم علی ما قلناه فی المقطع السابق حیث إنَّ مضمون هذا الذیل هو أنَّ الله بصیر وعلیم بکون هذا المنفِق انفق رغم حاجته للمال أو لا أو أنَّه انفقه للمستحق أم لا. ۳- موضوع الانفاق فی الایات الشریفة ۲۶۲ و ۲۶۳ و ۲۶۵ من سورة البقرة هو انفاق المال والثروة، فالایات تحـدثت عن الانفاق فی الثروات من المال والثیاب والمأکولات والادویة والکتب والقرطاسیة ووسائل العمل وما شابه ذلک، إلّا أنَّ الآیة الثالثة من سورة البقرة وسّعت نطاق الانفاق لیشمل کل ما انعم من نعم. وقد عدت الآیة الانفاق من صـفات امثال القران، ص: ۹۸ المؤمنین «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ یُنْفِقُونَ». «۱» وحسب هذه الآیة فإنَّ موضوع الإنفاق عـام ویشـمل جمیـع نعـم الله وارزاقه، مثـل المـوارد التالیـة: ألـف- العلم، علی العلمـاء أن یبـذلوا من علمهم، وذلـک من خلاـل تعلیم الآخرین، وإلّا حُکوموا کالمحتکرین فی محکمـة العدل الإلهی. وقد جاء فی روایة للامام الصادق علیه السـلام «زَکَاةُ العِلْمِ نَشْرُهُ». «۲» بـاء- نفـوذ الکلاـم وهـو مـن ارزاق الله، ومن المسـتحسن أنْ ینفـق منه. فـاذا شاهـدت اختلافـاً بین زوج وزوجته أو بین الجیران أو بین شریکیـن أو بیـن الاـخوة والاـخوات أو بیـن اهـالی قریـة و .. فمن المسـتحسن اسـتخدام النفـوذ للمصالحـة. جیم- الاعتبـار والجـاه فی المجتمع، وهذه نعمة الهیئة أخری ینبغی أنْ ینفق منها، فاذا ما کان مظلوم متورطاً فی مخالب ظالـم وکان بالامکان الشفاعة لهذا المظلوم باسـتخدام الوجاهـة والإعتبـار الاجتمـاعی وانقاذه من مخالب الظالـم فلا ینبغی التکاسل، بل ینبغی العمل باشتیاق. د- الاولاد، وهی من اکبر نعم الله وینبغی انفاقهـا فی سبیـل الله متی مـا اقتضت الحاجـة، کمـا حصـل ذلـک للشـعب الایرانی اثناء الثورة الاسـلامیة والحرب المفروضة فقد ضحّوا باولادهم دون أنْ یبخلوا بشیء من ذلک. ه- الفکر، وهو من أثمن نعم الله علی الانسانیة وینبغی انفاقه وبذله عند المشورة لاعانة الاخرین إلی مستوی یعد الإنسان خلاله مستشاراً صالحاً وناصحاً.

طرق الانفاق وإعانة الاخرين

للاعانة والانفاق طرق مختلفة، والطريق المتعارف عند الناس هو الانفاق المالى النقدى وغير النقدى للمحتاجين، وهو أمر مستحسن إلّا أنَّ هناك طرقاً افضل واكثر تأثيراً تفى بهذا العمل الخير، وهو تشكيل منظمات ومؤسسات خاصة للاعانة والانفاق المنظم. لقد تشكلت هكذا مؤسسات على مستوى واسع فى بعض المحافظات الايرانية وهى تسعى لجمع التبرعات من جهة، ومن جهة أخرى تستقصى المحتاجين لاعانتهم بمختلف الطرق، مثل إعداد وسائل البيت الرخيصة من بعض المؤسسات والشركات والدوائر. وقد تكفلت بعض هذه المؤسسات قضية دراسة الاطفال وتحمل نفقاتهم والاشراف عليهم من هذا الجانب، وارتقى بعض من هؤلاء الاطفال الدرجات العليا ودخلوا الجامعات وتخرجوا منها. وتقوم بعض منها بنشاطات ثقافية اضافة إلى الاعانات المالية، وذلك من قبيل تشكيل دورات تعليمية تثقيفية لمختلف الاعمار. على المسلمين فى العصر الراهن أنْ يلتفتوا إلى هذا النوع من الانفاق المنظم اكثر. ورغم أنَّ بعض الدوائر الحكومية تكفلت بهذه القضية إلّا أنّ كثرة المحتاجين والفقراء فى عصرنا هذا يستدعى وجود مؤسسات خيرية منسجمة على نطاق واسع. جمعيات اعانة السجناء والمرضى من ضمن الطرق الاخرى المنسجمة والجيدة التى اشرنا اليها فى السطور السابقة. إنَّ الالتفات إلى الابتكار والابداع «۱» فى مجال الاعانات لهذه المؤسسات والجمعيات يؤدى إلى انتاجية اكثر، بحيث تتم الاعانات والمساعدات بالافادة من اقل مقدار ممكن من الامكانيات. لقد قلنا سابقاً: إنَّ الصدقة كما قال رسول الله صلى الله عليه و آله تمنع من ميتة السوء، وهنا حديث اخر للرسول صلى الله عليه و آله يقول فيه: «إنَّ الله لا اله إلَّا هو ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة والحرق والغرق امثال القران، ص: ۱۰۰ والهدم والجنون، وعد سبعين باباً من السوء». «۱» بالطبع، كلام الرسول صلى الله عليه و آله ليس هراء بل يحكى عن الواقع. وهذه آثار حقيقية للصدقة فاذا احيت هذه السنة الحسنة لزالت الكثير من مشاكلنا الاجتماعية والشخصية كذلك. ۴- فى آية المثل السابع يُلاحظ أربع خصائص: الاولى: الأرض المرتفعة. الثانية: اشجار البستان. الثالثة: الوابل أو المطر الشديد. والرابعة: الثمار والفواكه الكثيرة. وكلٌّ من هذه تشبيهات من ناحية، ومن ناحية أخرى تعبّر عن اعضاء الإنسان وصفاته أو النعم الالهية التى يتمتع بها هذا الموجود. التعابير التالية عن التشابيه الأربعة الماضية جاءت فى أحد التفاسير: لقد شبه روح الإنسان وقلبه بالارض المرتفعة التى يقع فيها البستان، أمّا اعمال الإنسان الصالحة واللائقة فقد شبهت بالانفاق والبذل فى سبيل الله، وقد شبهت رحمة الله ونعمه وهدايته التكوينية والتشريعية «۲» بالمطر الكثير (الوابل) الذى يروى الاشجار والاعمال الصالحة والملكات الفاضلة لتنمو. واما الفضائل النفسية والصفات الروحية والاخلاقية البارزة من قبيل الايثار والجود والسخاء والبذل والتواضع والخضوع وحب الغير فقد شبهت بثمار البستان وفواكهه المباركة. الهدف من هذه التشابيه وهذا المثل- كغيره من الامثال- هو التكامل الوجودى للانسان وبلوغ درجة القرب إلى الله، وبتعبير آخر: صيرورة الإنسان عبداً خالصاً لله، وذلك هو الهدف من خلق الإنسان وجميع الموجودات ذات الشعور والاحاسيس، «۳» وذلك عبارة أخرى عن ايصال الإنسان إلى مقام يؤهله للدخول فى خطاب الآية اللطيفة والمهدئة: «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فادخُلِى فِى عِبَادِى وادْخُلى جَنَّتِى». «۴»

ما أحسن السعادة التى ينالها الإنسان

من النتائج المستوحاة من هذا المثل هى أن هناك جنة (علاوة على الجنة الموعودة فى الاخرة) فى الدنيا، وهى جنة قلب الإنسان المؤمن المملوءة بالأشجار والثمار، أى الصفات والفضائل الاخلاقية لروح الإنسان وصفائها من التلوث، والإنسان لا يمكنه ادراك هذه الجنة ولا يمكنه الشعور بها إلّا أنْ تكون أعماله جميعها خالصة لوجه الله وابتغاءً لمرضاته، ولا يكون فيها ذرة من الرياء. والجملة الاخيرة للاية تشير إلى هذا الموضوع: «واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيْرٌ» فإنَّ الله يرى الاعمال ويرى نواياها ويرى كل ما يطرأ على النوايا من اغراض غير إلهية. موضوع الشرك فى العمل الذى يصطلح عليه (الرياء) تعرضت له الايات والروايات على مستوى واسع. يقول رسول

الله صلى الله عليه و آله فى حديث نقل عنه: «إنَّ الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ليلة ظلماء». «۱» وحسب هذه الرواية؛ فإنَّ الشرك اخفى من حركة نملة سوداء على صخرة سوداء فى ليلة ظلماء. الإنسان بعد سنوات من العبادة قد يدرك عدم خلوصه فى كثير من العبادات، إنَّ هكذا انسان سيكون سعيداً إذا ما تاب وبت فى الجبران. وتباً للإنسان الذى يدرك عدم خلوصه لكن ادراكه يكون متأخراً، يقول الله تعالى «... كَلَّا انَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ...». «۲» ننهى بحثنا عن الشرك بذكرى عن مرجع عالم الإسلام آية الله العظمى السيد البروجردى رضوان الله تعالى عليه. كان السيد قد ذهب لقرية بشنوة (فى ضواحى مدينة قم) لاجل الاستراحة، وفى احد امثال القران، ص: ۱۰۲ الايام هناك كان قد فرش سجادة قرب قنال هو مع مرافقيه، وقد شاهد المرافقون انذاك أنَّ السيد قد غاص فى التفكير كثيراً فسألوه عن علة ذلك فأجاب: (كنت افكر فى أنَّه هل كان لى عمل خالص لوجه الله وابتغاء مرضاته من دون أنْ يشوبه شائبة ام لم يكن؟). فقالوا له: مولانا! الحمد لله، إنّ لك خدمات كثيرة قدمتها للحوزة العلمية والمسلمين، «۱» فلا مجال للقلق. فهز السيد رأسه وقرأ الحديث «إخلص العمل فإنَّ الناقد بصير». «۲» الناقد هو الذى يميز السكك الخالصة عن المزورة، إنَّ نسبة التزوير إذا كانت كبيرة فقد يستطيع الناس عموماً تشخيصها أمّا إذا كانت نسبة الغش والتزوير قليلة جداً فذلك أمر لا يشخصه الا الناقد. وحسب هذه الرواية، فإنَّ الله هو الناقد لنوايا الإنسان ويمكنه تشخيص الخالص عن غيره، فهو بصير وعليم ويشخص حتى اقل مقدار من الغش وعدم الخلوص. وعلى هذا، ما علينا إلَّا أنْ نسعى بأنْ لا يكون أى جزء ولو بسيط من عدم الخلوص فى اعمالنا واقوالنا وافكارنا، وذلك لاجل التقرب إلى الله تعالى.

آداب الانفاق

اشارة

ندرس هنا بعض آداب الانفاق واصوله:

۱- الإنفاق ممَّا تحبون

إذا انفق شخص ما كان لديه من اغذية زائدة وألبسة رثة فلا اشكال فى ذلك وهذا اقل مرتبة للانفاق وادنى حد له، إلَّا أنَّ على الإنسان أن ينفق ما يحب لاجل بلوغ اعلى مراتب امثال القران، ص: ۱۰۳ الإنفاق: «لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ». «۱» وقد قيل فى الزهراء عليها السلام: انها عندما ذهبت إلى بيت زوجها للعرس صادفت فى الطريق محتاجاً سألها الاعانة، فبذلت له ثوب عرسها رغم انها كانت تحمل ملابس رثة وزائدة. «۲» لا يمكن العثور فى كل التاريخ على انفاق خالص مثل ما صدر من الزهراء عليها السلام فهى شابة فى مقتبل العمر تنفق ملابس عرسها رغم ان بامكانها انفاق ما كان عندها من ملابس زائدة أخرى. وذلك مصداق حقاً للاية الشريفة السابقة. يمكننا العثور على انفاق من هذا القبيل صدر من المعصومين عليهم السلام، فإنَّ الإمام على عليه السلام انفق خاتمه لفقير وهو راكع فى صلاته، وقد نزلت فى هذا الشأن الآية ۵۵ من سورة المائدة. «۳» وفى حال الامام على عليه السلام ينقل انه كان يشترى قميصين، ويخير قنبر غلامه فى انتخاب احدهما ويترك الاخر له. «۴» وقد قال الامام الصادق عليه السلام فى رواية له: «ما من شىء إلّا وكِّل به ملك إلَّا الصدقة فانها تقع فى يد الله تعالى». «۵» وهل من المناسب واللائق للانسان ان يبذل اموالًا لا يحبها تصل مباشرة بيد الله؟!

۲- الانفاق فى غاية الادب

إنَّ الأدب ضرورى عند البذل والانفاق، وينبغى السعى آنذاك لاجل حفظ ماء وجه وشخصية المحتاج، يقول القرآن المجيد: «قَوْلٌ

مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذىً ...». «۶» امثال القران، ص: ۱۰۴ إذا راجعك محتاج وسألك شيئاً واجبته بهذا: (أعتذر، لا يمكننى اعانتك) أى ترده باحترام فذلك افضل من أن تنفق له مع أذية ومنة بأن تقول له: (لا اراك بعد هذا) أو (خذ هذا لتريحنى من شرك). إنَّ هذه الأخلاقية الرفيعة فى الإنفاق تلاحظ عند المعصومين بشكل واضح، فقد قيل فى الإمام السجاد عليه السلام: إذا اعطى السائل قبَّل يده، فقيل له لِمَ تفعل ذلك؟ قال: «لانها تقع فى يد الله قبل يد العبد». «۱» كم هو الفرق بين الانفاق المخلص والمتزامن مع الأدب والاحترام الوافر، والانفاق الذى يتم عن رياء وتحقير.

۳- التعجيل فى دفع الصدقة

لا ينبغى التأنى والتوانى الوافر والوسوسة عند دفع الصدقة تقرباً لله تعالى؛ لأنّ الشيطان فى ذلك الزمن يسعى كثيراً لمنع الإنسان من دفع الصدقة، يقول الله تعالى فى الآية ۲۶۸ من سورة البقرة: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويَأمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ». إنَّ الشيطان يوسوس للانسان بشتى الطرق، فهو يقول مثلًا: (فكِّر بمستقبل أطفالك، وبأيام شيبك وحافظ على أموالك لذلك الحين). هذا لأجل صرف الإنسان عن الانفاق، بينما الله يعد بالمغفرة وبارجاع المال المنفق. وقد تعارف بين الناس أنَّ الشيطان يتعلق بيد الإنسان عندما يريد الاخير بذل المال؛ وذلك لمنعه عن البذل. وهذا اشارة أخرى إلى الآية الشريفة. ومن المثير أنَّ القرآن لم يستخدم كلمة (الفقر) «۲» الا فى هذه الآية، وقد نسبه إلى الشيطان. مَن كان يرزقك عندما كنت جنيناً فى ظلمات ثلاث؟ الله هو الرازق، وهو بنفسه سيكون امثال القران، ص: ۱۰۵ رازقاً لك ولأولادك عند الشيخوخة والعجز. هناك قول جميل لأحد العظماء يقول فيه: (لا- أعمل شيئاً لمستقبل أولادى؛ لأنهم إنْ كَانُوا من أولياء الله فالله لا يكلّ وليه لنفسه، وإنْ كَانوا أعداء لله، فمالى أعينهم؟!).

۴- صدقات السر والعلانية

المستفاد من الروايات هو أنَّ الصدقة عملٌ الأفضل إتيانه سراً، إلَّا أنَّه فى بعض الأحيان يستدعى الأمر العلانية فى التصدق، وذلك لعنوان ثانوى طارئ. «۱» إنَّ هذا الأمر قد بُيّن بوضوح فى الآية الشريفة ۲۷۱ من سورة البقرة: «إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَات فَنِعِمَّا هِى وإنْ تُخْفُوهَا وَتُؤتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُو خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبَيْرٌ».

۵- الأولوية للمساكين المتسترين

القرآن المجيد يعتبر المساكين والمتسترين على فقرهم هم المحتاجون الحقيقيون كما هم أولى باستلام هذه الاعانات والصدقات، الآية ۲۷۳ من سورة البقرة تحكى هذا المضمون: «لِلفُقَرَاءِ الَّذينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيْلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبَاً فِى الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيْمَاهُم لَا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ». من الفقراء ذو عزة نفس عالية ومثل هؤلاء هم اهل لهذه الصدقات وأولى بها، وبخاصة أنَّ هذا الشهر شهر مبارك والأعمال العادية فيه تعدّ عبادة، فكيف بطاعة ذات قيمة عالية مثل التصدق؟ كما أنَّ من فلسفة الصيام هو الاحساس بالآم المحتاجين للبتّ فى رفع احتياجاتهم. «۲»

المثل الثامن: عاقبة الامور

اشارة

يقول الله تعالى فى ثامن مثل من أمثال القرآن فى الآية ۲۶۶ من سورة البقرة: «أيَوَدُّ أحَدَكُمْ أنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَأعْنَابٍ تَجْرِى

مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ لَهُ فِيْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وأصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعَفَاءُ فأصَابَهَا إعْصَارٌ فِيْهِ نَارٌ فاحْتَرَقَت كَذلك يُبَيِّن اللهُ لَكَمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتفَكَّرُونَ».

تصوير البحث

كيف يكون أحدكم راغباً فى ان يبتلى بمصير الشخص الذى له بستان فيه نخيل وأشجار مثمرة وفيه أنهار بعد ما بلغ هذا الشخص سن الكبر، وكان قد جمع حوله ذرية واطفالًا ضعفاء، حينئذ يواجه البستان إعصاراً متزامناً مع نار ملتهبة تلتهم بستانه وما فيه ليصبح ذليلًا بعد عمر من العز.

الشرح والتفسير

للمفسرين أقوال فى هذه الآية: يعتقد بعض المفسرين أنَّ هذا المثل يحكى عاقبة الإنسان الذى يحرق محاصيل انفاقه وبذله بنار الرياء، لتذهب بذلك أعماله الصالحة وعباداته سُدى. قد يقوم البعض باعمال كثيرة من قبيل الحج والصلاة والصيام والجهاد واعانة المساجد امثال القران، ص: ۱۰۸ وبناء المستشفيات واعانة الايتام، وقد يقضى عمراً طويلًا فى هذه الأعمال إلَّا أنه قد يحرقها ويُذهب بها مع الريح ليمحو آثارها وذلك بأن يتراءى بها. «۱» ويرى البعض أنَّ آية المثل لا تختص بالرياء، بل تشمل جميع الذنوب، فإنَّ الآية تحذّر المسلمين ليراقبوا أعمالهم وعباداتهم، ويحفظوها مما قد يدمرها ويحرقها من الذنوب. وحسب هذه الاية، فانّ الإنسان إذا لم يراقب أعماله قد يبتلى بمصير هذا الشيخ الذى تضرر هو مع عياله وأولاده وأوقع مستقبل اطفاله بخطر. «۲» وبعبارة أخرى: يا إنسان! حافظ على أعمالك وعباداتك دائماً وبشكل مناسب وفكر بعاقبة امرك؛ وأنَّ حفظ العمل اصعب من اداء نفس العمل. قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «من قال لا إله الا الله، غرس الله بها شجرة فى الجنة»، والحديث يعنى أنَّ الإنسان كلما نطق بهذه الكلمة غرست له شجرة فى الجنة. والمستفاد من هذه الرواية هو أنَّ الجنة وكذا جهنم تبنى بواسطة أعمالنا، فهى ليست مبنية من ذى قبل. قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «من قال: سبحان الله غرس الله بها شجرة فى الجنة. ومن قال: الحمد لله غرس الله له بها شجرة فى الجنة. ومن قال: لا اله الا الله غرس الله له بها شجرة فى الجنة. ومن قال: الله اكبر غرس الله له بها شجرة فى الجنة». فقال رجل من قريش: يا رسول الله إنّ شجرنا فى الجنة لكثير، قال: «نعم، ولكن إيَّاكم أنْ ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها وذلك أنَّ الله عزوجل يقول: «يَا أيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أطِيْعُوا اللهَ وأطِيْعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أعْمَالَكُم». «۳» ويقول الرسول صلى الله عليه و آله فى حديث آخر: «العلماء كلهم هلكى إلَّا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلَّا المخلصون، والمخلصون على خطر». «۴» امثال القران، ص: ۱۰۹ وفى هذا الحديث تحذير آخر للانسان بان لا يذهب باعماله الخالصة الماضية بذنوبه المقبلة. «أيَوَدُّ أحَدَكُم أنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَأعْنَابٍ» إنَّ الإشارة إلى فاكهة العنب والتمر دون غيرهما يفيد أنهما أهم أغذية للبشر، أما الأهم منها فمعدم أو قليل. «تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ فِيْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» البستان قد يحتوى على بركة أو قنال يسقى منها، والأخير قد يستدعى بذل المال مقابل الماء. وفى كلا الحالتين، إنَّ السقى بهما يستلزم متاعب وزحمات جمة. إلَّا أنَّ البستان الذى تحدثت عنه الآية يقع فى مسير نهر، وهذا يعنى أنَّ السقى لهذا البستان مريح جداً ولا يستدعى تحمل زحمات وافرة. اضافة إلى هذا؛ فإنَّ فى هذا البستان فواكه من قبيل التمر والعنب. «وأصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءٌ» أى أنَّ صاحب هذا البستان أصبح شيخاً كبيراً. وضعف الذرية اشارة إلى عدم امكانهم اعانته على شؤون البستان، بل انَّ عبء هؤلاء الأطفال واقع جميعاً على عاتق هذا الشيخ، وهذا البستان لا يحتاج إلى عناية كبيرة ومستمرة فيمكنهم التمتع بمحاصيله وثماره. «فَأصَابَهَا إعْصَارٌ فِيْهِ نَارٌ فاحْتَرَقَتْ» أى فى الوقت الذى يكون فيه الشيخ بأمسِّ الحاجة إلى هذا البستان يأتى إعصار من نار يحرق هذا البستان ويبدله إلى تل من الرماد ثم يذهب هذا الرماد مع الريح متناثراً بحيث لا يبقى أى اثر منه. الإعصار يحصل اثر اصطدام ريحين قادمين من اتجاهين مختلفين، وهو يحضى بقدرة عجيبة إذا حصل فى مكان فانه يذهب معه كل ما يكون هناك من اشياء، فقد يذهب

بماء حوض مع اسـماکه ویسقطها فی مکان اخر بحیث یتصور البعض انّ الاسماک جاءت من السماء، وقد یرفع انساناً من مکانه ویلقیه فی مکـان آخر. سؤال: کیف یحصـل النـار ویتزامن مع هـذا الاعصـار؟ هنـاک إجابـات عدیـدة لهـذا السؤال: الف- یعتقـد البعض أنَّ الاعصـار خـالٍ من النار، والنار تقـدم من الصواعق فالصاعقـة تحرق البسـتان ثم یأتی الاعصار لیـذهب برماد البسـتان وینقله إلی مکان آخر. امثال القران، ص: ۱۱۰ باء- إنَّ الاعصار قد یتلاقی مع نار مسـتعرة فیاخذ منها ویلقیه علی البسـتان فیحترق البستان ویتبدل رماداً. جیم- هـذه الأعصـار لیست اعصـاراً متعارفـة، بـل هی اعصـار یطلق علیها (سـموم) تهب غالباً فی السـعودیة والـذین یقعون فی طریقها یتقنعـون وینبطحون إلی أنْ تتجـاوزهم، وهـذه الأعصـار عنـدما تلاقـی البسـتان تحرقه وتـدمره. «کَـذَلک یُبَیِّن الله لَکُمُ الآیـاتِ لَعَلَّکُم تَتَفَکَّرُونَ» یعتبر الله الهدف من هذا المثل هو التفکّر والتعقل. ووفقاً لهذه الآیة الشـریفة، فإنَّ علی الإنسان أن یودع نفسه بید الله ویعتقد أنَّ کـل مـا یقوم به من أعمـال وطاعات وعبادات هی قلیلـة فی حق الله وأنَّ ما یصـله من الله تعالی من نعیم هو بلطفه وإحسانه لا لعمل وعبادة اسـتحق بهما الإنسان تلک النعم. من المؤسف أنَّ هـذا الإنسان الضـعیف قـد لا یفکر جیداً ویغتر بما جاء به من رکعات صـلاة وأیام من الصوم فیعـد نفسه- لأجل ذلک- من أصـحاب الجنـة. بل یعـد الجنـة، واجبـة له، ونفس هـذا الإنسان قـد یری نفسه میتاً خلو الإیمان. اللهم اجعلنا من المرحومین ولا تجعلنا من المحرومین.

إنّ السوء کان عاقبة هذا الشخص

فی زمن الطاغوت البهلوی کان طالب حوزة متـدینٌ جداً ومتقٍ، وکان یواضب علی اعماله کثیراً، وقد کان متذمراً من اخیه ولا یعاشـره لاجل انه کان لا یدفع الخمس والزکاة. فی یوم من الأیام مرض هذا الطالب مرضاً شدیداً فاخذه اخوه إلی بیته لیعتنی به وأثناء تواجده عند أخیه ذهب احد الاساتذة لعیادته وعند الدخول قال للاسـتاذ: لا تجلس علی السـجادة لانها مغصوبة .. لکن الزمان غیّر هذا الطالب ولم یبقه علی مـا کـان، بـل حوّله إلی درجـة أنّه ما کان یجلس علی مأدبـة طعام خالیـة من المسـکر. یقول الإمام علی علیه السـلام فی الخطبة القاصعة «۱» التی تعرض فی جزء منها إلی آثار التکبر امثال القران، ص: ۱۱۱ والعجب: «فاعتبروا بما کان من فعل الله بابلیس إذ احبـط عمله الطویـل وجهـده الجهیـد وکان قـد عبـد الله سـتة الاف سـنة، لا یـدری أمن سـنی الـدنیا ام من سـنی الاخرة عن کبر ساعة واحـدة»، فـإنَّ ساعـة من العنـاد والتکبر احبطت اعمـاله وورطته بمصـیر لاـ یحمـد. وعلی هـذا، فلاـ ینبغی ان یغتر الإنسان ابـداً بطاعاته واعماله، بل علیه ان یتطلع دائماً إلی عفو الله ورحمته. اللهم اجعل عاقبة أمرنا خیراً.

خطابات آیة المثل هی الاحباط والتکفیر

من البحوث المطروحـة فی علم الکلاـم هی مسألـة الاحبـاط والتکفیر وقـد أشـارت الیهما الآیـة. إنَّ الاحباط عبارة عن أعمال وذنوب، الاتیـان بهـا یؤدی إلی ذهـاب حسـنات الإنسـان وعبـاداته. أمّا التکفیر فهو عبارة عن اعمال، اداؤها یؤول إلی ذهاب الـذنوب ومحوها. وعلی سبیل المثال، فإنَّ تکبر الشـیطان وحسـده ولجه سـبب فی احباط اعماله التی أدَّاها خلال ست الاف سـنة، أمّا توبـة الحر بن یزید الریاحی عند الامام الحسـین علیه السـلام فقد کانت تکفیراً لذنوبه التی ارتکبها. ان التوبة تطفی نار الذنوب، وعلی المسـلمین ان یتوبوا وینیبوا إلی الله دائماً بالدعاء والمناجاة والتوسل بالأئمة المعصومین علیهم السـلام. اضافة إلی الایات، فإن ادعیة العشـرة الثالثة من شـهر رمضان أشارت إلی مسألـة الاحباط والتکفیر، فنقرأ فی دعاء لیلـة القدر مثلًا: «وان کنت من الاشـقیاء فامحنی من الاشـقیاء واکتبنی من السعداء» «۱» فان القسم الاول من الدعاء یشیر إلی مسألة الاحباط والقسم الثانی إلی مسألة التکفیر.

الاستدلال علی وجود الاحباط والتکفیر

رغم أنَّ بعض العلمـاء المسـلمین لاـ یعتقـد بالاحباط والتکفیر ولا یری تأثیراً لاحـدهما علی الاخر أی أنَّ الأعمال الحسـنة لا تؤثر علی

السيئة والسيئة لاـ تؤثر على الحسنة، لكن القرآن يصرح فى بعض الآيات بالاحباط والتكفير. ونختار من ذلك بعض النماذج: الف– يقول الله فى الآية ۱۱۴ من سورة هود: «وَأَقِمِ الصَّلوةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلك ذِكْرَى للذّاكِرِينَ». بـاء– يتحدث القرآن المجيد عن الاحباط فى الآيـة ۵ من سـورة المائـدة: «وَمَن يَكْفُرْ بالإيمَـان فَقَـدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الآخِرَة مِنَ الْخَاسِرِينَ». «۱» وعلى هذا، فأصل الإحباط والتكفير قد بُيِّنَ فى الآيات، إلّا أنها لم توضح أى نوع من الذنوب توجب الاحباط وأى نوع من الاعمال توجب التكفير، وعلينا استفادة ذلك من الروايات. ما ينبغى علينا إلّا مُراقبة أعمالنا خوف أنْ يصدر منّا عمل يحبط اعمالًا قيّمة كثيرة. وإذا مـا اذنبنـا فعلينـا طلب الاعانـة من الله بالبكاء والنواح لكى يتوافر بـذلك بحر من الماء يطفئ نار الـذنوب. وإذا كانت شخصية مثل الإمام على (عليه السـلام) يسـجد ويقول خضوعاً: «آه من قلّة الزاد وطول الطريق وبعد السفر ...» «۲» فكيف بنـا نحن انا وأنت؟!

المثل التاسع: أكل الربا

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية ۲۷۵ من سورة البقرة: «الّذِيْنَ يَأكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلّا كَمَا يَقُومُ الّذِى يَتَخَبَطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ذلك بِأَنَّهُم قَالُوا إنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأمْرُهُ إلى اللهِ وَمَنْ عَادَ فأُولئِكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ».

تصوير البحث

إنّ آكلى الربا على أساس هذه الآية عندما يدخلون المحشـر يوم القيامة يدخلون كالسكارى أو المجانين أو المصروعين، لا يتمالكون على انفسـهم ولا يستطيعون حفظ تعادلهم فيقعون ويقومون بين الحين والاخر. وهذا المنظر المرعب يلفت انظار اهل المحشر ويجعلهم يدركون أنَّ هؤلاء هم آكلو الربا.

علاقة الآية بما قبلها

الايات السابقـة تحدثت عن الصدقة والانفاق فى سبيل الله، وهذه الآية ترتبط بشـكل وآخر بالصدقة؛ وذلك لأن الصدقة على قسـمين: ۱– الصدقـة دون عوض وهو الانفاق والبذل للمحتاجين. ۲– الصدقـة مع العوض وهو الدين أو القرض الحسن. امثال القران، ص: ۱۱۴ إنّ الـدين إذا لم يكن مع عوض وربـح كان قرضاً حسـناً والا عُـدَّ ربـاً وحراماً. وقد جاء فى الروايات أنَّ الصدقة والبذل من دون عوض اجرها عشـرة اضـعاف، أمّا الإقراض أو الصدقة مع العوض فاجره ثمانية عشر ضعف، «۱» وسـبب ذلك واضح من حيث أنَّ المقترضين محتاجون حقّاً، وهم ذوى اعتبار وماء وجه. وعلى هـذا، فإنَّ شـيئين يتوخى من القرض هما: أولًا– رفع حاجة المحتاجين. ثانياً– الحفاظ على حيثية واعتبار المحتاج. وعلى أساس الآية الشـريفة: «مَنْ جَاءَ بالحَسَنةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا» «۲» فإنّ كلًا منها له عشر حسنات والمجموع هو عشرون، ولكن باعتبار انّ القرض يسترجع بعد فترة من الزمن فتنقص منه حسنتان ليكون المجموع ثمانية عشر.

الشرح والتفسير

«الّذينَ يأكُلُونَ الرِّبَا ...» أى أنَّ آكلى الربا سيبتلون يوم المحشر بعدم التعادل والتوازن فى المشى ويبدون كأنهم مصروعون أو مجانين. «ذَلك بِأنَّهُمْ قَالُوا إنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» إنّ سـبب ابتلاء هؤلاء بهذا المصـير هو أنَّهم إضافة إلى اكلهم الربا كانوا يسعون فى تبرير عملهم

بالقول: إنَّ البیع مثل الربا، کما الاول حلال کذلک الثانی. «أَحَلَّ اللهُ البیعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا» حلیة البیع والمعاملة لأجل وجود مصلحة فی ذلک عکس الربا، ففیه مفسدة اضافة إلی أنه یفقد المصلحة. ففی المعاملة تارة یکون ربح واخری یکون امثال القران، ص: ۱۱۵ خسارة إلّا أنَّ الأمر فی الربا یختلف، فآکل الربا یحصل علی الربح دائماً ولا یتضرر ابداً والخسارة یتحملها المقترض فقط، ولذلک عدت امواله حاصلة بلا تعب. اضافة إلی هذا، فإنَّ أکل الربا سبب فی ایجاد الفجوة بین طبقات المجتمع، وذلک لأنَّ ظاهرة الربا إذا تفشت فی المجتمع اجتمعت ثروات الناس وأموالهم عند آکلی الربا بعد فترة وجیزة من الزمن، أمّا الاخرون فتتردی اوضاعهم إلی أسوأ ما یمکن. «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فانْتَهَی فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلی اللهِ» فی بدایة الاعلان عن هذا الحکم یصرح الله بشمول العفو والمغفرة لاولئک الذین کانوا یمارسون الربا قبل هذه الآیة فلا خوف علیهم. وعلیه، فالذین کانت لهم اموال عند الناس وتعاقدوا معهم علی ان یکون لهم فیها ربا، فإنَّ هذه المعاملة تبطل واصحاب الاموال من الان فما بعد باتوا لا یملکون الا رؤوس اموالهم فحسب ولاحق لهم فی استلام اکثر من ذلک. «وَمَنْ عَادَ فَأُولئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِیْهَا خَالِدُونَ» یهدد الله فی هذه الآیة اولئک الذین یعاودوا ممارسة هذا العمل بعد هذه الآیة ویقول بأنَّهم إذا فعلوا هذا مرة أخری- وهو عمل عد فی بعض الروایات کممارسة الفاحشة مع المحارم «۱»- فإنَّ جهنم تنتظرهم وسیکونون مخلدین فیها. سؤال: إنّ الخلود فی جهنم خاص بالکفار فما یعنی الخلود بالنسبة لآکلی الربا من المسلمین؟ الجواب: من التفاسیر التی ذکرت فی هذا المجال هو أنَّ آکلی الربا یموتون غیر مؤمنین بسبب عملهم القبیح هذا، ومن الواضح أنَّ غیر المؤمنین یخلدون فی جهنم. «۲»

خطابات الآیة

عقاب آکلی الربا فی الدنیا والآخرة

هناک بحث بین المفسرین فی هل أنَّ التَشبیه لآکلی الربا فی الآیة تشبیه لمصیرهم فی الدنیا؟ ام أنّ ذلک نوع من العقاب والعذاب الأُخروی؟ یستفاد من الروایات أنّ هذا النوع من المصیر یتعلق بکلاـ العالمین. وقد نقلت روایة فی تفسیر (نور الثقلین) عن الامام الصادق علیه السلام یقول فیها: «آکل الربا لا یخرج من الدنیا حتی یتخبطه الشیطان»، «۱» والعبارة الأخیرة تعنی الجنون. وفی روایة أخری حکت موضوع المعراج «۲» أنَّ الرسول صلی الله علیه و آله قال: «لما أُسری بی إلی السماء رأیت قوماً یرید أحدهم أنْ یقوم ولا یقدر علیه من عظم بطنه، قال: قلت: من هؤلاء یا جبرئیل؟ قال: هؤلاء الذین یأکلون الربا». «۳»

نسبة الجنون إلی الشیطان

لماذا نسب الجنون إلی الشیطان فی آیة المثل؟ المستفاد من ظاهر الآیة هو أنَّ الشیطان سبب الجنون عند الإنسان. لکن الأبحاث العلمیة أثبتت وجود أسباب أخری للجنون لا علاقة لها بالشیطان، ومن هنا کانت للمفسرین آراء مختلفة فی تفسیر الآیة، نشیر إلی بعضها هنا. الف- القرآن یخاطب الناس بما یتماشی مع عقائدهم؛ فإنّ الناس عصر النزول (العرب آنذاک) کانوا یعتقدون أنَّ الجنون من الشیطان، أو أنَّ الشیطان ینفذ فی جسم الإنسان فیجن، ولهذا کان هذا التعبیر القرآنی کنایة عن الجنون. باء- المعنی الحقیقی للجملة هو المراد لا المعنی الکنائی، ونسبة الجنون للشیطان من حیث امثال القران، ص: ۱۱۷ إنَّ الله جعل عقاب هؤلاء المذنبین تسلط الشیطان علیهم وهذا التسلط هو الذی یسبب القلق والجنون.

التناسب بین الجنایة والعقاب

یعتقد بعض المفسرین أنَّ العقاب الذی یعینه القرآن لذنب ما یتناسب مع ذلک الذنب، فبین العقاب الذی عُیِّن لآکلی الربا وبین

الجنون تناسب، وبين هـذا الـذنب وذلك العقاب علاقة وارتباط، فبما أنّ آكل الربا يقوم من خلال عمله القبيح بتدمير اقتصاد المجتمع ويخرجه عن حالـة التعادل ويحول دون حركـة العجلـة الاقتصاديـة كـذلك هو ذاته فإنَّه سيبتلى بمصير من هذا القبيل فى الاخرة. فى رواية للامام الباقر عليه السلام يقول فيها: «الظلم فى الدنيا هو الظلمات فى الاخرة». «۱» فإنّ العقاب فى هذه الرواية يتناسب مع الذنب، ذلك أنَّ الظالم يُظلم الدنيا والعالم فى عينيى المظلوم وعلى هذا الاساس تظلم الاخرة فى عينيى هذا الظالم.

فلسفة تحريم الربا

كما أنَّ الربا وآكله يُوجب مفاسد عديدة فإنَّ تحريمه ينمّ عن فلسفات مختلفة نشير إلى بعضها هنا: الف- إنَّ الظلم المشار اليه فى الآية ۲۷۹ من سورة البقرة هو فلسفة تحريم الربا. باء- الفلسفة الاخرى للتحريم هى تثبيت سنة (القرض) فى المجتمع، وقد جاء هذا المطلب فى روايات عديدة، منها رواية سماعة عن الامام الصادق عليه السلام حيث يسأل فيها: إنى رأيت الله تعالى قد ذكر الربا فى غير آية وكرره؟ قال عليه السلام: «أوتدرى لم ذلك؟» قلت: لا. قال عليه السلام: «لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف». «۲» امثال القران، ص: ۱۱۸ أى أنّ الربا إذا تفشى فسيترك الناس سنة القرض وتموت من جراء ذلك العواطف الانسانية ليحل محلها الانتهاز والربح. ولهذا كان الربا محرما فى الشريعة الاسلامية المقدسة. «۱»

الإرتباط بين الإخلاق والاقتصاد فى الإسلام

بين الاقتصاد الاسلامى والاقتصاد المادى بون شاسع، واهم مفارقة بينهما هو أنّ الاقتصاد الاسلامى يعد مزيجاً من الاخلاق والاصول والمبادئ الانسانية، بينما الاقتصاد المادى لا أنه خال من الأخلاق والعاطفة فحسب، بل إنَّ المصلحة المادية تعدّ المبدأ الحاكم على هذا الاقتصاد. وعلى هذا، فكل شىء يتعارض ويتضاد مع ذلك يُضحّى به لأجل المصالح المادية. إنَّ إنتاج المخدرات وعوائدها- الذى يعد امراً يتمانع مع المبادئ الإنسانية- يعد امراً ليس مهماً عند كثير من الدول وحتى تلك الدول التى تدعى مكافحتها لهذه الظاهرة وتعقد بين الحين والاخر مؤتمرات فى هذا المجال، لها نصيب ليس قليلًا فى تجارة هذه المواد. إنَّ مؤيدى ودعاة الاقتصاد المادى لا يكترثون من فساد جيل الشباب وتزلزل المبادئ الاخلاقية وتفكك العوائل وما يهمهم هو مصالحهم الذاتية. إنَّ المتاجرة بالانسان وبيع الاطفال رغم تمانعه مع جميع المبادئ الانسانية يعد جائزاً عند دعاة حقوق البشر المزيفين ويعترفون بذلك بشكل غير علنى. مَن الذى وفَّر للعراق أسلحة الدمار الشامل والقنابل الكيمياوية والميكروبية والصواريخ بعيدة المدى والقنابل العنقودية وامثالها، وذلك ليرتكب بواسطتها ابشع الجرائم فى ايران الاسلامية؟ لماذا سكت دعاة حقوق البشر ولم يعترضوا على ذلك؟ لكنّهم رفعوا هتافات الإعتراض بمجرد أنْ هجم العراق على الكويت وحكموا عليه بضرورة نزع السلاح. إنَّ سرّ هذه الإزدواجية واضح؛ فإنَّ مصالح الدول الاستكبارية قد اقتضت يوماً أنْ امثال القران، ص: ۱۱۹ يتسلح العراق باحدث الاسلحة واشدها فتكاً، وهذه المصالح ذاتها اقتضت يوماً أنْ يُنزع العراق أسلحته ليضمنوا بذلك مصالحهم. والملاك فى كل ذلك هو مصالحهم المادية، أمّا المبادئ الإنسانية فمغلوب على أمرها. المبدأ الحاكم على الاقتصاد الاسلامى هو الأخلاق، وينبغى أنْ تتم عملية كسب المصالح المادية تحت ضلّ حفظ القيم الاخلاقية، وعلى هذا الاساس حرّم الإسلام المعاملة التى تعد منشأً للفساد. وعلى سبيل المثال أنّ الإسلام إذا منع تأسيس مراكز للفحشاء أو حرّم بيع الشراب ولعب القمار أو تأسيس مصرف ربوى وغيرها فذلك لأجل أنَّ أموراً من هذا القبيل تعدّ منشأً للفساد الكثير، الامر الذى لا يتناسب مع الأخلاق الإسلامية. إنَّ القِيَم الأخلاقية التى تحكم الاقتصاد الاسلامى لها مبادئ عديدة نشير إلى بعض منها هنا: الف- من المبادئ التى تحكم الاقتصاد الاسلامى هى خطاب الآية الشريفة: «لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ» أى أنَّ المُعَامَلاتِ الاقتصادية ينبغى أنْ تنظم بشكل يخلو من الظلم لكلا الجانبين البائع والمشترى. باء- كسب النفع ودفع الضرر العام؛ وعلى أساس هذا المبدأ، فإنَّ المصلحة الشخصية تكون ضحية المصلحة العامة. والبتّ بالأعمال التى يحتاجها المجتمع يعد واجباً، فاذا كان

المجتمع بحاجة إلى معلمين، فعلى كل من يستطيع أن يبادر بهذا العمل. ومن جانب آخر، أنّ الأعمال التى تضر المجتمع تعد محرمة فى الإسلام رغم ما قد يكون فيها من مصلحة ومنافع شخصية، فبيع المسكر مثلًا، وكذا النشاطات المتعلقة بهذا النشاط، محرم وممنوع ولهذا جاء فى الروايات أنَّ غرس شجرة العنب لاجل صنع المسكر من ثمارها، وكذا سقيها وقطف ثمارها وحمله و .. هذا كله حرام. «۱» ويذكر هنا أنَّ المبادئ الاخلاقية لا تنحصر فى الواجبات والمحرمات، بل تشمل حتى المستحبات والمكروهات. ومن هنا كان (تلقى الركبان) مكروها فى الفقه الإسلامى. والمراد من امثال القران، ص: ۱۲۰ تلقى الركبان هو انتظار القوافل خارج المدينة أو القرية والمباشرة بشراء بضاعة القوافل قبل معرفة أصحابها بقيمها فى اسواق القرية أو المدينة. وقد اعتبر بعض الفقهاء هذا العمل حراماً، إلَّا أنَّ بعضهم الاخر اعتبره مكروها، «۱» كما أنَّ اعمالًا مثل بيع الكفن مكروهة، وذلك لأنَّ القائم بها يتطلع إلى موت الاخرين دائماً، وهذا أمر يسبب قسوة فى القلب. جيم- توجيه الرأسمال نحو الآخرة، و هذا المبدأ يستفاد من الآية ۷۷ من سورة القصص، حيث قال الله تعالى: «وابْتَغِ فِيْمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأحْسِنْ كَمَا أحْسَنَ اللهُ إليْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِى الأرْضِ إنّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ». وفقاً لهذه الآية، فإنَّ رأس المال يكون قيماً إذا ما صبّ فى طريق الاخرة، وبتعبير آخر: المال الذى يسد الحاجة الدنيوية والحاجة الاخروية. وفى النهاية: أنَّ القِيَم الأخلاقية هى الحاكمة على الاقتصاد الاسلامى، بينما يفقد الاقتصاد المادى هذه القيم ويضحّى أتْباع هذا المذهب كلَّ شيء لاجل المصالح الذاتية.

الاسوة فى القيم الاخلاقية

يُوصِى الإمام على عليه السلام فى عهده لمالك الاشتر «۲» بطبقات المجتمع من العسكريين والقضاة والعلماء والتجار والمزارعين والوزراء والمسؤولين الحكوميين وغيرهم إلّا أنّه عندما يصل إلى الطبقة المحرومة يستخدم فى حقهم تعابير لم يستخدمها فى حق غيرهم، حيث يقول: «ثمّ الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى «۳» امثال القران، ص: ۱۲۱ والزّمنى «۱» فإنّ فى هذه الطبقة قانعاً «۲» ومعتراً «۳» واحفظ لله ما استحفظك «۴» من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلّات «۵» صوافى «۶» الإسلام فى كل بلد، فان للاقصى منهم مثل الذى للادنى وكل قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر «۷» فانك لا تعذر بتضييعك التافه «۸» لاحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همك «۹» عنهم ولا تصعر خدك لهم «۱۰» وتفقد امور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال ففرغ لاولئك ثقتك». «۱۱» ما أحسن هذا. إنَّه حديث جميل حقاً! فهو كالشمس التى لا زالت تضيء رغم مضى أكثر من ألف سنة على عمره وكل يوم يزداد ضياؤه. أحسن قائل هذا الحديث أحسن وأحسن ألف مرة. إنه حديث أهل لأن يكتبه الحكام بماء الذهب ليجعلونه على رأس قائمة اعمالهم. المدهش هو أنّ اسوة الأخلاق هذه، شخصية كانت حاكمة، ورغم ذلك توصى بالناس وبخاصة المستضعفين والمحرومين منهم خيراً. إنَّ رِجَال الدول الغربية حالياً يمثلون قدوة أخرى ونوع آخر من الحكام حيث يرتضون مقتل الالاف من المحرومين لاجل مصالحهم المادية. انظر للمفارقات! امثال القران، ص: ۱۲۲ سؤال: قد يتمانع الحفاظ على القيم الأخلاقية مع التنمية الاقتصادية، فكيف يمكن الجمع بين هذه القيم والتنمية المطلوبة؟ الجواب: إنَّ نظامنا نظام قيمى، والمهم عندنا هو حفظ هذه القيم الاخلاقية، ونرى أنَّ الحفاظ على القيم لا يتمانع مع التنمية الاقتصادية، ومزجهما مع بعض سوف لا يؤدى إلى التخلف، بل انَّ الإقتصاد الذى لم يعتمد القيم الاخلاقية والذى ساد العالم أدّى إلى أضرار لا يمكن جبرانها. ألم يكن هذا الاقتصاد غير القيمى هو السبب الاساس فى نشوب الحرب العالمية الثانية؟ الحرب التى دمرت بعض الدول بالكامل وأنزلت ببعض اخر اضراراً جسيمة وأودت بحياة ۳۰ مليون شخصاً و ۳۰ مليون معلولًا، هذا بعض ما خلفته هذه الحرب واودعته فى ذاكرتنا. فهل الاقتصاد المتخلف- حسب تعبير اتباع المذهب المادى- أفضل أم الاقتصاد المتطّور؟! ينبغى العلم أنَّ العالم لا يعمَّر ولا ينمو الا تحت ظل إقتصاد قيمى.

علی علیه السلام والهدیۀ اللیلیۀ

بعد ما یذکر الامام علی علیه السلام قصۀ اخیه عقیل عندما طلب منه شیئاً من بیت المال یقول فی الذی أراد إرشائه لاجل قضیۀ حقوقیۀ ما یلی: «.. وأعجب من ذلک طارق طرقنا بملفوفۀ «۱» فی وعائها ومعجونۀ شنئتها «۲» کأنما عجنت بریق حیۀ أو قیئها، فقلت: أصلۀ أم زکاۀ، أم صدقۀ؟ فذلک محرم علینا أهل البیت. فقال: لا ذا ولا ذاک ولکنها هدیۀ، فقلت: هبلتک الهبول! «۳» أعن دین الله أتیتنی لتخدعنی؟ أمختبط «۴» أنت ام ذو جنۀ «۵» ام تهجر، «۶» والله لو اعطیت الاقالیم السبعۀ بما تحت افلاکها علی أنْ اعصی الله فی نملۀ أسلبها جلب «۷» شعیرۀ ما فعلته وأنَّ دنیاکم عندی لأهون من ورقۀ فی فم جرادۀ امثال القران، ص: ۱۲۳ تقضمها. «۱» ما لعلی ولنعیم یفنی، ولذۀ لا تبقی، نعوذ بالله من سبات «۲» العقل وقبح الزلل. «۳» هل یُؤمن حالیاً علی العالم مع وجود زعماء یضحون بکرامۀ واعتبار بلدهم مقابل امرأۀ ملوثۀ!! یا لها من مفارقات؟ علی کل مسلم أنْ یتعلم القیم ویدرکها ویدیر عنجلات الاقتصاد مع حفظه علی تلک القیم فی ذات الوقت.

البحوث التکمیلیۀ للآیۀ

۱- أکل الربا فی عصرنا

کان أکل الربا فی العصور الماضیۀ محدوداً باشخاص کانوا یسلفون الناس ویرجعون اموالهم بعد فترۀ من الزمن مع مقدار من الربح، إلَّا أنَّ الأمر اختلف فی عصرنا، فقد ازداد اکلۀ الربا، کما أنَّ رقعته اتسعت لتشمل الدول والشعوب ککل، فإنَّ الکثیر اصبح یمارس هذا العمل القبیح حالیاً. بعض الدول التی تجیز لنفسها اکل الربا اوقعت بعض الدول الفقیرۀ فی مخالبها باعطائها بعض الدیون، وقد باتت هذه الدول تصرف کل ما تجنی من أرباح وعوائد وطنیۀ لعلاج هذا المرض المتفاقم. ولأجل ذلک نری أنَّ الفجوۀ بین الدول الفقیر والغنیۀ تزداد کل یوم، واذا ما استمر الوضع هکذا فلا یبعد أنْ تعلن هذه الدول عن افلاسها. وکمثال علی ما نقول فی مجال الربا هو الوضع المرتبک لاقتصاد دول جنوب شرق آسیا «۴» فهو بسبب قضیۀ اکل الربا. ان اکلۀ الربا العالمیین بسطوا لنا فخاً بعد الحرب المفروضۀ علی ایران- التی خرج من امتحانها الشعب الایرانی الشجاع مرفوع الرأس- وذلک ببذلهم السخی للاموال والدیون. ورغم أنَّهم لوثونا بعض الشیء بهذه الدیون إلَّا أنَّ المسؤولین بحمد الله سرعان ما التفتوا إلی خطورۀ هذا السم الفتاک، وأوقفوا عملیۀ اخذ الدیون ودفعوا تدریجیاً اقساط الدیون لینقذوا امثال القران، ص: ۱۲۴ بذلک بلدنا من هذا الفخ. اضافۀ إلی النوع المذکور من الربا هناک نوع اخر من الربا هو اقبح وأسوأ حالًا من سابقه، وهو الذی یعتمد رأس مال الناس، فإنَّ البعض إذا کانوا یبتّون بهذا العمل سابقاً وبأموالهم الشخصیۀ تقوم حالیاً البنوک (التی أموالها من الناس) بهذا العمل القبیح وهذا- قطعاً- یستتبع عذاباً اشد وأقسی من سابقه.

۲- النشاط المصرفی اللاربوی هل هو ممکن؟

یعتقد البعض أنَّ عصرنا یستدعی اقتصاداً ربویاً ولا یمکن فیه أی نشاط من دون ربا، وحذف الربا عن النشاطات المصرفیۀ یؤدی إلی رکود فی العملیات المصرفیۀ ورکود فی الاقتصاد فی النهایۀ، وبعبارۀ أخری: أنَّ الربا امتزج بالاقتصاد بشکل لا یمکن تفکیکهما. هذا النوع من التفکیر یطرح من قبل المفکرین المغتربین، باعتبار حاجۀ الدول الثریۀ إلی مبلغین لها فی الدول الفقیرۀ؛ وذلک لأنَّ تفکیراً من هذا النوع یتطابق مع مصالحهم، رغم سقمه. إنَّ البنوک الاسلامیۀ لو عملت بالقرارات المصوبۀ فی بلدنا ولو اطلعت الناس علی محتویات هذه القرارات وکانوا اوفیاء تجاهها فسوف تحل قضیۀ الربا وسوف یفید أصحاب رؤوس الأموال من اموالهم، کما أنَّ البنوک نفسها ستستفید وعجلۀ الإقتصاد ستتحرک. من العقود الاسلامیۀ- التی جاءت فی قرارت البنوک- هو عقد (المضاربۀ)، وهو لا یختص بالتجارۀ «۱» بل یشمل الاستثمارات فی قطاع الصناعۀ والبیطرۀ والزراعۀ والخدمات وغیر ذلک. علی اساس عقد المضاربۀ یودع

الشخص رأس ماله عند البنك، والبنك يعين مستوى الربح على اساس العقد، بالطبع ينبغى ان يكون الربح نسبة من المنفعة لا من رأس المال. والمشترى يمكنه ان يوكل البنك فى ان يتصالح على سهمه بنسبة معينة ليقبضه كل شهر. لكن امثال القران، ص: ۱۲۵ يحسب مجمل الربح بعد انتهاء العقد، ثم يوكل البنك وكالة مطلقة لأنْ يستثمر الاموال فى أى مجال أراد، وعلى البنك أنْ يعمل طبقاً للعقد. وفى هذه الحالة فإنَّ مشكلة الربا منتفية رغم انتفاع صاحب رأس المال وانتفاع البنك اضافة إلى أنَّ عتلة الاقتصاد سوف لا تبقى ساكنة بل تعتمد تجارة سليمة وصحيحة. ينبغى الالتفات إلى أنّه ينبغى تنفيذ العقود الشرعية. وانزالها على الورق دون العمل بها لا يغير شيئاً من الواقع وتبقى مشكلة الربا معضلة بلا حل. حذف الربا من المصارف أمر ممكن بدليل أنَّ الربا كان رائجاً فى صدر الإسلام وحرم بعد ظهوره رغم ذلك لم يحصل ركود اقتصادى واشكالات من هذا القبيل.

۳– حكم الايداعات والسلف

هل يحل للناس ايداع أموالهم فى البنوك وأخذ الأرباح التى تترتب عليها؟ وما حكم السلف التى يمنحها البنوك لزبائنه ويأخذ عليها ارباحاً نسبية؟ من المناسب قبل الاجابة على السؤالين ان نقدم مقدمة نطرح فيها فلسفة هذا النوع من الايداع والسلف. كثير من الناس يملك رأس مال وصله عن طريق الارث أو العمل أو شىء من هذا القبيل، لكن لا يستطيع توظيف رأس المال هذا فى المجال الاقتصادى، من جانب آخر هناك الكثير ممن له طاقة على توظيف الاموال ويحضى بقدرة ادارية جيدة مثل خريجى الجامعات من الشباب ذوى الطاقة والحوافز الجيدة. يأتى هنا دور البنوك حيث يمكنها أنْ تلعب دوراً فاعلًا، بأنْ تجمع بين رأس المال والطاقات والكوادر، فتأخذ الاموال من اصحابها وتسلفها للكوادر لتوظيفها فى سبيل دفع عجلة الاقتصاد وتطلب من الاخيرين ارجاع الاموال من خلال اقساط. وفى هذا المجال تنال البنوك جزءاً من العوائد والارباح. من جانب آخر تتمكن البنوك أخذ رؤوس اموال فاقدى القدرة على توظيفها، لتشترك فى توظيفها واستثمارها، وترجع مقداراً من ارباحها إلى اصحاب روؤس الأموال. امثال القران، ص: ۱۲۶ وعليه، إذا تمت هذه المشاركة على أساس عقود شرعية فلا اشكال فى شرعيتها. ولأجل التحقق من هذا الأمر نوصى بالامور التالية: ۱– تعليم موظفى البنوك الاحكام والعقود الشرعية المتعلقة بالبنوك والزامهم بتنفيذ القوانين الخاصة فى هذا المجال. ۲– أن يقوم العلماء ومن له باع فى الاحكام الشرعية الخاصة بالبنوك بتبيين المسائل الشرعية الخاصة بالبنوك وايضاحها إلى الناس بلغة بسيطة ويذكروا اخطار الربا ومواقف الإسلام الشديدة تجاهه. ۳– من المناسب أنْ توازن البنوك بين ارباح الإيداعات والسلف، ولا ينبغى أن تكون ارباح السلف اكثر من ارباح الايداعات. كما أنّ عليها أن تحيى السنة الحسنة للاقراض وان تخطو فى هذا المجال خطوات مؤثرة.

۴– آيات أخرى عن الربا

لأجل تكميل البحث نشير هنا إلى ثلاث آيات تعرضت لجزئيات الربا واحكامه: الف– يقول الله فى الآية ۲۷۸ من سورة البقرة: «يَا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا اتَّقُوا اللَهَ وذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ». إنّ بداية الآية خطاب للمؤمنين ونهايتها مشروط بالايمان، ومعنى حسن المطلع وحسن الختام فى الآية هو أنّ أكل الربا لا يتفق وروح الايمان وأنَّ آكل الربا ليس مؤمناً.

شأن نزول الآية

بعض الاغنياء من المسلمين كانت لهم مطالبات ربوية ممن كانوا قد استلفوا منهم، ومن اولئك كان العباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد. وعندما نزلت آية تحريم الربا تساءل هؤلاء البعض عن مصير اموالهم وأرباحها، فنزلت الآية محددة الحكم هنا فى أنَّ لهم الحق فى إرجاع أصل رأس المال دون ربحه ورباه. وقد قال الرسول صلى الله عليه و آله عندما نزلت آية تحريم الربا: امثال القران، ص: ۱۲۷ «ألا أنَّ كل ربا من ربا الجاهلية موضوع وأوّل ربا اضعه ربا العباس بن عبد المطلب»، «۱» وهذا يكشف عن أنَّ الإسلام لا يرى

قيمة للعلاقة السببية والنسبية مقابل القوانين والضوابط. باء- يقول الله فى الآية الاخرى من نفس السورة البقرة (۲۷۹): «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فـأذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِه وإنْ تُبْتُم فَلَكُم رُؤُوسُ أمْوَالِكُم لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظلَمُونَ». «۲» ينبغى الالتفات هنا إلى أنَّ صدر الآية يشير إلى اعلان الحرب من قبل الله ورسوله لا من قبل آكلى الربا؛ وذلك لأنَّ (فأذنوا) تعنى فاعلموا أو فأيقنوا، إلَّا أنَّ الكلمة إذا قرئت (فآذنوا)- كما قرأها البعض، وهى قراءة غير معروفة- فانّ اعلان الحرب سيكون من قبل آكلى الربا. جيم- الآية ۲۸۰ من سورة البقرة: «وَإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٌ وأنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُم إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ». أى على اصحاب رؤوس الاموال ان يمهلوا المعسرين والمحتاجين ولا يطالبوا بأموالهم .. وإن كان حالهم متأزم فالأفضل أن يعتبروا اموالهم صدقة بذلوها لمستحقها. من مجموع الآيات المذكورة يستشف أنَّ الربا عند الله اثم عظيم وخطر، وقد استخدم له القرآن تعابير لم يستخدمها فى أىٍّ من الذنوب.

المثل العاشر: الخَلْق المدهش لعيسى بن مريم عليه السلام

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية ۵۹ من سورة آل عمران: «إنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». على هذه الآية، فإنَّ ولادة عيسى دون أب لا يدل على الوهيته.

الشرح والتفسير

يقول الله فى هذه الآية: إنَّ خَلْق عيسى عليه السلام يشبه خَلْقْ آدم عليه السلام فى أنَّه خلق من تراب دون دخالة أب وأم فى ذلك، بل وجد بمجرد ان قال له الله: كُن. تحدث القرآن المجيد فى الايات ۴۵ إلى ۵۹ من سورة آل عمران عن عيسى بن مريم عليه السلام وحكى مراحل حياته المختلفة من قبيل كيفية الولادة والتربية ونموه وبعثته ورسالته وكراماته ومعاجزه وعروجه إلى السماء، وقد سعى القرآن خلال هذه الآيات أنْ يرفع الشبهة المثارة حوله. سؤال: كيف يمكن أنْ يولد انسان من أم فقط دون أب؟ أو كيف يمكن أو يولد إنسان من دون تركيب بين الأسبرم والبويضة؟ هل الآية فى صدد الاجابة على هذه الشبهة، بحيث تقول: ألم نخلق آدم دون دخالة أب؟ أى كأنها تريد القول بأنَّ خلق آدم اصعب من خلق عيسى؛ لأنَّ فى خلق عيسى توسطت الام، أمّا فى خلق آدم فلا واسطة، من قبيل أُم أو أب، فكان أصعب خلقاً من عيسى عليه السلام. امثال القران، ص: ۱۳۰ إنَّ أفعالًا من هذا القبيل ليست صعبة بالنسبة لله؛ فإنَّ الله ما إن قال لشىء «كُنْ فَيَكُونُ» «۱» إنَّ الخلق عند الله لا يفرق فيه بين الصغير والكبير والصعب والسهل. إنَّ الله إذا اراد أنْ يَخلق عالماً كعالمنا الحالى بمجراته ونجومه- الذى كشفت الاحصائيات والاكتشافات العلمية عن سعته وعظمته- فإنَّه سينخلق بمجرد أنْ يأمر. إنّ الإنسان عند الصلاة إذا تصور امامه خالقاً بهذه القدرة والعظمة وشعر بأنَّه (لا شىء) يتحدث مع (كل شىء) لكانت صلاته وحالاته فيها تختلف بالكامل.

قدرة الله فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام

تحدث الامام على عليه السلام فى الخطبة ۱۸۵ من نهج البلاغة عن قدرة الله وأشار اليها بجمل جميلة كما نرى هنا: «لو فكروا فى عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه واتقن تركيبه، وفلق له السمع والبصر ..»، ثم يتعرض إلى خلق النملة وظرافة ما تحتويه هذه الخلقة. من الحجب التى تحول دون التفات الإنسان إلى عجيب الخلقة، هو حجاب العادة، وذلك لأنَّ العادة تنسى الإنسان عظمة الشىء. فالنملة، مثلًا، اصبحت عادية باعتبار كثرتها وتعوّدنا على رؤيتها، الأمر الذى يجعل الإنسان غافلًا عن عظمة خلقها، وهى إذا قيست مع أهم صناعات

الإنسان لاتضحت عظمتها. إنَّ صناعة الطائرة صناعة تعتمد تقنية متقدمة جداً، فهی تحمل فی الفضاء أناساً وسلعاً، ولها اجزاء مختلفة تشبه المدینة الصغیرة. وهذه الطائرة- التی تکشف عن ذورة التقنیة والصناعة البشریة- إذا قیست بالنملة- التی هی من اصغر صناعات قدرة الله اللامتناهیة- لکانت النملة اکثر عظمة من الطائرة؛ وذلک لأنَّ النملة تضم کل شیء رغم جثتها الصغیرة والنحیفة، ففیها أجهزة من قبیل: الباصرة امثال القران، ص: ۱۳۱ والسامعة والرجل والید وجهاز الهضم والدفع والتناسل وتعلم بهندسة بناء البیت وتهیئة الاغذیة وخزنها بشکل یحول دون فسادها و .. ویا تری کیف یمکن لموجود صغیر أن یضم هذه الاجهزة جمیعها؟! أمّا الطائرة فاضافة إلی أنَّها تفقد الکثیر من هذه الاجهزة مثل جهاز التناسل وغیره، فهی بنفسها غیر قادرة علی تحریک نفسها، وتستعین لأجل الحرکة بطاقم من التقنیین والمهندسین. نعم، إن الإنسان سیهتدی ولا- یتعجب من خلق إنسان بلا أب إذا فکر فی خلق الله وتدبّر فیه. ینبغی السجود لربٍّ قادرٍ مثل هذا، کما ینبغی الصلاة والسلام علی الإنسان الکامل (الإمام علی علیه السلام) حیث استطاع توصیف هذه القدرة اللامتناهیة وبشکل بدیع ورائع.

قصة خلق الإنسان

هناک نظریتان رئیسیتان فی خلق الإنسان: ۱- (تنوع الأنواع)، یعتقد أصحاب هذه النظریة أن الإنسان خلق مستقلًا کما خلقت الحیوانات الاخری. وقد یُسمی هذا التصور وهذه النظریة (ثبوت الانواع). ۲- (تبدّل الانواع)، وهی النظریة المشتهرة بین علماء الطبیعة والقائلة بأنَّ الخلقة بدأت بموجود أحادی الخلیة کان یسبح فی البحار، نمی هذا الموجود بشکل تدریجی لیتبدل إلی سمکة، تکاثرت هذه السمکة، ثم ألقت أمواج البحر ببیض من أفراد فصیلتها خارج البحر، لتتبدل تدریجیاً إلی حیوانات بریّة ومنها القرد، ثم تکاملت بعض أصناف القرد لتتبدل إلی إنسان. هل یمتلک أصحاب نظریة (تبدل الانواع) أدلة قاطعة علی کلامهم؟ کلا؛ وذلک لأنّ کلامهم یرجع إلی ملایین من السنوات الغابرة، إلی زمن لم یکن فیه إنسان أبداً، إلی زمن لم تصلنا عنه معلومات دقیقة، وما لدینا من تلک العهود هو شواهد وقرائن أثریة جمعت من قبل منقبی الآثار.

الاختلاف بین (الفرضیة) و (القانون)

إنّ مجموعة القضایا التی یسعها المختبر ویمکن أن تُحلل وتقع فی طریق التجربة العلمیة تتبدل إلی قانون إذا ثبتت صحتها، کالقضیة القائلة بأنَّ سرعة الضوء ۰۰۰/ ۳۰۰ کیلومتر فی الثانیة. أما مجموعة القواعد التی لا یمکن اخضاعها للتجربة، ویُتمسک لأجل إثباتها بالعقل من خلال القرائن والشواهد الموجودة فهی فرضیة. وعلی هذا؛ فإنَّ (تبدّل الانواع) فرضیة لا قانون. ومن خصائص الفرضیة أنَّها تحتمل التبدّل والتغییر والبطلان، کالفرضیة القائلة بأنَّ الإنسان قبل أربعین ألف سنة یختلف عن الإنسان الحالی، فإنَّ علماء الآثار وجدوا جماجم تتعلق بملیونی سنة قبل عصرنا هذا کشفت عن شباهة الإنسان فی ذلک العصر مع الإنسان الحالی، وبهذا بطلت الفرضیة السابقة.

رأی القرآن فی خلق الإنسان

إنّ نظریة (تنوّع الانواع) هی المستفادة من القرآن المجید، ویبدو أنَّ القرآن یؤید هذا الرأی وهذه النظریة، أمَّا (تبدّل الانواع) فلا یمکن النظر إلیها کقانون ثابت یستحیل الخدش فیه. علی أی حال، سواء کانت النظریة الأولی صحیحة أم الثانیة، فإنَّ تفسیر الآیة لا یتغیر، وحتی لو قلنا بتبدّل الأنواع فإنَّا سنقول: إنّ الذی استطاع أن یخلق الموجود أحادی الخلیة یستطیع أن یخلق عیسی علیه السلام دون حاجة إلی أب وأُم. هذا اضافة إلی أنَّ العلماء عثروا علی موجودات یمکنها التکاثر دون حاجة إلی التلاقح، وهی حیوانات تستطیع الانثی منها التکاثر دون حاجة إلی لقاح من الذکر. وإذا کان عالم کهذا ممکناً فان ولادة عیسی علیه السلام لا أنّه أمر غیر

عجیب فحسب، بل قد حصل ما هو أعجب منه.

المثل الحادی عشر: إنفاق الکفار

اشارة

یقول الله فی الآیة ۱۱۷ من سورة آل عمران: «مَثَلُ مَا یُنْفِقُونَ فِی هَذِهِ الحَیَاةِ الدُّنیا کَمَثلِ رِیْحٍ فِیْهَا صِرّ أَصَابَتْ حَرْث قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَکَتْهُ ومَا ظَلَمَهُمُ الله ولَکِنْ أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ».

تصویر البحث

فی هذه الآیة یمثّل القرآن بذل الکفار بزراعة کافر فی أرض خصبة، فهو ینثر فیها البذر، إلَّا أن مجیء ریح بارد وجاف یجفّف ما زرعه وأنبته هذا الکافر فی هذه الأرض.

الشرح والتفسیر

«مَثَلُ مَا یُنْفِقُونَ فِی هَذِهِ الحَیَاةِ الدُّنْیَا» یعتقد بعض المفسرین أنّ کلمة النیة أو الدافع مقدرة هنا، وهی توضّح هذا الجزء من الآیة. وبهذا التقدیر یصبح معنی الآیة کالتالی: أنّ نیة هکذا إنفاق ودافعه کمثل ریح فیها صر أصابت حرث قوم، فکما أنَّ هذا الریح یدمر الحرث، کذلک النیة هذه فانّها تدّمر هذا الانفاق. «کَمَثَلِ رِیْحٍ فِیْهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم فأَهْلَکَتْهُ» إنَّ مفردة الصر بالعربیة امثال القران، ص: ۱۳۴ تعنی ریحاً شدید البرد، أو ریحاً شدید الصوت. «۱» علی أی حال، المراد من هذه الکلمة هو الریح الشدید الذی یحرق حتی بعض الغابات الکبری أحیاناً. وسبب هذا الحریق- کما نسمع من المختصین- هو الصواعق والرعد والبرق، وقد یکون هناک إعصار شدید تحتک بسببه بعض الاشجار الیابسة- التی تدّخر فی نفسها طاقة- فتتولد قدحة تشعل النار، فیحصل الحریق. وعلی هذا، فإنَّ مثل انفاق الکفّار کمثل المزرعة التی تواجه ریحاً شدیدة تُضرم النار فیها. «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ولَکِنْ أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ» وذلک لأنّ ما یترتب علی فعلهم لم یکن ظلماً من الله بل کان ذلک کله بسبب سوء نوایاهم وعدم صدقها. إنَّ المزارع الذی یتعمّد الزرع فی أراضٍ تقع فی مسیر الریاح الشدیدة والباردة، إذا تلفت زراعته إثر هبوب الریاح فذلک ظلم أورده بنفسه علی نفسه.

خطابات الآیة

۱- المراد من الإنفاق فی آیة المثل

أی نوع من الانفاق شُبِّه بالریح الصر فی الآیة الشریفة؟ إنّ فی ذلک احتمالات ثلاثة نشیر إلیها هنا. الف- المراد منه الانفاق الذی یُصرف فی غیر سبیل الله، مثل الانفاق والبذل الذی کان یصدر من أبی سفیان الکافر والمنافق- فهو لم یُسلم قلبیاً وضلّ کافراً إلی آخر عمره- فی سبیل عظمة الأصنام ولأجل إسقاط الإسلام. إنَّ القرآن المجید یقول: إنّ إنفاقاً من هذا القبیل مثل الأرض التی تعدُّ للزراعة، ودوافع امثال القران، ص: ۱۳۵ هؤلاء المنفقین- وهی الشرک وعبادة الأصنام- مثل الریح الصر. باء- المراد من ذلک هو الانفاق والبذل الذی یصدر من المسلمین المترائین لأجل بناء المساجد والحسینیات والمستشفیات والمستوصفات والجسور والطرق وما شابه ذلک، فهی إنفاقات ذات دوافع غیر إلهیة، وتنمُّ عن دوافع مثل المباهاة وجلب رضاء الناس لأجل الفائدة الأکبر فی المستقبل. إنَّ إنفاق هؤلاء مثل الأرض الزراعیة الخصبة، ونیة المنفقین غیر الخالصة مثل الریح الصر. جیم- المراد منه هو الانفاق الذی یقترن مع المنِّ والإیذاء، فهو فی الظاهر إنفاق وفی الواقع إذهاب لماء وجه الآخرین وسلب اعتبارهم. فالإنفاق آنذاک کالأرض الزراعیة، أما

المن والأذى فبمثابـة الريـح الصـر فأنها تُبطل الانفاق، كما أن لها أضـراراً دنيويـة، وذلك لأنّه فقد ماله اضافة إلى انّه ارتكب ذنباً عليه عقاب. «۱»

۲- الإنتقام من كافر النعمة

يستفاد من الآيـة وآيـات اخرى من القرآن المجيـد أن الله ينتقم فى كثير من الحالات من الـذين يكفرون بنعمه ويطغون، فيجعل النعم وسيلة لعذابهم ويبدّلها إلى نِقم (أى الموت فى قلب الحياة). كمثال على ذلك، الله أباد قوم نوح بواسطة المطر والطوفان، مع أنّ المطر قطرات تمنـح الحياة لمن تصـله، وهو من أكبر نعم الله تعالى على هذا القوم. إنّ الغيث إذا لم ينزل ينتهى كل شـىء على وجه الأرض، فهو نعمة لكنه تبدّل إلى مصـيبة على قوم نوح! تحدّثت سورة سبأ عن قوم سبأ، والحكاية واقع وعبرة فى نفس الوقت. إنّ هذا البلد يقع فى مسير المياه الحاصـلة من المطر، ولأجل الحـدّ من أضـرار الأمطار الغزيرة بنى هذا القوم سداً ترابياً لجمع المياه الزائدة والافادة منها عنـد الحاجة، وشـقوا قنوات وسواقى من هذا السدّ إلى امثال القران، ص: ۱۳۶ أراضـيهم، فأصبحت أراضيهم بذلك قطعة من الخضار لكثرة التشجير والمزارع والبساتين، وما كان الله يريد من هذا القوم إلّا شكر الرب على نعمه الوافرة، كما يصرّح القرآن بذلك فى الآية ۱۵ من سورة سـبأ: «كُلوا مِنْ رِزْقِ ربّكُمْ واشْـكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طيِّبـةٌ وربٌّ غَفُورٌ» لكن باعتبار أنَّ الإنسان ينسـى الله عنـدما يغرق فى نعمه، فكذا قوم سـبأ كانوا قد نسوا الله وأصابهم الغرور والطغيان وكفران النعمة، وهذه من صـفات الإنسان إذا كان ضيق الصدر، حيث ينسى كـل شـىء عنـدما يبلغ مستوى الرخـاء. إنّ القرآن يصف العـذاب والنقمـة التى أصابتهم كالتالى: «فَأَعْرَضُوا فأرْسَـلْنَا عَلَيْهِم سَـيْلَ العَرِم وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَتَيْهِم جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىءٍ مِنْ سِدْرٍ قَليلٍ». «۱» نعم؛ إنّ كفران النعمة هو الذى بدّل نعمة السد الترابى إلى نقمـة وعـذاب. وقد توفرت مقدمات العذاب، بعدما أوحى الله لفئران أن تثقب السدّ، فكان الماء يخرج من الثقوب شـيئاً فشـيئاً إلى أن توسـعت الثقوب لتصل إلى مستوى استطاعت أن تدمّر السدّ، فتدفّق الماء بشدة ودمّر قصور القوم وبساتينهم وأنعامهم، وبدّل مزارعهم إلى أراض جرداء. وفى النتيجـة تبـدّل هـذا السـدّ- إثر إعراضـهم عن الله- إلى عذاب ليكون عبرة لمن بعدهم، ولكى لا يطغى الإنسان أمام الله. النموذج الآخر، هو عذاب الله الذى نزل على قوم شعيب من خلال الصيحة (كما يعبر عنها القرآن فى الآية ۹۴ من سورة هود) أو الصاعقة، وهى من جهتين تعتبر عذاباً، الأولى: أنَّها تحرق كل ما تصطدم به. والثانية: أنّ أمواجها الصوتية تذهب بالسمع. ويُذكر هنا أنَّ هذه الصاعقة كانت نعمة لهم؛ لأنها تسـبب هطول الامطار، تلك النعمة التى يدين لها جميع الأحياء على الكرة الأرضية. وحسب ما ذكر فى الآية ۱۶ من سورة هود، أنّ الاستئصال كان نتيجـة طغيانهم وكفرانهم لنعم الله، وتبـدّلت بذلك الأرض التى هى مهد الإنسان ومسـكنه إلى وسـيلة عذاب يتعذبون بها. امثال القران، ص: ۱۳۷ إنّ اهتزاز الأرض دمر جميع مـدنهم، وقـد أنزل الله وابلًا من الأحجار عليهم بحيث لم يبق من آثـارهم شـىءٌ أبـداً. أشـرنا سابقاً إلى أن الريـح من نعم الله العظمى للمزارعين، كما أنَّه إذا لم يهب فانَّ عملية لقاح الاشـجار سوف لا تتمُّ، كما أنَّ الهواء إذا لم يتغير فسوف يسـتهلك الاوكسجين فيه، وفى النهاية سوف لا تثمر الاشجار والنباتات من جراء ذلك.

۳- فلسفة الكوارث الطبيعية

منذ القدم كانت المسألة التالى ذكرها أحد مسائل بحث العدل الإلهى، وهى: إذا كان الله عادلًا فما فلسـفه الكوارث والحوادث المؤلمة من قبيـل الأـمراض والسـيول والطوفانات والزلازل والامطار الشديـدة والاعصار المخيفـة؟ هل تتلاءم هـذه الامور المؤلمـة للإنسان أو المدمّرة له مع عدالة الله؟ لا نعرف التاريخ الدقيق لطرح هذه الشـبهة، وقد يرجع تاريخها إلى ما قبل ميلاد السـيد المسـيح عليه السـلام. وقد دوِّنت فى هذا المجال البحوث والكتب الكثيرة، وهممنا فى كتاب (خمسـين درساً عقائدياً) بالاجابة على هذه الشبهة. وقد تصدَّى القرآن فى بعض آياته للاجابـة على هذه الشـبهة، نشـير إلى نماذج من تلك الآيات: ۱- تعتبر بعض الآيات التنبّه واليقظـة من أهداف

هـذه البلايا والكوارث، كما هو كـذلك فى الآيـة ۴۱ من سورة الروم: «ظَهَرَ الفَسَادُ فِى البَرّ والبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أيدِى النَّاسِ لِيُذيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلوُا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». على أساس هـذه الآيـة، تعـدُّ الكوارث لطفـاً من الله للغـافلين من الناس، فإنَّها قـد تفيق الغافلين عن غفلتهم لعلهم يرجعون إلى الله، مثلمـا ابتلى الله النـاس فى زماننـا هـذا بمرض الايـدز لكـثرة فسـادهم لعلهم بهـذا الابتلاء يرجعون عن فسادهم وينتبهون إلى أنفسـهم، أو مثلما يبتلى شـعوب العالم حالياً بالحروب والاختلاف الطبقى الفاحش والانقلابات والسقوط وتدمّر الحضـارات البشـرية وذلـك لتفشـى أمراض مثـل أكـل الربـا فيهم. فهـذه الابتلاءات تحلُّ بالناس امثال القران، ص: ۱۳۸ لعلّهـا تنبههم وترجعهم إلى الطريق الصواب وتفيقهم من غفلتهم هـذه. إذن، الابتلاءات هـذه مواهب إلهيـة فى الواقع. ولأجل اتضاح هـذه الفلسـفة بشـكل أفضل التفتوا إلى هذا المثال: نشاهد فى بعض الشوارع الطويلة والمسـتوية بعض العقبات والعكر تعَّمد إيجادها المعنيوّن. إذا ما سألنا عن سـبب ذلك قالوا: إن شوراع من هـذا القبيل قـد تؤدى إلى غفوة السائق وغفلته الأمر الـذى قد يودى، بحياته وحياة الآخرين، ولأجـل الحيلولـة دون غفوة السـائق نتعمـد إيجاد هـذه العكر ليبقى السائق منتبهاً دائماً. إنّ حياة الإنسان إذا خلت من هـذه العقبات قد تؤدى إلى غفلـة الإنسان وغفوته وسـقوطه فى الهاويـة فى نهايـة الأمر، لكن وجود هـذه العقبات تحول دون غفلته وتنجيه من السـقوط رغم أنها تؤذيه ولا تريحه. ۲- الفلسـفة الاخرى المستفادة من الآيات هى أنَّ بعض هذه البلاءات والحوادث نتيجة عمل الإنسان نفسه، وبتعـبير آيـة المثـل: أنَّ الإنسـان يظلم نفسه وأنَّ الله لاـ يظلم أحـداً. على سبيـل المثـال، الأـبوان اللـذان لايكترثـان بسوء أو حسن تربية الاطفال، ولا يهتمان بتعليمهم المسائل الدينية، ولا يرشدونهم إلى الاماكن الدينية مثل المساجد والحسـينيات ولا يعوّدونهم على التردد على هذه الأماكن، فان النتيجة ستكون اطفالًا غير مهذبين أو متعاطين للمخدرات، الأمر الذى يعود بأضراره لا على نفسيهما فحسب بل على جميع المجتمع، لكن يا ترى من كان السبّاق والناثر للبذرة الأولى لهذا الشذوذ وهذا الظلم؟ لا أحد غير الأبوين.

إعتبروا

قبل مـدة جاء شـخص محترم لمكتبنا لغرض دفع ما عليه من واجبات ماليـة، فقضـى الموظفون حاجته وأدى ما عليه، ثم رحل. بعد فترة من الزمن جاء نفس الشـخص مع صديق له، وهو يحمل معه الكثير من الهمّ والغمّ، ورأيته يبكى، فسألته عن سـبب بكائه؟ فأجابنى: أنَّ إطفالى صادروا جميع ما جمعت من المال خلال السـنوات الماضـية من عمرى، وقـد طردونى من البيت، وأنا الآن أنام فى كل ليلة فى بيت امثال القران، ص: ۱۳۹ من بيوت المعارف. ثم أشار إلى صـديقه وقال: إنّ الطريق الذى سـلكه صديقى كان طريقاً صـحيحاً، فهو سعى منـذ البدايـة فى تربيـة أولاـده وتعـاليمهم والاحكام الإسـلامية وأرشـدهم منـذ الصـغر إلى المساجـد والحسـينيات، وأولاده حالياً كالعصى بيد والديهم يحترمونهما ويؤدون واجباتهم تجاههما، إلّا انى أخطأت منذ أن فكّرت فى إرسالهم للخارج وتعليمهم العلوم من دون الاكتراث بما قـد يسىء ذلك إلى تربيتهم. وحالياً عنـدما رجعوا إلينا وجـدناهم لا يفكرون إلّا بأنفسـهم ومصالحهم الماديـة، فلا يهتمون بشىء غير المال «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِنْ كَانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ». «۱» إنّ لطف الله ورحمته على العباد مثل الغيث الذى يهطل على الأراضـى، ففى بعضها تنبت الزهور والنباتات، وفى بعضها الآخر تنبت الأدغال، والاشكال ليس فى المطر بل فى ذات الأرض. كما أنه لا اشـكال فى أنوار الهداية الإلهيّة، بل الاشـكال فى قلوب الناس. وعلى هذا، فإنَّ الفلسـفة الاخرى لهذه الابتلاءات هى أنَّها ردود فعل لأفعالنا نحن. بالطبع هناك فلسفات اخرى لهذه الظواهر، نحن نكتفى هنا بالموردين السابقين.

المثل الثانى عشر: الكفر والإيمان

اشارة

يشير الله تعالى إلى هذا المثل فى الآية ۱۱۲ من سورة الأنعام، حيث يقول: «أوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ

کَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُمَاتِ لَیسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا کَذَلک زُیِّنِ لِلْکَافِرِینَ مَا کَانُوا یَعْمَلُونَ».

تصویر البحث

فی الآیـهٔ مثلاـن کلاهمـا عن الکفر والایمـان. شـبّه القرآن الایمـان فی المثل الأول بالحیاهٔ، والکفر بالموت. وفی المثل الثانی شـبّه الله الایمان بالنور والکفر بالظلمات.

شأن نزول الآیهٔ

ذُکر شأنان لنزول الآیهٔ: ۱- نزلت الآیهٔ فی حمزهٔ العم الجلیل لرسول الله صـلی الله علیه و آله وفی أبی جهل العدوّ اللدود للرسول صلی الله علیه و آله. إنّ حمزهٔ لم یؤمن فی صـدر الإسـلام، وقـد یکون ذلک تأنیاً منه لدراسـهٔ الـدین الجدیـد بشـکل افضل، فهو فی صـدر الإسـلام سـلک سبیـل السـکوت تجاه الـدعوهٔ. أما أبو جهل فکان یؤذی الرسول دائماً بشـکل وآخر وکان یضع أمام الرسول العقبات لأجـل إیـذائه. فی یوم کان حمزهٔ قـد ذهـب للصـید، وفی نفس الیوم کان أبو جهل قـد آذی الرسول بشـدهٔ بحیث تأثر من جراء ذلک امثال القران، ص: ۱۴۲ حتی عبدهٔ الأصنام، وقد وصل خبر إیذاء الرسول صلی الله علیه و آله لحمزهٔ بعد أن قدم من الصید، فذهب إلی أبی جهل وضـربه علی أنفه بحیث رعف أنفه دماً، ورغم ما کان لأبی جهل من قوم وأنصار، إلّا أنه هاب حمزهٔ، ولم یصدر منه أی ردّ فعل، وفی هـذه الاثناء استسـلم حمزهٔ. إنّ الآیهٔ نزلت هنا، وکأنها ترید القول: إنَّ حمزهٔ حیی عندما أسـلم، وبذلک تنوَّر قلبه، عکس ما کان علیه ابوجهل فی تورّطه بالظلمات، وأنَّ تعصبه ولجّه حال دون الخروج منها. الکفار یعتقـدون بصـحهٔ أعمالهم ورفعـهٔ شأنها رغم أنهم یزدادون کـل یوم غطساً فی طین الشـقاء والکفر. «۱» ۲- الشـأن الآـخر هو أنَّها نزلت فی عمار بن یاسـر وأبی جهل. إنّ عمار من الشـباب الشجعان ومن أوائل الذین أسلموا ونوروا قلوبهم بالایمان، فهو من أنصار رسول الله صلی الله علیه و آله، وأصبح نصیراً للإمام أمیر المؤمنین علیه السـلام بعد وفاهٔ الرسول صـلی الله علیه و آله، وقد استشـهد فی صـفین. «۲» عندما أسـلم هذا الشاب ذمّه الکثیر من المشـرکین، منهم أبو جهـل، وقـد تعرّض آنـذاک لأـنواع من العـذاب. ومن هنـا قیل: إنَّ الآیـهٔ نزلت فی إیمان عمار وکفر أبی جهل، باعتبار أنَّ عمار قبل الإسـلام کان میتاً وحیی بعد الإسلام وتنوّر قلبه به، أما أبو جهل فظل فی وادی الظلمات باصراره علی الکفر ولجه فی ذلک، ولا أمل له فی النجاح والسعادهٔ؛ لأنَّه کان یعتبر أعماله القبیحهٔ حسنهٔ. «۳»

ما هی الحیاهٔ؟

لأـن نسـتوعب بعمق المثل الأوّل علینا أن نفهم معنی الحیاهٔ. رغم أن آثار الحیاهٔ نجـدها فی کل مکان، ورغم أنّه یمکننا أن نمیّز الحیاهٔ عن الممات، إلّا أنَّ تعریف الحیاهٔ وإدراک حقیقتها أمر مشـکل، وقد لا یوجد شـخص استطاع إبداء تعریف جامع لحقیقهٔ الحیاهٔ. امثال القران، ص: ۱۴۳ یعتقد العلماء أنّه لا یمکن أن یولد الحی من المیّت. ورغم ما انجزه العلماء من صـناعات مدهشهٔ کالکامبیوتر والطاقهٔ الذریـهٔ و ... إلّا أنهم مـا اسـتطاعوا أن یخلقوا موجوداً حیّاً من موجود میّت. اعتبر القرآن قبل ۱۴۰۰ سـنهٔ الإنسان عاجزاً، حیث قال فی الآیهٔ ۷۳ من سورهٔ الحـج: «إنَّ الَّذِینَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ یخلقُوا ذُبَابَاً ولو اجْتَمَعُوا لَهُ». وفی هذا العصـر الملیء بالاختراعات، یعجز الإنسـان عن إدعـاء الخلق فضـلًا عن الخلق نفسه. من المبـادئ التجریبیـهٔ المسـلمهٔ هی أنَّ الحی لاـ یمکن خلقه من المیّت، وظنُّ بعض العوام أن الرطوبـهٔ تخلق بعض الموجودات الحیَّهٔ فذلک ظن باطل، کما أنَّه لا یتصور أنَّ التفاحهٔ بنفسـها توجد الدودهٔ التی فی داخلها، بل ینبغی أن یکون فی داخل التفاحـهٔ بیضـهٔ الـدودهٔ لکی توجد الدودهٔ، فلا الحیوان یوجد النبات ولا النبات یوجد الحیوان. سؤال: فی الیوم الذی انفصلت الارض عن الشمس لم یکن موجود حیٌّ علی الکرهٔ الأرضیهٔ، لکن الموجودات الحیهٔ وجدت بعد ذلک. ألم یکن ذلک بسـبب أنَّ الموجودات الحیـهٔ تخلق من الموجودات الجامدهٔ؟ الجواب: نعم کانت هناک ظروف معقدهٔ خاصهٔ خلقت الجمادات

الموجودات الحية، لكن هذه الظروف غير متوافرة بالفعل، كما لا يمكن للإنسان أن يوافر تلك الظروف. وعلى هذا، فانَّ الحياة أعجب ظاهرة فى عالم الوجود. والأعجب من ذلك هو خالق الحياة، فرغم تحقيق ودراسة الملايين من العلماء، ما أستطاع أحد منهم كشف هذا السر ومعرفة سر الخلق! ولهذا كانت قضية الحياة من أهم أدلة وبراهين معرفة الله.

أقسام الحياة

إن الحياة على ثلاثة أقسام: ١- الحياة النباتية، وعلاماتها أشياء ثلاثة: الف- النمو. باء- التغذية. جيم- التناسل. ٢- الحياة الحيوانية، وهى حياة تضم علامتين، هما: الحس والحركة. امثال القران، ص: ۱۴۴ ٣- الحياة الإنسانية، وهى تحضى- أضافة إلى الخصائص السابقة المذكورة فى الحياة النباتية والحيوانية- بخصائص من قبيل العلم والمعرفة والايمان والأخلاق والحب والارادة. واذا فقدت الحياة الإنسانية الخصائص الثلاث الاخيرة تبدلت إلى حياة حيوانية. ولذا، اعتبر القرآن المجيد غير المسلمين موتى؛ لأنّه ينظر إلى حياتهم من الزاوية الدينية الإسلامية.

المراد من الحياة فى آية المثل

لا شك فى أنَّ المراد من الحياة فى الآية الشريفة هو الحياة الإنسانية، أى أنَّ حمزة أو عمار أو أى شخص آخر يحيى إذا ما أسلم، فتظهر فيه علائم الحياة الإنسانية، أى العلم والمعرفة والاخلاق والايمان والحب والارادة. ومن هنا كان امثال عمار وحمزة والشهداء فى سبيل الله أحياء «۱» أمّا أمثال أبى جهل فأموات غير أحياء. «۲»

لماذا عُدّ عرب الجاهلية أمواتاً؟

يبحث الإمام على عليه السلام هذا الأمر فى الخطبة رقم ۲۶ من نهج البلاغة ويقول: «إنَّ الله بعث محمداً صلى الله عليه و آله نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل ...» ثم يذكر عشر خصال لعرب الجاهلية. ١- «وأنتم معشر العرب على شرِّ دين» فإنَّ عبادة الأصنام هى أسوأ خرافة، كيف يمكن للإنسان أن ينحت صنماً ثم يسجد ويركع إليه ويناجيه ويطلب منه الطلبات؟ والأسوأ من ذلك كله هو أنّه يضحّى بولده لهذه الأصنام، وعند الجوع يأكل أصنامه التى صنعها من التمر. ٢- «وفى شر دارٍ» فهم كانوا فى دارٍ لم يحكمها السلام أبداً، فنار الحرب كانت مستعرة دائماً، وكانوا يصرون على النزاع والمخاصمة ويورثون الأحقاد لأولادهم، وكان الموت مصير من لم يستطع الانتقام من خصمه، وكانوا يوصون أولادهم بالانتقام. ۳ و ۴- «مُنيخون بين حجارةٍ خُشنٍ وحيَّات صُمٍّ» أى كانوا فقراء يعيشون بين الاحجار امثال القران، ص: ۱۴۵ الصلبة والخشنة والحيات الخطرة التى كانت صماء لا تسمع، «فكانت الأرض فراشكم والسماء غطاءكم». ۵- «تشربون الكدر» أى ما كانوا يشربون ماءً زلالًا بل ماؤهم كان وسخاً دائماً. ۶- «وتأكلون الجشب» أى مأكولاتهم ما كانت لذيذة بل متواضعة ولا تلذ. ۷- «وتسفكون دماءكم» فان عدم الأمن والأمان كان هو الحاكم آنذاك. ۸- «وتقطعون الأرحام» فما كانوا يرحمون أولادهم فضلًا عن غيرهم، إنّ وأد البنات كان من عاداتهم. ۹- «الأصنام فيكم منصوبة» أى أنَّها كانت منصوبة للاحترام والتبجيل والعبادة ... ۱۰- «والآثام بكم معصوبة» أى كانوا قد غرقوا فى وحل الذنوب والعصيان. من مقال الإمام يستفاد أن الفقر كان هو السائد، سواء كان بمعناه الدينى أو الثقافى أو السياسى أو الاقتصادى أو الأمنى ... فبعث الله فى هذا الوسط- الذى كان ميتاً بكامل معنى الكلمة- رسولًا مع باقة من العلم والمعرفة. عندها التقى عرب الجاهلية ومسلمو صدر الإسلام مع العلم والمعرفة وما مرّ زمن طويل حتى تزعموا عالم العلم، ووفّروا الأرضية للحركة العلمية فى اوروبا. وخلال أربعة أو خمسة قرون استطاع المسلمون أن يرشدوا الاوربيين نحو العلم. ورغم أنَّ المسلمين تزعموا العلم وكانوا روّاد الحركة العلمية فى العالم، إلّا أنَّهم تخلفوا حالياً عن عجلة الصناعة والتقنية، وهم يمدون أيديهم الآن إلى الدول الأوروبية لارسال خبراء ومستشارين رغم ما يترك هذا الأمر من مضار أخلاقية

واجتماعية ودينية. وعلى العلماء في الوقت الحاضر أن يشدوا الشباب بماضيهم المنير وأن يعرّفوا هذا الجيل بما أقرّ به الاوربيون للمسلمين من علوم واختراعات وابتكارات علمية قبل النهضة الاوربية ... وبتدريسهم هذه المطالب في الجامعات والمراكز العلمية سوف يحرّضون الشبان نحو النشاط الاكبر والأكثر فاعلية.

آثار النور وبركاته

لقد شُبِّه الايمان في المثل الثاني بالنور، والكفر بالظلمات. ولأجل اتضاح عظمة النور من المناسب ان نشير إلى آثاره المادية وبركاته هنا: النور هو ألطف موجود وأسرعه في عالم المادة؛ فإنَّ سرعته في الثانية ۰۰۰/ ۳۰۰ كيلوامتر، وبعبارة اخرى: النور يستطيع أن يطوى الارض سبع مرات ونصف المرة في الثانية الواحدة، لأن قطر الأرض في خط الاستواء هو ۴۰ الف كيلوا متر، واذا قسمنا ۰۰۰/ ۳۰۰ على ۰۰۰/ ۴۰ فان الناتج سيكون سبعة ونصف. إنَّ بركات عالم المادة جميعها من النور، وذلك لأنَّ بواسطته تُقتل الميكروبات المضرّة وتُعالج بعض الامراض، وببركته يدفء الجو، وببركته تتنوّر الأرض، وببركته تنزل نعمة المطر الالهية. في الإسلام والايمان إضاءة كما في النور. إنَّ حمزة وعمار كانوا أمواتاً قبل الإسلام، كما هو حال عرب الجاهلية أجمع، ثمّ تنوّروا بعد إيمانهم، وأحيى هذا النور وجودهم وقلوبهم، وقد سلكوا طريق الحق والحقيقة بواسطة هذا النور، وطبيعي أن يختلف صاحب هذا النور عمن لا يمتلكه.

نور الفرقان

الآية التالية (۲۹ من سورة الأنفال) من الآيات ذات المحتوى والمعنى العميق التي نزلت في هذا المجال: «يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً». الفرقان لغوياً يعني ما يميز به الحق عن الباطل. والآية تعني أنَّ الإنسان إذا اتقى الله، فالله يلقي في قلبه نوراً يستطيع الإنسان من خلاله أنْ يميز الحق عن الباطل. ولهذا قد يحصل أن يكون بين الناس العوام اشخاص يحملون هذا النور ويعلمون بواقع الأمر رغم اكتناف الواقع بملابسات وغموض بحيث يعلمون بالمنشأ والأهداف. إنَّ أصحاب هذا النور لا يقعون في فخ الشيطان ولا يكونون آلة بيده، كما لا يتورطون بشباك المحتالين؛ وذلك لأن نور الفرقان يكشف لهم عمّا غمض ويهديهم إلى الصواب، لذا قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «المؤمن ينظر بنور الله». «۱»

التقوى ثمرة الصوم والفرقان ثمرة التقوى

شهر رمضان شهر التقوى والنور، والإنسان يحصل بالصوم على تقوى أكثر إلى مستوى تتجذر فيه نبتة التقوى (لعلكم تتقون). وعليه، فالتقوى ثمرة الصوم ونتيجته، وعلى أساس الآية الشريفة، إنَّ الفرقان هو ثمرة التقوى. ومن المناسب في هذه الليالي والأيام المباركة وبخاصة عند الاسحار أنْ نرفع أيدينا إلى السماء خشية وتضرّعاً سائلين الله التقوى والفرقان (اللهم آمين).

الأعمال القبيحة تبدو حسنة في نظر الكفار

يقول الله في نهاية الآية الشريفة: «زُيِّنَ لِلكَافِرِيْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»؛ وذلك لأنَّ حب الذات والهوى والأنانية والغرور تجعل الإنسان في غفلة عن أعماله القبيحة وتزيّن له الأعمال القبيحة، بحيث تبدو جميلة وحسنة.

المثل الثالث عشر: شرح الصدر

اشارة

يقول الله تعالى فى المثل الثالث عشر من أمثال القرآن فى الآية ۱۲۵ من سورة الأنعام: «فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلأسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأنّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاء كَذَلك يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الّذِين لَا يُؤمِنُونَ».

تصوير البحث

إنَّ الآية الشريفة فى صدد بيان الأرضيات الروحية للناس لقبول الحق. والمستفاد من هذه الآية، أنَّ الناس يختلفون من هذه الحيثية، فبعض من الناس بمجرد أن يواجه الإسلام يتلقاه ويحتضنه؛ وذلك لطهارة روحه و نورانية قلبه، ولأجل ذلك يشرح الله صدوره. وفى قبال هذا البعض، هناك البعض الذى لا يتأثر بالقرآن حتى لو قرأته كله عليه؛ وذلك لأنه يفقد الأرضية اللازمة لقبول الحق، فيجعل الله صدر هذا ضيّقاً ومظلماً.

الشرح والتفسير

«فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَح صَدْرَهُ للإسْلَام» والعبارة الاخرى لشرح الصدر هى توسيعه بحيث يجعله مؤهلًا وقابلًا لاستقطاب الحق والحقيقية. «وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيّقاً حَرَجاً» والعبارة الاخرى لضيق الصدر هى سلب القدرة والطاقة عن القلب بحيث يختل توازنه الفكرى لأصغر مشكلة وأتفهها. امثال القران، ص: ۱۵۰ «كَأنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ ...» أى أنَّ ضيق الصدر يصل إلى مستوى وكأنه يحلق إلى السماء بدون وسيلة، كما أنّ تحليقاً من هذا النوع محال بالنسبة إلى الإنسان، كذلك تحّمل الضيق والظلمة بالنسبة لهؤلاء، فهم لا يطيقون ذلك. إنَّ الله يجعل هكذا ظلمة وكفر فى قلوب غير المؤمنين.

خطابات الآية

۱- الهداية والضلالة بيد الله

إنّ المفهوم الذى يتطابق مع ظاهر الآية هو أنَّ الهداية والضلالة بيد الله، وهذا لا يعنى إلّا الجبر. ففى هذه الحالة يُعدُّ الإسلام والكفر أمرين غير اختياريين، لكن قبول هذا- حسب عقيدتنا- يتنافى مع عدالة الله. ومن هنا كان علينا أن نقدم مقدمة نوضح فيها الأمر: من الفرق الإسلامية- التى لا تنهل من المنبع الزلال للولاية والامامة- فرقة تقول بالجبر وتعتقد أنَّ الإنسان مسلوب الإختيار. إنَّ الإعتقاد بهذا المذهب- المخالف لمذهب الشيعة- يتساوى مع انكار اصول الدين الخمسة. إنّ أول أصل يغض النظر عنه هذا المذهب هو أصل العدل الإلهى، فإنَّ الإنسان اذا كان مُجبراً على أعماله فعذاب الكافر وثواب المؤمن ليسا من العدالة؛ لأنّه لا الكافر اختار الكفر، ولا المؤمن اختار الايمان. ولهذا لم يقل بعدل الله من قال بالجبر. إنَّ التوحيد هو الأصل الثانى الذى ينفى بالاعتقاد بالجبر؛ وذلك لأنَّ الله إذا لم يكن عادلًا فهو ليس أهلًا لادارة وتدبير هذا العالم الواسع الذى يُدار على أساس النظم والحكمة. من هنا كان إرسال الرُسُل وبعثة الأنبياء خالياً من أى معنى وتبرير؛ فإنَّ الانبياء لا قدرة لهم على هداية الكفار وذلك لأنَّهم مسلوبو الإختيار، كما أنّه لا تأثير للأنبياء على إيمان المؤمنين، فإنَّ الجَبْر يحول دون انحرافهم، وبعبارة أُخرى: أنّ الأوّل محال، والثانى تحصيل حاصل، وكلاهما غير ممكنين من وجهة نظر فلسفية. الإمامة- التى هى استمرار للنبوة- تبطل للسبب السابق. وآخر أصل يبطل بالجبر هو امثال القران، ص: ۱۵۱ أصل المعاد؛ فإنَّ المعاد يبتنى على الاختيار. وعليه، إذا كان الناس جميعهم مجبورين ومسلوبى الاختيار فإنَّ الجزاء والجنة وجهنم والقيامة والمعاد كلها تكون مفاهيم دون معانٍ. وفى النهاية، لا يمكننا أنْ نكون مسلمين بالاعتقاد بالجبر، كما لا يمكننا على أساسه قبول أصول الدين «۱» ولهذا على الشيعة أن تشكر الله على أنَّه لم يوقعها- ببركة الائمة المعصومين عليهم السلام- فى وادى الجبر المظلم، كما لم يتركها تتسيب فى صحراء التفويض المظلمة، بل سلك الله بالشيعة طريقاً بين المذهبين المنحرفين، وهو طريق الحق

المستقيم والواضح. إنَّ ما تدل عليه الآية هو: أنَّ الخطوة الأولى للهداية والضلالة يخطوها الإنسان نفسه، فاذا كانت هذه الخطوة باتجاه الهداية، فإنَّه سيكون مشمولًا للهداية الربانية، وإذا كانت هذه الخطوة باتجاه الضلالة فإنَّه سيكون مشمولًا للضلالة الربانية. سلمان الفارسي- مثلًا- تحرك من إيران وخطى باتجاه منبع الهدى، وتحمّل فى هذا السبيل المشاكل إلى مستوى أنّه أُخذ رقاً، لكن باعتبار أنّ خطاه الأولى كانت باتجاه الهداية، شملته هداية الله وشرح الله صدره ونال ما نال من جرّاء ذلك. أما أبو جهل وأبو لهب فرغم أنَّهما كانا بجنب منبع الهدى، إلَّا أنَّ خطاهما الأولى كانت باتجاه العناد والعداوة، أى اختارا طريق الضلالة تبعاً للشيطان وأغلقا أعينهما وأسماعهما للحيلولة دون رؤية أو سماع الحق ونداءه، لذا شملتهما ضلالة الله وضيّق الله صدورهما وأظلمها. وعلى هذا، فإنَّ الهداية والضلالة نتيجة لخطى الإنسان الأولى، والآية الشريفة كغيرها من الآيات لا تتنافى مع اختيار الانسان. «۲»

۲- الاعجاز العلمى للقرآن فى آية المثل

رغم أنَّ المُفسرين يعتبرون جملة «كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ» كناية عن الأمر المحال وغير امثال القران، ص: ۱۵۲ الممكن، إلّا أنَّه باعتبار التقدّم الملحوظ فى العلوم البشرية وامكانية الوصول إلى الفضاء، يمكن ذكر تفسير آخر لهذه الجملة يكشف عن إعجاز علمى للقرآن المجيد. «۱» يحيط الكرة الأرضية وإلى ارتفاع ۳۰ كيلومتراً مقدار من غاز الاوكسجين، والذين يفيدون من هذا الاوكسجين من الموجودات الحية يفيدون من المقدار الموجود إلى ارتفاع كيلومترات محدودة، اما الموجود فى الفضاء المرتفع فالإفادة منه صعب للغاية، بحيث بالنسبة للإنسان كلّما ارتفع عن سطح الأرض كلّما صعب عليه التنفّس وضاق. ولأجل ذلك قد يبتلى متسلقو الجبال بمشاكل عسر التنفس إذا ما ما تسلقوا جبالًا عالية، أى بلغوا مستوى يصعب بعده جذب الاوكسجين فى البدن، الأمر الذى قد يؤدى بهم إلى الغيبوبة، والموت بعضاً ما. ولنفس السبب تُجهَّز الطائرات بمعدات لتنظيم مقدار الاوكسجين فى الطائرة عند التحليق فى اماكن مرتفعة، واذا اختل عمل أجهزة الهواء فى الطائرة يضطر المسافرون للبس الاقنعة الخاصة التى تمدّهم بالاوكسجين والتى أعدت للحظات من هذا القبيل، واذا تعسر الافادة من ذلك تضطر الطائرة للتحليق فى ارتفاعات أدنى للحفاظ على حياة المسافرين. فى الوقت الذى نزلت فيه الآية لم يكن الإنسان على علم بهذه القضية العلمية إلَّا أنَّ القرآن المجيد فى ذلك الزمان (۱۴۰۰ سنة قبل) كشف عن هذا اللغز العلمى وقال بعدم امكان الافادة من الهواء فى الفضاءات المرتفعة، وشبَّه الضالين بأولئك الذين يريدون التنفس فى تلك الفضاءات.

۳- شرح الصدر

عندما بلغ النبىّ موسى عليه السلام مقام النبوة، طلب من الله عدة أشياء، منها: شرح الصدر حيث جاء: «قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ...». «۲» امثال القران، ص: ۱۵۳ نال الرسول صلى الله عليه و آله هذه النعمة الإلهيّة العظمى دون أن يطلبها من الله: «أَلَمْ نَشْرَح لك صَدْرَكَ». «۱» ما معنى شرح الصدر باقتضاب؟ لا يعنى الصدر ذلك القسم العلوى من البدن، بل يعنى الروح والفكر. وعلى هذا، فشرح الصدر يعنى الروح المنفتحة والفكر المنفتح، أى منشرح الصدر هو صاحب الفكر العميق والصبر والتأنى الفكرى والروحى بحيث لا يتزلزل أمام أبسط الحوادث أو أشدها. ولهذا كان شرح الصدر أحد أهم مستلزمات الترقى والتعالى نحو الله تعالى.

الرسول صلى الله عليه و آله وجاره اليهودى

كان للرسول صلى الله عليه و آله جار يهودى يلقى فضلات بيته وجمر ناره على الرسول عند مروره من بيته، وكان يمارس هذا العمل يومياً، وفى يوم مرّ الرسول من بيت اليهودى ولم يواجه الظاهرة اليومية التى كانت تصدر من اليهودى، فسأل الرسول أصحابه؟ فأجابوه بأنه مريض، فذهب الرسول لعيادته، وطرق الباب وكانت إمرأته خلف الباب فسالته عمّا يريد فأجابها أن الهدف هو العيادة ففتحت له

الباب، وكان سلام الرسول صلى الله عليه و آله وتحياته لليهودى تبدو وكأنَّ اليهودى لم يكن من المؤذين للرسول يومياً. عندما شاهد اليهودى هذه المعاملة من الرسول سأله عمّا إذا كانت هذه الاخلاق من صلب الدين الذى يدعو له؟ فاجابه بالايجاب. ونجد الكثير من هذه النماذج فى سيرة الرسل والأئمة وعلماء الدين. على سبيل المثال، كتب شخص فى شيراز رسالة إلى أحد علماء تلك المدينة يهجره ويشهّر به فيها، فيرى العالم ذلك الشخص الكاتب فى الغد ويقول له: (لقد رميت الرسالة التى كتبتها لى «۲» يبدو أنك تعانى من مشكلة مالية، فخذ هذا المبلغ لعلَّ مشاكلك تُحل به). امثال القران، ص: ۱۵۴ ففرح كاتب الرسالة وكان يقول مع نفسه (كان خيراً أن السيد لم يقرأ رسالتى). على المسلم أن يتأسَّى بالرسول صلى الله عليه و آله وأن يشرح صدره ويوسع فيه، وأن تكون همّته أرفع من أن يتنازل ويضعف أمام المشاكل؛ بل عليه أن يتحمّل ولا يكفر بالنعم لكل مشكلة يواجهها ولو كانت صغيرة، وما عليه أن يحقد ويسعى للإنتقام. إلهى ببركة هذا الشهر (رمضان) اشرح صدورنا ووفقنا جميعاً لتحمل ما لا نستسيغه.

المثل الرابع عشر: المبدأ والمعاد

اشارة

يقول الله تعالى فى المثل الرابع عشر من امثال القرآن الجميلة فى الآية ۵۷ من سورة الأعراف: «هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرَاً بَيْنَ يَدَى رَحْمِتِهِ حَتَّى إذَا أقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالًا سُقْنَاه لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فأنْزَلْنَا بِهِ المَاءَ فأخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلّ الثَمَرَاتِ كَذلك نُخرِجُ المَوتَى لَعَلَّكُم تَذَكّرُونَ».

تصوير البحث

جاءتنا الآية بخطابين مصيريين، هما صدر الآية الذى تضمّن التوحيد ومعرفة الخالق وببرهان مقنع على المبدأ، وذيل الآية الذى تضمّن مثلًا جميلًا أشار به إلى عالم الآخرة والمعاد.

أهمية المبدأ والمعاد

إن المبدأ والمعاد من المسائل المهمة جداً والتى طرحت فى القرآن بشكل واسع بحيث اختص ما يقرب الالفين من الآيات (أى ثلثا القرآن) بالمعاد، كما أن ثلث الآيات اختصت بموضوع المبدأ. وهذا الأمر يكشف عن أهمية المبدأ والمعاد. إنّ القضايا التى تناولتها الآيات هى من قبيل العدل الإلهى والجنة والنار، ودفتر الاعمال وتجسّم الأعمال والمعاد الجسمانى وثمار الجنة وغير ذلك. وسر الاهتمام البالغ بالمعاد واضح، من حيث أنَّ الإنسان لا يمكنه أن يقع فى طريق السعادة ولا يمكنه أن يخطو فى هذا الطريق إلَّا أنْ امثال القران، ص: ۱۵۶ يكون معتقداً بالأصلين المهمين، الأول: هو المبدأ أو التوحيد والثانى: هو المعاد أو رجوع الإنسان إلى الله. إنّ الإعتقاد بالله يعلِّم الإنسان أنَّ الله يراقبه فى كل زمان ومكان «وَهُوَ مَعَكُمْ أيْنَمَا كُنْتُمْ». «۱» والإعتقاد بالمعاد يعلِّم الإنسان أنَّ الله لا يخفى عليه شىء وهو عالم بأعمال الإنسان جميعاً «عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»، «۲» «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورَ». «۳» وحسب ما جاء فى الآيات، يُدرس سجل الإنسان يوم القيامة فى محكمة العدل الإلهى، وهى محكمة لا يمكن إغواء القاضى فيها كما لا يمكن انكار شهودها، فقد جاء فى الآية الشريفة: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّة شَرَّاً يَرَه»، «۴» كما جاء فى الآية الشريفة التالية: «لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرةً إلّا أحصَيها» «۵» فالإنسان مسؤول على جميع أعماله ولو كانت صغيرة جداً. إنّ الإلتفات إلى الاصلين يجعلان من الإنسان أن يعتبر الله ناظراً على أعماله، الأمر الذى يحول دون ارتكابه المعصية. كما أنّ الغفلة عن ذلك يترك للشيطان فجوة ينفذ من خلالها، كما قالت ذلك الآية الكريمة: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانَاً فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ». «۶»

المعاد الجسمانى والمعاد الروحانى

المعـاد من وجهـة نظر القرآن جسـماني وروحاني، أي أنَّ جسم الإنسان يحشـر يوم القيامـة كما تحشـر روحه. وبعبارة أُخرى: أنَّ روح الإنسان تكون مشـمولة لنعم الله ونقمه، كما هو الحال بالنسـبة إلى جسـمه، وذلك هو مقتضـى العدل الالهي، فكما أنَّ الإنسان بجسمه وروحه عمل امثال القران، ص: ۱۵۷ خيراً أو شـراً، ففي القيامة ينبغي أن ينال كلٌّ من الروح والجسم نصـيبه وجزاءه من العمل الدنيوي من ثواب أو عقاب. إنَّ ما أثار دهشـة وإعجاب منكري المعاد في صدر الإسـلام هو القول بالمعاد الجسـماني لا الروحاني؛ وذلك لأنَّ عقـل أكثر الناس في عيونهم فيصـدقون ما يرون ويكـذبون ما لم يروا. من هنا كان يسأل منكرو المعاد: كيف يمكن أن يحيي الإنسان بعد ما تبدل إلى تراب بعد الموت بحيث يتعذّب يوم القيامة؟ فأجابهم الله على شـبهتهم هذه في الآيتين ۷ و ۸ من سورة سبأ حيث قال: «قَالَ الَّذينَ كَفَرُوا هَلْ نَـدُلُّكُم عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إذَا مُزِّقْتُم كُلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيـدٍ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذينَ لَا يُؤمِنُونَ بالآخِرةِ فِي العَـذَابِ والضَّلالِ البَعِيْـدِ». «۱» لقـد تمسـك القرآن المجيـد بالمثل لاثبات المعاد الجسـماني والروحاني، كما هي سيرته في تفهيم المطـالب لمخاطبيه. وقـد أفاد هنا من ثلاثـة أمثال: ۱- التمثيـل بالنباتات وتشبيه الحياة بعـد الموت بإحياء النباتات بعد موتها. ۲- التمثيل بالمراحل الجنينيـة لخلق الإنسان حيث تبـدأ حياته بنطفة صـغيرة تنمو كل يوم، ويُعدُّ كل يوم من هذه المراحل حياة جديـدة لهذا الجنين. ۳- التمثيـل بنوم أصـحاب الكهف، فـإنَّ نومهم كـان بمثابـة الموت، ويقظتهم كـانت بمثابـة الحياة الجديـدة بعد سنوات عديدة. كيف يمكن لشـخص أن يستيقظ من النوم سالماً بعد أكثر من ثلاثمأة سـنة دون أن يأكل أو يشرب خلال هذه الفترة؟ حسب مـا أقرته الآيـة، انَّ أصـحاب الكهف نـاموا مـدّة مليون يومـاً، وخلال هـذه الفترة لم يتنـاولوا شـيئاً من الطعام أو الماء رغم هـذا استيقظوا سـالمين، مع أنَّ الإنسـان العـادي لا يسـتطيع العيش لأكثر من يومين أو ثلاثـة دون أكل وشـرب. من عجائب خلق الإنسان هو قلبه، فـان ضـرباته تصـل إلى مـأة الف ضـربة في اليوم. وإذا امثال القران، ص: ۱۵۸ اعتبرنا عمر الإنسان العادي سـبعين عاماً، فإنَّ عـدد ضربات قلبه سـتصل إلى ۲۵۰ مليون ضـربة (عَجَباً لِحِكْمَـةِ اللهِ)! إنَّ قلب الإنسان كافٍ لأجل معرفـة الله ولأن يقرّ الإنسان بعظمة الخالق ويخضع له ... وعليه، فاذا كانت أجسام أصـحاب الكهف تعيش بالأغذية التي تناولتها قبل النوم ولمدة مليون يوماً، فإنَّ على قلوبهم أن لا تـدق في اليوم الواحـد أكثر من مرّة واحدة. وعلى هذا، فإنَّ أصـحاب الكهف كانوا أشـبه ما يكونون بالموتى، أحياهم الله بعد أكثر من ثلاث مأة عام. واذا كان الله قادراً على أن يوقظ أناساً بعـد مليون يوم من النوم، فكيف لا يمكنه أن يُحيي الموتى! لهـذا يصـرّح الله في ذيل آية أصحاب الكهف بالحديث التالي: «وَلِيَعْلَمُوا أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ».

الشرح والتفسير

إنّ الآيـة إحـدى الآيات الثلاث التي شـبهت المعاد بإحياء النباتات «هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ...» أي أنَّ الله يُرْسِـله كبشـرى لنزول الغيث؛ وذلك لأن السـماء تتهيّأ للمطر بواسطة الرياح. «حتَّى إذَا أَقَلّتْ سَحَاباً ثِقَالًا ...» أي تستمر الرياح حتى تجتمع الغيوم ويتراكم فيها الماء. «۱» إنّ الله يُرسـل الرياح ليجمع بها الغيوم الممطرة في المـدن والبلاد الميتـة فيحييها ويحيي أراضـيها. «فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ...» فإنَّ المَطر هو الذي يثمر الاشـجار ويمنحها القدرة على انتاج الفواكه. «كَذَلِك نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُم تَذكَّرُون» أي أنَّ الله يحيي الموتى يوم القيامة مثلما يحيي الأشجار والاراضي الميتة. وفي نهاية الآية يعتبر الله التذكّر وتوعية الناس هو فلسفة المثل.

فواكه مختلفة من ماء وهواء وتراب واحد

كمـا قلنـا سابقاً: إنَّ التعود من حجب المعرفـة الإنسانيـة، فالإنسان عنـدما يتعوّد على شـيء سوف لا يفكر في ماهيته وسبر غوره، وهـذا حجاب عظيم. ومن هنا كان إنبات النباتات المتنوعـة وإثمار الاشـجار المتنوّعـة من عجائب الطبيعـة. فإنَّ هذا من مظاهر قدرة الله تعالى حيث تنبت من تراب وماء وهواء واحـد ثمار وزهور متنوّعـة بألوان مختلفـة وطعم متفاوت. وهذا يدعو الإنسان أن لا يتعجّب من إحياء

الإنسان یوم القیامـة. لقـد خلق من هـذه الارض الواحـدة أصـناف عدیدة من البشـر منهم الصالحون والأنبیاء والائمّة والشـهداء، ومنهم الفجرة والوضـیعون مثل الفراعنـة والنماردة ومعاویـة وصـدام و ... فکل هؤلاء مبعوثون من هذه الأرض الواحدة. إنَّ الإنسان من خلال مشاهدته لهذه الظواهر یری لقطات من المعاد وتتکرّر عنده هذه اللقطات کل یوم إلی حین الممات. والعجیب أنَّ السماء تمطر فی یوم البعـث، وذلـک المطر یحیی من فی القبـور جمیعـاً. «۱» القـانون الکلی الـذی یسـتفاد من الآیـة الشـریفة هو أنَّ مبادیء الموت والحیاة واحـدة فی جمیع المخلوقات الحیـة، فکما أنَّ هناک حیاة بعـد ممات فی النباتات کـذلک بالنسـبة إلی الإنسان. سؤال: فی عالم النبات نتمکن من إعادة حیاة نبات ما من خلال زرع بذوره، اما فی عالم الإنسان فالأمر یختلف من حیث انه إذا مات یتبدل إلی تراب، فکیف یمکن إعادته من تراب؟ الجواب: إنّ الحیاة الثانیـة للنبات لیست من خلال البـذور دائماً، بل قـد تکون حیاة وموت النبات شبیهة بحیاة الإنسان وموته، فقد تصـفرّ أوراق الاشـجار فی الخریف وتسـقط، وبعد مدة تصـبح تراباً تمتصـها جذور الشجرة لترجع ورقة من جدید وهـذا ما یحصل فی الربیع، وبهـذا تحیی الورقـة المیتـة مرة أخری رغم أنّها ماتت بالکامل وتبدلت إلی تراب، فالانسان کذلک یموت بالکامل ویُبعث مرة اُخری. وعلی هـذا، فالإنسان یری- کل عام- المعاد بعینه، لکنه یغفل عن أنَّ الله القادر علی إحیاء النبات بعد موته قادر علی إحیاء الإنسان المیت.

آثار المعاد

إنّ الاعتقـاد بالمعـاد یعلّم الإنسـان الخضوع والتسـلیم إلی الحق، وأنْ لاـ یظلم ولاـ یخون، وهـذا ما نراه منعکساً فی کلام جمیل لمولی المتقین الإمـام علی علیه السـلام فی الخطبـة ۲۲۴ من نهـج البلاغـة یخـاطب به أخـاه عقیـل: «والله لأنْ أبیت علی حسک السّـعدان «۱» مسـهداً، أو أجرَّ فی الأغلالِ مصـفّداً، أحب إلیَّ من أن ألقی الله ورسوله یوم القیامـة ظالمـاً لبعض العباد». أی أنَّ المبیت علی أشواک نبات السعدان أو الجرّ بالأغلال والسلاسل فی النهار أحبُّ لعلی من أن یلاقی الله ورسوله یوم القیامة وهو ظالم لبعض عباد الله. هل من المحتمـل صـدور ظلم من هکـذا زعیم عارف بالمبـدأ والمعاد ومتیقن بهما؟! هل یحتمل صـدور تمییز من حاکم کهـذا؟ هل یقبل أو یتحمّل هکذا رئیس أقل خطأ من حواشیه؟! قطعاً جواب هذه الأسئلة هو النفی، فإنَّ إنساناً کهذا یعتقد بیوم القیامة والمعاد یعظّم الذنب ولو کان صـغیراً، فلا یرتکبه. وینقل من خلال الخطبة ذاتها قصتین ذات عبرة عن أخیه عقیل و المنافق الأشعث بن قیس، وفی القصتین آثار الاعتقاد بالمعاد واضحة وجلیة. «۲»

المثل الخامس عشر: البلد الطیّب

اشارة

یقول الله فی مثله الخامس العشـر، فی الآیة ۵۸ من سورة الاعراف: «وَالبَلَـدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَبَاتُهُ بإذْنِ رَبِّهِ وَالّـذِی خَبُثَ لَا یَخْرُجُ إلَّا نَکِداً کَذَلک نُصَرِّفُ الآیاتِ لِقَوْمٍ یَشْکُرُونَ».

تصویر البحث

إنَّ هَذه الآیة الشـریفة التی جاءت مباشرة بعد المثل الرابع عشر هی فی الواقع استمرار لبحث المعاد وجواب عن سؤال مقدّر قد تتداعی معانیه فی أذهان البعض، وسنأتی به فی الصفحات المقبلة.

إشارة للمثل السابق

فی المثل الرابع عشر (الآیة ۵۷ من سورة الاعراف) جاء القرآن فی بیان جمیل ببرهان علی المبدأ وأصل التوحید، کما استدل علی المعاد وعالم الاخرة. إنّ حرکة الریاح واجتماع الغیوم الثقیلة ونزول المطر وإحیاء الأرض بعد مماتها، وتوفّر الثمار المتنوّعة والأزهار والنباتات والاشجار المختلفة کلها أدلة قاطعة علی التوحید، وهی أدلة لو لم یکن غیرها لکانت کافیة فی إثبات المراد. مِمَّا لا شک فیه أنَّ آثار موت تبدو علی البستان کله بحلول فصل الشتاء بحیث تصبح امثال القران، ص: ۱۶۲ الاشجار وکأنها مهمومة وجرداء من الروح، لکن بعد فترة من الزمن أی بعد حلول فصل الربیع تبدأ الحیاة الجدیدة تنبض فی البستان، فتخضرّ الاشجار و تتفتح الزهور وتنمو النباتات المختلفة وتثمر الاشجار فواکه حامضة وحلوة بألوان متنوّعة بحیث تضفی طراوة علی روح الإنسان. هذه الطبیعة المدهشة دلیل قاطع علی وجود الله القادر المطلق، واذا ما فکّر الإنسان بورقة خضراء فقط لکان ذلک کافیاً لمعرفة الحق. إنَّ هذه الورقة- کما یقول العلماء- إذا قصت من العرض فیبدو فیها سبع طبقات، کل طبقة منها تحضی ببناء خاص ومهام خاصة، إذا دققنا قلیلًا نجد خطوطاً رَفِیعة علی هذه الورقة الظریفة وکأنها تشبه تأسیسات الماء فی مدینة، وهی تتکفل بایصال الأغذیة والماء إلی الاقسام المختلفة من الورقة. مَن الذی خلق هذه الطبقات الظریفة والجمیلة؟! یا له من خالق حکیم صمَّم هذه الشبکة العظیمة والدقیقة. إنَّ الورقة وما فیها یُعدُّ کتاباً لمعرفة الخالق لمن کان أهلًا للعلم المعرفة. إذن، صدر الآیة یدل علی التوحید، أما ذیلها «کَذِلِکَ نُخْرِجُ المَوْتَی» فیدل علی مسألة المعاد ویرشدنا إلیها.

الشرح والتفسیر

کما قلنا سابقاً: إنّ الآیة الشریفة جواب لسؤال مقدّر یمکن أن یتداعی فی ذهن الذی یلتفت إلی الآیة السابقة، وهو: إذا کان الماء واحداً والهواء واحداً والتراب واحداً فلماذا تنبت الزهور والنباتات فی بعض البقاع، وتنبت الأدغال والأشواک فی البعض الآخر؟ وإذا کان وابل الرحمة الإلهیة یصبُّ علی القلوب جمیعاً بشکل متساوٍ، فکیف أنَّ بعض القلوب تهتدی وتکون مصداقاً للبلد الطیّب وبعضها الآخر یکون مصداقاً للبلد الخبیث؛ لأنها ظلّت ولم تهتدِ؟ إنّ الآیة فی صدد الأجابة علی هذا السؤال، حیث تقول: «وَالبَلَدُ الطَّیِّبَ یَخرُجُ نَبَاتُهُ بإذنِ رَبِّهِ» فإنَّ التربة الطاهرة وغیر المالحة تکون مناسبة ولائقة وتُخرج باذن الله نباتات مناسبة وجیّدة، کذلک القلوب المستعدة والطاهرة ینمو فیها الثمار الحلو من الاخلاص والصفاء، ذلک کله بوحی من الله. امثال القران، ص: ۱۶۳ «والَّذی خَبُثَ لا- یَخْرِجُ إلَّا نَکِداً» فإنَّ الأرض غیر المناسبة لا تنبت إلّا النکد. والنکد یعنی الإنسان البخیل، ویُطلق علی النباتات غیر المفیدة التی تنمو فی الأراضی المالحة. فکما أنَّ البخیل لا یصل نفعه إلی غیره، کذلک الأراضی المالحة لا یخرج منها الشیء المفید ولا ینتفع بها أحد. «کَذَلِکَ نُصَرِّفُ الآیاتِ لِقَوْمِ یَشْکُرُونَ» أی أنا نبیّن آیات الله للناس بعبارات وأمثله بسیطة لیستفیدوا منها ویشکروا ربّهم علیها. وعلی هذا، فلا اشکال علی وابل الرحمة الإلهیّة ولا علی الوحی السماوی؛ وذلک لأنَّ هذین الرحمتین تنزلان علی القلوب کلها بشکل متساوٍ، واذا کان هناک قصور أو تقصیر فمن نفس القلوب والأراضی ذاتها، فإنَّ بعض الأراضی غیر مستعدة وغیر مؤهّلة لنمّو النباتات فتنمو فیها الأشواک والأدغال فحسب، کذلک بعض القلوب فإنَّها غیر مؤهلة للهدایة وتری نفسها فی غنی عن الوحی الإلهی.

لِمَن هذا المثل؟

هناک بحث فی هذا المجال بین المفسرین، فالکثیر منهم یعتقد أنَّ الآیة جاءت فی الکفار والمؤمنین، أی شُبِّه الوحی الإلهی هنا بالغیث، باعتباره ینزل علی جمیع القلوب، لکن لا یفید منه إلّا ذلک البعض الذی یکون مصداقاً للبلد الطیّب، أی یحضی بقلب طاهر، وتکون ثمار هذه الاراضی الطاهرة هی الاخلاق الحسنة والایمان القوی والشوق إلی أولیاء الله، والاخلاص فی العمل، والعمل بما تستدعیه الوظیفة و ... وفی مقابل هؤلاء هم الکفّار الذین قلوبهم تشبه الأراضی الملوّثة التی لا تستفید من المطر شیئاً.

خطابات الآیة

۱– فاعلیة الفاعل وقابلیة القابل کلاهما ضروریان

إنَّ الآیـة الشـریفة وکـذا آیات أخرى تشیر إلى مطلب مهم، وهو: ضـرورة توافر شـیئین لبلوغ الکمال: الف– فاعلیـة الفاعل. باء– قابلیة القابـل. امثال القران، ص: ۱۶۴ لأجـل بلوغ الکمـال والرقی ینبغی توافر العوامل کما ینبغی توفیر الأرضـیة. وعلى هـذا، ففاعلیـة الفاعل (الغیث) لیس کافیاً، بل ینبغی أنْ یَکُون القابل قابلًا (استعداد الأرض وشأنها) فإنَّ المطر لو هطل مـدة مأة عام على الأرض المالحة لما أنبتت هـذه الأرض ولا زهرة واحـدة. إنَّ الرسول صـلى الله علیه و آله کما دعى سـلمان وأبا ذر والمسـلمین الآخرین للإسـلام کذلک دعى أبـا جهـل وأبا لهب وباقی الکفار، فالقلب الطاهر لسـلمان أنبت الإیمان، لکنّ الـدعوة لم تنبت فی قلوب أبی جهل وأبی لهب إلَّا البخل والبغض.

۲– مردودات القرآن والوحی على الکافر عکسیة

آیـات القرآن فی بعض الأحیـان لاـ أنها لا تکون هادیـة فحسب، بل قـد تکون ضالـة لأولئک الـذین ساءت طینتهم من الکفار، فإنّهم بسـماعهم للآیات یزدادون ضـلالة. إنّ هـذا الأمر بیّنته آیات من القرآن، منها الآیة ۱۲۴ و ۱۲۵ من سورة التوبـة: «وإذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَنْ یَقُولُ أیُّکُم زَادَتْهُ هذِهِ إیمَاناً فأمَّا الَّذِینَ آمَنُوا فزَادَتْهُم إیْمَاناً وَهُم یَسْتَبْشِرُونَ وأمَّا الّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُم رِجْسًاً إلی رِجْسِ‌هِم وَمَاتُوا وَهُم کَافِرُونَ». سؤال: کیف یمکن للآیات القرآنیة المنیرة أن تکون سـبباً لضـلال البعض؟ الجواب: أنّ القرآن المجید بمثابـة المصـباح الـذی اذا وقع بید أحد العلماء أفاد منه لأجل العلم والاکتشاف والاختراع والتقدّم، وهو بذاته اذا وقع بید لصّ أفاد منه لأجل سـرقة أشـیاءٍ ثمینـة، وبـذلک تزداد ذنوبه وآثامه. الإشـکال هنا لیس من المصـباح ذاته، بل من قابلیـة القابل، کذا الحال بالنسـبة للغیث حیث إنتاجه یتوقف على نوعیـة الأرض، فاذا کانت جیدة نبتت فیها الزهور والنباتات الصالحة واذا کانت مالحة وغیر مؤهلة نبت فیها الأدغال والأشواک. «فَزَادَتْهُم رِجْساً إلی رِجْسِ‌هِمْ» فإنَّ الآیة اذا نزلت فزعوا للمخالفة والعناد والعداوة، لذلک لا عجب إذا قلنا: إنَّ آیات القرآن قد تسبب للضالین ضلالة أکثر.

الناس ثلاثة أصناف

لإِیضاح هـذا المطلب (الـذی یتناول قابلیات الناس المختلفـة) نأتی بکلام لأمیر المؤمنین علیه السـلام مخاطباً فیه کمیل بن زیاد بعـد ما دعاه إلى المقبرة، وعنـد بلوغهما الصـحراء قال الإمام له بعد أن تأوّه: «یا کمیل بن زیادٍ إنّ هذه القلوب أوعیة فخیرها أوعاها». وکمثال نقول: إنَّ النـاس یختلفون فی إفادتهم من المطر، واحـد منهم یفیـد من المطر بمقـدار بحیرة ماء، وذلک لسعـة ظرفیته والآخر یفیـد منه بمقدار کأسٍ صـغیر، وذلک لأنه لا یسـتوعب أکثر من ذلک. وقد یکون هناک شـخص لا یفید من المطر أبداً، لأنه قد قلب إناءه على ظهره. والمثال یوضـح أنَّ الإشـکال لیس من جانب الله بل من جانب الأوعیـة التی تُهیّئ للافادة من ماء المطر .. ثمّ یخاطب الإمام أمیر المؤمنین علیه السـلام کمیـل قائلًا: «فاحفـظ عنّی مـا أقول لـک النّاس ثلاثـة: فعالم ربّانی ومتعلم على سبیل نجاةٍ وهمـجٌ رُعاعٌ» أی أنَّ الناس ثلاثة أصناف: ۱– الصنف الأول هو صنف العلماء الذین طووا طریق الحق والحقیقة ویسعون لارشاد الناس وتربیتهم. ۲– والثانی هم الذین یفقدون العلم لکنهم یسعون فی سبیل تحصیله العلم وکسب المعرفة. ۳– والثالث هم الحمقى من الناس الذین لا یعلمون ولا یسـعون لأـن یعلموا ولاـ یسألون أهل الطریق لإرشادهم إلیه. یوضـح الإمام خصال الصـنف الثالث فی أربع: الف– أتباع کلّ ناعق، أی یتّبعون أصـحاب الرایات المختلفـة دون علم وبصـیرة. باء– یمیلون مع کلّ ریـح، فهم کالریـح تهزّهم الـدعوات المختلفة وتمیلهم إلى جنبها، ومثلهم کمثل الذین قاتلوا تحت رایة الرسول فی عصـره، وقاتلوا تحت رایة معاویة بعد وفاته، ولو کان الأجل یسمح لهم لقاتلوا

تحت رایـۀ یزیـد کـذلک؛ وذلک کله لأجل أن الریـح آنـذاک کان بهـذا الاتجاه. جیم- لم یستضـیئوا بنور العلم، فهم المستضـعفون المحروموِن من العلم. دال- لم یلجؤوا إلی رُکن وثیق، أی لا أنهم یفقـدون العلم فحسب، بل لا یعتمـدون علی أعمـدته المحکمۀ. «۱» امثـال القران، ص: ۱۶۶ إنَّ الصـنف الثـالث وهم ذووا الأوعیـۀ الصـغیرۀ أشـخاص خطرون، کما أَنَّهم مصـداق للآیـۀ الشـریفۀ «والَّذی خَبُثَ»، إلّا أنَّ الصنف الأوّل والثانی مصادیق للآیۀ الشریفۀ: «البَلَدُ الطیِّبُ».

الفاعلیۀ اکتسابیۀ أم جبریۀ؟

قابلیـۀ القابل- التی هی شـرط الکمال- اکتسابیه أم جبریۀ؟ وبعبارۀ أخری: هل أنّ الله خلق بعضاً بقابلیۀ ضـخمۀ وخلق آخرین مع قابلیۀ ضعیفۀ؟ إنّ قابلیۀ القابل اکتسابیۀ لا جبریّۀ؛ وذلک لأنّ القول بجبریتها یعنی عدم ترتب الذنب علی الشخص الذی ینبت قلبه الریاء بدل الاخلاص، وما علیه من عقاب، کما أنّه لا فائـدۀ فی بعثـۀ الأنبیاء. من هنا نقول: إن الإنسان کلّما سـعی لکسب التقوی والمعرفـۀ الإلهیۀ أکثر، کلّمـا اسـتعدّ قلبه أکثر لقبول الوحی الإلهی والآیات القرآنیـۀ. إنّ القرآن یُوکّـد علی کون الإنسان مخلوقاً بأفضل شـکل وصورۀ «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِیم»، «۱» ووفقاً لهذه الآیۀ فانه لا فرق فی خلق الناس، والهدایۀ والضـلالۀ یتوقفان علی الإنسان ذاته. وحتی الشـیطان لم یُخلق خبیثاً، ولذلک کان فی صـفوف الملائکۀ وعبد الله سـتۀ آلاف عاماً. «۲» نعم، انَّ الناس یختلفون عن بعضـهم البعض، لیس بمعنی أنَّ بعضـهم خلق حسـناً وبعضهم الآخر خلق سیئاً، بل فی أن بعضهم خلق حسناً وبعضـهم الآخر أحسن، لذلک قال رسول الله صـلی الله علیه و آله: «النـاس معادن کمعان الـذهب والفضـۀ». «۳» فی النتیجـۀ لم یخلق إنسان شـقیاً أو خبیثاً، وقابلیـۀ القابل اکتسابیۀ لا جبریۀ. إنَّ المطر یهطل شفافاً وزلالًا لکنّه یتسخ عندما یلتقی بالأرض الوسخۀ، لکنه یبقی نظیفاً عندما یقع علی امثال القران، ص: ۱۶۷ الأرضـی النظیفـۀ، فیبقی علی فطرته وطهارته. إنّ البیئـۀ الموبوئـۀ والکتب المنحرفـۀ والمفاهیم الفاسـدۀ والأصـدقاء السـیئین والعائلـۀ غیر السـلیمۀ هـذه کلهـا بمثابـۀ الأرض الملوّثـۀ، تلوّث قلب الإنسان الطاهر وفطرته النقیـۀ. أیُّها الشـباب الاعزۀ! یا أمل الإسـلام والثورۀ والوطن! إن الله خلقکم کقطرۀ المطر الشـفافۀ الطاهرۀ، إسـعوا للحفاظ علی هـذه الطهارۀ، واحـذروا معاشـرۀ صدیق السوء، لأن هذا الصدیق قد یغیّر مستقبل الإنسان بالکامل. من وجهۀ نظر الإسلام، لیس أداء الذنب لوحده معصیۀ، بل الحضور فی مجلس یرتکب فیه الذنب یُعدُّ محرماً ومعصیۀ. أی إذا حضر الإنسان فی مجلس یُعصی فیه الله فإنَّ حضوره فی هذا المجلس یُعدُّ معصیۀ کذلک، رغم أنّه لم یفعل الـذنب الـذی اقترف فی المجلس، وذلک لأنَّ المحیط الملوّث یؤدی إلی التلوث تـدریجیاً، ویفقـد الـذنب آنـذاک قبحه تدریجیاً الأمر الذی قد یؤدی إلی اقتراف الذنب فی المسـتقبل. إنَّ المتعاطین للمخدرات تعاطوها بهذا الشـکل وبهذا الاسـلوب. وعلی هـذا، ینبغی السـعی لأجل الحفاظ علی نقاء الباطن، وتهیئـۀ أرض القلب وإعـدادها للافادۀ من وابل الرحمۀ اقصـی إفادۀ. امثال القران، ص: ۱۶۹

المثل السادس عشر: العالم المنحرف

اشارۀ

یقول الله تعالی فی الآیات ۱۷۵ و ۱۷۶ و ۱۷۷ من سورۀ الأعراف فی مثله السادس عشر: «واتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأ الَّذی آتَیْنَاهُ آیاتِنَا فانْسَلَخَ مِنْهَا فـأَتْبَعَهُ الشَّیْطَانُ فَکَانَ مِنَ الغَاوِینَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلکنَّهُ أخْلَدَ إلی الأرْضِ واتَّبع هویَهُ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الکَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَث أوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَث ذَلک مَثَلُ القَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بآیَاتِنَا فاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم یَتَفَکَّرُونَ».

تصویر البحث

الحديث فى الآيات الثلاث عن العالم الذى كان فى الطريق الصواب والصحيح وبلغ فى هذا الطريق مقامات رفيعة، إلّا أنّه تدريجياً انحرف وطُرد من الساحة الربانية، فيشبّه الله هذا العالم بالكلب ليعتبر الآخرين منه.

شأن نزول الآية

هناك بحث وخلاف بين المفسرين حول المراد من هذا العالم الذى تحدثت عنه الآية. وأكثر المفسرين يعتقد أنَّه (بلعم بن باعورا) فهو من علماء بنى اسرائيل وقد نال بعبادته مقامات عليا إلى مستوى انه حصل على اسم الله الأعظم، وأصبح مستجاب الدعوة. وعندما بعث موسى (على نبينا وآله وعليه السلام) نبيّاً ونال هذا المقام الشامخ، كانت بعثته قد اثارت حسد بلعم، امثال القران، ص: ۱۷۰ وقد كان الحسد يزداد كل يوم، ويأكل حسناته شيئاً فشيئاً، كما أنَّ هذا الحسد من جهة، وحب الدنيا من جهة اخرى بلغا به إلى مستوى أن لجأ إلى فرعون وبلاطه ليصبح من وعّاظ السلاطين. ففقد بذلك كل افتخاراته وكانت عاقبته السوء. فبيّن القرآن قصة هذا العالم المنحرف ليكون عبرة للآخرين. يعتقد مفسرون آخرون أنَّ العالم فى الآيات هو (أمية بن الصلت) فهو من الشعراء المعروفين فى عهد الجاهلية، أسلم فى البداية، لكنه بعد ذلك شاكس وخالف؛ حسداً للرسول ومقام نبوّته. ويعتقد مفسرون آخرون أنَّ العالم هنا هو (أبو عامر النصرانى) فقد كان راهباً مسيحياً أسلم ثم التحق بركب المنافقين، ثم سافر إلى الروم للتحالف مع سلطانه، ثمّ رجع إلى المدينة والتحقق بدينه بعض المنافقين، وبنى مسجد (ضرار) المعروف. إنَّ القول الأوّل هو أصح الثلاثة، والآخران مستبعدان من حيث أنَّ صدر الآية «واتْلُ عَلَيْهِم نَبَأ الّذى ...» قرينة على حكاية قصة تتعلق بالأقوام السالفة. «۱»

الشرح والتفسير

«واتْلُ عَلَيْهِم نَبَأ الَّذى آتَيْنَاهُ آياتِنَا» يطلب الله من الرسول أن يحكى للأصحاب قصة ذاك العالم. المراد من الآيات هو أحكام التوراة ومواعظها، فإنَّ هذا العالم كان عالماً باحكام التوراة ومواعظها، كما كان عاملًا بها. ويعتقد البعض أنَّ المراد من الآيات هو الاسم الأعظم، ولهذا كان بلعم بن باعورا مستجاب الدعوة وكان صاحب نفوذٍ وجاه رفيع فى المجتمع. «فانْسَلَخَ مِنْهَا فأتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِيْنَ» إنَّ مادة السلخ تعنى نزع جلد الحيوان، ولذلك قيل لمن ينزع جلد الخروف سلّاخاً. إلّا أنَّ كلمة (فاتبعه) لها معنيان: امثال القران، ص: ۱۷۱ الف- تعنى تبع ولحق، أى أنَّ الشيطان جعل العالم تبعاً له. باء- أنَّ الفعل استخدم هنا بمعناه لو كان ثلاثياً مجرداً بحيث يكون المعنى أنّ الشيطان اتّبع هذا العالم، بعبارة اخرى: أنّه سبق الشيطان فى الضلالة، وتجاوزه مهارة فى هذا المجال. مثله مثل ذلك الشخص الذى كان يفعل عملًا قبيحاً جداً بطريقة جديدة وكان يلعن الشيطان دائماً على فعله هذا، فظهر له الشيطان وقال: اللعن عليك لا عليَّ، لأنى رغم مهارتى فى الشيطنة ما كنت أعلم بهذه الطريقة، بل انت الذى علمتنى إياها. وعلى هذا، فالآية تعنى أنّ بلعم بن باعورا خُلّى من آيات الله، وانسلخت هذه الآيات عنه رغم أنّه كان يحيط بها جميعاً، لكنها انسلخت واتّبع الشيطان، أو أنَّ الشيطان اتّبعه، وكانت عاقبته الشر والشقاء فكان فى عداد الاشقياء والضالين. «وَلَو شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أخْلَدَ إلَى الأرْضِ واتّبَعَ هَوَاهُ» أى أنا لو أردنا إجباره على البقاء على الحق لفعلنا لكنّا تركناه لنرى ما يفعل باختياره وإرادته، وذلك لأنَّ فى الإسلام الاختيار لا الاجبار، «إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِرَاً وإمَّا كَفُورَاً» «۱» فالله يستطيع أن يجعل جميع الاعمال من قبيل الحج والصوم والصلاة جزءاً من غرائز الإنسان، كما جعل الأكل والشرب، لكنّه لم يفعل ذلك، بل خلق الإنسان حراً ومختاراً ليكون هناك هداية وتكامل وتقدّم واختبار وثواب وعقاب و ... ولكى لا تفقد هذه المفاهيم معانيها. وفى النهاية يكون معنى الآية هو: أنّا تركنا بلعم بن باعورا إلى نفسه، إلّا أنَّ هذا العالم المنحرف- الذى سبق وأن كان مبلغاً قوياً لموسى عليه السلام- تبع الهوى والهوس حباً للدنيا وحسداً من موسى عليه السلام وانجذاباً بوعود فرعون، وكان عاقبته الطرد من الساحة الربانية. وعلى هذا، فإنَّ شيئين كانا سبباً لسقوط بلعم بن باعورا هما: أوّلًا: حبّ الدنيا والميل إلى فرعون. وثانياً: الهوى واتباع الشيطان. «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِل عَلَيْهِ يَلْهَثْ أوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ»، إنَّ الكلاب عادة

ذات منفعـۀ متعارفـۀ یفیـد منهـا الإنسـان ولـذلک یصـح اجراء معاملـۀ علیهـا فی الفقه الإسـلامی، إلّـا أنَّ بعض امثال القران، ص: ۱۷۲ الکلاب تکون مسعورۀ دائماً إثر ابتلائها بداء الکَلَب، وهو مرض یجعلها تلهث دائماً وتصیح، وتفرز سماً، وإذا عضت الإنسان یمکن أن تؤدی هـذه العضـۀ إلی موته أو ابتلاءه بالجنون. والکلاب تُعد حینئـذ فاقـدۀ للقیمۀ لا تُجری معاملۀ علیها؛ لأنَّها تفقد الفائدۀ اضافۀ إلی ما فیها من مضایقـۀ للآخرین. علائم هذا المرض فی الکلاب هو أنَّها تفتح فمها وتحرک لسانها دائماً؛ وذلک لتخفِّف من الحرارۀ الداخلیۀ التی تشعر بها، وحرکۀ اللسان عندها بمثابۀ المروحۀ التی تدفع بالهواء لتبرّد الجسم. ومن علائمه أیضاً العطش الدائم ... وعلی کل حال یکون هـذا الکلب مهاجماً. والقرآن بمثله الجمیل هذا یشبِّه العالم المنحرف بالکلب الذی یفقد القیمۀ ویحمل أخطاراً کثیرۀ ... فحب الدنیا والهوی والهوس یُحرف العالم ویفقده البصر والبصیرۀ بحیث یصبح لا یمیز صدیقه عن عدوّه. «ذَلکَ مَثَلُ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ» «۱» أی أنَّ هـذا مثل المجتمعـات التی کـذّبت بآیات الله فاقصص– أیها النبیّ– علی الناس وبخاصـۀ الیهود والنصاری هذه القصص لیعتبروا منها، ولکی یعلموا أنَّهم إذا کذّبوا بایات الله فإنَّ مصیرهم سیکون کمصیر بلعم بن باعورا.

خطابات الآیۀ

خطر العلماء المنحرفین

لقـد سـقط بلعم بن بـاعورا من مقامه الرفیع من جراء حبه للـدنیا وتبعیته للشیطان، وقـد کان سـقوطه بـدرجه أن شبّهه القرآن بالکلب المتوحش الذی لا یرحم شخصاً وکأنّه مجنون. إنّ حب الدنیا والهوی والتبعیۀ للشیطان أجنّت عالماً کان قد حصل علی الاسم الأعظم، وکان جنونه بشکل یبـدو عطشاناً للـدنیا دائماً ولا یبـدو مرتویاً منها أبـداً، إنَّ عالماً مثل هذا یحمل معه امثال القران، ص: ۱۷۳ أخطاراً جمّـۀ نشیر إلی بعض منها هنا: الف– أنَّ عالماً کهذا یکون فی خدمۀ الظلمۀ، کما هو الحال بالنسـبۀ إلی وعّاظ السـلاطین الذین کانوا فی خدمۀ أهل الجور من الحکام والملوک. ومن الواضح أنَّ خطر علماءٍ کهذا لا یقل عن خطر الظلمۀ ذاتهم. أراد سـلطان فی العصور الماضیـۀ أن ینفـذ مشـروعاً خاصاً، فطلب أحـد علماء البلاد یسأله عن رأی الشارع فی المشـروع، فأجابه العالم: (إن رأی الشارع متسع، والأمر یتوقف علی إرادۀ السـلطان) أی یمکنه أن یجعل مخرجاً شـرعیاً لکل ما یریـد السـلطان. نعم، انَّ علماء کهـذا یمکنهم أن یبرروا ظلم السـلاطین الظلمـۀ! هؤلاء هم الـذین یحکّمـون أسـس الظلم، ویصـرفون النـاس عن أی رد فعـل تجـاه الظلم. إن علمـاء کهؤلاء، استطاعوا فترۀ حکومۀ بنی امیۀ وبنی العباس أن یزوّروا أحادیث الرسول صلی الله علیه و آله والأئمۀ علیهم السلام ویمتدحوا فی بعضها سلاطین ظلمـۀ من سلسـلۀ بنی العباس وبنی امیـۀ! باء– أنّ علماء کهـذا یمکنهم أن یزلزوا الأسـس الاعتقادیۀ للناس؛ فإنَّ الناس العوام، عنـدما یشاهـدون عالماً غیر عامل، یتزلزل اعتقادهم فی الـدین، بل قـد یترددون فی حقائق من قبیل الجنۀ والنار ویوم الحساب والقیامۀ فیقولون لأنفسـهم: (إذا کانت هناک قیامـۀ فالآمرین بالـدین والتدین أولی بأن یعملوا لذلک الیوم). وعلی هذا، فالسـلاطین إذا أظلموا علی الناس دنیاهم، فالعلماء المنحرفون یُظلمون علی الناس أُخراهم. جیم– العالم المنحرف یجرُّ الناس نحو الـذنب. إنَّ الدول المخالفۀ للإسـلام أسسوا فی القرن الأخیر– لأجل مواجهۀ الإسلام– فرقۀ ضالۀ، ولأجل تقویۀ هذه الفرقۀ ربُّوا فی أحضانهم عالماً منحرفاً استطاع تألیف کتاب أیّـد فیه الفرقۀ واسـتفاد فی تأییده للفرقۀ من الآیات، وکان کتابه بدرجۀ من الضـلالۀ بحیث عدّت خدمته للفرقۀ أکثر من خدمـۀ مؤسسـها لهـا. من هنا علی متعلمی المعارف الإلهیـۀ أن یعلموا أن سـبب هکـذا انحراف هو عـدم الإخلاص، فإنَّ بعض الطلاب یبغی العلوم لا لوجه الله تعالی بل لأغراض دنیویۀ مثل الهوی والهوس وحب الدنیا، وبهذه الأغراض تتهدم آخرته لتصبح جحیماً. امثال القران، ص: ۱۷۴ الإنسـان مهمـا بلـغ من مقـام، علیه أن لا ـ یری نفسه فی أمـان من وسـاوس الشـیطان، فـإنَّ هـذا الاحسـاس هو بـدایۀ الانـحراف والسـقوط، بل علی الإنسان أن یکون دائماً بین الخوف والرجاء، الخوف من الهوی والهوس والوساوس الشـیطانیۀ، والرجاء

والأمل برحمة الله ولطفه، فهو أرحم الراحمين.

عالم الدين من وجهة نظر الإمام الحسن العسكرى عليه السلام

ينقل الفقيه الشيخ الأعظم الأنصارى- رضوان الله عليه- فى كتابه القيّم (فرائد الأصول) حديثاً جميلًا من التفسير الجليل المنسوب للإمام الحسن العسكرى عليه السلام نأتى به هنا: (ومثل ما فى الاحتجاج عن تفسير العسكرى عليه السلام فى قوله تعالى: «وِمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ ...» الآية من أنَّه قال رجل للصادق عليه السلام: فاذا كان هؤلاء القوم من اليهود والنصارى لا يعرفون الكتاب إلّا بما يسمعون، ومن علمائهم لا سبيل لهم إلى غيره فكيف ذمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم، وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا يقلدون علمائهم؟ فإنْ لم يجز لأولئك القبول من علمائهم لم يجز لهؤلاء القبول من علمائهم. فقال عليه السلام: «بين عوامنا وعلمائنا وبين عوام اليهود وعلمائهم فرق من جهة وتسوية من جهة. أمّا من حيث استووا فإنَّ الله تعالى ذمَّ عوامنا بتقليدهم علمائهم كما ذمّ عوامهم بتقليدهم علمائهم. واما من حيث افترقوا فلا». قال: بيّن لى يا بن رسول الله! قال: «إن عوام اليهود قد عرفوا علمائهم بالكذب الصريح وبأكل الحرام والرشاء وتغيير الاحكام عن وجهها ... فلذلك ذمّهم لما قلدوا من عرفوا ومن علموا أنه لا يجوز قبول خبره ولا تصديقه ولا العمل بها بما يؤديه إليهم عمّن لا يشاهدوه. ووجب عليهم النظر بأنفسهم فى أمر رسول الله صلى الله عليه و آله ... وكذلك عوام امتنا إذا عرفوا من فقهائهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة ... فمن قلّد من عوامنا مثل هؤلاء الفقهاء فهم مثل اليهود الذين ذمهم الله تعالى بالتقليد لفسقة فقهائهم، فأمّا من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه وذلك لا يكون إلّا بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم. فأمّا من امثال القران، ص: ۱۷۵ ركب من القبائح ... وآخرون يتعمدون الكذب علينا ... فضلوا أو أضلوا اولئك أضرّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد (لعنة الله عليه) على الحسين بن على عليه السلام». «۱» سؤال: لماذا كان العلماء المنحرفون أسوأ حالًا من جنود يزيد؟ الجواب: إنَّ جند يزيد أعلنوا بصراحة عدائهم، إلَّا أنَّ علماء السوء بمثابة الذئاب الذين تقمصوا قمصان الرعاة وهم يكيدون بالدين باسم الدين. وواضح أنَّ خطر هؤلاء أشدّ من خطر من أعلن عدائه بصراحة. إنَّ ما يفتخر به الشيعة هو أنّهم خلال العصور الماضية كانوا تبعاً للمراجع والعلماء الذين اجتمعت فيهم شرائط الزعامة حسب ما أراده الأئمّة عليهم السلام، وأنَّهم كانوا ولا زالوا تحت مضلّة وألطاف هؤلاء العظماء. ولا شكّ أن تقليد علماء زهّاد ذوى بصيرةٍ لا أنّه غير مذموم فحسب بل واجب حسب ما نستشفه من آيات القرآن وروايات أهل البيت عليهم السلام. امثال القران، ص: ۱۷۷

المثل السابع عشر: مسجد ضرار

اشارة

يقول الله تعالى فى الآيات (۱۰۷- ۱۰۹) من سورة التوبة: «والّذِيْنَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَارَاً وَكُفْراً وَتَفْرِيْقاً بَيْنَ المُؤمِنِينَ وإرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحلِفُنَّ إنْ أرَدْنَا إلَّا الحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فيه أبَدَاً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلى التَّقْوَى مِنْ أوّلِ يَوْمِ أحَقُ أنْ تَقُومَ فيهِ فيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه على تَقَوى مِنَ اللهِ ورِضْوَانٍ خَيْرٌ أمْ مَنْ أسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ».

تصوير البحث

إنَّ الآيات الثلاث التى تعتبر المثل السابع عشر للقرآن تحدثت عن مسجد ضرار الذى اسّسه أعداء الدين لأجل مواجهة الدين الجديد واعتبروه متراساً ومرصداً محكماً لهم لمواجهة الدين بالدين.

شأن النزول

أشـار أكثر المفسـرين إلى شأن نزول الآيـة، «۱» ونحن هنـا نـذكر شـأن النزول أيضـاً: امثال القران، ص: ۱۷۸ إنّ بنى عمرو بـن عـوف اتخذوا مسجد قبا، وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله أن يأتيهم فأتاهم وصلّى فيه فحسدهم جماعة من المنافقين من بنى غنم بن عوف فقالوا: نبنى مسـجداً فنصلى فيه ولا نحضر جماعة محمد، وكانوا اثنى عشر رجلًا، وقيل: خمسة عشر رجلًا، منهم: ثعلبة بن حاطب ومعتّب بن قشير ونبتـل بن الحـارث فبنـوا مسـجداً إلى جنب مسـجد قبـا. فلّمـا بنوه أتوا رسول الله صـلى الله عليه و آله وهو يتجهّز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنّا قـد بنينا مسـجداً لـذى العلـة والحاجـة والليلـة الممطرة والليلـة الشاتيـة، وإنّا نحب أن تأتينا فتصـلى فيه لنا وتدعو بالبركة فقال صـلى الله عليه و آله: «انّى على جناح سـفر ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصـلّينا لكم فيه»، فلمّا انصـرف رسول الله صلى الله عليه و آله من تبوك نزلت عليه الآية فى شأن المسجد.

الشرح والتفسير

«والّذِيْنَ اتَّخَذُوا مَسْـجِداً ضِـرَاراً وَكُفْرَاً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المُؤمِنِينَ وإرْصَادَاً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْل». نعم إنّ جبرئيل عليه السلام نزل على الرسول مانعـاً إيـاه عن الصـلاة فى هـذا المسـجد؛ وذلـك رغم أنَّ ظـاهره للعبـادة، لكن واقعه معبـد للأصـنام ومركز للتـآمر ضـدّ المسـلمين، فالآية هنا بيّنت أربعة أهداف من وراء بناء هذا المسجد. ۱- «ضِـرَارَاً» إىأنَّ مؤسسى هذا المجسد كانوا يستهدفون الإضرار بالمسلمين من خلاله وذلك بجعله متراساً لأعداء الإسلام. ۲- «كُفْرَاً» إنّ الهدف الآخر لهم من وراء بناء هذا المسـجد هو تقوية أسس الكفر، والمسـجد دوره هنا كمركز لدعم الشرك والكفر. ۳- «تَفْرِيقَاً بَيْنَ المُؤْمِنِينَ» الهـدف الآخر لهم وهو من أخطر الاهـداف عبارة عن إيجـاد الفرقـة بين المسـلمين، واسـتهلاك الطاقـة الموحـدة التى يمتلكونهـا، فى النزاعـات فيمـا بينهم، الأمر الـذى يُضـرّ بالاطراف الإسـلامية المتنازعة أكثر من اضراره فى شىء آخر، وهذا مبدأ يحكم جميع الاختلافات. ۴- «إرْصَادَاً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْل» إىإعداد مركز للاعداء فى قلب الدولة الإسلامية، الأعداء الذين يكنون العداء لله ورسوله من ذى قبل.

أبو عامر النصرانى العدّو اللدود للإسلام

عن (مجمع البيـان): «إنّه كـان قـد ترهّب فى الجاهليـة ولبى المسوح فلمّا قـدم النبىّ صـلى الله عليه و آله المدينـة حسـده، وحزّب عليه الأحزاب ثم هرب بعـد فتـح مكّـة إلى الطـائف. فلمّـا أسـلم أهـل الطـائف لحق بالشـام، وخرج إلى الروم وتنصـر وهو أحـد المسببين والموقـدين لحرب أحـد. وسـمّى رسول الله صـلى الله عليه و آله أبـا عـامر (الفـاسق)، وكان قـد أرسل إلى المنافقين ان اسـتعدوا وابنوا مسـجداً فإنى أذهب إلى قيصـر وآتى من عنده بجنود، وأخرج محمداً من المدينة، فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون أن يجيئهم أبو عامر فمات قبل أن يبلغ ملك الروم». «۱» وبعد هذا طلب هؤلاء من الرسول صـلى الله عليه و آله أن يفتتح المسجد، لكن جبرائيل نزل ونهاه عن ذلك بهذا الخطاب: «وَلَا تَقُمْ فِيهِ أبَدَاً» والرسول (صلى الله عليه واله) لم يقم فيه ولم يصلّ فيه أبداً. «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أوَّلِ يَوْمٍ أحَقُّ أنْ تَقُومَ فِيْهِ» أى أنَّ مسجد ضرار ليس محلًا مناسباً لعبادة الله الواحد، والمسجد المؤهل لذلك يتسم بالسمات التالية: ۱- أن يكون أساس تأسيسه هو الإيمان والتقوى، وهـذا القسم من الآية يعلمنا أن يكون أساس تأسيس مراكز مثل الحسينيات والمدارس الدينية والسياسـية والاقتصادية والادارية هو الايمان والتقوى، فهما روح الأعمال. ۲- السمة الاخرى هى أن يكون الحضور من المتقين والطاهرين؛ وذلك لأن المصـلين فى المسـجد يعـدون معرّفاً للمسـجد. إن السـمتين حاصـلتان فى مسـجد قبا، فقد كان أساس تأسيسـه الإيمان والتقوى، كما أنّ مصليه كانوا من المؤمنين عكس ما كان فى مسجد ضرار فلا أساسه كان يعتمد الإيمان والتقوى ولا حضوره كانوا من المؤمنين.

الأمر بتخريب مسجد ضرار

الرسول صلى الله عليه و آله لم يكتف بعدم افتتاح المسجد والصلاة فيه، بل أمر المسلمين بإحراقه ثم امثال القران، ص: ۱۸۰ تخريب جدرانه وتهيئته ليكون مرمى للنفايات. «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ». (الشفا) يعنى الطرف من كلّ شيء، واطلقت هذه المفردة على شفاه الفهم لأجل ذلك. (الجرف) يعنى الجنب فجرف الشيء أى ما يجانبه ولذلك اطلق على شاطئ النهر جرف. (هارٍ) يطلق على الشيء الآخذ بالسقوط. إنَّ النهر قد يفرغ جرفه من الداخل ليصبح الجرف أجوف، والإنسان الذى لا يعلم بذلك قد يقدم على المشى على هذا الجرف فيسقط فيه ويغرق. الله تعالى يشبّه بناء مسجد ضرار ببناءٍ على جرف نهر، والجرف لا يشرف على ماء النهر، فانّ ذلك قد لا يؤدى بالإنسان إلى موته وهلاكه الحتمى لانه قد يكون عارفاً بالسباحة، بل إنَّ هذا الجرف مشرف على جهنّم ذاتها بحيث إذا سقط إنسان فيه فذلك يعنى هلاكه الكامل وانتفاء احتمال نجاته ... وهل الإنسان إذا كان عاقلًا يرضى باقامة بنيانه فى أرضٍ رخوة كهذا الجرف ويتحمل ما فيه من مخاطر؟ نعم؛ إنَّ المسجد الذى أساسه التقوى ورضاء الله فبناؤه يكون محكماً جداً ولا يؤدى بالإنسان إلّا إلى النجاة، أمَّا المسجد الذى يؤسّس على أساس الكفر والشرك ويكون مقراً للأعداء فهو بدرجة كبيرة من الخطورة ويؤدى بالإنسان إلى السقوط. وحسب ما تذكر الآية إنه سقوط فى جهنّم. هل يمكن العثور على تعبير أجمل ومَثَلٍ أوضح لمصادر الشرك والنفاق مثل التعبير الذى تضمنته الآية الكريمة؟!

خطابات الآية

۱- إنّ المستفاد من الآية هو ضرورة مراقبة المسلمين أعمالهم، وأنَّ الأعداء قد يواجهون الدين بالدين نفسه وبآلياته ذاتها ... ولهذا عندما نقرأ تاريخ الإسلام نعثر على الكثير من الفرق امثال القران، ص: ۱۸۱ التى أسسها الأعداء لضرب الإسلام الخالص. من المذاهب الموضوعة (فرقة البهائية الضالة) التى اتضح حالياً للجميع مكان تأسيس هذه الفرقة وشخصيات المؤسسين والمستفيدين من تأسيس هذه الفرقة. «۱» ۲- على المسلمين أن يكونوا كيسين وأن لا تغرّهم الظواهر. ما أن تحصل فتنة فعلى المسلمين أن يتعرّفوا على متوليها ومموّليها والمستفيدين والمتضررين منها؛ وذلك خوف الاغترار باولئك الذين ينوون تخريب البلاد باسم استعماره، أو أسر المسلمين باسم تحريرهم أو سلب الدين عنهم باسم الدين نفسه. وقد قال الرسول صلى الله عليه و آله فى هذا المجال: «المؤمن كيسٌ فطن حذرٌ». «۲»

المثل الثامن عشر: الدنيا العابرة

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية ۲۴ من سورة يونس: «إِنَّمَا مَثَلُ الحَياةِ الدُّنْيا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهَ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ والنَّاسُ وَالأَنْعَامُ حتَّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازّيَّنَتْ وظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ كَذَلك نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

تصوير البحث

الحديث فى المثل عن الحياة الدنيا العابرة، والتذكير بها خوف أن يغتر الإنسان بظاهرها الخلّاب ويتعلّق بها، فإنَّ الإنسان قد يفقد كل شيء فى وقت يتصوّر أنّ كل شيء قد تهيّأ وأُعد لصالحه. ويدعو الله فى نهاية الآية الإنسان للتفكير لعلّه ينقذه ويجد لنفسه من خلاله مخرجاً.

الشرح والتفسير

«إنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا» استخدمت عبارة (الحياة الدنيا) ما يقرب السبعين مرة فى القرآن، والدنيا قد تعنى أحد المعنيين التاليين: الف- أن تعنى القرب، ودنيا مؤنث (أدنى)، وذلك باعتبار أن الحياة الدنيا أقرب قياساً للحياة الآخرة التى هى بعيدة نسبياً. باء- أن يراد منها السافلة أو التافهة، ومنها اطلاق (الدنى) على الإنسان الساقط امثال القران، ص: ۱۸۴ والسافل. وباعتبار أنَّ الحياة الدنيا حياة تافهة وتفقد القيمة الكافية فهى حياة دنيا عكس ما عليه الحياة الآخرة فإنَّها عليا وتمتاز بالقيمة المتفوّقة. هذا، اضافة إلى أنَّه يستفاد من آيات قرآنية مثل الآية التالية: «وإنّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الحَيَوَانُ» «۱» أنَّ الحياة هى الحياة الآخرة فحسب، أمّا الدنيا فهى لا تستحق من الحياة إلّا الاسم، بل هى موت تدريجى! على كل حال، فإنَّ الحياة الدنيا إمّا أنّها حياة لا قيمة لها، أو أنّها ليست حياة بالكلية. «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ بِهَ نَبَاتُ الأرْضِ» أى مثل هذه الحياة العابرة كمثل الماء الذى ينزل من السماء بقطراته الشفافة والفاقدة للون، وباختلاطه بالأرض تنمو نباتات ومحاصيل متنوّعه. المراد من الاختلاط فى الآية هو تنوّع النباتات. إنّ النباتات على ثلاثة أقسام: ۱- القسم الذى يشكل الأغذية للإنسان مثل الفواكه والخضروات والحبوب «مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسَ». ۲- القسم الذى يشكل أغذية للحيوانات «مِمّا يَأْكُلَ ... الأنْعَامُ» وهى قد تشترك- نوعاً ما- بين الحيوان والإنسان كالاشجار التى يفيد الإنسان من ثمارها، والحيوان يفيد من أوراقها وغصونها. وقد تكون خاصة بالحيوانات مثل العلف. ۳- القسم الآخر هو النباتات والأشجار التى تزيّن الطبيعة مثل الأزهار والحشائش الاخرى «حَتَّى إذا أَخَذَتِ الأرْضُ زُخْرُفَهَا وازيَّنت وَظَنَّ أهلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْها». أى فى الوقت الذى هطل فيه المطر وأثمرت الاشجار وحان الوقت لجنى الثمار فى هذا الوقت تحدث حادثة وتخلط كل حسابات الإنسان وتحول دون جنيه ثمار ما زرع. وهذا أمر مؤلم لمن تعلّق بالدنيا. «أتَيها أمْرُنَا لَيْلًا أو نَهَارَاً» نعم، فى الوقت الذى يرى الإنسان أن الدنيا أقبلت عليه امثال القران، ص: ۱۸۵ وكشفت عن وجهها الخلاب والخادع، ويجد أنَّ كل شىء حسب ما يرام، فى هذا الوقت يصدر أمر الله بالعذاب ليلًا أو نهاراً لتتدمر بذلك كل الآمال والزحمات، بحيث تبدو الدنيا لم تكن شيئاً مذكوراً. إنّ كلمة «أمْرُنَا» فى الآية الشريفة تدعونا للدقة والتأمل الوافر من حيث إنّها تضمُّ موارد ومصاديق كثيرة وتشمل كل أنواع العذاب الذى يصدر من الله. نشير إلى بعض من تلك المصاديق. ۱- قد تؤمر مجموعة من الحيوانات تبدو كأنها ضعيفة مثل الجراد، فتؤمر الجراد لتهجم على مزرعة بشكل كتلة، لم تبقِ منها شيئاً إلّا أكلته أو دمرته، كما يحصل ذلك بين الحين والآخر فى بعض الدول. ۲- وقد يلقى هذا الأمر على عاتق السموم من الرياح، فيؤمر بتنفيذ مهمة العذاب الإلهى، وهو عندما يمرّ بشىء يسمّه ويجفّفه، بحيث إذا مرّ من مزرعة أبدلها إلى رماد يذهب مع الريح. ۳- وقد يتكفل بتنفيذ المهام الإلهية موجود هو أخطر من ريح السموم، مثل الصاعقة «۱» التى تدمّر كل شىء تصطدم به مثل الجبال والاشجار والانعام والناس، أو مثل موجودات أخرى نشير إليها فى البحوث المقبلة. هناك نقطة مثيرة تضمنتها عبارة «لَيْلًا أوْ نَهَارَاً» وهى أنَّ الإنسان لا خيار له غير التسليم والخضوع للعذاب الإلهى. ولا يفرق فى ذلك الليل والنهار ولا يتصّور أن الإنسان سوف يخضع للعذاب فى الليل باعتباره مسلوب القدرة آنذاك، بل انَّ العذاب إذا نزل سيستسلم له الإنسان سواء كان نازلًا فى الليل أو فى النهار. «فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدَاً كَأنْ لَمْ تَغْنَ بالأمْسِ» أى عندما يصدر أمر بالعذاب تتهدم ممتلكات الإنسان وتدمّر مزارعه فى آن، بحيث لا تبدو الأرض وكأنها كانت مزروعة قبل لحظات، بل تبدّل إلى كومة من الرماد. «كَذَلك نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» أى أنَّ اهداف هذا المثل لا يدركها إلّا الذين امثال القران، ص: ۱۸۶ يتفكّرون فيه، ولا يدرك غور هذه الآيات الإلهية إلّا بالتفكّر والتأمل الذى لا توجد عبادة أرفع مستوى منه. «۱»

فلسفة المثل

لأجل استيعاب فلسفة المثل نشير هنا إلى ثلاث من خصائص الحياة الدنيا: ۱- الحياة الدنيا عابرة ولا ثبات ولا دوام فيها. ۲- الحياة

الـدنيا جوفـاء، ظاهرهـا فـاتن وباطنهـا خـالٍ من المحتوى، وقـد تبلورت بوضوح فى حيـاة بعض النـاس الـذين تجـذبنا حياتهم من بعيد وتجعلنا نأسف على حياتنا ونتحسّـر على حياتهم، لكن عنـدما نقترب لهم نحمد الله كثيراً على كون حياتنا ليست مثل حياتهم من حيث كثرة المسـاوىء والابتلاءـات. ٣- الحيـاة الـدنيا تُغرُّ الإنسـان وتخـدعه. وفى حـديث للرسـول صـلى الله عليـه و آله أشـار فيه إلى هـذه الخصائص الثلاث: «الـدّنيا تغر وتضـر وتمر». «٢» من هنا نسـتوعب فلسـفة المثل فى أنَّه من دونه لا يمكننا إدراك ماهيـة الحياة الـدنيا. والإنسان من خلال المثل يدرك حقيقة الدنيا وماهيتها أفضل. ولذلك تمسك الله به إيضاحاً وبياناً.

تفسير وتطبيق للمثل المذكور

فى الآية الشريفة شُبِّه الإنسان وحياته الدنيا بالمطر، وبذلك يشير القرآن إلى قابليته وأهليته العالية، فاذا فُعّلت هذه الأهلية لأمطرت عليه ثماراً من قبيل الابتكار والخلاقيـة المتنوّعـة، ولاسـتخدم كل طاقته فى سبيل الحياة الأفضل، ولنشط فى مختلف المجالات، ولاسـتهلك طاقات جمـة فى سبيل بلوغ الأهـداف الخاصـة. إلّا أنَّ حادثة تحصل فجأة تخيّب كل امثال القران، ص: ١٨٧ آماله وتـدمّر كل ما جناه فى حياته حتى هذه اللحظة ليبدو وكأنه لم يفعل شيئاً لحياته أبداً ولم يكن قد فعل وتحمّل لأجل ضـمان المسـتقبل. إنَّ هذه الحوادث هى (الأمر الالهى)، وقد تتبلور فى داخل جسم الإنسان ويسلّم لها الإنسان رغم ضعتها وصغرها. وعلى سبيل المثال قد تحصل جلطة فى دم الإنسان تسـرى فى الشـرايين لتصل إلى القلب فتحدث سـكتة فيه، أو تصل إلى الدماغ فتحصل سـكتة فيه أيضاً قد تتسبب فى شـل جزء من جسـمه إذا لم تمته. والأبسـط من ذلـك هـو أن يـأمر الله تعـالى خليـة من خلايـا جسم الإنسـان للتكـاثر بشـكل غير متعـارف وبتصاعد هندسـى كأن تصبح الخلية خليتين والخليتان أربع خلايا والأربع ثمانية والثمانية ستة عشر وهكذا إلى أن تتبدّل فجأة إلى غدة سرطانية تنتشر فى جميع بدنة شيئاً فشيئاً لتجعل من الإنسان قعيد البيت «فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ» فيبدو وكأنه قد مات منذ سنوات وآماله قـد انـدثرت منـذ ذلك الحين. وقـد يلقى الأمر الإلهى فى عهـدة حادثـة خارجيـة مثل الزلزلة أو الطوفان أو الاعصار أو الشهاب السماوى او غير ذلك. هذا المثل وما شابهه من الحوادث التى شهدناها طوال عمرنا مرات عديدة بمثابة صافرة الانذار تحذرنا أن لا تغرّنا الحياة الـدنيا ولا نتعلّق بها ولا نرتكب الجرائم لأجل بلوغ الأهداف الدنيوية الآنية. من المناسب أن نفكر بعمق فى هذه الآية الشريفة وفى أمثالها، ونعدّها كالمصباح نستنير به الطريق.

خطابات الآية

١- معرفة الله

إنّ الله بتشبيهه الحياة بقطرات المطر علمنا شـيئاً من دروس المعرفـة، ورسّخ فى قلوبنا الايمان بالله. الآية تعلّمنا أنَّ الله بواسـطة هذا الماء الشـفاف الذى لا لون له يسـتطيع أن يخلق ألواناً مختلفة. امثال القران، ص: ١٨٨ إنّ الأرض تُسـقى بماء واحد «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ»، «١» لكنّ الثمار والفواكه والاشجار تنبت متنوّعة، فيخرج من هذا الماء أحلى الفواكه وأشدّها حموضة وأشد السموم مرارة، وأجمل الأزهار و ... هـذه كلها من ماء واحـد وتراب واحـد. إنَّ قـدرة الله عجيبـة حقاً! لكن أسـفاً للعادة لكونها تحجبنا وتمنعنا دون أن نفكر فى هـذا الكتاب الناطق لله.

٢- كل ما فى الكون مخلوق على أساسٍ من النظم

إنَّ الله جعـل مـاء المطر سـبباً للبركـة والعمران، وهو بـذاته إذا زاد عن حـدّه المتعـارف سـبب الـدمار والكوارث، وإذا قلّ عن مقـداره المتعـارف سـبّب الجفـاف والقحط. وهـذا درس آخر للإنسان فى أن يكون معتـدلًا ومنتظماً فى جميع مجالات حياته ويجتنب الإفراط

والتفریط. علی الإنسان أنْ لا یفرط حتی فی العداء والخصومة، ولهذا فرض الإسلام آداباً للحرب وهی عبارة عن أوامر جمیلة ولطیفة محذراً من خلالها المسلمین التفریط فی العداء. وعلیه، فالمسلم یکون منتظما ومبرمجاً فی جمیع شؤونه.

۳- قد تتبدّل النعمة إلی نقمة

أی قد یکون الشیء الذی یمنح الإنسان الحیاة هو بذاته یکون سبباً لدمار الإنسان وموته، وذلک بأمرٍ من الله تعالی. إن الماء یمنح الإنسان حیاة فی هذه الدنیا لکنّه قد یتبدل إلی سیل جارف وقاتل.

۴- إذا جری الماء کان سالماً وهنیئاً وذا طعم لذیذ

أمّا اذا رکد الماء تعفّن وتلوّث ویکون غیر صالح للشرب. ففی هذه الحالة لا أنّه لا یمنح الحیاة فحسب، بل یکون سبباً للتلوّث. إنَّ الاموال والثروات ذات نفس الخصلة هذه، امثال القران، ص: ۱۸۹ فیمکنها أن تنمّی اقتصاد البلاد إذا کانت جاریة ویتداولها الناس، إلّا أنها عندما تحتکر وترکد فی مکان واحد فقد تسبب السقم فی اقتصاد البلد.

۵- بعض النباتات سامة رغم جمالها

بعض النباتات تبدو زینة جمیلة مثلما تبدو بعض الزهور لکنها فی الواقع سموم قاتلة. لهذا کان علینا أن لا نغتر بالظاهر وإن کان جمیلًا، بل علینا سبر الغور والتفکّر فیه لکشف الواقع ثم انتخاب المناسب. وفی نهایة الآیة وصیة للتفکیر، ومدح للعلماء والمفکّرین. یقول رسول الله صلی الله علیه و آله: «أعطوا أعینکُم حظها من العبادة». قالوا: وما حظها من العبادة یا رسول الله؟ قال: «النظر فی المصحف والتفکّر فیه والاعتبار عند عجائبه». «۱» فکّروا فی آیات القرآن لکی لا تبتلوا بما ابتلی به النماردة والفراعنة وامثال ابو لهب کما فکروا من جهة اخری بامثال سلیمان وموسی وداود و ... توقفوا وتأملوا فی عجائب آیات القرآن. لا- تکتفوا بقراءة القرآن رغم ما لهذه القراءة- وبخاصة فی شهر رمضان المبارک- من أجر وثواب جزیل، بل لتقترن مع التدبّر والتأمّل.

المثل التاسع عشر: الکافر والمؤمن

اشارة

یقول الله تعالی فی الآیة ۲۴ من سورة هود: «مَثَلُ الفَرِیْقَیْنِ کالأعْمَی والأَصَمّ والبَصِیْرِ وَالسَّمیعِ هَلْ یَسْتَوِیانِ مَثَلًا أفلا تَذَکَّرُونَ».

تصویر البحث

یقارن الله العظیم فی هذا المثل بین الکافرین والمؤمنین، ویشبّه أحد الفریقین بالأعمی والأصم والآخر بالبصیر والسمیع، وذلک لأنَّ الایمان والتقوی یورثان السمع والبصر، أما اللجاجة والتعصب والکفر فیحجبان عن هذین الموهبتین الالهیتین.

إشارة إلی الآیات ما قبل آیة المثل

الآیات التی تسبق آیة المثل هذه تبیّن أحوال المؤمنین والکفار، ومن الضروری إلقاء نظرة علیها لکی نتمکن من شرح الآیات وتفسیرها ببصیرة أکثر.

سیرة الکافرین

شرحت الآیة ۱۹ من سورة هود أحوال الکافرین حیث قالت: «الَّذِیْنَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیْلِ اللهِ وَیْبغُونَها عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ کَافِرُونَ». لقد بیّنت الآیة ثلاثاً من خصال الکفّار: امثال القران، ص: ۱۹۲ ۱- الکفار یمنعون عن سبیل الله ویحولون دون دخول الآخرین فی هذا السبیل. ۲- الکفار یبغون الأعوجاج عن طریق الحق، أو أنَّهم یریدون إظهاره معوجّاً، مع أنه- حسب سورة الحمد- طریق مستقیم ولا إعوجاج ولا ـ افراط ولا ـ تفریط فیه بل هو متعادل ومتوازن. ۳- الکفار ینکرون المعاد والحیاة بعد الموت. ویبدو أن هذه القضیة هی السبب الأساس فی انحطاطهم؛ وذلک لأنَّهم عندما أنکروا المعاد سعوا فی اظهار طریق الحق معوجاً ومنعوا من اهتداء الآخرین إلی هذا الطریق. ثم یقول الله فی الآیة ۲۲ من نفس السورة: «لَا جَرَم أَنَّهُمْ فِی الآخِرَةِ هُمْ الأَخْسَرُونَ». أی أنَّ الکفار الذین منعوا من اهتداء الناس إلی طریق الحق، وأظهروه وکأنّه معوجاً، وفی النهایة أنکروا المعاد، إنّهم فی المعاد أخسر من الجمیع.

سیرة المؤمنین

الآیة ۲۳ من سورد هود همّت بدراسة الفریق الثانی (المؤمنین) وقالت: «إنَّ الّذینَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وأَخْبَتُوا إلی رَبِّهِمْ أولئک أصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِیْهَا خَالِدُونَ». بیّنت الآیة الشریفة ثلاث خصال للمؤمنین: ۱ و ۲- الإیمان والعمل الصالح، إنّ هذین الخصلتین ذکرتا معاً فی کثیر من الآیات القرآنیة، فهما لازم وملزوم ولا یمکن تفکیکهما، «۱» ولهذا کان إدعاء الإیمان بالنسبة للذین لا یعملون إدعاء خواء، وهم غیر مؤمنین فی الواقع. ومن جانب آخر، أنَّ الصادقین الذین یعملون صالحاً من دون إدعاء، هم المؤمنون الحقیقیون؛ وذلک لأنّهم- کما أشرنا سابقاً- بمثابة الغصون والاوراق لشجرة واحدة. ۳- الخصلة الثالثة التی یحملها المؤمنون هی خصلة (الاخبات). إنَّ (الاخبات) جمع (خبت) والاخیرة تعنی- فی الاصل- الصحراء الواسعة والمستویة، وقد اطلقت بعد ذلک علی امثال القران، ص: ۱۹۳ بعض خصائص الإنسان، نشیر هنا إلی ثلاث حالات منها: الف- تستخدم فی الإنسان ذی الروح المتواضعة، فکما أنَّ الصحراء المستویة تتواضع أمام الماء وتسمح له بالسیر فی جمیع بقاعها، کذلک روح الإنسان المتواضع فإنَّها تستسلم للحق ببساطة. باء- أنَّ مفردة (مخبتْ) کما تُطلق علی الإنسان المتواضع تطلق کذلک علی من سلّم نفسه لله تعالی، أی کما أنَّ الأرض المستویة مستسلمة، کذلک روح الإنسان المؤمن. جیم- تطلق هذه المفردة علی من اطمئنَّ بالله تعالی. الإنسان عموماً عندما یخطو فی الصحراء یخطو باطمئنان ومن دون خوف وذعر، عکس ما لو کان یمشی فی جبال وأراضٍ وعرة، فإنَّ خطاه ستقترن بالخوف والذعر، وخطی الإنسان المؤمن فی طریق العبودیة تقترن بالاطمئنان. وعلی هذا، فالمؤمنون الذین یحملون هذه الصفات (الایمان والعمل الصالح والاخبات) هم اصحاب الجنة خالدین فیها ویتمتعون بنعمها.

الشرح والتفسیر

«مَثَلُ الفَرِیْقَیْنِ کالأَعْمَی والأَصَمِّ والبَصِیْرِ والسَّمِیع» بعد أن بیّن الله خصائص الفریقین فی الآیات السابقة نعت هنا کلًا من الفریقین بصفات فقال: إن الکافر مثل الأعمی والأصمّ، والمؤمن مثل البصیر والسمیع. «هَلْ یَسْتَوِیَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَکَّرُونَ» والسؤال هنا استنکاری أی أنَّ الفریقین لا یستویان فالأعمی لیس کالبصیر والأصم لیس کالسمیع؛ کذلک المؤمن فهو غیر الکافر ولیس مثله. المفروض بهذه المقارنة أن تثیر مخاطبی الآیة وتذکّرهم، ألیس کذلک؟! لأجل الوقوف علی عمق هذا المطلب واستیعاب آثار الایمان والقدرة اللامتناهیة لرب العالمین، نقوم فی البدایة بدراسة أهمیة العین والاذن ودورهما فی جسم الإنسان.

العین من أعظم آیات الله

لا شک أنَّ العین من أعظم الآیات الإلهیة، بل یمکننا القول: إنها أعجب آیات الله سخرها امثال القران، ص: ۱۹۴ تعالی فی خدمتنا. إنّ العین ذات بناء معقد جداً، والأعجب من ذلک أن البناء یتشکل من مواد بسیطة جداً، فهی تتکون من مقدار قلیل من الشحوم والعضلات ومقدار بسیط من السوائل. إنَّ هذا یکفی للکشف عن قدرة الله تعالی، فهو یستطیع بناء وسیلة معقدة من مواد بسیطة جداً. للعین سبع طبقات ممتازة ومجزّأة، وهی مستقلة عن بعضها البعض بالکامل وقد رتّبت بشکل لطیف جداً، کما أنه تعالی جعل لکل طبقة وظائف خاصة. لا یوجد فی الدنیا کامیرا یمکنها التصویر تلقائیاً مثل ما تعمل العین، فهی تعمل دون حاجة إلی منظّم لعدستها، فهی تنظم نفسها لتصویر أدنی وأقصی نقطة فی أقل زمن ممکن. مع أن تنظیم العدسة للاماکن البعیدة فی کامیرات التصویر یحتاج إلی وقت غیر قصیر نسبیاً، وقد یستدعی هذا الأمر ساعة من الزمن إذا أُرید تصویر لقطة حساسة. کذلک الأمر بالنسبة لتنظیم النور، فاذا کنا- مثلًا- فی محیط مضیء ثم انطفأت الکهرباء فیه وساد الظلام، فإنَّ بؤبؤة العین توسع نفسها لتتکیف مع المحیط وتتمکن من الرؤیة. وفی العین یوجد عضلات تتحرک فی ست جهات تمکنها من الحرکة إلی الأمام والخلف اضافة إلی الحرکات الاربع أی الیمین والیسار والفوق والتحت. ومن عجائب العین الاخری هو السائل الذی یترشح منها ویسمی الدمع. إنَّ الدمع غذاء للعین کما أنَّه سائل لغسلها ولتطهیر هذا البناء الدقیق والظریف من أی تعفن یحتمل حصوله. من خصائص العین أنَّها هی بنفسها تقوم بترمیم ما یطرأ علیها من اشکالات ونواقص. هل هناک شیءٌ من مصنوعات الإنسان یحضی بهذه الخصائص؟ لننصف ونری لو لم یکن هناک دلیل وآیة علی اثبات الخالق غیر هذه العین ألیس ذلک بکاف؟ «۱» کیف یمکن تصدیق أن الطبیعة الفاقدة للأحاسیس والشعور یمکنها خلق جهاز بهذه العظمة؟

الاذن آیة الله الاخری

رغم أنَّ بناء الاذن قیاساً للعین لیس بنفس الدرجة من حیث التعقد والظرافة، إلّا أنَّه امثال القران، ص: ۱۹۵ یحکی کما هو حال العین عن قدرة الله تعالی. إنَّ الاذن تتکون من الجزء الخارجی والداخلی والوسط. والاقسام تقع فی مناطق متجزءة عن بعضها الآخر، ولکلٍّ وظائف خاصة ومستقلة. هناک عظام یشبه عملها عمل المضرب، کما أنَّ هناک طبلة ترتعش بضربات المضرب، والارتعاشات هذه عندما تنتقل إلی الدماغ بواسطة الأعصاب تُفسَّر هناک. والعجیب فی هذا کله أنَّ الاذن یمکنها تعیین جهة الصوت. إنَّ العین والاذن نعمتان إلهیتان أنعمهما الله علینا، وهما عجیبتان جداً، وفی توصیفهما کتبت کتب کثیرة، ولکلٍّ منهما من حیث الطبابة مختصون، بل انَّ فی العین لوحدها عدة تخصصات.

العین والاذن وسیلتان مهمتان للمعرفة

إنَّ أهمّ وسائل المعرفة عند الإنسان هی العین والاذن. إنّ الإنسان عندما یولد یکون خلواً من أی علم «وَاللّهُ أَخْرَجَکُم مِنَ بُطُونِ أمَّهَاتِکُمْ لا تَعْلَمُونَ شَیْئاً». «۱» والإنسان یحصل علی العلوم بعد أن تنمو عنده حاسة السمع والبصر. إنَّ العلوم التجریبیة تنتقل للإنسان عبر حاسة البصر، فالإنسان یبلغ النتائج المختلفة فی المختبرات بعدما یراها بعینه، ورؤیته هذه هی التی تنقل النتائج إلی الذهن. أما العلوم النقلیة- وبخاصة العلوم التی قدمت من الوحی الالهی- فهی تنتقل عبر حاسة السمع (الاذن). بالطبع أن العلوم العقلیة تعتمد فی الأساس علی العلوم الحسیة أی أنَّ الأشیاء ما لم تر أ و لم تسمع فلا یتمکن العقل من إدارکها، وذلک لأنَّ أساس العلوم العقلیة هو (تجرید) و (تعمیم) المحسوسات، ولهذا اذا کان هناک إنسان بالغ أصم وأعمی- وهو بالنتیجة أخرس- فان مستوی فهمه سیکون بمستوی فهم طفل عمره خمس سنوات حتی لو کان یحضی بدماغ بمستوی دماغ ابن سیناء؛ لأنَّ هکذا انسان یکون فاقداً لعمودین أساسیین من أعمدة العلوم العقلیة وهما البصر والسمع.

الکافر یفتقد وسائل المعرفة

وفقاً لما ذکرت الآیـة، أنّ الکافر أعمی وأصم، أی أنَّه یفقد وسائل المعرفة أو أنَّ هذه الوسائل مسلوبة منه، لذلک لا یدرک شیئاً من نور الأیمان. أما المؤمن فهو- بفضل نور الإیمان- یتمتع بحاسة السمع والبصر بشکل کامل، ویفید من العلوم، ووسائل المعرفة.

لماذا کان الکافر أعمی وأصم؟

الوصف المستخدم فی الآیة یفید أنّ العمی والصم هما بسبب حاجب الکفر الذی یحول دون السمع والنظر «خَتَمَ اللهُ عَلَی قُلُوبِهِمْ وَعَلَی سَمْعِهِم وَعَلَی أبْصَارِهْم غِشَاوَةٌ». «۱» إنَّ اللجاجة مع الله وعدم التسلیم له والصفات الرذیلة الاخری سببت عدم إدراک الکفار للحقائق. یقول الإمـام السـجاد علیه السـلام فی دعـائه العرفانی (أبو حمزة الثمالی): «إنّک لا تُحْجَب عن خلقک إلّا أن تحجبه الأعمالُ دونک». وعلی أساس هـذا الـدعاء، فإنَّ أعمال الناس هی التی تحجب الإنسان عن الله. وفی بعض نسـخ هذا الدعاء ذکرت مفردة (آمال) مکان أعمـال، وعلی هـذه النسـخة، فإنَّ الآمال هی التی تحجب الإنسان عن الحقائق والمعارف الإلهیـة. الإیمان عنـدما یظهر فی الإنسان فإنَّ حجب التعصب والجهل والغرور والکبریاء والأنانیـة تتلاشـی لوحـدها، ویتضـح للإنسان بعـد ذلک کل شـیء، بل الله نفسه یهـدیه من الظلمات إلی نور الإیمان، لـذلک قال الله فی الآیة ۲۵۷ من سورة البقرة: «اللهُ وَلیُّ الَّذینَ آمَنُوا یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلی النُورِ والّـذِینَ کَفَرُوا أوْلِیَاؤُهُمُ الطَّاغُوت یُخرِجُونَهُم مِنَ النُّوْرِ إلَی الظُّلُماتِ أُوْلئِک أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِیْهَا خَالِدُونَ».

کیف یمکن إزالة الحجب؟

کیف یمکن أن یکون لنا عین واذن قرآنیـة؟ کیف یمکن أن یکون لنا عین تری الحقیقـة؟ وفقاً امثال القران، ص: ۱۹۷ لما أقرَّته الآیة الشـریفة فـإنَّ هـذه الحجب تزال إذا أزلنـا عن أنفسنـا سـتار الجهـل والتعصب واللجاجـة لنری مـا یری أولیـاء الله. ما علینا هو أن نکون مؤمنین. لقد ذکرت علامات للمؤمن فی روایات أهل البیت علیهم السلام، ولأجل الاطلاع نأتی بنموذجین هنا:

علامات المؤمن

۱- یقول رسول الله صـلی الله علیه و آله: «لا یؤمن عبدٌ حتّی یحب للناس ما یُحب لنفسه». «۱» ۲- فی روایة اخری یقول الإمام الصادق علیه السـلام: «إنَّ من حقیقة الإیمان أن تؤثر الحقّ وإن ضرّک علی الباطل وإن نفعک». «۲» وحسب هذه الروایة فإنَّ الحقیقة والصدق من علاـئم المؤمن، وهی تحمـل فی طیّاتهـا خطابـاً للأـحزاب والتکتلاـت السیاسـیة فی البلـد بـأن یقوم نشاطهم علی الصـدق والحقیقة وتجنّب الزیف. إنهم إذا بلغوا مرحلة یرجّحون فیها حدیث عنصـرهم الطالح علی حدیث العنصـر الصالح للتکتل المنافس فذلک یعنی أنّهم لم یدرکوا حقیقة الایمان، ودعواهم الایمان زیف لا أکثر. اللهم ارزق جمیع المسلمین الایمان الکامل.

المثل العشرون: الذین یدعون من دون الله

اشارة

یقول الله فی الآیة ۱۴ من سورة الرعد: «لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ والّذِیْنَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِه لا یَسْـتَجِیبُونَ لَهُمْ بِشَیءٍ إلّا کَباسِطِ کَفَّیْهِ إلی المَاءِ لِیَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الکَافِرِینَ إلّا فِی ضَلالٍ».

تصویر البحث

إنّ آيـة المثـل درست قضـية الـدعاء والتوسّـل، وهى تسـعى لتعليم الإنسان إلى مَن يمـدّ يـده؟ ثم مثَّلت أولئك الـذين يطرقون أبواب المخلوقـات دون خـالقهم طالبين حاجاتهم بمن بسط يـديه إلى الماء .... سؤال: قبل البتِّ بشـرح وتفسير آيـة المثل ينبغى التساؤل عن سبب عـدم التطرّق إلى بعض الأمثال التى جاءت قبل سورة الرعـد، مثل الآيـة الشـريفة ٣٢ من سورة المائـدة التى اعتبرت قتـل النفس البريئـة بمثابـة قتـل النـاس جميعـاً واحياء نفس بريئـة بمثابـة احياء الناس جميعاً. فإنّ فيها تشبيهاً وتمثيلًا نوعاً ما، فَلِم لم تأت فى البحث. الجواب: فى القرآن امثـال وتشـابيه كثيرة، لكن بحثنـا فى الامثـال القرآنيـة لا التشابيه. إنَّ التشبيه هو تنظير شـىء بشـىء كأن يقال: (إن حسن كالأسـد). فهـذا تشبيه وليس مثلًا، امثال القران، ص: ٢٠٠ أما المثل فهو تجسـيد وبيان لقصةٍ أو جماعة أو قضـية أو مطلب عقلى ليس فى متناول أذهان الناس، كما لو أنَّ الله أراد بيان قضـية الحق والباطل وهما قضـيتان غير حسـية مثّلهما بالمطر والسيل والزبد الذى يتجمع على الماء، فيمثّل الحق بالماء والباطل بالزبد، من حيث أنّ الزبد رغم ابهته وارتفاعه وظهوره إلّا أنه أجوف ويتلاشـى بسـرعة ... وبناءً على هذا الايضاح فقد حصلنا على معيار كلى للتمييز بين الأمثال والتشابيه.

البرق والسحب الثّقال

لأجل الاستيعاب الأفضل للمثل المذكور علينا شـرح الآيات ١٢ و ١٣ من سورة الرعـد باقتضاب. يقول الله تعالى فى الآية ١٢ من سورة الرعد: «هُوَ الَّذِى يُرِيْكُمُ البَرْقَ خَوْفَاً وَطَمَعاً وَيُنْشِأُ السَّحَابَ الثِّقَالَ». إنّ البرق من آثار عظمة الله تعالى، فهو يزرع الأمل فى نفس الإنسان كما يزرع الخوف والقلق. إنّ البرق يبشّر الناس بهدية المطر الإلهية؛ وذلك لأن الرعد والبرق يتسببان فى نزول الكثير من المطر.

كيف يسبب البرق نزول المطر؟

اصـطدام السـحب التى تحمل شـحنات كهربائيـة متضادة يوجد حرارة تقدّر بخمسة عشـر ألف درجة سانتيغراد. إن هذه الحرارة تحرق الهواء المحيـط بهـا وبـذلك يقـل ضـغط الجو الأمر الـذى يؤدى إلى هبوط المطر. من جانب آخر قـد يتبلور البرق على شـكل صاعقة فيحرق حينئـذٍ مـا يصـطدم به من الغابات والقرى والاشـخاص والحيوانات والمزارع، وهـذا هو الـذى ينجم عنه خوف الإنسان. «وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَـالَ» قـد يتصور كثير من النـاس أنَّ السُّحُب لاـ تختلف، وهى تعمـل على وتيرة واحـدة، مع أنَّ الحقيقـة شـىء آخر، وهى تختلف عن بعضـها الآخر كثيراً. امثال القران، ص: ٢٠١ ممّـا تختلف فيه السـحب هو أنّها تنقسم إلى ثقال وخفاف، والثقال تتموقع فى جوٍّ أقرب إلى سـطح الأـرض، أمَّا الخفاف ففى جوّ مرتفع أكثر عن سـطح الأرض، وسـبب اقتراب الثقال هو كثرة الرطوبـة والماء فيها، الأمر الذى يمنعها من التصاعد إلى أجواءٍ أبعد.

الرعد دليل على عظمة الله

يقول الله تعالى فى الآيـة ١٣ من سورة الرعـد: «وَيُسَبِّحُ الرَّعْـدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلائِكَةُ مِنْ خِيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ وَهُوَ شَدِيْدُ المِحَالِ». تشـير الآيـة الشـريفة إلى موضوعين، أحـدهما: الرعـد، والثانى: الصواعق. وبما أنَّا تناولنا موضوع الصواعق فى البحوث السابقة لذا نخص بحثنا هنا بالرعد. لقد قلنا سابقاً: إنَّ اصـطدام سحب ذوات شحنات كهربائية مختلفة تولّد قدحة ضوئيـة وصوت، فـالنور يقـال له: برق، أمـا الصوت فيقـال له: رعـد. إنَّ الصوت والضوء يحصـلان فى وقت واحـد، لكن بما أنَّ سـرعة الضوء أسـرع من الصوت بمرات، لذلك يصـلنا الضوء قبل أن يصلنا صوت الاصطدام. رغم ما يبدو من بساطة فى ظاهرة الرعد، إلّا أنّه يُعـد من آيات الله العظمى، وله تأثير مهم على حياة جميع الموجودات. لقد ذكر العلماء آثاراً كثيرة للرعد والبرق نشير هنا إلى أهمها:

١- هطول الأمطار هى أول فوائـد الرعـد والبرق، وهى فائـدة تعم جميع الموجودات سواء الإنسان أو الحيوان أو النباتات أو الجمادات.

٢- يقتل الرعـد والبرق بعض الآفات النباتيـة؛ وذلك لأنَّ الحرارة التى توجد من خلال هذين الظاهرتين تسـبب أكسـجة الماء أى خلق

ماءٍ مؤکسج یتکون من ذرتین من الأوکسجین بدل ذرهٔ واحدهٔ مع ذرتین من الهیدروجین. ومن فوائد هذا الماء أنه من المطهرات ویمکنه قتل بعض الآفات والموجودات المضرهٔ. إنَّ هذا الماء متوفّر فی الصیدلیات ویستخدم لغرض التطهیر. وکلما زادت ظاهرتا الرعد والبرق کلّما قلت الآفات النباتیهٔ. الفائدهٔ الاخری للرعد والبرق هو انتاج الکثیر من الاسمدهٔ للنباتات. إنّ هذین الظاهرتین امثال القران، ص: ۲۰۲ تنتجان کل عام عشرات الملایین من الاطنان من الأسمدهٔ القویهٔ والمفیدهٔ والمؤثرهٔ علی جمیع النباتات. طریقهٔ ایجاد هذه الاسمدهٔ هو أنَّ الحرارهٔ الناشئهٔ عن الرعد والبرق تسبب ترکیب الماء بذرات الکاربون فینتج أوکسید الکاربون، وعندما یهبط هذا الاوکسید علی الأرض یترکب مع الاتربهٔ فینتج نوعاً من السماد المفید والقوی والمؤثر. نعم، إنَّ الرعد والبرق لهما هذه الآثار، وهما من آیات الله العظمی. والمدهش أنَّ الله کشف عن هذه الأسرار العلمیهٔ فی وقت لم تخطر فی ذهن الإنسان هذه الامور أبداً. طبقاً للآیهٔ الشریفهٔ، الرعد یحمد الله ویسبّح له، والتسبیح هنا یعنی تنزیه الله من أی عیب ونقصٍ، ألم یکن قتل الآفات النباتیهٔ تنزیهاً لله من کل عیب ونقص؟ ألیست هذه الظاهرهٔ تسبیحاً لله نوعاً ما؟ إنَّ الرعد یحمد الله علی صفاته وجلاله وجماله. ألم تکن تغذیه النباتات نوعاً من الحمد والثناء لله فی عالم الممکنات والمخلوقات؟ لا شکَّ أنَّ الآیات ۱۲ و ۱۳ تشیر إلی هذه النقطهٔ وتعدّها من وجوه عظمهٔ الخالق. الخلاصهٔ: أنَّ الآیتین أشارتا إلی بعض من الآیات الإلهیهٔ المهمهٔ، أی الرعد والبرق والمطر والصاعقهٔ.

الشرح والتفسیر

«لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ» یختلف المفسرون فی المراد من هذه الجملهٔ، فالبعض یری أنها تعنی التوحید، والتوحید خاص بذاته تعالی. ویعتقد بعض آخر أنَّ المراد منها هو القرآن المجید، فهی تشیر إلی هذا الکتاب الإلهی. وکثیر من المفسرین فسَّرها بالدعاء، أی إذا أراد الإنسان أن یستجاب دعاؤه دعی الله خالصاً، فغیره لا یحلّ شیئاً من المشاکل بل الله هو الوحید القادر علی استجابهٔ الدعاء وحل المشاکل. والشاهد علی هذا الرأی (الرأی الثالث) الذی نحن نذهب إلیه هو ذیل الآیهٔ، حیث تقول: امثال القران، ص: ۲۰۳ «وَمَا دُعَاءُ الکَافِرِینَ إلّا فِی ضَلَالٍ». إنَّ سبب کون دعاء الکافرین فی ضلال هو أنَّهم یسألون من لا یقدر حتی علی الدفاع عن نفسه، ولا یستطیع کسب منفعهٍ لنفسه فضلًا عن نفعه الآخرین. «والّذِیْنَ یَدْعُونَ مِنْ دُوْنِهِ لا یَسْتَجِیبُونَ لَهُمْ بِشَیءٍ إلّا کَبَاسِطِ کَفَّیْهِ إلی الماءِ لِیَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ» إنّ شاهد حدیثنا فی المثل العشرین هو هذا الجزء من الآیهٔ. إن الذین یدعون غیر الله ویقصدون معابد الاصنام ویتوسلون بها لأجل حلّ مشاکلهم، فمشاکلهم سوف لا تُحل. ومثل إنسان کهذا مثل الذی یبسط یده ویمدها لیأخذ الماء ویشرب، وهو لا یستطیع من خلال هذا العمل شرب الماء أبداً. اختلف المفسرون فی تفسیر «کَبَاسِطِ کَفَّیْهِ إلی المَآءِ ...» نشیر إلی أقوالهم هنا: ۱- المراد منها هو شخص عطشان یرید إرواء عطشه فیقصد بئراً لیس فیه حبل ولا دلو، وعمق البئر کثیر جداً، فیبسط هذا الشخص یدیه فی البئر، لکن یدیه لا تمتدان إلی أکثر من مترٍ واحدٍ. ولا شک أنَّ شخصاً مثل هذا سوف لا یبلغ هدفه ولا یروی عطشه. ۲- مراد الآیهٔ هو الشخص الذی یقف بجنب البئر ویشیر للماء لکی یصعد ویشرب منه. ومن الواضح أن الماء هنا لا یُنال بالاشارهٔ إلیه، بل هناک حاجهٔ واقعیهٔ لوسیلهٔ ترفعه. نعم، دعاء الکافرین عند معبد الأصنام ضلال، وحالهم حال إنسان کهذا. ۳- إنَّ (باسط) تعنی الذی یفتح یدیه ولا یحنیهما بحیث یتمکن الاغتراف بهما. فإنَّ هذا الشخص یذهب إلی جنب الماء ویغترف منه بیدیه حال کونه فاتح یدیه وباسطهما، وهو أمر لا یوفّر له الماء فیضطر للابتعاد عن مصدر الماء، وهو عطشان. نری أنَّ التفسیر الأوّل هو أنسب الثلاثهٔ، رغم إمکانیهٔ القول بأنّ الثلاثهٔ صحیحهٔ وکلها تبیّن مراداً واحداً؛ وذلک لأنّا نعتقد بامکانیهٔ استعمال لفظ واحد فی أکثر من معنی واحد. «۱» وعلی ما تقدم علینا- لأجل حل المشاکل- أن لا نطرق غیر باب الله، بل نقصد بابه منذ البدایهٔ، فهو الخالق والرازق والمحیی والممیت وهو حلّال المشاکل وکل شیء بیده. اما غیره فلا امثال القران، ص: ۲۰۴ شیء بیده؛ لأنّه ما من موجود إلّا وهو یحتاج إلی الله الغنی، فالکل یحتاج إلیه فکل شیء عاجز، وهو القادر، وکل شیء ضعیف، وهو القوی والقادر المطلق، فلا یصح الذهاب لا لمعبد الأصنام فحسب بل لکل شیء غیر الله.

خطابات الآية

۱- هل التوسّل بالمعصومين عليهم السلام شرک؟

وبعبارهٔ اخرى: هل أنَّ الأدعیهٔ والتوسلات بالأئمهٔ تشملها الآیهٔ الشریفهٔ وینهی عنها الشارع المقدس وینبغی الاجتناب عنها؟ نقول جواباً عن التساؤل الماضـی: إنَّ التوجه لهؤلاء العظماء لا یعنی طلبنا منهم حل المشاکل بشکل مباشـر، بل نطلب منهم أن یشـفعوا لنا عند الله ویبحثوا لنـا عن حـلٍّ لنـا من الله القادر المطلق؛ وذلک لأنّا نعتقـد أنَّ هؤلاء إذا اسـتطاعوا فعل شـیء فبأذنٍ من الله. أما الوهابیون الـذین ینسـبون لنا الشـرک والکفر لأجل هذه الأدعیهٔ والتوسلات فانّهم علی خطأ، وهم لا یعرفون المعنی الحقیقی للشرک والکفر، کما أنَّهم لم یسـتوعبوا ماهیهٔ التوسل الذی عند الشیعهٔ. فی رحلتی لمکهٔ والمدینهٔ عام ۱۴۱۹ ه. ق التی کانت لغرض أداء العمرهٔ، حضـرت صلاهٔ الجمعهٔ فی الیوم الثانی والعشرین من شعبان فی المسجد الحرام، وکنت أصغی لما یقول الخطیب. والمدهش هنا أنَّ الخطیب کان یقرأ عن ورقـهٔ قـد أعـدّها من ذی قبل، یبـدو أنّه ما کان مجازاً لإضافـهٔ او تنقیص ولو کلمـهٔ واحـدهٔ، فتذکرت خطبهٔ الجمعهٔ فی مدن ایران ومـدی ما یتمتع به الخطیب من حریـهٔ التعبیر والتحلیل. وعلی أی حال هاجم هـذا الخطیب فی أثناء خطبته اولئک الذین یتوسـلون عند القبور المشـرّفهٔ ورماهم بالشـرک والکفر. بالطبع لم نسکت أمام هجوم هذا الخطیب، بل کتبنا رسالهٔ إلی زعماء السعودیهٔ اعترضنا فیها عما تفوّه به هـذا الشـخص. إنَّ الـذین یعتقـدون بالـدعاء والتوسّل لا یعتبرون أولیاء الله شـرکاء لله، بل شـفعاء عنـده. وبعبارهٔ اخری: أنَّ اعتقادنا هو تجسید للآیهٔ الشریفهٔ (المائدهٔ ۱۱۰) التی تحدّثت عن السـید امثال القران، ص: ۲۰۵ المسیح (علی نبینا وآله وعلیه السلام) «وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَهِٔ الطَّیْرِ بإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِیهَا فَتَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِی وَتُبْرِئ الْأَکْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِی وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَی بِإِذْنِی ...». فی هـذه الآیهٔ نسب الخلق والاحیاء والشـفاء کلها للسـید المسـیح علیه السـلام لکن بإذنٍ من الله تعالی. «۱» والشـیعهٔ لا تقول شـیئاً غیر هذا الـذی فی الآیـهٔ الکریمهٔ، فالشـیعهٔ تعتقد أنَّ العظماء والأولیاء یمکنهم فعل الکثیر الذی یعجز عنه البشـر لکن باذن الله، کما یمکنهم أن یشـفعوا للعباد عند الله لحل مشاکلهم. وعلی هذا فدعاء الشـیعهٔ وتوسـلهم لا شـرک ولا کفر. ومع هذه الایضاحات نقول: إنَّ الذی یعدُّ الشـیعهٔ لاجل دعائهم وتوسـلهم مشرکین، فهو یعدُّ السید المسیح مشرکاً کذلک. ویمکننا أن نستفید مما سبق ضمنیاً أن المعجزهٔ قد لا تحصل بـدعاء النبی وإجابهٔ الله مباشـرهٔ، بل قد تکون من النبیّ أو الولی مباشـرهٔ لکن بإذنٍ من الله تعالی کما هو الحال بالنسـبهٔ لمعجزهٔ شق القمر «۲» التی صدرت عن رسولنا صلی الله علیه و آله، وهذا أمر غیر مستبعد.

۲- الصور المختلفهٔ لعبادهٔ الأصنام

لعبادهٔ الاصـنام تاریخ طویل واشـکال مختلفهٔ، فقد تکون بشـکل صـنم یُصنع بأیدی الناس من الحجر أو الخشب أو الفلز بل وحتی من الاغذیـهٔ، ثم یقع لهـا الإنسـان ساجـداً وعابـداً. فی برهـهٔ من الزمن کـان المشـرکون یقـدمون علی انتخـاب موجودات غیر ذات شـعور یعتبرونها أصـناماً للعبادهٔ، لـذلک عبـد البعض الشـمس، والآخر النجوم أو القمر، «۳» بـل انّ البعض أقـدم علی عبـادهٔ أنهار أو بحیرات مهمـهٔ مثـل نهر النیـل أو بحیرهٔ سـاوهٔ فی ایران، وقـد یکون جفاف بحیرهٔ ساوه وانطفاء معبـد فارس عنـد ولادهٔ الرسول «۴» بسبب أنها کانت معابد للإنسان آنذاک. امثال القران، ص: ۲۰۶ وفی بعض من بقاع العالم کان البعض یعبد الاشجار وبخاصهٔ شجرهٔ الصنوبر التی کانت منـذ القـدم معبوداً لمجموعهٔ من الناس. من هنا اعتقد بعض المفسـرین أنَّ (أصـحاب الأیکهٔ) هم أنفسـهم عبدهٔ شـجرهٔ الصـنوبر الـذین کانوا منشأ لخرافـهٔ (سیزده به در) أی الثالث عشـر من بدایهٔ السـنهٔ الشمسـیهٔ. وفی زمن کانت الحیوانات آلههٔ لبعض من الناس. ومِمّا یؤسف له أنّ هذا النوع من العبادهٔ لا زال موجوداً فی بعض المناطق من الهند. وقد ألّه البعض أشـخاصاً من البشـر، کما هو الحال بالنسبهٔ لفرعون حیث کـان البعض یعبـده کربٍّ لهم، ویقول القرآن المجیـد نقلًا عن فرعون نفسه: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ یا أَیُّهَا المَلأ مَا عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إلهٍ غَیْرِی» «۱» وقد ألّه البعض الملائکهٔ فی بعض الأحیان. یقول أحد المؤرخین: (کل شـیء فی العالم قد تألّه، وکان یُعبدُ فی

يوم ما ونحن لا نعرف شيئاً لم يتألّه ولم يُعبد فى يوم من الأيام). على كل حال، أنَّ ما يجمع عبادة الأصنام هو التوجه إلى ما سوى الله والغفلة عن الله رب العالمين، وقد جاء على لسان بعض العظماء: (كلّ ما شغلك عن الله فهو صنمك). من هنا عُدَّ المال والبنون والمرأة والثروة والمقام والصديق وكل شيء يغفلنا عن الله صنماً. القرآن قد شطب على كل شيء سوى الله، ولا يرى أهلية العبادة لغير ذاته الحقة، فإنَّ جميع المخلوقات فقيرة وتحتاجه وتفتقر فيضه فى كل آنٍ ولحظة، ليس فى بداية الخلق فحسب بل لادامة الحياة واستمراريتها كذلك. إنّ مثل حاجة الإنسان إلى الله كمثل حاجة المصباح إلى مولد الكهرباء، فكما أنَّ المصباح يحتاج إلى المولد فى كل لحظة ما دام متقداً، كذلك الإنسان فانه يفتقر فيض الله فى كل لحظاته ما دام حياً. وبعبارة أُخرى: أنَّ كل لحظة من لحظات العمر هى خلق وصنع جديد «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي امثال القران، ص: ۲۰۷ شَأْنٍ» «۱» وبخاصة إذا فسرنا ذلك حسب رؤية (الحركة الجوهرية) فإنَّ الأمر سَيكون أوضح. «۲»

الدعاء من وجهة نظر القرآن والروايات

إنّ الدعاء قضية مهمة جداً وقد انعكست بشكل واسع فى القرآن وروايات المعصومين عليهم السلام. وفى هذا المجال مباحث وأسئلة عديدة نشير إلى بعضها هنا: ۱- ما هى فلسفة الدعاء؟ إذا كنا مستحقين للاجابة فالله العالم بالظاهر والباطن سيستجيب لطلباتنا من دون حاجة إلى دعاء، وإذا لم نستحق الاجابة فإنَّ الله سوف لا يجيب لطلباتنا سواء دعوناه أم لم ندعه، ولا تأثير لدعائنا هنا! وبتعبير آخر: أنَّ طلبتنا إذا كانت بمصلحتنا فسيوفرها لنا الله من دون حاجة إلى دعاء، وإذا لم تكن بمصلحتنا فانه سوف لا يوفرها مهما أصررنا بالدعاء والتوسّل. إذن ما فلسفة الدعاء وما دوره؟ ۲- ما هى شروط إجابة الدعاء؟ وما علينا فعله لكى يستجيب لنا الله الدعاء ولكى نبلغ هدف الاجابة؟ ۳- ما هى موانع استجابة الدعاء؟ لماذا لم يُستجب لبعض الأدعية رغم الاصرار الوافر فى طلبها؟ ۴- ما هو أسوأ دعاء؟

الدعاء أفضل عبادة

المستفاد من الآيات والروايات هو أنَّ الدعاء ليس كونه عبادة فحسب، بل من أفضل امثال القران، ص: ۲۰۸ العبادات. ولأجل إيضاح أهمية الدعاء نشير إلى ثلاث آيات من القرآن وست روايات من المعصومين: ۱- يقول الله تعالى فى الآية ۶۰ من سورة غافر (المؤمن): «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّم دَاخِرِينَ». استخدمت الآية فى البداية مادة (الدعاء) ثم أبدلتها بمادة (العبادة) فى نهاية الآية. لماذا عبّر القرآن بالعبادة عن الدعاء؟ قال البعض: إنَّ العبادة بمعناها المطلق هى دعاء، ولأجل ذلك كان تعبير الروايات بأنَّ «الدعاء مخ العبادة». «۱» ۲- يقول الله تعالى فى الآية ۷۷ (آخر آية) من سورة الفرقان: «قُلْ مَا يَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُم فَقَد كَذَّبْتُم فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامَاً». إنَّ هذا التعبير «ما يعبؤُ بِكُم ...» والذى يعنى عدم اهتمام الله بكم لو لم تدعوا، لم يستعمل فى العبادات الاخرى مثل الحج والصوم والجهاد وغير ذلك، وقد استخدم فى الدعاء فقط، وهو تعبير يعنى باطلاقه أنّ الذى يجعل الله يهتم بكم ويعتنى رغم الذنوب والآثام هو الدعاء، فقدروا هذه العبادة وثمّنوها. ۳- يقول الله تعالى فى الآية ۱۸۶ من سورة البقرة بعد الحديث عن فضيلة واحكام شهر رمضان المبارك: «وإذا سَألك عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيْبٌ أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ». لا شكّ أنّ تعبير الآية التالية: «نحن أَقْرَبُ إلَيكُمْ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ» «۲» للإشارة إلى قرب الخالق إلى المخلوق، هو أجمل تعبير يمكن أن يرد فى هذا المجال. وعلى هذا، فإنَّ التفكير فى الآيات السابقة يرشدنا إلى أنَّ الدعاء من وجهة نظر الإسلام أمر مهم جداً بحيث اضافة إلى كونه عبادة يوجب اعتناء الرب بالإنسان، كونه وسيلة لتقرّب العبد إلى مولاه.

الدعاء فى الروايات

قلنا سابقاً: إنَّ الكثير من الروايات تناولت قضايا الدعاء، نكتفى هنا بذكر ستٍ منها. ۱- يقول رسول الله صلى الله عليه و آله: «الدعاءُ

سلاح المؤمن وعمود الدين ونور السماوات والأرض». «۱» نعم، رغم أنَّ الدعاء عبادة سهلة، لكنّه، حسب ما يستفاد من كلمات الرسول صلى الله عليه و آله- يحضى بشأن رفيع عند الله. إلّا أنَّ الإنسان غافل عنه بسبب سهولته وبساطته. ۲- يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الدعاءُ مفتاحُ الرحمة ومصباح الظُّلمة». «۲» نعم، هو مصباح ليس في الدنيا فحسب بل في الآخرة كذلك. ۳- يقول رسول الله صلى الله عليه و آله في رواية اخرى: «عمل البرّ كلّه نصف العبادة، والدعاء نصف». «۳» ۴- يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أكْثِرْ من الدعاء فإنّه مفتاح كلّ رحمةٍ ونجاح كلِّ حاجة، ولا ينال ما عند الله إلّا بالدعاء، وليس باب يكثر قرعه إلّا يوشك أن يفتح لصاحبه». «۴» وعلى هذا، فالإنسان لا ينبغي أن يخيب أمله بمجرد عدم الإجابة، لأنّ الله قد يريد تطهير قلب العبد وتأديبه وتربيته من خلال الدعاء. ۵- يصف الإمام الصادق عليه السلام الدعاء بالشكل التالي: «أفضل العبادة الدعاء». «۵» ۶- يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «عليكم بسلاح الأنبياء»، قيل: ما سلاح الأنبياء؟ قال: «الدعاء». «۶» يستشف مما سبق من الآيات والروايات أنَّ للدعاء شأناً عظيماً في الإسلام ويحضى بأهمية كبيرة.

سر الدعاء في الإسلام

لماذا يحضى الدعاء في الدين بدرجة وقيمة كبيرة، بحيث عُدَّ أفضل العبادات وسلاحاً للمؤمن وعموداً للدين ونور السماوات والأرض ومفتاح الرحمة ومصباح الهداية ونصف العبادة وسر النصر وسلاح الأنبياء وسبباً لرفعة شأن الإنسان عند الله؟ إذا دققنا في هذه التحفة والهدية الإلهية ودرسناها جيداً لوجدناها أهلًا لهذه الأُمور كلها. إنَّ الدعاء يترك آثاراً مهمةً في الإنسان، وأهم تلك الآثار هو التربية، فإنَّ الدعاء سبب لتربية الإنسان وتزكيته. إنَّ التعليم والتربية اللتين ابتنيت عليهما بعثة الأنبياء، يُعدان من أهم أهداف البعثة، «۱» ومما لا شك فيه أن التعليم مقدمة للتربية، لذلك كانت التربية الهدف النهائي للبعثة.

العلاقة بين الدعاء والتربية

للدعاء آثار تربوية كثيرة نشير إلى ثلاثة منها: إنّ الأثر الأوّل هو إيجاد نور الأمل في قلوب الناس، فالإنسان الخائب الأمل يكون في عداد الموتى. إنَّ المريض يتحسّن إذا كان قد ملأ قلبه بنور الأمل وسوف لا يتحسّن إذا فقد أمله في التحسن، كما أنَّ السبب الرئيسي لنجاح المقاتلين في ميادين الحرب هو الأمل والمعنويات العالية، أما العسكر الذي يفقد الأمل ولا يتحلى بمعنويات عالية فسوف يخسر المعركة ولو كان قد عُدَّت له العدة وجُهِّز بأكثر الاسلحة تطوراً. إنَّ الدعاء يعكس ضوء الأمل في قلب الإنسان. إنَّ أصحاب الدعاء والمتوكلين على الله- رغم مشاكلهم الكثيرة وأعداءهم الجسورين وفقرهم المالي- إذا توجهوا إلى الله وناجوه، حيث قلوبهم نضحت بنور الأمل، وتفاءلوا بالمستقبل، وكأنّهم مُنحوا حياة جديدة؛ وذلك لأنّهم مدوا أيدي العون إلى من كانت أصعب الشدائد عنده أسهلها، مدوا أيديهم إلى الله الذي لا موقع للصعب والسهل عنده، وذلك لأنَ امثال القران، ص: ۲۱۱ الصعب يعني الشيء الذي فوق القدرة والسهل يعني الشيء الذي أدنى من القدرة، وهل هناك شيء يفوق قدرة اللّه؟ وعلى هذا، فلا اختلاف عند الله بين الصعب والسهل، فاذا أراد شيئاً قال له (كن) فيكون في لحظة حتى لو كان ذلك الشيء هو صنع ملايين من الشموس المثيلة لشمس الأرض. إنَّ الإنسان إذا دعا وناجى من يملك مثل هذه القدرة وسجد له وخشع وبكى وطرح مشاكله عليه، فلا شك أنَّ نور الأمل سيستحوذ على قلب هذا الشخص. ۲- الاثر الثاني للدعاء هو ايجاد نور التقوى في الإنسان الذي هو السبب في تقرّب الإنسان إلى ربّه. «۱» التقوى هو زاد نجاة الإنسان يوم القيامة؛ «۲» وهو جواز دخول الجنة. «۳» الدعاء يحيي هذه الجوهرة الثمينة في قلب الإنسان، إنَّ الإنسان إذا ناجى الله وتوسل به ودعاه باسمائه الحسنى وصفات جماله وجلاله، فإنَّ ذكر هذه الصفات سيترك أثراً يسوق الإنسان نحو الله بشكل يشعر الإنسان بأنه إذا أراد الاستجابة تاب وأناب إلى الله. إنَّ الدعاء يدعو الإنسان إلى التوبة، والتوبة تدعو الإنسان لاعادة النظر في حياته، وفي نهاية هذه الحركة يتقد نور التقوى في حياة الإنسان. جاء في حديث: «من تقدّم في الدعاء استجيبت له إذا نزل به البلاء،

وقالت الملائکة: صوت معروف ولم یحجب عن السماء، ومن لم یتقدّم فی الدعاء لم یستجب له إذا نزل به البلاء وقالت الملائکة: إنّ ذا الصوت لا نعرفه». «۴» یقول الإمام علی علیه السلام فی خطبة همّام القیّمة عند بیانه لأوصاف المتقین: «نُزّلت أنفسهم منهم فی البلاء کالّتی نزلّت فی الرّخاء». «۵» امثال القران، ص: ۲۱۲ ولهذا، لا فائدة فی مناجاة فرعون وإقراره بالتوحید، فقد جاء فی الحدیث ما یلی: «... قال جبرائیل: ... لمّا غرق والله فرعون قال: آمنت أنّه لا إله إلّا الذی آمنت به بنو اسرائیل. فأخذت حمأة (جکومة من طین) فوضعتها فی فمه ...». «۱» ۳- إنّ الاثر التربوی الثالث للدعاء هو تقویة نور المعرفة. إنّ الإنسان عندما یتجه إلی الله سوف یبدأ بالتفکیر بأن الله قادر وعالم بما خفی عنا وبما ظهر ومحیط بجمیع الأسرار، وهذا سوف یرفع من مستوی معرفة الإنسان، وبخاصة إذا کانت الأدعیة المقروءة من الصحیفة السجادیة أو المناجاة الشعبانیة أو الصباح أو کمیل أو الندبة، فهی تضمّ أرقی الدروس العرفانیة، ومع وجود أدعیة، أمثال هذه، لا داعی بالنسبة لطلبة العرفان أن یلجؤوا إلی کتب مشکوک فی أمرها. وعلی هذا، فالدعاء یوقد نور التقوی والمعرفة فی قلب الإنسان. سؤال: نقرأ فی دعاء شهر رجب- الذی یستحب قراءته بعد کل صلاة من الشهر- العبارة التالیة: «یا من یعطی من سأله، یا من یعطی من لم یسأله ومن لم یعرفه». وعلی أساس هذه العبارة فان الله یعطی کل شخص سواء دعاه أم لم یدعه، وسواء کان عارفاً به أم لم یکن. وعلی هذا فما فائدة الدعاء وجدواه؟ الجواب: إنّ لفیض الله وبرکاته أقساماً وأنواعاً: قسم یمنحه الله لجمیع البشر، مثل الغیث، فالجمیع من الکافر والمؤمن والعارف وغیره یفیدون منه. وقسم من البرکات تمنح للعارفین من المؤمنین ولا تشمل غیرهم. وقسم من البرکات والفیض یُمنح للداعین فقط دون غیرهم. جاء فی حدیث: «لا تقل إنَّ الأمر قد فرغ منه، إنَّ عند الله منزلة لا تُنال إلّا بمسألة». «۲» وعلی هذا، فإنَّ القسم الأول هو الوحید الذی یشمل الجمیع أما القسم الثانی والثالث فالإیمان والدعاء یؤثران فیهما.

موانع وشروط استجابة الدعاء

اشارة

لماذا لم یُستجب لبعض أدعیتنا؟ لماذا لم تتحقق وعود الله فی مجال استجابة الدعاء؟ هل الاشکال من قبل الله- نعوذ بالله- أم الاشکال من قبل الداعین أنفسهم؟ إنَّ هذه الشبهات کان یطرحها الصحابة والمسلمون فی زمن الأئمة المعصومین (علیهم السلام)، وکان أهل الذکر (الائمة) یجیبون علیها فی روایات وردت عنهم. مجموع الروایات السابقة وروایات اخری جاءت فی هذا المجال (ولم تتضمن أسئلة) تکشف عن أنّ هناک شروطاً لاستجابة الدعاء، علی الداعین توفیرها وتحصیلها، کما علیهم إزالة الموانع والعقبات عن الاستجابة. وعلی هذا، فإنَّ الإنسان إذا دعی من دون تحصیل الشروط ورفع العقبات والموانع، ولم یستجب دعاؤه، فما علیه أن یلوم إلّا نفسه. إنَّ مَثَلَ الداعی من دون تحصیل الشروط ورفع الموانع مَثَلُ المریض الذی یذهب للطبیب للتداوی فیکتب الطبیب له نسخة تتضمن إرشاد المریض بحقن ابرٍ فی کل یومین مرة، وبعد استلام المریض الدواء واستهلاکه وعدم الشفاء یرجع المریض للطبیب قائلًا له بعصبیة: (أی طبیب أنت وأی دواء کتبت لی؟! لم أشف منه أبداً) فیسأله الطبیب: (هل حقنت الابر فی کل یومین مرة؟) فیجیبه: (لا بل فی کل ثلاثة أیام). ویسأله مرة اخری هل: (استخدمت المضادات الحیویة فی کل ثمان ساعات؟) فیجیبه المریض: (کنت أبتلع فی الیوم کبسولة واحدة) ویسأله مرة اخری: (امرتک بالاستراحة لمدة اربعة أیام هل استرحت فیها أم لا؟) فیجیبه: (وهل هذا أمر ممکن رغم ما نعانیه من غلاء فی السلع والأغذیة؟ فانی رجعت للعمل فی نفس الیوم). فیهز الطبیب رأسه ویقول له: (لا إشکال فی الأدویة التی کتبتها لک، والاشکال هو فیک من حیث إنَّک لم تعمل بما أمرتک به، الامر الذی أدی بک أن لا تسترجع صحتک وعافیتک فلا تلم إلا نفسک). کذا الحال لو أعطی متخصص زراعی بذوراً لفلاحٍ وأمره بنثرها وزرعها والعنایة بها بشکل خاص وسقیها فی أوقات محددة، والفلاح لم یعمل بوصایا المتخصص، وکانت النتیجة هی عدم إثمار البذور، فإنَّ المقصّر هنا هو الفلاح نفسه لا

شخص آخر. اعزتی: أیها الصیام المحترمون! إخوانی وأخواتی الأعزة! إن أدعیتنا مثل البـذور فلا یکفی امثال القران، ص: ۲۱۴ نثرها علی الأرض، بل هی بحاجة إلی سقی وعنایة خاصة واستخدام الأسمدة والسموم لمکافحة الآفات. إنّ ما تقرّه الروایات هو ضرورة توافر الظروف والشروط وارتفاع الموانع لأجل الاستجابة. لکن المؤسف هنا هو توقعنا الأجابة من دون توفیر هـذین الأمرین، وذلک غیر معقول. نشیر هنا إلی بعض من شروط وموانع استجابة الدعاء:

۱– عدم معرفة الله أهم مانع عن الإستجابة

بعبارة اخری: أَنَّ معرفة الله من الشروط الاساسیة بل أهم شرط لاستجابة الدعاء. وهل یمکن الطلب مِمَّن لا یُعرف وممَّن نجهله؟! فی روایة عن الإمام الصادق علیه السلام سأله البعض عن سبب عدم استجابة الدعاء فأجابهم: «لأنّکم تدعون من لا تعرفونه». «۱» وعلیه، فکما قلنا سابقاً: إنّ الدعاء یلقی بنور المعرفة فی قلب الإنسان، والمعرفة هی الأساس للدعاء، أی أنّ لهذین آثاراً متبادلة. یقول الله فی القرآن: «إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَی عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْکَرِ» «۲» أی أنَّ المجتمع المصلی لا یتلوّث بالذنوب وکذا الأفراد؛ لأنَّ الصلاة هی الضمان والأمان من الذنوب. مع ملاحظة الآیة الشریفة السابقة، لماذا نری بعض المصلین یرتکبون الذنوب؟ هل الاشکال– نعوذ بالله– من الآیة نفسها أم من المصلی ذاته؟ المصلی إذا ما کان عارفاً بالذی یصلی إلیه ویسجد له، فإنَّ صلاته سوف لا تکون تأمیناً له من الذنوب ومانعاً له عن المعصیة. إنَّ معرفة الله جوهرة ثمینة وهی شرط لکثیر من العبادات، بل هی شرط حتی للزیارات؛ وذلک لأنَّ ثواب وآثار الزیارات تخص ذلک البعض الذی تقترن زیارته بمعرفة اللّه. «۳» امثال القران، ص: ۲۱۵ وعلی هذا، فإنَّ الشرط الأوّل لاجابة الدعاء هو معرفة صفات جلال الله وجماله وأفعاله واسمائه الحسنی، وعلی کل شخص أن یحوی هذه المعرفة قدر طاقته وامکانه.

۲– النیّة الصادقة والقلب المخلص

إنَّ الشرط الثانی لاجابة الدعاء هو النیة الصادقة والطاهرة والقلب المخلص والعاری عن الریاء. وفی هذا المجال یقول الإمام الصادق علیه السلام «إنّ العبد إذا دعا الله تبارک وتعالی بنیّةٍ وقلبٍ مخلصٍ استجیب له بعد وفائه بعهد الله عزّوجلّ». «۱» إنَّ العمل بعهد الله والوفاء به– والذی هو صفاء القلب والاخلاص فی النیة– هو شرط قبول الدعاء. ینبغی الالتفات إلی کیفیة تربیة الدعاء للإنسان، إنَّا نطرق باب الله لقضاء الحاجة وحلّ المشاکل، إلّا أنَّه علینا أن نعلم بعدم امکانیة الاستجابة إلّا بالاخلاص وصفاء القلب، لذلک کان علینا السعی فی التزکیة وتهذیب النفس.

۳– الاکل الحلال شرط مهم وصعب لاجابة الدعاء

یقول الرسول صلی الله علیه و آله فی روایة جمیلة جداً ومنذرة کذلک: «أطب کسبک تستجاب دعوتک، فإنّ الرجل یرفع إلی فیه حراماً فما تستجاب له دعوة أربعین یوماً». «۲» بعض الناس تلوثت أموالهم ومکاسبهم بالحرام وذلک بالتطفیف والربا وظلم الآخرین وعدم أداء الواجبات المالیة، رغم ذلک یتوقعون من الله الإجابة. المستفاد من الکلام الثمین لرسول الله صلی الله علیه و آله هو أنَّ الدعاء عامل مهم فی تربیة الإنسان ویحضُّ الإنسان علی رعایة الحلال والحرام. امثال القران، ص: ۲۱۶ من الإنصاف أن نقول: إنَّ رعایة الحلال والحرام له دور مهم فی حیاة الإنسان، وأنَّ الناس إذا اهتموا بهذا الجانب من حیاتهم لما تکدست الاضبارات والشکاوی فی المحاکم. إذا راعی الناس الحلال والحرام ما کان مجتمعنا یضمُّ هذا المقدار من الفقراء. أسفاً أنّ البعض غافل عن هذا ویبرّر عمله بشکل أو آخر ویقول: أین الحلال والحرام؟ لا وجود للحلال لکی نراه. یقول أحد هؤلاء الذین یتمسکون بتبریرات هی هراء فی الواقع: (إنَّ الحلال الوحید فی الدنیا هو ماء المطر ویمکنک الاستفادة منه فی وسط النهر فقط لأنه مکان نطمئن بعدم غصبه، فعند هطول الامطار قف هناک وافتح فمک لتناول القطرات، وهذا هو المقدار الوحید المسلّم بحلیته). إن أُناساً مثل هذا یخادعون أنفسهم

«يُخَادِعُونَ اللهَ وَالّذينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلّا أنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ». «۱» وبعبارة اخرى: أنَّهم يغالطون أنفسهم؛ وذلک لأنَّ حديثنا فى الحلال والحرام الظاهريين، وهم يتحدثون عن الحلال والحرام الواقعيين، مع أنَّا مأمورون بالعمل حسب الظاهر لا الواقع. ألم يهيء أئمتنا مأكولاتهم ومشروباتهم من سوق المسلمين هذا، وهم فى الوقت ذاته يلتزمون بالظواهر ولا يحتاطون إلّا فى الاماكن المناسبة. مثلًا كانوا يفيدون من الخبز واللحم اللذين لم تدفع زكاتهما؟ ومن المناسب لنا كذلك أن نعدّ مقدار استهلاكنا السنوى للخبز واللحم وندفع زكاته؛ لأنّ الكثير من المزارعين والرعاة لا يدفعون زكوات أموالهم ونحن نفيد من محصولاتهم ومنتجاتهم، وهذا مؤسف حقاً؛ لأنه ابتلاء لنا. رغم أننا معذورون بسبب عدم العلم إلّا أنَّ عدم الدفع سوف يترک أثره الوضعى. ولذلک کان عده ودفع زکاته أمراً مستحسناً ويسبب الطهارة القلبية والنزاهة الروحية. النتيجة هى أنَّ الأكل الحلال لا يؤثر فى الدعاء فحسب، بل فى جميع عبادات الإنسان من امثال القران، ص: ۲۱۷ الصلاة والصوم والحج والزيارات الواجبة والمستحبة وأمثال ذلک. ومن ناحية أُخرى، انّ الأكل الحرام لا ـ يمنع عن استجابة الدعاء، بل يؤثر سلباً على نشاط الإنسان ومعنوياته وعباداته وزياراته ويجره إلى الكسل عن قراءة القرآن واقامة الصلاة، وهو فى النهاية يحول دون الالتذاذ بهذه الأعمال.

۴ – حضور القلب

الشرط الرابع لاستجابة الدُّعاء هو حضور القلب، ومن الواضح أنَّه شرط ذات أهمية وقيمة؛ لما جاء فى رواية: سُئل النبى صلى الله عليه و آله عن اسم الله الأعظم؟ فقال: «كل اسم من اسماء الله أعظم ففرِّغ قلبک من كلِّ ما سواه وادعه بأى اسم شئت». «۱» من هنا يتضح أنَّ الأسم الأعظم ليس لفظاً خاصاً- كما يتصوره البعض- لكى يُنطق به وتحل به جميع المشاكل، بل إنّه حالة وصفة خاصة ينبغى ايجادها فى باطن الإنسان، وهى عبارة عن تطهير القلب. «۲» القلب إذا كان مركزاً للأصنام (صنم المال وصنم المقام وصنم الشهرة وصنم الزوجة والاولاد وما شابه ذلک) فالدعاء إذا صدر فيصدر من معبد الأصنام هذا. ومن الواضح أنَّ دعاءً كهذا لا يستجاب. الخطوة الأولى للاستجابة هو الاقتداء بما فعله ابراهيم عليه السلام وعلى عليه السلام فى كسرهما الأصنام، فبذلک تطهر القلوب، فهى آنذاک تصفى للواحد الأحد، ثم ادعه بأى اسم شئت، وسوف لا تكون النتيجة إلّا الاستجابة. مع الالتفات إلى الشروط الاربعة الماضية نقول: هل نحن وفرّنا هذه الشروط؟ هل كان طعامنا من حلال؟ هل كان قلبنا خالياً من الأغيار؟ هل كان الصفاء والاخلاص فى النية هو الذى يحكمنا؟ هل كنا نعرف الله؟ امثال القران، ص: ۲۱۸ إذا كنا نفقد هذه الشروط علينا السعى فى كسبها وبخاصة فى شهر رمضان المبارک، شهر الرحمة واللطف الالهى، وهو شهر تستعدُّ فيه روح الإنسان لهذه الامور أكثر، كما هو فرصة مناسبة للدعاء ...

استجابة بعض الأدعية ليست بمصلحة الإنسان!

رغم أنّا كُلّفنا بالدعاء ونأمل الاجابة، لكن ينبغى الالتفات إلى أنَّ إجابة بعض الأدعية ليس بمصلحة الإنسان رغم أنَّه يراها بمصلحته وأنها توفر سعادته، لكن الله يرى فيها الهلاک والشقاء لذلک لا يستجيب لها. قلنا فى قصة ثعلبة الانصارى التى مضت فى البحوث السابقة: إنَّ ما أراده وطلبه من الله لم يكن بمصلحته، إلّا أنَّه كان يصرّ على دعائه وطلبه، وكانت نتيجة الاستجابة هى فقده الايمان وضلالته واعتراضه على بعض القوانين الإلهية. وهذه القصة تتضمن دروساً وعبراً عظيمة للجميع. قد يُقدم شاب على خطبة بنت ترفض الزواج منه، فيدعو الله ويتوسل إليه كثيراً لكى يميل رأيها ويغيره نحوه، رغم ذلک لا يستجاب دعاؤه، فتضلّ فى ذاكرته فترة طويلة من الزمن، إلّا أنّه يلتفت إلى مصلحة عدم استجابة الدعاء بعد ما يفهم أنَّ المرأة تلد اطفالًا معتوهين مثلًا. وعلى هذا، ما علينا أنْ نقلق من عدم استجابة أدعيتنا؛ وذلک لأنَّه يمكن أن تكون عدم الاستجابة بسبب عدم المصلحة. إضافة إلى هذا، فإنَّ هناک روايات وردت عن المعصومين عليهم السلام حكت عن أنَّ الله يعطى العبد فى الآخرة ما يعادل أدعيته غير المستجابة. «۱»

سؤالان مهمان عن الدعاء

السؤال الأوّل: نجد فيما ورد عن أئمتنا أدعية لا تستجاب أبداً، كما هو الحال فى أدعية شهر امثال القران، ص: ۲۱۹ رمضان الذى تضمّن بعضها عبارة: «اللهم اقضِ دين كلّ مدين» مع أنّا نعلم أنّ هذا الدعاء لا يستجاب؛ لأنّه ما دامت الدنيا موجودة فهناك ديون للناس، والحياة من دون هذه الديون حياة خيالية لا أكثر، فما الهدف من هذه الأدعية؟ الجواب: إنّ الديون على قسمين، قسم نشهد ممارسته من قبل التجار والكسبة بأن يستلفوا السلع دون دفع ثمنها، ويسددون الثمن بعد بيعها، أو استلاف الموظفين والعمال السلف من أصحاب العمل، وتسديدها تدريجياً من إيراداتهم الشهرية. والقسم الآخر هو الدين الذى لا تتوفر للإنسان أرضية دفعه، رغم ذلك هو مجبور على استلافه ويعلم بعجزه عن الدفع. ويبدو أنّ مراد الامام من الدين هو القسم الثانى لا الأول. القسم الثانى من الديون لا أنه يستحسن الدعاء فيه ويمكن تحقق الاجابة له، بل إنّه بناءً على ما أمر به الإسلام ينبغى تزامن الدعاء مع اجراءات عملية؛ وذلك لأنّ فى المجتمع الإسلامى المتكامل- وهو مجتمع صاحب العصر والزمان (عج)- لا ينبغى وجود حتى جائع واحد أو عار واحد أو فقير واحد، لذلك نقرأ فى الدعاء: «اللهم أشبع كلَّ جائع، اللهمَّ اكسُ كلَّ عُريان، اللهم أغن كلّ فقير». إنَّ شاهد هذا الحديث هو رواية وردت عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ الله عزّوجلّ فرض للفقراء فى مال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أنّ ذلك لا يسعهم لزادهم». «۱» ومضمون الرواية السابقة وغيرها هو أنَّ الناس لو دفعوا ما عليهم من واجبات مالية لما بقى جائع ولا فقير ولا عارى فى المجتمع، وإذا وجدت هذه الشرائح فبسبب عصيان الاغنياء ومنعهم الفقراء عن حقهم. إنَّ مجتمع صاحب الزمان يخلو من الفقر والجوع والدين ... والدعاء لرفع هذه المشاكل لا تبعد إجابته. السؤال الثانى: من الاعمال ذات الفضيلة الوافرة فى ليلة القدر هى وضع القرآن على امثال القران، ص: ۲۲۰ الرأس، رغم أنَّ القرآن كوصفة الطبيب «وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤمِنِيْنَ»، ولكنها وصفة لا تنفع إلّا بعد العمل بها، فما جدوى وضع القرآن على الرأس عند الدعاء فى تلك الليلة؟ الجواب: القرآن ذات جانبين ووصفة الطبيب ذات جانب واحد. فإنَّ القرآن هو كلام الله من جهة، وهو ذات الفاظ بذاتها مقدسة من جهة أُخرى. ولذلك يعتقد المسلمون بلزوم الوضوء إذا أرادوا لمسه. ومن جهة أخرى، مضمونه مقدس، لذلك عدّ القرآن (الثقل الأكبر) وأهل البيت عليهم السلام (الثقل الأصغر)، ولهذا لا يصح قياس وصفة الطبيب على القرآن. بالطبع، انَّ هذا العمل (وضع القرآن على الرأس) يحمل فى طياته رسالات خاصة، فهو يعلمنا لزوم عدم وضع القرآن تحت الأيدى والارجل (من حيث الظاهر)، ومن حيث المحتوى والمضون فهو يعلمنا اعتبار القرآن على رأس قائمة الاعمال والنشاطات، وعلى العمل بقوانينه بشكل متواصل، وعدم نسيان أحكامه. امثال القران، ص: ۲۲۱

المثل الحادى والعشرون: الحق والباطل

اشارة

من أجمل امثال القرآن هو مثل الحق والباطل، يقول الله تعالى فى بيان هذا المثل ذات المغزى العميق فى الآية ۱۷ من سورة الرعد: «أنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أوْدِيةٌ بِقَدَرِهَا فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدَاً رَابياً وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلك يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والبَاطِلَ فأمَّا الزَّبَدُ فيَذهَبُ جُفَاءً وأمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فيَمْكُثُ فِى الأرْضِ كَذَلك يَضْرِبُ اللهُ الأمْثَالَ».

تصوير البحث

إنَّ الحديث فى هذا المثل عن الحقّ والباطل وسعتهما ومجاليهما وعلائمهما وآثارهما وتعريفهما، وفى النهاية المواجهة الطويلة والمتواصلة بينهما التى كانت على طول التاريخ.

الشرح والتفسیر

«أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فسالَتْ أَوْدِیةٌ بِقَدَرِها» إنَّ نتیجة هطول الامطار علی الجبال ونزوله منها هو تجمع المیاه فی الاودیة حسب حجمها، وجریانه وصیرورته أنهاراً صغاراً، وإذا التقت صنعت نهراً کبیراً، واذا تجاوز الماء سعة النهر تبدّل إلی سیول عظیمة ومخرّبة. «فاحْتَمَلَ السَّیْلُ زَبَداً رَابِیاً» هذه الانهار کثیراً ما یحصل فیها أمواج تضرب الاحجار والموانع التی تقع فی طریقها، وهذه العملیة توجد زبداً فی الماء یشبه الزبد الذی یوجده امثال القران، ص: ۲۲۲ مسحوق الغسیل، یتجمّع علی سطح النهر یبدو ساکناً، أمّا النهر فیستمر فی حرکته تحت الزبد. «ومِمّا یُوقِدُونَ عَلَیْهِ فِی النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلیَةٍ أو مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ» هذا الزبد الاجوف والمتکبر لا یختص بالماء بل قد یحصل للفلزات عند الصهر والذوبان مثل الحدید والنحاس وغیرهما. ما یلفت النظر هنا هو أنَّ عبارة «مِمَّا یُوْقِدُونَ عَلَیْهِ» أشارت بظاهرها إلی أنَّ النار تُسلّط من الفوق علی هذه المعادن رغم أنَّ النار فی السابق کانت توقد علی الفلزات من تحت أمّا حالیاً فمعامل الصهر المتطوّرة تسلّط النار من فوق ومن تحت أی لم تستغن عن تسلیط النار علی الفلز من الاعلی، وهو أمر أشار له القرآن منذ ذلک الحین. «کَذَلِکَ یَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ والبَاطِلَ» أی أنَّ الله لأجل إیضاح المواجهة بین الحق والباطل والتی یمتد عمرها إلی طول التاریخ یضرب هذا المثل، فیشبّه الحق بالماء والباطل بالزبد الأجوف. «فأمّا الزَّبدُ فیَذْهَبُ جُفَاءً» فإنَّ الزبد، رغم تفوقه علی الماء ورغم علوه علیه، یذهب جفاء وکأنَّه لا شیء. إنّ الأمواج التی توجدها السیول هی السبب فی ایجاد هذا الزبد، وبمجرد أن تصل المیاه المتلاطمة إلی سهول تصبح آسنة وسرعان ما یذهب الزبد وتترسب الاوساخ العالقة فی الماء ولا یبقی إلّا الماء الخالص؛ ذلک لأنّ عمر الباطل قصیر، والهلاک هو نهایته. «وأمَّا مَا یَنْفَعُ النَّاسَ فَیَمْکُثُ فِی الأرْضِ» فالذی یبقی هو ما ینفع الناس من الماء الصافی والفلزات الخالصة. فالماء، إمّا أن یرکد فی مکان یستخدم للشرب والسقی وإمّا أن ینفذ فی الأرض لیلتحق بالمیاه الجوفیة ذخراً للمستقبل، یستخدم بعد ما یخرج کعیون تلقائیاً أو من خلال حفر الآبار. «کَذَلِکَ یَضْرِبُ اللهُ الأمْثَالَ» أی یبیّن الله هذه الأمور للناس فی صورة أمثال لکی تدرک بشکل أفضل.

خطابات الآیة

اشارة

لقد تناولت الآیة قضایا دقیقة جداً ممّا یتعلّق بالحق والباطل باقتضاب، نقوم هنا بتفصیل هذه القضایا وبیانها.

۱- تعریف الحق والباطل

علی أساس هذه الآیة، فإنَّ الحق یعنی الحقائق والواقعیات، وأما الباطل فیعنی الاوهام والخیالات التی لا أساس لها. إنَّ الماء واقع وحقیقةً، یتطابق ظاهره مع باطنه، وله آثار واقعیة. أمّا الزبد فله ظاهر خادع من دون أن یکون له باطن، کما هو الحال فی الخیالات والاوهام. لقد جاء فی الآیتین ۱۱۷ و ۱۱۸ من سورة الاعراف فی بیان قصة موسی علیه السلام مع السحرة کما یلی: «وأوْحَیْنَا إلی مُوْسَی أنْ ألقِ عَصَاکَ فإذا هِیَ تَلْقَفُ ما تَأفِکُونَ فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَلَ مَا کَانُوا یَعْمَلُونَ». إنّ الحق هو معجزة النبیّ موسی علیه السلام، والباطل هو سحر السحرة، فالمعجزة حقیقة وواقع؛ لأنَّ عصا موسی علیه السلام تبدلت واقعاً إلی أفعی ولم تکن الحادثة تلک شعوذة- نعوذ بالله- أمّا أفاعی السحرة فکانت شعوذة خالصة ولم تکن واقعاً، بل إفکاً، کما یعبر عنها القرآن. إنَّ السحرة کانوا قد أعدوا عصیاً وحبالًا ملؤوها بالزئبق، ووضعوها جمیعاً فی مکان ما، وکان الناس وفرعون والسحرة وکذا موسی علیه السلام جالسین یشاهدون ما یحصل. عندما سطعت الشمس علی هذه الحبال والعصی ارتفعت درجة حرارة الزئبق، الأمر الذی جعل الحبال والعصی تتحرک وتلتوی علی بعضها البعض بحیث تبدوا کانها أفاعی، ولکنَّها فی الواقع خیال لا أکثر.

۲– علائم الحق والباطل

مما يستفاد من الآيهٔ هو أنَّ علامهٔ الحق كونه مفيداً للناس، وعلامهٔ الباطل كونه مضراً لهم، فالماء مفيد وله تأثير، والزبد مضر ولا فائدهٔ تتوخى منه؛ وذلک لأن الزبد لا يروى ضمأ العطشان ولا يسقى الزرع ولا يُنميه ولا يولّد شيئاً من الطاقهٔ، ولا يُشغّل طاحونهٔ أو دولاباً. ومن العلائم الاخرى للحق والباطل هو كون الحق خاضعاً ومتواضعاً، أما الباطل فمتكبر. فالحق هو الماء المتواضع تحت الزبد، وأما الباطل فهو الزبد العالى والمتكبّر. العلامهٔ الثالثهٔ للحق والباطل هو أنَّ الباطل ضوضائى، أما الحق فهادىء وساكن. فالماء امثال القران، ص: ۲۲۴ هادئ وساكن، أمّا الزبد فصارخ وصاخب، ولا يمكنه العيش دون هذا الضوضاء والصراخ والصخب.

۳– سعهٔ الحق والباطل

إنَّ سعهٔ الحق والباطل بسعهٔ مفاهيم الحياهٔ. فالحق والباطل لا ينحصران فى جانب من الحياهٔ، بل يعمان جميع شؤونها ويشملانها، من السياسهٔ والثقافهٔ والصحافهٔ وغير ذلک. وبعبارهٔ اخرى: يشمل جميع الجوانب الماديهٔ والمعنويهٔ للحياهٔ. وهذا المعنى يستفاد من القرآن المجيد ومن آيهٔ المثل ذاتها، فكما أنَّ الزبد لا يختص بالماء كذلک الباطل لا يختص فى شىءٍ ما.

۴– عاقبهٔ المواجههٔ بين الحق والباطل

فى هذه المواجههٔ يبقى الحق ويزهق الباطل ويمحق، إلّا أنَّ انتصار الحق على شكلين مؤقت وزمنى وآخر نهائى. إن أنصار الحقّ إذا استقاموا ولم ينحرفوا فسينتصرون فى أزمنهٔ مختلفهٔ ما داموا مستقيمين غير منحرفين، أمّا النصر النهائى فلا يحصل إلّا بظهور صاحب العصر والزمان بقيهٔ الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه)، وحينئذٍ سيتغير وجه الدنيا وستحكم الدنيا حكومهٔ عالميهٔ حقهٔ. من الآيات التى فسرت فى الحجهٔ بن الحسن العسكرى عليه السلام هى هذه الآيهٔ، حيث فسِّر الماء فى المثل بوجود الحجهٔ المبارک، والزبد بالظلم والجور والانتهاز والاستعمار فانها ستزول يوماً ما.

۵– المواجههٔ بين الحق والباطل دائمهٔ

كما أشرنا سابقاً، فإنَّ المواجههٔ بين الحق والباطل بدأت منذ بدايهٔ الخلق، والعصور جميعها ضمت هذين الظاهرتين، وستضم العصور المقبلهٔ هذين الظاهرتين وستستمر هذه المواجههٔ امثال القران، ص: ۲۲۵ حتى النهايهٔ. لقد كان لكل نبى شيطان، «۱» فقبال آدم عليه السلام كان ابليس، وقبال الأنبياء الآخرين شياطين اخرون، كما تكشف الآيهٔ التاليهٔ عن هذا الأمر: «وَكَذَلک جَعَلْنَا لُكِلِّ نبىٍّ عَدُّواً شَيَاطِينَ الأنْسِ والجِنِ». «۲» المستفاد من الآيهٔ الشريفهٔ هو أنَّ الشيطان ليس شيئاً خفياً دائماً، بل قد يكون من الناس أنفسهم، وقد يكون هذا هو سبب تقديم الآيهٔ شياطين الانس على الجنّ. وعلى هذا، فإنَّ المواجههٔ بين الحق والباطل لا زالت مستمرهٔ حتى استقرار حكومهٔ الحق وبسط سيطرتها على بقاع الأرض جميعاً، وتتحقق الآيهٔ الشريفهٔ التاليهٔ: «وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوْقاً» «۳» فى ظل ظهور المهدى (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، والمواجههٔ قبل ذلک متواصلهٔ.

۶– كيفيهٔ تبلور الباطل

كيف نشأ الباطل وتبلور؟ هل الله تعالى هو الذى خلق بعض الموجودات الباطلهٔ رغم أنَّه حق بل ابرز وأرفع حق؟ إنَّ الباطل موجود عدمى وهو وهم وخيال قد تلبّس ثوب الحق، مثل الزبد الأجوف، ذات الظاهر الخلاب والخادع. الجميل هنا هو أنَّ الباطل اذا عمل على إبطال نفسه فذلک ببركهٔ الحق. إنَّ المزيفين– الذين يعتمدون الزيف كمهنهٔ لهم– إذا لم يتقمّصوا قمصان ذوى الشأن والاعتبار

سوف لا یتوفقون فی عملهم الباطل هـذا، کـذلک الکذّابین فإنَّهم إذا لم یتمسـکوا بالحق ولـم یتظاهروا بالصدق لما امثال القران، ص: ۲۲۶ صـدّقهم أحـد. والمنافق إذا لم یرتـدِ ثوب الإنسان الصالح، والعدو إذا لم یتقمص قمیص الصدیق، والزبد إذا لم یطفو علی الماء، وبالجملـة مالم یجتمع الباطل بمختلف مصادیقه إلی جنب الحق فلا تکون هناک مواجهـة. وعلیه فالباطل عـدمی ووجوده یتوقف علی الحق. أمّا الحق، فأمر وجودی وهو مصدر البرکات والمنافع وذا آثار کثیرة للإنسان.

الحق والباطل من وجهة نظر الآیات والروایات

بما أنَّ أهم بحث فی حیاة الإنسان هو قضـیة (الحق والباطل)، وهی تحضـی بموقع خاص عند جمیع البشر بمختلف توجهاتهم الفکریة، لـذلک کان من المناسب دراسـة هـذه القضـیة من وجهـة نظر الآیات والروایات: لقـد تحـدث القرآن عن الحق والباطل بمقـدار کثیر، وتکررت مفردة الحـق ۲۴۴ مرة، مـع أنَّ مفردة الباطـل تکررت ۲۶ مرة فقـط. وهـذه النسبة تکشـف عن أنَّ القرآن المجیـد ذاته من مصادیق الحق.

ما هی مصادیق الحق؟

لقـد ذکر فی القرآن مصـادیق مختلفـة للحق نشـیر إلی بعض منهـا هنا: ۱- أبرز وأرفـع مصـداق للحـق هو ذات الله القدسـیة، وهی فی الحقیقة جامعة لجمیع مصادیق الحق، وهی عین الواقع والوجود المطلق. من هنا صرّح الله فی الآیة الکریمة ۶۲ من سورة الأنعام ما یلی: «ثُمّ رُدُّوا إلی اللهِ مَوْلَیهُم الحَقِّ ألا لَهُ الحُکْمُ وَهُوَ أسْرَعُ الحَاسِبِیْنَ» فعلی أساس هذه الآیة، إنَّ الله الذی لا مثیل له هو الحقّ. ۲- النموذج الآخر وهو من أبرز مصادیق الحقّ عبارة عن خلق السـموات والأرض أو الکون أجمع. تقول الآیة الشریفة ۲۲ من سورة الجاثیة: «وَخَلَقَ اللهُ السَّمَـاوَاتِ والأرْضَ بالحَقِّ». ۳- المصـداق الثـالث للحق هو القرآن نفسه؛ وذلـک لأن الآیـة ۴۸ من سورة المائـدة عنـد بیانها لهذا المطلب تقول: «وأنْزَلْنا إلیْکَ الکِتَابَ بِالحَقِّ». امثال القران، ص: ۲۲۷ ۴- الـدین المبین والمنقذ للبشـریة، أی الإسـلام، وهو مصداق واضح آخر من مصادیق الحق. لذلک یقول الله تعالی فی الآیة ۲۸ من سورة الفتح: «هُوَ الّذِی أرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَی وَدِیْنَ الحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الـدِّیْنِ کُلِّهِ». «۱» وخلاصـةً، کـل وجود هو منبع لخیر البشـر وسـعادتهم یُعـدّ حقـاً، لـذلک کـان الله الحق المطلق؛ لأنَّه منبع جمیع البرکـات والسـعادات، کما أن السـماوات والأرض والقرآن المجیـد ودین الإسـلام والتوحیـد، باعتبارها جمیعاً منشأ للهدایـة والبرکـة، عدّت حقاً. وکل شیء هو منبع ومصدر للشقاء فهو باطل، مثل الشیطان والأصنام وعبادتهما والریاء والتظاهر والنفاق وامثال ذلک.

جولة الباطل ودولة الحق

المسـتفاد من الروایات هو أنَّ الباطل قد یکون له جولة وصراخ وصخب إلّا أنَّ عمره مهما کان فهو قصیر ومؤقّت: «للباطل جولةٌ وللحقّ دولة» «۲» والدولة هی الثبات والبقاء والخلود، والجولة هی النفاق والخداع المؤقت.

کن مع الحق دائما

حسب مـا ورد فی الروایات الإسـلامیة، علی المسـلم فی کل حال أن یکون مع الحقّ والحقیقـة. إذا أردت التسـلّح بسـلاح النصـر أمام الأعداء، فعلیک التمسک بسـیف الحقّ الصارم، کما قال الإمام علی علیه السـلام: «الحق سیف قاطع». «۳» إذا أردت أن تکون من أهل النجاة فی مقام العمل، وأن تکون صاحب حجة وبرهان فی مقام الکلام، فعلیک بالتوجّه نحو الحقّ، کما یقول الإمام علی علیه السلام: «الحقّ منجـاة لکل عاملٍ امثال القران، ص: ۲۲۸ وحجّة لکلِّ قایلٍ». «۱» إذا أردت من الاخرین قبول کلامک، واذا ابتغیت النصـر، فقل الحقّ والتزمه. وإذا أردت مرکبـا هادئـاً یوصـلک إلی غایتـک فکن مع الحقّ. یقول الإمام علی علیه السـلام: «ألا وإنّ الحق مطایا ذلل،

رکبها أهلها، وأعطوا أزّمتها، فسارت بهم الهوینا حتی أتت ظلًّا ظلیلًا». «۲»

الحق مرٌّ والباطل حلو

تقترن مع الحق والدفاع عنه مشاکل؛ وذلک لأنّه مرٌّ والباطل حلو. إنَّ مرارة الحقّ کمرارة الدواء الذی فیه شفاء، وحلاوة الباطل کحلاوة السم القاتل، لذلک قال الرسول صلی الله علیه و آله: «الحق ثقیل مرٌّ، والباطل خفیف حلوٌ، ورُبَّ شهوة ساعةٍ تورث حزناً طویلًا». «۳» نعم، انَّ الحقّ ثقیل ومرّ؛ لأنَّه لا یکون فی صالح الإنسان دائماً بل قد یضره، وقد یکون عکس ما تروق له النفس والشهوات الإنسانیة، وقد یتزامن مع لوم الاخرین وعتابهم ومع مشاکل جمّة یثقل علی الإنسان تحّملها، أما الباطل فخفیف وحلو، لکنه کالسم القاتل، لذلک قد یؤدی إلی ندمٍ یرافق الإنسان حتی موته، کما لو ارتکب الإنسان ذنباً لم یستغرق فترة طویلة، لکن عقابه الحبس المؤبد، فذلک یعنی کفارة ساعة من الذنب عمر فی الحبس والسجن.

الباطل یتقمّص قمیص الحق دائما

المهم هنا هو أنّ الباطل لا یظهر بثوبه الحقیقی دائماً؛ وذلک لأنَّ اتضاح واقعه یعنی عدم تمکّنه من الخداع، بل إنّه یظهر بمظهر الحق لکی یغرَّ ویخدع الکثیر. یقول الإمام علی علیه السلام فی هذا المجال فی الخطبة رقم خمسین من نهج البلاغة: «یؤخذ من هذا امثال القران، ص: ۲۲۹ ضغث ومن هذا ضغث فیمزجان، فهناک یستولی الشیطان علی أولیائه». أی بما أنَّه لا زبون للباطل المحض، لذلک یمزجه أتباعه مع شیء من الحق لیبدو وکأنه حقّ، فعندئذٍ یأتی دور الشیطان لیستولی علی أولیائه وأصحابه. لذلک علینا أن لا ننخدع بالظاهر، إذا أردنا شراء کتاب مثلًا فما علینا أن ننخدع بغلافه الجمیل أو یغرّنا عنوانه الخلّاب وشعاراته؛ وذلک لأنّ أهل الباطل قد یستخدمون هذه الخدع لترویج سمومهم وأباطیلهم. وهذا الأمر نفسه صادق بالنسبة للافلام والمسرحیات والجرائد والمجلات والاساتذة والمعلمین والجیران والأحزاب و ... إنَّ أهل المعرفة والبصیرة هم الذین یمیزون الباطل عن الحقّ، وذلک لما أعطاهم الله من (فرقان) منحةً لتقواهم.

علی علیه السلام محور الحق

هناک الکثیر من المطالب المدونة عن فضائل الإمام علی علیه السلام وشخصیته وردت فی کتب السنة والشیعة، ومن جملة ما اتفق الفریقان علی نقله هو الحدیث العجیب واللطیف القائل: «علی مع الحقّ والحقّ معه وعلی لسانه، والحقّ یدور حیثما دار علیّ» «۱» وهو حدیث منقول عن الرسول الاکرم صلی الله علیه و آله. إنّ هذا الحدیث مقیاس معتبر لتمییز الحقّ عن الباطل؛ ولذلک أفادت بعض الروایات أنَّ المسلمین فی صدر الإسلام عندما یتشابه علیهم المسلمون والمنافقون والمتظاهرون بالإسلام ویصعب تمییز ذلک، أفادوا من هذا المقیاس واعتبروا المسلمین هم المحبون لعلی وأتباعه، المنافقون هم الذین یکنّون العداء والبغض له. «۲» إنَّ الشیعة تفتخر بأن لها زعیماً عظیماً ومحقاً ما کان یمنعه شیء عن احقاق الحقوق، ما کان یتحمل الانحراف عن جادة الحقّ ولو کان صادراً من صحابی أو أحد أقربائه، وکان یأمر بالجبران بمجرد حصوله. امثال القران، ص: ۲۳۰ من جملة مصادیق هذا الکلام هو قصة قنبر غلام علی الوفی وعضده التنفیذی فی حکومته، لقد أُمر هذا الغلام بِإجراء حدِّ الجلد، إلّا أنه أخطا فی التنفیذ وزاد علی الحدّ ثلاث جلدات علی المجرم، فأمر هذا القائد المحق قنبر أن یعدّ نفسه لأجل اقتصاص المجرم منه. «۱» ونقرأ فی قضیة عقیل أنه ما وافق منحه شیئاً زائداً علی ما منحه للمسلمین، بل أحمی حدیدة وقرّبها من ید عقیل، فصاح عقیل من شدّة الحرارة. «۲»

المثل الثانی والعشرون: التقوی جواز دخول الجنة

اشارة

یقول الله تعالی فی الآیة ۳۵ من سورة الرعد: «مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتی وُعِدَ المُتَّقُونَ تَجْری مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ أُکُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْکَ عُقْبی الَّذِینَ اتَّقوا وعُقبی الکَافِرِیْنَ النَّارُ».

تصویر البحث

الآیـة السابقـة، رغم بساطـة ظاهرها، تعـدّ من أعقد الأمثال القرآنیة، إنها بتّت بتشبیه الجنة- التی هی مأوی المتقین- وذکرت لها ثلاث خصال.

الشرح والتفسیر

إنَّ التشبیه المسـتخدم فی الآیة یبدو تشبیهاً بسـیطاً، إلّا أنَّه فی الواقع- کما قلنا سابقاً- من أعقد التشابیه المسـتخدمة فی القرآن المجید. یعتقد المفسّرون أنَّ فی الآیة شیئاً محذوفاً، وهو جملة یجب تقدیرها إمَّا فی بدایة الآیة لکی تتلقی الآیة خبراً للمبتدأ المحذوف، أو أن نقول بأنَّ صدر الآیة مبتدأ، وخبرها محذوف. نعتقد نحن أنَّ خبر الآیة محذوف، ولأجل اتضاح الأمر نقدّم مقدمة:

المراحل الأربع قبل الولادة

إن الإنسان یجتاز أربع مراحل لیکتمل ویکون إنساناً. امثال القران، ص: ۲۳۲ فی البدایة یکون الإنسان عبارة عن تراب تنمو فیه نبتة أو شجرة، فیصبح هذا التراب جزءاً من النبات، یأکل حیوان ما هذا النبات لیصبح جزاءاً من بدنه، یتناول الإنسان لحم هذا الحیوان فیصبح لحم الحیوان هذا جزءاً من بدن الإنسان. یمکن بیان المراحل الأربع هذه بشـکل آخر بأن نقول: إن الإنسان کان تراباً فی یوم من الإیام (المرحلـة الأُـولی) ومن الطبیعی أن الإنسـان لاـ یمکنه تنـاول التراب مباشـرة بل ما تبـدّل منه إلی نبات أو حیوان (المرحلـة الثانیـة) فی (المرحلـة الثالثـة) یتبـدل النبات أو الحیوان إلی نطفة إنسانیة. الجنین فی مراحله الأولی ینمو نمواً نباتیاً؛ لأنه یفقد الحس والحرکة، فهو ینمو فقط، وبعـد الشـهر الرابع حیث یکون قادراً علی الحرکـة والحس، و عنـدها تبدأ (المرحلة الرابعة)، وهی تسـتمر حتی تعلّق الروح بالجنین. إنّ لهذه المراحل الأربع عجائب کثیرة، والمرحلة الجنینیة من أعجبها.

عجائب من عالم الجنین

اسـتطاع العلماء الیوم إعـداد صورٍ حیّـة عن الجنین، وصـنع فیلم مـدّته نصف ساعـة یصوّر المراحل الجنینیة جمیعها، وهذا الفیلم بمثابة هدیـة عجیبـة قـدّمت للإنسانیـة فی عصـرنا الحالی. کیف اسـتطاع الله خلق هـذه العجائب کلها؟ نلفت انتباهکم إلی نموذجین من هذه العجائب. ۱- نطفـة الإنسان تبـدأ من خلیـة واحـدة، ثم تنتصف هـذه الخلیـة لتصـبح اثنین، وکلٌّ من هذین الخلیتین ینتصـفان کذلک لتصـبح الخلایا أربعاً، ویسـتمر الانقسام هکـذا بشـکل تصاعدی. إنّ هذا التکاثر فی الخلایا یسـتمر حتی تتکون خلایا متشابهة بالکامل وتنقسم حینئـذٍ إلی مجـامیع. بعض منهـا یتکفل بخلق رأس الإنسان وبعض یؤمر بخلق العین أو الیـد أو الرجل أو غیر ذلک. إنَّ هـذه الخلایا جمیعاً متشابهة لکن کیف حصل أن تخصـصت البعض فی صـنع الید والبعض الآخر بصنع الرجل؟ من أمر هذه الخلایا بالصنع المختلف رغم التشـابه الموجود فیهـا؟ کیف تلهم هـذه الخلایا؟ ومن الـذی ألهمها هـذه القابلیـة؟! لم یسـتطع أحـد الکشف عن هـذه الأسـرار بعـد. امثال القران، ص: ۲۳۳ ۲- إنَّ الجنیـن فی بطن أمه یسـبح فی کیس خـاص ملیء بسائـل غلیـظ وزنه یعـادل وزن الطفل تقریباً. وعلی هذا، فالجنین لا یضـغط بشـکل مباشـر علی جسم الأم، کما أنَّ الأُم لا تحمّل الطفل ضغطاً مباشراً. یا تری ما یحدث لو لم

یکن ذلک الکیس؟ کیف یمکن للجنین أن یحافظ علی نفسه ویستمر فی حیاته رغم ظرافته ونعومته ورغم ما یتعّرض له من ضربات تنشأ عن الجلسة الخاصة للأُم أو نومها فی اتجاهات مختلفة؟ أعدَّ الله العالم القادر محیطاً وبیئة للجنین تشبه حالة الإنسان عند فقدان الجاذبیة، بحیث لاـ یتأثر بالضغط إذا تعرض له مهما کان اتجاهه، ولهذا عندما یلد یشعر بالوزن، الأمر الذی یحرّضه علی الصراخ والصیاح. إنَّ کیس السائل هو أفضل مکان للجنین. فإنَّ هذا الکیس یصدّ الضربات من أی اتجاه وردت، کما أنَّه یعدّل درجة الحرارة، بحیث إنَّ الام اذا تعرّضت للحرارة الشدیدة أو البرودة الشدیدة سوف لا تنتقل هذه الحرارة أو البرودة إلی الجنین مباشرة، بل ینتقلان إلی الجنین بعد مرورهما بالسائل الموجودة فی الکیس ودور السائل هنا هو تعدیل درجة الحرارة ونقلها بعد ذلک لجسم الجنین. وعلی هذا الأساس، یقول الله فی الآیة السادسة من سورة الزمر: «خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وأنْزَلَ لَکُم مِنَ الأنْعَامِ ثَمَانِیَةَ أزْوَاجٍ یَخْلُقُکُمْ فِی بُطُونِ أمَّهَاتِکُم خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِی ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذلِکُم الله رَبُّکُمْ لَهُ المُلْکُ لَا إلهَ إلّا هُوَ فأنَّی تُصْرَفُونَ». «۱»

مراحل کمال الإنسان الأربع

لاجل بلوغ الکمال، علی الإنسان أن یطوی أربع مراحل أو عوالم: ۱- عالم رحم الام. ۲- عالم الدنیا. ۳- عالم البرزخ. ۴- عالم القیامة. والمدهش هنا أنَّ الإنسان یجتاز کل مرحلة، وهو لا یعلم بالضبط بما تضمّ وتؤول إلیه المرحلة اللاحقة. إنَّ الطفل فی رحم الام لا یمکنه تصوّر مفاهیم الدنیا، حتی لو کان له عقل امثال القران، ص: ۲۳۴ وذکاء کذکاء وفهم ابو علی ابن سیناء، وحتی لو استطاع أن یتواصل مع امه لتحکی له عن القمر والشمس واللیل والنهار والنجوم والاشجار والأزهار والنباتات، وقد استطاعت أن تبیّن له هذه الأمور بأفصح بیان وأبلغه، رغم ذلک فهو سوف لا یفهم شیئاً. إنَّ مثلنا نحن بالنسبة إلی البرزخ کمثل هذا الطفل بالنسبة إلی الحیاة الدنیا، نحن سمعنا بوجود عالم باسم البرزخ قطعاً، لکن ما هی الف باء تلک الحیاة؟ ما معنی أنّ الشهداء هناک أحیاء؟ کیف أنهم یرزقون فی ذلک العالم؟ کیف یعذّب الله الروح أو ینعم علیها؟ نحن لاـ ندرک أیاً من هذه الامور. إنّ بعض اولیاء الله استطاع أن یتصل بعالم البرزخ فسأل أهل البرزخ عن ذلک العالم فأجابوه لا یمکننا وصف هذا العالم بالألفاظ والمفاهیم التی تدرکونها انتم فی الحیاة الدنیا. إنّ مثل مفاهیم البرزخ وألفاظ الدنیا کمثل المصفاة والماء، وهل یتوقف الماء فی المصفاة؟! إنَّ موقف البرزخیین تجاه مفاهیم القیامة کموقفنا تجاه البرزخ لاـ یمکنهم استیعاب نعم الجنة، کما لا یمکنهم استیعاب أنواع العذاب فی جهنّم. وعلی هذا الأساس، تقول الآیة الشریفة ۱۷ من سورة السجدة: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِیَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أعْیُنٍ جَزَاءً بِمَا کَانُوا یَعْمَلُونَ». إذا أخذنا مفردة (نفس) باطلاقها کانت شاملة للأنبیاء والائمة- صلوات الله علیهم أجمعین- وذلک یعنی هؤلاء أیضاً لا یعلمون ما أُعدَّ للمؤمنین من نعم فی الجنة. جاء فی حدیث قدسی ما یلی: «أعددت لعبادی الصّالحین ما لا عین رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر علی قلب بشرٍ». «۱» أی أنَّها نعم لم ترَ فی المنام ولا فی الیقظة ولا فی عالم الخیال ولا التصور، وذلک لأنّ عالم القیامة لا یمکن استیعابه. وعلی هذا، فمن جهةٍ أنَّ مفاهیم عالم القیامة مفاهیم لا یمکن استیعابها وإدراکها، ومن جهة أخری ینبغی بیان نعم الجنة وعذاب الآخرة بشکل یسوق البشر نحو الأعمال الحسنة ویبعدهم عن الأعمال السیئة. امثال القران، ص: ۲۳۵ من هنا کان توصیف وبیان هذه الحالات والأعمال بالالفاظ الدنیویة أمراً مستحیلًا ولا یمکن بیانها بوضوح، لذلک کان علینا مزاولة هذا العمل باستخدام المفاهیم الدنیویة المشابهة لتلک المفاهیم والألفاظ الأقرب لهذا البیان، لترتسم بذلک صور قریبة لواقع النعم والعذاب الاخروی. کمثال علی ذلک، عندما یقال بأنَّ فی الجنة أشجاراً، فإنّه لا یمکن القیاس والمقارنة بین فوائد الأشجار فی العالمین. وبالنسبة إلی تفسیر الآیة ۵۴ من سورة الرحمن «وَجَنَی الجَنَّتَیْنِ دَان» فیقال: إنَّ ثمار أشجار الجنة قریبة غیر بعیدة بحیث تکون سهلة الوصول. وفی تفسیر الآیة ۴۸ من السورة المذکورة «ذَوَاتَا أفْنَانٍ» یقال: إنّ الغصن الواحد یضمّ ثماراً مختلفة، لکن لا یعرف أنَّ الثمار هناک هی نفسها التی هنا. أو أنَّ أصحاب الجنة إذا ما أرادوا الاصغاء إلی الأنغام والموسیقی، أخذت غصون الاشجار تتلاطم وتخرج من نفسها أصواتاً وأنغاماً. وعلی هذا، فنحن ندرک

وجوه الشبه بين أشجار الدنيا والآخرة، لكنا لا ندرك ولا نشعر بها ولا بما يتولد من أنغام وموسيقى وثمار.

إيضاح

مع الالتفات إلى المقدمة، فإنَّ الآية من جملة الآيات التى هى فى صدد عرض تشابيه للجنة، وبيان أو ترسيم موقع المتقين فيها. من هنا كان خبر الآية محذوفاً، أى أنَّ الآية كانت بهذا الشكل: «مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ كجنةٍ تَجْرِى ...» أى أنَّ فى الجنة بساتين ليست مثل بساتين دنيانا؛ لأنّه أولًا: أن منابع المياه فيها ذاتية وتلقائية، وتوجد عين قرب كل شجرة ولا حاجة لتأمين المياه من الخارج. ثانياً: أنَّ ثمار الجنة دائمية وفى جميع الفصول. ثالثاً: أنَّ ظل الاشجار هناك دائمى وخالد، أى أنَّ أوراق الاشجار لا تتساقط أبداً.

الخطابات المهمة للآية

المستفاد من الآيات العديدة هو كون التقوى هو مقياس الثواب الإلهى فى الآخرة. امثال القران، ص: ۲۳۶ فى مجال التقوى دوّنت البحوث الكثيرة، ولأجل الاستيعاب الأكثر لهذا المضمون، الذى هو جواز دخول الجنة وميزان قيمة الإنسان وزاده فى الآخرة نشير إلى روايتين وردتا هنا: ۱- يقول الرسول فى حديث مختصر وذات مغزى عميق فى نفس الوقت: «تمام التقوى أن تتعلّم ما جهلت وتعمل بما علمت». «۱» بناءً على هذه الرواية، لا يُعدُّ الجهل عذراً، بل على الإنسان أن يتعلّم ما يجهل ليعمل بما علم ويُعاتب الذين يبرّرون أعمالهم بأنهم جهال، ويقال لهم: لماذا لم تتعلموا؟ «۲» ۲- يقول الإمام على عليه السلام فى حديث مختصر ومميّز: «من ملك شهوته كان تقياً». «۳» إنَّ الإنسان بتقواه يتمالك غضبه وشهوته وحب الجاه والمقام وحب الشهرة والتطرّف و ... فهو سيتحكم بهذه الامور جميعاً. إنَّ هذين الروايتين يعرضان تعريفاً جميلًا وجامعاً ومفهوماً للتقوى، ينبغى السعى والعمل لأجل تحقيق ما ورد فى هذين الروايتين الشريفتين وبخاصة فى شهر رمضان المبارك؛ باعتبار أنَّ التقوى هى جواز دخول الجنّة وزاد الآخرة.

المثل الثالث والعشرون: أعمال الكفّار

اشارة

يقول القرآن فى الآية ۱۸ من سورة إبراهيم: «مَثَلُ الّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم أعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتَدَّتْ بِهِ الرِّيْحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمّا كَسَبُوا عَلى شَيءٍ ذَلك هُوَ الضَّلال البَعِيْدُ».

تصوير البحث

تناولت الآية بيان أعمال الكفار الصالحة، وتلمّح بأنَّ أعمالهم بسبب كفرهم غير مقبولة. من هنا كان احتمال حساب أعمالهم الصالحة بمعزلٍ عن كفرهم أمراً مرفوضاً.

ارتباط آية المثل بسابقاتها

الآيات السابقة تناولت دراسة من اصطلحت عليه «جَبَّارٍ عَنِيْدٍ» وهو الشقى الذى يأس من ألطاف الله ورحمته، وأنَّ جهنم ستتطلع إلى أمثال هذا، وسيسقى من ماء متعفن، نتنة رائحته. وهنا يطرح سؤال وهو: هل سيُتغاضى عن أعمال الكفار الصالحة؟ المتعارف أنَّ الأعمال الصالحة قد تصدر من هؤلاء الاشقياء، فيقال عن فرعون مثلًا: كان له مطبخ واسع يغذى به بيوت المدينة، وكان يستفيد الجميع من هذا المطبخ ومن طعامه، من الفقراء والمرضى والحوامل وغيرهم. قد تنجز أعمال خيرية مهمة على يد حكامٍ ظلمة، وهناك الكثير

من المساجد التاریخیهٔ امثال القران، ص: ۲۳۸ الفخمهٔ التی بنیت علی ید هؤلاء الظلمهٔ. إن العتبات المقدسهٔ للائمهٔ المعصومین وغیرهم علیه السلام کثیراً ما بُنیت أو عمّرت ووسعت علی ید الظلمهٔ، وکمثال علی ذلک المسجد الحرام ومسجد النبیّ حیث وسّعا من قبل زمرهٔ آل سعود الظالمهٔ، کما أن کثیراً من المستشفیات المهمهٔ والجامعات الضخمهٔ والمستوصفات والمدارس العلمیهٔ وما شابه ذلک بنیت علی ید أمثال هؤلاء الظلمهٔ وبأمرٍ منهم، لکن یا تری هل أنَّ هذه الأعمال الصالحهٔ والعظیمهٔ تفقد الأثر ولا تفید صاحبها شیئاً فی الآخرهٔ؟ ألا تتغمّد هؤلاء الطاف الله ورحمته بسبب هذه الأعمال الکبیرهٔ؟ إنَّ آیهٔ المثل التی سنقبل علی شرحها وتفسیرها فی الاسطر المقبلهٔ هی بصدد الاجابهٔ علی هذا السؤال المقدر الذی قد یخطر فی ذهن القارئ للآیات التی سبقتها.

الشرح والتفسیر

«مَثَلُ الّذِیْنَ کَفَرُوا بِرَبِّهِم» إنَّ أمثال القرآن علی قسمین: قسم یُضرب علی أعمال الإنسان، وآیهٔ المثل هذه من هذا القسم حیث تناولت دراسهٔ أعمال الکفار. القسم الآخر هو الامثال التی تضرب علی الشخصیات ذاتها بأن یشبّه الاشخاص أنفسهم بشیء ما مثل ما مرّ فی الآیهٔ الشریفهٔ ۲۶۱ من سورهٔ البقرهٔ، حیث شبّهت المنفق بحبهٔ الحنطهٔ التی تنتج سبعمائهٔ حبّهٔ. علی أی حال، الآیهٔ الشریفهٔ تناولت اولئک الذین کفروا بربهم، لکن الملفت فی الآیهٔ هنا هو أنَّها استخدمت مفردهٔ (رب) بدل مفردهٔ (الله)، وکأنها ترید الاشارهٔ إلی الآثار الربوبیهٔ فی کل مکان ورحمهٔ الله وبرکاته علی جمیع أعضاء جسم الإنسان وفی جمیع اللحظات، فهی ترید القول للإنسان: إنَّک تفید من نعم الله- التی یکفی واحدهٔ منها لشکر الله- کل یوم وعلی طول العمر، رغم ذلک تکفر وتجحد به، مع أنَّ علی الإنسان أن یکون شاکراً لله علی نعمه دائماً. «أعْمَالُهُمْ کَرَمَادٍ» الآیهٔ شبَّهت أعمال الکفار الصالحهٔ بالرماد، ولم تتطرق الآیهٔ إلی أعمال الکفار السیئهٔ، وذلک لأنَّها دون القیمهٔ التی تستدعی التطرّق لها وبحثها.

فوائد الرماد

نشیر هنا إلی بعض من فوائد الرماد وآثاره: ۱- إذا خلط الرماد بالتربهٔ سینتج سماداً مفیداً جداً، ولهذا نری البعض یحرق ما تبقی من المزارع بعد الحصاد بغیهٔ تبدیله إلی سماد جید. ۲- إنَّ الرماد ینظف الاشیاء الوسخهٔ ویذهب بصدئها ویصقلها، وفی الازمنهٔ السابقهٔ کان الناس یصقلون بعض الصفائح الفلزیهٔ بالرماد لکی یصنعوا منها مرآهٔ شفافهٔ. ۳- الفائدهٔ الاخری للرماد أنّه یحافظ علی النار وحرارته، بحیث إذا ألقینا التراب علی النار أنطفأت النار، لکن إذا ألقینا رماداً علیها ضلّت النار تحافظ علی نفسها وما انطفأت إلّا فی زمن متأخر. «اشْتَدّتْ بِهِ الرِّیْحُ فِی یَوْمٍ عَاصِفٍ لَا یَقْدِرُونَ علی شیءٍ مِمّا کَسَبُوا» من الواضح أنَّ الیوم اذا کان عاصفاً أخذ الریح معه کل ما کان خفیفاً ودقیقاً، وکلما کان ذلک الشیء أدق کلّما صعب جمعه، أما اذا کان رماداً فاستحال الجمع؛ وذلک لصغر الأجزاء المکونهٔ للرماد وتلوّنها بلون البیئهٔ التی تسقط فیه. وإذا اجتمع اهالی المدینهٔ کلهم- لا صاحب الرماد فحسب- ما استطاعوا أن یجمعوا شیئاً مما فقدوه من الرماد ولو بمقدار مثقال. إنّ عاصفهٔ الکفر والجحود تعمل بأعمال الکافر کما تعمل العاصفهٔ الطبیعیهٔ بالرماد، بحیث لا یبقی شیء من ذلک العمل للکافر یتمتع به. «ذَلکَ هُوَ الضّلَالُ البَعِیْدُ» إنَّ انحراف هؤلاء عن الصراط المستقیم کالانحراف والضلال البعید عن الطریق الذی یصعب جبرانه والرجوع عنه نحو الطریق الصواب.

خطابات الآیهٔ

۱- الایمان شرط صحهٔ الأعمال

رصید الأعمال الحسنهٔ والصالحهٔ هو الایمان، فاذا لم یقترن العمل بالایمان فانه سیفقد قیمته. ذکر الفقهاء: أنّ الایمان هو شرط قبول

العبادة، بل شرط صحتها، أى أنَّ الصلاة والصوم امثال القران، ص: ۲۴۰ والحج والانفاق وإعانة المحتاجين وغير ذلك من الاعمال تكون فاقدة للقيمة إذا لم تتزامن مع الإيمان. ولقد طرح نفس البحث فى قضية (الولاية) فاعتقد البعض أنَّ الولاية شرط قبول الأعمال، أى رغم أنَّ الأعمال- من وجهة نظر شيعية- صحيحة إلّا أنَّ الله لا يقبلها إذا لم تقترن بالاعتقاد بالولاية. وقد يعتقد البعض أنّها شرط القبول والصحة أى لا يسقط التكليف من ذمة من لا يعتقد بها وإن جاء به. فى هذا المجال وردت روايات كثيرة فى كتب الشيعة نأتى بنموذج واحدٍ منها: يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لو أنّ رجلًا قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولىّ الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله حقٌّ فى ثوابه أبداً». «۱» إنّ هذه الآية طرحت ذات البحث فى أصل الايمان بالله ولّمحت بأنّ الذى لا ايمان له لا ثواب له رغم اتيانه بأفضل الأعمال، وقد طرح هذا البحث فى آيات عديدة أُخرى نشير إلى بعضٍ منها: الف- لقد جاء فى الآية ۲۶۴ من سورة البقرة التى مرّ الحديث عنها ما يلى: «... كَالّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فأصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَىءٍ مِمّا كَسَبُوا واللهُ لا يَهْدِى القَومَ الكَافِرِينَ». باء- جاء فى الآية ۳۹ من سورة النور: «وَالّذِيْنَ كَفَرُوا أعْمَالُهُم كَسَرَابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتّى إذا جآءه لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَه فَوَفّاهُ حِسَابَهُ واللهُ سَرِيْعُ الحِسَابِ». جيم- ويقول الله فى الآية ۲۳ من سورة الفرقان: «وَقَدِمْنَا إلَى مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَنْثُورَاً» وهذه الآية كغيرها لم تمنح أى قيمة امثال القران، ص: ۲۴۱ للعمل إذا لم ينشأ عن إيمان. دال- جاء فى الآية ۵۴ من سورة التوبة: «وَمَا مَنَعَهُم أنْ تُقْبَلَ نَفَقَاتُهُمْ إلّا أنَّهُمْ كَفَرُوا باللهِ ورَسُولِهِ ولا يأتُونَ الصَّلاةَ إلّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إلّا وَهُمْ كَارِهُونَ». إنَّ هذه الآية كذلك تعتبر الإيمان شرط قبول العمل. وعليه، فإنّ الآية المذكورة وآيات وروايات كثيرة اخرى عدّت الإيمان شرطاً لصحة العمل وكماله، كما أنَّ بعض الآيات والروايات اعتبرت الولاية بنفس المستوى ومنحت الاعتقاد بها نفس القيمة التى منحتها هذه الآيات لمبدأ الايمان بالله. لماذا الإيمان والولاية شرطان لصحة العمل؟ بعبارة أُخرى: لماذا لم يفتح الله لاعمال الكفار الصالحة أو الطالحة حساباً مستقلًا، بأن يحاسب الكافر على أعماله الطالحة بمعزلٍ عن حسابه لأعماله الصالحة؟ الجواب: لقد جاء جواب هذا السؤال فى الآيات والروايات التى عدّت الولاية والإيمان شرطين لصحة الأعمال. جاء فى رواية تقدمت أنَّ الإمام عليه السلام يقول: «ولم يعرف ولاية ولىّ الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه»، أى أنَّ للأعمال الصالحة شروطاً ومقدمات وملابسات يحدّدها الإمام المعصوم نفسه وإذا لم تتم بتنسيقٍ معه فانها قد تكون ناشئة عن هوى وهوس وتصبّ فى غير مجالها. إنّ غير المؤمنين عندما يؤدون أعمالًا صالحة مثل المرضى الذين يداوون أنفسهم بعقاقير خاصة من دون مراجعة طبيب، ومعالجة من هذا القبيل قد تلحق بالإنسان أضراراً كثيرة تصل إلى الموت أحياناً. إنّ الرسول صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام هم أطباء روحيون، ولأجل أن يداوى إنسان أوجاعه، عليه بالعمل حسب وصفتهم لا وصفة غيرهم. من هنا يقسم الإمام على عليه السلام- فى كلام جميل يخاطب به كميل بن زياد- الناس إلى ثلاثة أصناف: امثال القران، ص: ۲۴۲ ۱- العلماء الربانيون الذين وجدوا وسلكوا طريق الهداية والصراط المستقيم. ۲- المتعلّمون والذين هم فى طريقهم إلى المعرفة ويفيدون من العلماء والاساتذة لبلوغ طريق الهداية والنجاة. إنّ مثل هذين الاثنين كمثل الشمس والقمر حيث احدهما يعدّ مصدراً ومنبعاً للنور والإضاءة، والآخر رغم أنّه ليس مصدراً للنور إلّا أنه يلهم من نور الآخرين ليتنوّر ويكون مصباح هداية فى الليالى الظلمانية. ۳- الصنف الثالث هو أولئك الذين لا هم أساتذة وعلماء ولا هم متعلمون ولا هم فى طريقهم إلى العلم، فلا هم مصدر للنور ومنبع له ولا هم متنورون بنور الاخرين، بل انّهم اناس غير هادفين ولا يعتمدون شيئاً فى حياتهم إلّا الخواء، وهم مثل البعوضة التى يهددها أبسط نسيم ويذهب بها إلى أى جهة شاء. إنَّ الذين ينتشلون أنفسهم من خط المعصومين عليهم السلام ويرفضون الولاية، رغم ذلك يؤدون أعمالًا صالحة، هم من الصنف الثالث، وحياتهم كلها اضطراب واعوجاج، وشأنهم شأن الشجرة التى ترقص مع كل ريح. وعلى هذا، فإنَّ فلسفة اشتراط الايمان والولاية هو هداية الأعمال باتجاه الصراط المستقيم، وشأن ذلك شأن المريض الذى يتداوى تحت رعاية الطبيب المختص.

۲- الدوافع المعنوية لغير المؤمنين

ثانی خطاب للآیـة هو أنّ غیر المؤمنین لا یملکون الـدوافع المعنویـة، بل دوافعهم کثیراً ما تکون مادیـة، کنموذج لذلک هو الخدمات الإنسانیـة التی یقوم بها ثلـة من البشـر، فی اطار المنظمات الإنسانیـة الدولیـة، فهی من جهـة خدمات إنسانیة اخلاقیة وتصل المحتاجین إلیهـا من البشـر، لکنهـا فی نفس الوقت کثیراً مـا تکون غطاءً لممارسـة التجسـس لصالـح الـدول الکبری. قـد یکون الهـدف من هـذه الاعانات هو الحفاظ علی حیاة هؤلاء المستضعفین لاجل استغلالهم أکثر فأکثر، کما کان یفعل النخاسون وأصحاب العبید حیث کانوا یطعمون عبیـدهم المقـدار الـذی یحافظ علی حیاتهم وهو مقـدار لا یشـبعهم، ولـذلک نری أنَّ بعض هذه الخدمات امثال القران، ص: ۲۴۳ الإنسانیة تسـتهدف اغراضاً مادیة غیر إنسانیة. وقد أشارت الآیة ۵۴ من سورة التوبة- التی مضـی شرحها- إلی هذا المطلب، حیث قـالت: «وَمَـا مَنَعَهُم أنْ تُقْبَـلَ مِنْهُمْ نَفَقَـاتُهُم إلّا أنّهُمْ کَفَرُوا باللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا یَأْتُونَ الصَّلَاةَ إلّا وَهُم کُسَالَی وَلَا یُنْفِقُونَ إلّا وَهُم کَارِهُونَ». من هنـا خـاطب الإمـام علی علیه السـلام مالـک الاـشتر فی عهـده له طالبـاً منه أن یختـار لصـلاته أفضل أوقاته؛ «۱» وذلـک لأنک اذا أحکمت علاقتـک بخالقـک فـالله سـیحکم علاقتـک بباقی المخلوقات. علی أساس الآیـة الکریمـة، أنّ انفاق المنافقین وغیر المؤمنین وإعاناتهم المادیـة لم تنشأ عن نیـة خالصة بل نشأت عن کراهة وعدم رغبة. لا قیمة لانفاقهم ولو بذلوا أفضل أموالهم وأکثرها؛ وذلک لعـدم ایمانهم بالله وبالولایة، کما أنَّ عملهم لم یکن عن صدق نیة. علی سبیل المثال إذا أراد المؤمن بناء مدرسة اختار منطقة محرومة لرفع الحاجة عن تلک المنطقة کما أنّه سوف لا یبخل فی احکام بناء المدرسة وصـرف المبالغ فی هذا السبیل، أما الإنسان غیر المؤمن أو المنافق بما أنَّ هـدفه الریاء والتظاهر لـذلک یختار مکاناً ذا طلعـة وفی مرأی من الناس وفی منطقـة قد تکون مسـتغنیة عن المدرسة، ولاـ یفکر فی إحکـام البنـاء؛ وذلـک لأـنّ جمـال البناء یحقق اهـدافه. إنَّ أعمال غیر المؤمنین غالباً ما تکون عن هوی وهوس، ولاجل کسب الشـهرة والجاه والمورد، ولا علاقـة لهم بالنیة الخالصة. اضافة إلی هذا، نحن نعتقد أنَّ غیر المؤمنین لا یمکنهم التحلّی بالاخلاق الحسنة.

الاحباط فی القرآن

کما أنَّ الایمان والولایـة شـرطان فی البدایـة، ولا قیمة لعمل بدونهما، کذلک ادامة واسـتمراراً، فالمفروض أن یسـتمر هذان الشـرطان حتی نهایـة العمر والانتقـال من هـذا العـالم إلی عـالم الآـخرة. امثـال القران، ص: ۲۴۴ وعلی هـذا، لو أنّ شـخصاً جـاء بجمیع الاعمـال الحسـنة، لکنه فی اللحظات الأخیرة من عمره رحل خلو الایمان، فإنَّ أعماله التی انجزها فی الدنیا سوف لا تفیده شـیئاً فی الاخرة أبداً. هـذه المسألـة من مصـادیق (الاحباط) الـذی تعرّض له القرآن بشـکل واسع. إنَّ ست عشـر آیـة أشارت إلی قضـیة الاحباط فی العمل، نتعرض لاثنین منها. ۱- جاء فی الآیـة ۸۸ من سورة الأنعام ما یلی: «وَلَو أشْـرَکُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا کَانُوا یَعْمَلُون» تعـدّ هذه الآیة الشـرک أحد عوامل إحباط الأعمال الحسـنة. ۲- وجاء فی الآیـة ۶۵ من سورة الزمر: «وَلَقَـدْ أُوْحِیَ إلَیْکَ وَإلی الّـذِیْنَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أشْـرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُـکَ وَلَتَکُونَنَّ مِنَ الخَاسِـرِیْنَ». رغم أنَّ الآیـة تخاطب الرسول صـلی الله علیه و آله، لکن من الواضـح أنَّه هو مرکز التوحید والحنیفیة ولا یتوقع منه أن یکون مشرکاً یوماً، لذلک نقول: إنّ الآیة تحذیر للآخرین لا له.

الحبط فی عالم الطبیعة

هل من العدالـة أن تحبط الأعمال الکثیرة بـذنب ما؟ بعبارة اخری: هل الأمر یتفق مع قوانین الطبیعـة؟ الجواب: أنَّ الاحباط مشـهود فی عالم الطبیعـة والتکوین وموجود کذلک فی عالم التشـریع والقوانین الدینیة، کما أنَّه موجود فی أعمالنا الروتینیة. قد یعمل المزارع لیل نهار ویبـذل قصاری جهـده للحفاظ علی البسـتان الکبیر والملیء بالثمار المتنوعة، إلّا أنَّه قد یوقد النار فی جانب منه ویغفل لفترة لیری أنَّ النار سـرت إلی جمیع البسـتان وأکلت کل جهوده التی بذلها لانضاج ثمار هذا البسـتان. وقد یقوم الإنسان السلیم خلال سنوات من

العمر بكل ما تستدعيه اصول الصحة والرعاية الصحية، لكنه لأسباب واخرى يتعاطى المخدرات ليصبح بعد عدة أيام إنساناً سقيماً لا حول له ولا ـ قوة ولا صبر ولا صحة ولا طاقة ولا بهجة. وعلى هذا، فانَّ النار احبطت ما زرع المزارع وما أنتج، والمخدرات أحبطت سلامة الإنسان ودمرتها. ويمكن الاتيان بمثال ثالث وهو: بناء سدّ ضخم يستدعى استخدام طاقة عمال ومهندسين لمدة سنوات متوالية، وبعد ملئه بالماء واستخدامه فى الاغراض الخاصة، يأتى سيل عظيم يغفل امثال القران، ص: ۲۴۵ المشرفون عليه عن فتح المنافذ والبوابات المخصصة لتقليل وطأة ضغط الماء على السدّ، الأمر الذى يؤدى إلى كسر السدّ وإذهاب جهود سنوات من العمل سدى. و على هذا، فمسألة الحبط لا تختص بالقضايا الدينية والعقائدية، بل إنَّها جارية فى قضايا التكوين والممارسات اليومية والعادية للإنسان، ولا يتنافى ذلك مع العدالة الإلهية. علماً أنَّ المسبب الأساسى لهذا الاحباط هو الإنسان نفسه، فهو نفسه المسبب فى اندلاع الحريق فى البستان وتبدد طاقات جسم الإنسان المتعاطى للمخدرات وانكسار السد وتهديمه. إذن، على المسلمين أن لا يفكروا بالاتيان بالأعمال الحسنة فحسب، بل عليهم التفكير فى الحفاظ على هذه الأعمال. فإنَّ الحفاظ على الأعمال أصعب بمرات من الاتيان بها، فقد يقدم الإنسان على إحراق بستان حياته بوسائل بسيطة جداً، وكمثال على ذلك ما ورد فى الآية ۲۶۴ من سورة البقرة، التى اعتبرت أنّ المنّ والأذى عوامل لاحباط الانفاق والصدقات. إذا تبنى شخص يتيماً وربّاه منذ صغره وأنفق عليه الكثير وأرسله إلى المدرسة الابتدائية ثم الاعدادية والجامعة، ثم وفّر له فرصة الزواج وعمل على تزويجه، وفى يوم من الأيام وفى مجلس عام أراد أن يتباهى هذا الشخص ويمنّ على اليتيم فقال له: (لم تكن إلّا طفلًا يتيماً فأعلتك وأنفقت عليك وأرسلتك إلى المدرسة والجامعة وأنا الذى منحتك هذا الشأن و ...)؛ فوفقاً لمفاد آيات القرآن، هذا الشخص أحبط أعماله التى أنجزها طوال حياته. وحسب المستفاد من بعض آيات القرآن، انَّ المسلمين ما كان لهم الحقّ أن يسيئوا الادب للرسول صلى الله عليه و آله أو يرفعوا أصواتهم عليه، وإلّا فتحبط أعمالهم: «يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُم فَوْقَ صَوْتِ النّبىّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَولِ كَجَهْرِ بَعْضِكُم لِبَعْضٍ أنْ تَحْبَطَ أعْمَالُكُم وَأنْتُم لَا تَشْعُرُونَ». «۱» كما أنَّه عدّ مرض الحسد النفسى من عوامل الاحباط .. فى بعض الروايات. يقول الرسول صلى الله عليه و آله: «إيّاكم والحسد فإنّه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». «۲» فى النهاية: انّ الايمان والولاية شرطان لصحة الأعمال، وعدمهما يحبط العمل سواء كان فى بداية العمر أو أثنائه. امثال القران، ص: ۲۴۷

المثل الرابع والعشرون والخامس والعشرون: الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

اشارة

جاء فى الآيات ۲۴ و ۲۵ و ۲۶ من سورة إبراهيم ما يلى: «أَلَم تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيّبَةً كَشَجَرةٍ طَيّبةٍ أصْلُها ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّماءِ تُؤْتِى أكُلَهَا كُلّ حِيْنٍ بِإذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأمثَال للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيْثَةٍ اجتُثَّتْ مِنْ فَوقِ الأرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ».

تصوير البحث

هذه الآيات من أجمل الآيات ومن أبلغ الأمثال القرآنية. إنّ فى الآيات الثلاث تمثيلًا جميلًا وبليغاً للكلمة الطيبة من جانب، وللكلمة الخبيثة من جانب آخر، وفيها يعدّ الله الفوائد والآثار المترتبة على كل واحدة منهما.

ارتباط آيات المثل بسابقاتها

إنَّ ذكر هذين المثلين لا يخلو من ارتباط بما ورد فى الآيات السابقة من نسبة الكلمة الطيبة إلى الله والخبيثة إلى الشيطان، كما أنّها قد

تضـمّنت مضـامين ومفاهيم رفيعـة. وهنا نص الآيـة ۲۲ من سورة إبراهيم: «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلّا أنْ دَعَوْتُكُم فاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُوْنِي وَلُوْمُوا أنْفُسَكُمْ مَا أنَا بِمصْرِخِكُمْ وَمَا أنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إنّي كَفَرتُ بِمَا أشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبلُ إنَّ الظَالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ». امثال القران، ص: ۲۴۸ ينبغى الالتفـات إلى أنّه نقل كلامان فى الآيۀ، أحدهما لله، وهو وعده الحقّ الذى أوفى به، وهو مصداق للكلمۀ الطيبۀ. والثانى هو للشيطان الذى هو وعد باطل ولم يفِ به الشـيطان، كما أنّه مصداق للكلمۀ الخبيثۀ. حسب ماورد فى الآيۀ الشـريفۀ، فإنَّ استجابۀ دعوۀ الشيطان اختياريۀ غير جبريۀ، وكل من تابع الشـيطان فبارادته، لذلك يلوم الشـيطان الإنسان يوم القيامۀ؛ لأنّ الإنسان يعلم بطبيعۀ الشـيطان الخبيثۀ رغم ذلك يلتحق بركبه. ألاـ يعلم الإنسـان بمعاملـۀ الشـيطان لابيه آدم عليه السـلام؟ إنّ مكره هـو الـذى أدى به إلى خروجه وانقطـاع نسـل الإنسـان من الجنّۀ بالكامل. «۱» ألم يسـمع الإنسان بقسم الشـيطان باتيان الإنسان من بين يديه ومن خلفه لاجل إغوائه وحرفه عن الصـراط المستقيم؟ «۲» إذن لماذا الإنسان، رغم علمه الوافر، يغرّه الشيطان بوعوده الباطلۀ والكاذبۀ ويترك كلام الله الصادق؟!

الشرح والتفسير

«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجرَةٍ». إنَّ هـذه الشـجرۀ التى ضـرب الله بهـا مثلًا ذات خمس خصـائص: ۱- «طَيِّبَةً» أول خصائصـها أنهـا طيّبـۀ أى طـاهرۀ وذات رائحـۀ مطلوبـۀ. إنَّ بعض الاشـجار يسـتفاد من جميع أجزائهـا من الاـوراق والاغصـان والثمـار والجـذور وأصـماغها، كما أنّ منظرها جميل وعطرها مريـح، إلّا أنّ بعض الاشـجار ذات منظر قبيح ورائحۀ كريهۀ وجذور نتنۀ وثمارها مُرّۀ. إنَّ الشـجرۀ التى ضـرب الله بها مثلًا هى شـجرۀ طاهرۀ وجميلۀ وبالجملۀ طيبۀ. ۲- «أَصْلُهَا ثَابِتٌ» الخاصيۀ الاخرى لهذه الشجرۀ أن جذورها ثابتۀ ومحكمۀ فى الأرض. من مظاهر قدرۀ الله تعالى أنه جعل تناسباً بين غصون الشجرۀ وجذورها فكلما كانت امثال القران، ص: ۲۴۹ الغصون أعظم وأكثر، كانت الجـذور عظيمـۀ وكثيرۀ وعميقۀ بتلك النسـبۀ التى للغصون، وهى تحفظ الشـجرۀ وغصونها من العواصف والفيضانات كما يفعل الحبل بما شـدّ به. ۳- «فَرْعُهَا فِي السَّماءِ» الخاصيـۀ الاخرى أنّ نموها صـعودى وعمودى نحو السماء. ممـا لاـ شـك فيه أنّ دور الجـذور هو تغذيـۀ الغصون والاوراق، لكن ما دور الغصون المرتفعـۀ جـداً والمتجهـۀ نحو السـماء؟ للغصون المرتفعۀ فوائد وآثار مختلفۀ نشير إلى بعضٍ منها: الف- الغصون المرتفعۀ تتنفس الهواء بشـكل أفضل من غيرها من الغصون الاخرى. المعروف هو أنَّ أوراق الاشـجار تتنفس، والعجيب هنا هو أن مردود هذا التنفّس عكس مردود تنفس الإنسان، فالأشجار تستنشق ثانى اوكسـيد الكاربون وتطرح الاوكسيجين، بينما الإنسان يستنشق الاوكسيجين ويطرح ثانى اوكسيد الكاربون. إنَّ فلسفۀ المفارقۀ هذه هى أنَّ الأشـجار لو كـانت تتنفس نفس الغازات التى يتنفسـها ويحتاجها الإنسان، لأصـبحت الأرض بعـد فترۀ وجيزۀ من الزمن غير صالحۀ للعيش؛ لأنّ الاوكسـيجين سـينفد تدريجياً، ولا يبقى فى الجو غير ثانى اوكسـيد الكاربون، وهو غاز قاتل بالنسـبۀ للإنسان. لذلك كان علينا أن نزرع فى المدن وبخاصۀ المدن الكبرى أشـجاراً لتصـفيۀ الهواء من الغازات السامۀ الناشـئۀ عن اسـتهلاك الوقود فى السيارات والمعامل، اضافۀ إلى أنَّ الأشـجار توفر لنا غاز الأوكسيجين. من فوائد الريح أنه يبدل الهواء الملوّث الخالى من الاوكسيجين بهواء نقى فيه مقدار كافٍ من الاوكسيجين. إنّ رحمۀ الله تأتى بالهواء النقى وتذهب بهواء المدن الملوّث. باء- تستفيد الاغصان المرتفعۀ من نور الشـمس بشـكل أفضل. إنَّ هذا النور يؤثر كثيراً على عمليۀ جذب ثانى اوكسيد الكاربون وطرح الاوكسيجين، ولذلك كانت الحدائق فى النهـار ذات جو وهواء أفضـل من هوائهـا الليلى الخـانق. جيم- انَّ الاغصـان المرتفعـۀ فى مـأمن من الغبـار والتلوّثات التى يوجـدها الإنسان على سطح الأرض، وقلما تطال هذه التلوثات الاغصان المرتفعۀ كثيراً.

نقطۀ مهمۀ فى مجال المعرفۀ

من دروس المعرفۀ الإلهيّۀ التى ننتقيها هنا هى أنَّ الأرض تجذب المياه التى تعلو سـطحها وتمتصـها إلى أدنى مسـتوى ممكن أى نهايۀ

القشرة، وهـذا قـانون عـام، لكن المـدهش هنـا هو أنَّ الأشـجار تجتـذب الماء الـذى فى حواليها وتحول دون نفوذ المياه إلى الطبقات السـفلى من قشرة الأرض ليتحول إلى مياه جوفيـة. فالاشـجار بايصالها الماء إلى الغصون والاوراق مهما علت تعمل عكس تيار جاذبية الأرض، وعملها يشـبه مضخة الماء الضخمة التى قد تمد غابة كثيفة باطنان كثيرة من الماء لكن من دون صوت وعكس اتجاه الجاذبية الأرضـية. وهـل غير الله القـادر يسـتطيع أن يفعل هكـذا؟! فى النهايـة نقول: إنّ ثالث خاصـية للشـجرة الطيبـة هو احتواؤها على أغصان مرتفعة جداً تفيد من الهواء النقى المرتفع عن سـطح الأرض كما تفيد من نور الشـمس بشكل أفضل، وهى أخيراً فى مأمن من تلوّثات الهواء فى الطبقـات الـدنيا من جو الأرض. ۴- «بِإذْنِ رَبِّهَا» الخاصـية الاخيرة لهـذه الشـجرة هى أنَّها رغم كون ثمارها تنضـج فى جميع الفصول، إلّـا أنَّهـا تنمو وتعمـل حسب قوانين الطبيعـة ولاـ تشـذّ عنها، وهى مطيعـة لهـذه السـنن التى جعلها الله تعالى. إن هـذا الأمر لم يختص بأمثال هـذه الشـجرة، بل جميع ما فى الطبيعة خاضع وخاشع له: «وَلَهُ أسْـلَمَ من فِى السَّـمَاوَاتِ والأرْضِ». «۱» «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيْثَةٍ» إنّ لهذه الشجرة الخبيثة خاصيتين: ۱- «اجتُثَّتْ مِنْ فَوقِ الأرْضِ» أى أنَّها عكس الطيبـة ذات الجـذور الثابتة والمحكمة فى الأرض، فجـذور الخبيثـة مقتلعـة من الأرض ولا تسـتطيع هـذه الجـذور الحفاظ على الشـجرة من الطوفان والسـيول والاعصار، فهى مجتثـة الجذور. ۲- «مَـا لَهَـا مِنْ قَرَارٍ» أى لاثبـات لهـا ويطرأ عليهـا التزلزل لأـدنى ريـح عـاصف. إنّ شـجرة تخلو من الثمار والعطر ولا يمكنها ايجاد الظل المناسب لا تفيد إلّا للايقاد.

ماهى (الكلمة الطيبة)؟

هناك بحث بين المفسـرين فى تفسـير معنى (الكلمة الطيبة)، نشير إلى بعض النظريات فى هذا المجال: ۱- يعتقد البعض أنَّ المراد من «الكلمـة الطيبـة» هى كلمة «لَا إله إلَّا اللّه» «۱» فإنَّ هـذه الكلمة كالشـجرة الطيبة التى أصـلها ثابت وفرعها فى السـماء، وهى فى الحقيقة شجرة سعادة الإنسان. إنّ هذه الشجرة التى هى حقيقة التوحيد، تحيى قلب الإنسان وتكسر كل ما فيه من أصنام، بحيث تجعله لا يسجد أمام أصـنام المال والرشوة والربا والسـرقة والاعتـداء. ولا يكـذب الآف الكـذبات لأجل الحفاظ على مقامه، ولا يرتكب الجرائم لأجل الحفاظ على مال الدنيا؛ وذلك لأنّ أعمالًا كهذه تعدّ شـركاً ولذلك يُدعى المرائى فى الاخرة منافقاً أو فاجراً. «۲» إن التوحيد إذا حل وحيى فى قلب الإنسان قضـى على الهوى والهوس الذى هو السـبب الرئيسـى لجميع الانحرافات ودمّره. من هنا جاءت رواية جميلة فى هـذا المجال: «أبغض إلهٍ عُبد على وجه الأرض الهوى». «۳» إن شـجرة التوحيد الطيبة إذا زرعت فى قلب الإنسان طردت كل ما حولها من أصنام. ۲- يعتقـد بعض آخر من المفسـرين أنَّ المراد من الكلمـة الطيبـة هو (المؤمن)، فقـد اطلق على الموجودات (كلمة الله) فى القرآن المجيد، والمؤمن كلام إلهى كذلك، الشـمس والقمر والنجوم والسماء والأرض كلها كلمات الله، فهى فى كتاب الله التكوينى من كلمات هذا الكتاب، كما أنَّ هذا المصـطلح اسـتخدم فى حق السيد المسيح عليه السلام. «۴» إنَّ شجرة وجود المؤمن هى من قبيل الشجرة الطيبة التى تثمر فى جميع الفصول، وثمارها السخاء والشجاعة والجود والرحمة والحب والاحسان والايمان وما شابه ذلك. «۵» امثال القران، ص: ۲۵۲ ۳- وقد فسّـر البعض الكلمة الطيبة بالأئمّة المعصومين عليهم السـلام. إنَّ هؤلاء بمثابة الشجرة الطيبة التى ملأت غصونهـا بالثمـار، وكـل من طالع تاريـخ حياتهم وسـيرتهم أو اقترب لمزارهم وحرمهم أو أصـغى أو طالع كلماتهم وخطبهم أو مـدّ يد العون إليهم فسوف لا يبقى خلو اليـدين. «۱» ۴- إنَّ (العلماء) هو تفسـير آخر للكلمة الطيبة؛ وذلك لأنّ الناس يفيد من ثمار وجودهم. ۵- (الفكر النزيه) هو خامس تفسـير للكلمة الطيبة، فإنَّ الافكار النزيهة والطاهرة هى بمثابة الشـجرة الطيبة التى ثبتت على طول التاريخ. ۶- (الحديث الحسن) هو تفسير سادس ذكر للكلمة الطيبة، فإنَّ الحديث الحسن قد يخلد ويثبت ويفيد منه المجتمع. «۲» وهناك رواية معروفـة عن النبىّ صـلى الله عليه و آله مدوّنـة فى كتاب (إرشاد الـديلمى) حيث يقول فيها: «ما أهـدى المرء المسـلم عن أخيه المسـلم هديّـة أفضل من كلمةٍ حكمة يزيده الله بها هدى ويردّه عن ردىً». «۳» لقد جاء فى قصة النبىّ موسـى عليه السلام والخضر عليه السلام انهما عندما بلغا مدينة انطاكية واجهوا جفاءً من قبل ساكنى المدينة، خرجوا من المدينة ووجدوا هناك حائطاً خرباً، أمر الخضـر ببنائه،

فكان أمر الخضر لموسى مزعجاً فقال له الخضر آنذاك: إنَّ تحت الحائط كنزاً ليتيمين كان ابوهما امرئ جيداً ويؤمل أن يكونا كذلك. لقد ورد فى بعض الروايات أنَّ الكنز هناك لم يكن ذهباً وفضةً، بل مجموعة من الحكم التى تركها أبوهما لهما، «۴» كما هو الحال بالنسبة إلى الكلام الثمين لأمير المؤمنين عليه السلام، فهو أغلى من أى كنز وهو يصلح لجميع العصور والأجيال.

كلمة طيّبة من الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

إنّ جنادة بن أبى سفيان من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام المخلصين، طلب من الإمام أن يعظه فى الساعات الاخيرة من عمره المبارك، ورغم أنّ الإمام كان فى وضع صحى غير مناسب، إلّا أنه استطاع أن يزوّد هذا الإنسان المخلص ببعض النصائح الجميلة وذات المغزى العميق، منها الجمل التالية: «إن أردت عزاً بلا ـ عشيرة وهيبة بلا ـ سلطان فأخرج عن ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعة الله عزّوجلّ». «۱» نعم، كلام حق، فإنَّ العزة والاعتبار والسلطة فى طاعة الله والعبودية له «فإنَّ العِزَّةَ لِله جَمِيْعاً». «۲»

المثل السادس والعشرون: لله المثل الأعلى

اشارة

يقول الله تعالى فى الآية الكريمة ۶۰ من سورة النحل: «لِلّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السّوْءِ وَلِلهِ المَثَلُ الأعْلَى وَهُو العَزِيْزُ الحَكِيْم».

تصوير البحث

اشارة

كما ذكرنا سابقاً، فإنّ الهدف من أمثال القرآن هو بيان المسائل العقلية المعقدة فى صيغة مسائل حسية قابلة للاستيعاب من قبل الجميع؛ وذلك لأنَّ القرآن للجميع، فكما أنّه يخاطب النوابغ من العلماء، يخاطب ابسط الناس والاميين منهم كذلك. هناك بحث بين المفسّرين فى أنَّ هذه الآية تُعدُّ من أمثال القرآن أم لا؟ سبب الاختلاف هو وجود تفسرين للآية، على أساس أحدهما تكون الآية مثلًا، وعلى أساس الاخر تكون الآية ليست مثلًا، ولأجل اتضاح الأمر، نأتى بالتفسيرين هنا:

التفسير الأوّل

طبقاً للتفسير الأوّل، انّ مفردة المثل جاءت بمعنى الصفة، أى أنَّ الذين لا يؤمنون بالقيامة يحملون صفاتٍ قبيحة وغير مطلوبة. والحقيقة كذلك، لأنَّ الذين يظلمون ويرتشون ويكذبون ويقتلون و .... لابدّ أنهم لا يعتقدون بيوم القيامة، وإلّا ما ارتكبوا هذه الذنوب. يقول القرآن الكريم فى الآية ۴ من سورة المطففين: «ألَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أنَّهُم مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيْم». امثال القران، ص: ۲۵۶ وحسب ما يستشفُّ من الآية، فإنَّ سبب تطفيف المطففين هو عدم اعتقادهم وايمانهم بيوم القيامة. نعم، إنَّ غير المؤمنين بيوم القيامة يحملون صفات سيئة وقبيحة. من هنا كان على الإنسان أن يخطو جميع خطاه فى ظلّ منهج يتحكّم بسلوكه ويضبطه، وإلّا فكثير هم الذين يقترفون الذنب وإن عظم لأجل كسب المال والمنافع، مهما كانت تافهة وحقيرة. «ولِلهِ المَثَلُ الأعْلَى» لأنَّه قدير لا يمكن هزمه، كما أنّه حكيم وذات منهج قويم. إنّ ذوى السلطة الظاهرية هم كثيراً ما يكونون غير حكماء، ولا يفيدون من سلطتهم بشكل مطلوب. إنَّ للسلطة آفات كثيرة، منها الغفلة عن البرمجة والنظام والحكمة، لكن الله القادر- وله أرفع قدرة وسلطة- هو الحكيم المطلق. وعلى أساس هذا التفسير، فالآية الشريفة لا تُعدُّ مثلًا.

التفسیر الثانی

طبقاً لهذا التفسیر، انَّ مفردة المثل حافظت هنا علی معناها اللغوی. إنَّ الذین لا یؤمنون بیوم القیامة والمعاد لا فی العمل ولا فی العقیدة، لهم مثل السوء کالامثال التی ذکرت لهم فی القرآن المجید. إنَّ المثل الذی ذکر فی الآیة ۱۷ من سورة البقرة، والذی کان فی حق المنافقین، هو من جملة الأمثال السیئة التی تُضرب لغیر المؤمنین بالمعاد. یقول الله هنا: «مَثَلُهُم کَمَثَلِ الّذِی اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلمّا أضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَکَهُمْ فِی ظُلُمَاتٍ لَا یُبْصِرُونَ». «۱» ومن الأمثال التی جاءت فی هذا المجال هو المثل المذکور فی الآیة ۱۷۶ من سورة الاعراف، حیث شبّه الله المشرکین هناک بالکلب المریض الذی یلهث والذی لا یحترم الصدیق ولا العدو. امثال القران، ص: ۲۵۷ «وَللهِ المَثَلُ الأعْلَی وَهُو العَزِیزُ الحَکِیْم» أی أنَّ لله من الأمثال ما لیس لغیره، فلله المثل الأعلی، ویُعدُّ کل مثل فی حقه ناقصاً مهما ارتفع شأنه؛ وذلک لأن أمثلتنا من عالم الموجودات الممکنة، وهی جمیعاً ناقصة ومحدودة، ولا یمکن تصویر اللامحدود بالمحدود. والآیة التالیة: «فَلَا تَضْرِبُوا للهِ الأمْثَالَ» تشیر إلی هذا المطلب. رغم ذلک، إذا أردنا بیان مثال لله تعالی فالآیة ۳۵ من سورة النور هی أنسب ما یمکن الاتیان به، فإنَّ الله هناک شُبِّه بالنور؛ وذلک لأنّه لا موجود أکثر فائدة وبرکة ولطافة وسرعة من النور، فإنَّ لله الامثال العلیا والرفیعة. سؤال: قد یخطر فی الذهن هذا السؤل: خلق الله کل شیء، لکن مَن خلق الله؟ الجواب: نعم، انَّ الله خلق کل شیء، لکن لم یخلق أحدٌ الله؛ وذلک لأنّ الله موجود أزلی وأبدی، أی کان ویکون وسوف یکون. إنّه لم یُخلق أبداً لکی نبحث عن خالق له. لأجل اتضاح المطلب نسترعی انتباهکم إلی المثال التالی الذی فیه صیاغة للامور المعقولة فی قوالب محسوسة: إنّ الفحم الحجری الذی هو نفایا الغابات فی العصور الغابرة معلول للطاقة الشمسیة. وحتی النفط الذی هو الآن أکبر مصدر للطاقة فی العالم معلول للطاقة الشمسیة؛ وذلک لأنَّه یقال: إنَ النفط عبارة عن بقایا أو مستحاثات الحیوانات فی العهود الماضیة دُفنت لتتحول إلی هذه المادة بعد قرون. ومن الطبیعی أنَّ الحیوانات تتغذی من النباتات، والاخیرة تفید من نور الشمس ولو لم تکن الأخیرة لما کانت النباتات. إنَّ المحرکات الضخمة التی تُنصب علی الشلالات لأجل تولید الطاقة تستمد طاقتها من الشمس بالشکل التالی: الشمس تسطع علی البحار، فتتبخّر میاه البحار، فتتبدل المیاه إلی سحب، لتتنزل علی الأرض تارة اخری بشکل مطر وغیث مبارک، وهذه الامطار تتبدل إلی سیول تحرک المحرکات لتوّلد الطاقة الکهربائیة. أما طاقة الشمس فذاتیة، أی لا تصلها من خارج الشمس، بل فی الشمس نفسها ما یمنحها الطاقة دون الحاجة إلی ما هو خارج عنها. وعلیه، رغم أنَّ الشمس مخلوقة إلّا أنَّها لا تحتاج إلی من یولّد لها الطاقة. وهذا المثال یمکنه امثال القران، ص: ۲۵۸ أن یوضح أزلیة الله وأبدیته وأنه غنی عن الخالق ومن یمنحه الوجود أو السلطة. فی النتیجة: انَّ التفسیر الثانی للآیة الشریفة یجعل الآیة من أمثال القرآن.

ارتباط آیة المثل بسابقتها

تحدثت الآیات التی سبقت هذه الآیة (أی الآیات ۵۷ و ۵۸ و ۵۹) عن العادات والعقائد القبیحة لعرب الجاهلیة التی منها وأد البنات. جاء فی الآیتین ۵۸ و ۵۹ ما یلی: «وإذَا بُشِّرَ أحَدُهُم بالأنْثَی ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ کَظِیْمٌ یَتَوَارَی مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوْءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أیُمْسِکُهُ عَلَی هَوْنٍ أمْ یَدُسُّهُ فِی التُّرابِ ألَا سَاءَ مَا یَحْکُمُونَ». المستفاد من الآیتین هو أنَّ العرب کانوا یغتمون إذا رزقوا بنتاً، وهذا أمر یجعل الجمیع یتساءل عن سبب ذلک.

لماذا کان عرب الجاهلیة یئدون بناتهم؟

إنَّ الدراسات کشفت عن وجود علتین لهذه الظاهرة: ۱- کانوا یظنون أنَّ الذکور مولّدون للثروات والمال، أما البنات فمستهلکات لهذه الثروة. ما کان للنساء آنذاک نشاط اقتصادی، أما الذکور فکانوا ینتجون فی قطاعات اقتصادیة مختلفة أو فی مجال السرقات

وقطع الطریق وما شابه. لذلک کانوا یقولون: إن حقّ العیش خاص بالذکور، أما الاناث فلا حقّ لهنَّ فی الحیاة الدنیا. ۲- التعصّب الأعمی، یقال: إنَّ حرباً حصلت بین قبیلتین من العرب، وقد أسرت القبیلة المنتصرة رجال ونساء وبنات القبیلة الخاسرة. وفی فترة الأسر تزوجت نساء القبیلة الخاسرة من رجال القبیلة المنتصرة. وبعد زمن انتهی أمر القبیلتین إلی الصلح وتبادل القبیلتان أسراهم، لکن النساء اللاتی تزوجن رفضن الرجوع إلی قبیلتهن، الأمر الذی تبع ملامات وافرة ضد تلک النساء. ومن شخصیات القبیلة الخاسرة شخص أقسم أن یقتل البنت امثال القران، ص: ۲۵۹ إذا ولدت له لکی لا یری بعد ذلک عاراً کهذا. «۱» سری هذا المرض تدریجیاً إلی الآخرین، لیتخذ هذا الذنب العظیم عنواناً مقدساً مثل (الدفاع عن العرض) أو (حفظ الغیرة والحمیّة) وما شابه ذلک. لقد أصبح متعارفاً فی الوقت الراهن أن ترتکب الجرائم العظمی بعناوین مقدسة، ومن جملة تلک العناوین هی عنوان (حقوق البشر)، وبهذا الشعار یسلبون حقوق الکثیر من الناس والشعوب. کما أنهم یأسرون الإنسان تحت عنوان (الحریة) أو یقترفون الذنوب والجرائم تحت عنوان (التحضّر)، وهی جرائم لم یرتکبها الإنسان البدائی وغیر المتحضّر. علی أی حال، إنّ عرب الجاهلیة کانوا ملوّثین بهذا الذنب العظیم، إلّا أن مجیء الإسلام أغلق اضبارة هذه الجریمة العظمی لیتوج الإنسانیة ویقدّم للنساء خدمة عظمی. من جانب آخر، هؤلاء العرب الذین کانوا یعتبرون البنات موجودات مشؤومة، کانوا یعتقدون أنّ ملائکة الله بنات، وکانوا یعبدونها لیکسبوا رضا الله. ولذلک جاء فی الآیة ۵۷ من سورة النحل ما یلی: «وَيَجْعَلُونَ لِلهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ». خاطب الله فی الآیة العرب وکلمهم بالمنطق الذی یعتقدون به، وسألهم إذا کنتم تعدّون الملائکة بنات الله، فلماذا تئدون البنت عندما یرزقکم الله إیاها؟! بالطبع ترسبات هذا الفکر الجاهلی لا زال موجوداً فی أذهان البعض، ولذلک عندما یریدون رسم الملائکة یرسمونها علی شکل بنات.

البنت کشدّة الورد

من المؤسف أنَّ هذا الفکر الجاهلی الخاطیء لا زال یشغل حیزاً فی أدمغة بعض العوائل ولا یرون مساواة بین الذکر والانثی، ویتأذون من سماع ولادة بنتٍ لهم. امثال القران، ص: ۲۶۰ هناک الکثیر من الروایات فی مصادرنا الإسلامیة تبنّت الردّ علی هذه الافکار، نشیر إلی نموذجین منها، نأمل أن نزیل بهما وبالروایات الاخری هذه الافکار المشؤومة. ۱- بُشِّر النبیّ صلی الله علیه و آله بابنةٍ فنظر إلی وجوه أصحابه فرأی الکراهة فیهم، فقال: «مالکم؟ ریحانة أشمّها ورزقها علی الله عزّوجلّ». «۱» کثیر من الاولاد کانوا وبالًا علی والدیهم وسبباً لنکستهم، وکثیراً من البنات کنّ سبباً لرفعة رأس والدیهن. إن فاطمة الزهراء (علیها السلام) کانت فخراً لابیها، ونسل الرسول صلی الله علیه و آله کله یرجع إلی هذه البنت. ۲- جاء فی ذیل الآیة الشریفة: «وأمّا الغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِيْنَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً فأَرَدْنَا أنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرَاً مِنْهُ زَكَوةً وَأَقْرَبُ رُحْماً» «۲» إنَّ الله رزق هذین الأبوین بنتاً کانت کشدة الورد، لا أنّها لم تسبب نکسة للابوین فقط بل کانت سبباً لرفعة رأسهم، وذلک لأنَّ سبعین نبیّاً کان من نسلها، «۳» فهل هذه البنت شؤم والذکر جید وحسن؟! وفقاً لآیة المثل، إنَّ الکفار بالله وبالیوم الآخر لهم أسوأ الامثال، وکلامهم بذیء، ویعتقدون أنّ لله بنات، مع أنَّه لیس کذلک، فهو لم یلد ولم یولد. لحیثیتین یحتاج الإنسان إلی ولده: الاولی: أنَّ عمر الإنسان محدود، ویحتاج الإنسان إلی الاولاد لکی یحافظ علی نسله. الاخری: لا یتمکن الإنسان الحفاظ علی قواه حتی نهایة عمره، بل یضعف الإنسان کثیراً ببدایة الکهولة، وحینئذٍ یحتاج إلی من یعتمد علیه ویعینه فی تلک الأیام. اما بالنسبة إلی الله، فهو أزلی وأبدی ولا معنی للموت بالنسبة إلی ذاته المقدسة، کما أنَّه قادر وقوی مطلقاً فلا یحتاج إلی الولد ذکراً أو أنثی. اضافة إلی هذا، امتلاک الولد یستلزم الجسمانیة، وبدیهی أن ذات الحق لیست جسماً «تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيْرَاً».

المثل السابع والعشرون: عبید الأصنام وعباد الله

اشارة

یقول الله تعالی فی المثل السابع والعشرین وفی الآیة ۷۵ من سورة النحل ما یلی: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدَاً مَمْلُوکاً لَا یَقْدِرُ عَلَی شَیءٍ وَمن رَزَقْنَاهُ مِنّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ یُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْرَاً هَلْ یَسْتَوُونَ الحَمْدُ للهِ بَلْ أکْثَرُهُمْ لَا یَعْلَمُونَ».

تصویر البحث

تحدّث الآیة عن عبید الأصنام والمؤمنین. ویشبّه الله عبدة الأصنام هنا بالعبد المملوک الذی لا یملک شیئاً من المال، کما أنّه غیر حرٍّ فی اتخاذ القرار. أمّا المؤمنون فإنّ الله هو رازقهم، کما أنهم یشرکون الاخرین بأرزاقهم، وذلک بالانفاق سراً وجهراً.

ارتباط آیة المثل بسابقاتها

تحدثت الآیات السابقة عن عبادة الأصنام، وعن سبب عبادة الإنسان لموجودات لا یمکنها حل أی مشکلة من مشاکله، رغم أنّه عاقل والمفروض بأعماله أن تکون هادفة. من هنا جاء فی الآیة ۷۳ من نفس السورة ما یلی: «وَیَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا لَا یَمْلِکُ لَهُم رِزْقاً مِنَ السّمَاوَاتِ والأرْضِ شَیْئاً وَلا یَسْتَطِیعُونَ».

دوافع العبادة

للعبادة دوافع عدیدة، ومن دوافع عبادة الله القادر هو قضیة "شکر المنعم، "فالإنسان امثال القران، ص: ۲۶۲ عندما ینظر إلی ذاته وحوالیه یری نفسه غارقة بالنعم العدیدة من العین والاذن والید والرجل والفکر والسماء والأرض والشمس والهواء والاشجار والغابات وأمثال ذلک، ولهذا یحکم وجدانه بضرورة شکر المنعم وتقدیره. هل یمکن شکر المنعم دون معرفته؟ من هنا کان الشکر سبباً لمعرفة الله. وعلیه، شکر المنعم هو من دوافع عبادة خالق المخلوقات. قد یکون المعبود خالیاً من التأثیر علی حیاة الإنسان، لا أنه لا فائدة فیه، ولا- یزوّد عابدیه بأی خیر، بل إنّه لا یستطیع الدفاع حتی عن نفسه، وهو بحاجةٍ إلی حمایة الاخرین. وإنّ موجوداً کهذا لیس أهلًا للعبادة، ولا شک أنّ عقل الإنسان یرفض هذا النوع من العبادة. بالطبع، إنَّ عبدة الأصنام لا یعدون أصنامهم هی خالقة المخلوقات، بل حسب ما ورد فی القرآن: لو سألناهم مَن خلق السماوات والأرض لأجابوا: الله هو الذی خلقها «۱» لا أصنامهم العاجزة. وهذا یکشف عن أنّهم لم یکونوا مشرکین فی الخلق، کما أنّهم کانوا یعدّون الله الرازق الوحید. «۲» غایة الأمر أنَّهم کانوا یعتقدون أنَّ الاصنام تبتُّ بحل المشاکل بشکل مباشر ومستقل أو کشفعاء عند الله، لذلک جاءت الآیة ۳ من سورة الزمر لتقول: «ألا للهِ الدّینُ الخَالِصُ والّذِین اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أوْلِیَاءَ ما نَعْبُدُهُمْ إلَّا لِیُقَرِّبُونَآ إلَی اللهِ زُلْفَی». لا شک أنَّ کلام المشرکین باطل وواضح عدم صحته، کیف یمکن لأصنام أن تحلّ مشاکل الآخرین رغم أنّها عاجزة عن حلّ مشاکلها ذاتاً. وفقاً لما جاء فی النص القرآنی، فإنَّ إبراهیم علیه السلام عندما حطّم الأصنام (فی تلک القصة المعروفة والجمیلة) قال: «أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا لَا یَنْفَعُکُمْ شَیْئاً وَلَا یَضُرُّکُم أُفٍّ لَکُم وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». «۳» امثال القران، ص: ۲۶۳ فالإنسان العاقل- إذن- لا یستسلم ولا یرکع أمام أصنامٍ کهذه. تعقیباً علی ما ورد فی هذه الآیات من نهی الإنسان عن عبادة الأصنام جاءت آیة المثل.

الشرح والتفسیر

الآیة سعت للتمییز بین المؤمن (عبدالله) والمشرک (عابد الصنم)، فشبّهت المشرک بالرق الذی لا إرادة له بل إرادته تابعة لمولاه، کما أنّه لا یملک شیئاً من المال ولا یملک قرار نفسه، بل إنَّ بعض المالکین یجیزون لأنفسهم قتل عبیدهم فی حالة الغضب والضجر، فهم کانوا یعتقدون أنَّ المالک له الحق فی التصرف بأمواله بأی شکل شاء. إنّ المشرکین لهم شأن کهذا الرق الذی یفقد الارادة

والاختيار. أمّا المؤمن الموحّد فهو بمثابة الإنسان الحر الذى رزقه على الله هنيئاً مريئاً، ويشـرك الاخرين فى هذا الرزق الحسن بالانفاق إليهم فى السر والعلانية. هل يتساوى هذان الاثنان؟ طبعاً لا يتساوون. إنَّ الذى جرّ هؤلاء المشركين إلى هذا العمل هو جهلهم.

خطابات الآية

۱- العبيد فى الإسلام

هل امتلاک العبيـد أمر مطلوب؟ هل يسـمح الوجدان البشـرى بممارسة العبودية؟ لماذا لم يحرر الإسـلام العبيد عند ظهوره؟ ولماذا لم يلغ هـذه الظـاهرة بالكامل؟ لماذا هناک احكام خاصـة فى الفقه تتعلق بالعبيـد؟ لماذا لم يتساو العبيـد والاحرار فى حقوقهم الإنسانيـة؟ وآخر سؤال هو: هل تتفق روحية العبودية مع الإسـلام الذى هو دين فطرى؟ إنَّ جواب الاسئلة الماضية نجدها فى كتاب مستقل يحمل عنوان (الإسلام وتحرير امثال القران، ص: ۲۶۴ العبيد) «۱» وكذلک فى محال متعددة من تفسير الأمثل، رغم ذلک نشير إلى الاجابات بشـكل مختصـر هنا: إنَّ تحرير العبيـد من الأهـداف المهمـة لـدين الإسـلام، وقـد تحقق هـذا الهـدف تـدريجياً وبمرور الزمان. وينبغى الالتفات هنا إلى أنَّ ظاهرة سيئة ما إذا تجذّرت فى المجتمع فلا يمكن اقتلاعها فى فترة قصيرة، بل ينبغى اتخاذ اجراءات ابتدائية خاصة لأجل اجتثاثها من المجتمع، وفى غير هذه الحالة، فان مشاكل جمة ستواجه المجتمع والقائمين على اصـلاح سـلوكياته. لو بتَّ الرسول صلى الله عليه و آله منـذ البداية بإلغاء هذه الممارسة مباشـرة، وقام المسـلمون بتحرير عبيدهم (الذين يفقدون رأس المال) وبإخراجهم من بيوتهم، لأدى ذلـک إلى مشاكـل عديـدة ومفاسـد اجتماعيـة من قبيـل السـرقة والزنـا واللواط، وهم فى النتيجـة سـيهدمون أساس المجتمع، لـذلک كان تحريرهم المفاجىء أمراً غير صـحيح. من هنا وضع الإسـلام منهجاً تـدريجياً خاصاً لتحرير العبيـد ولضـمهم إلى المجتمع الحر ومن دون حصول هذه المشاكل المحتملة. عمل الإسـلام فى البداية على قطع مناشىء التعبيد فى المستقبل، لكى لا يُرقّ إنسان فيما بعـد، ولم يبق إلّا طريق واحـد وهو الإسترقاق عن طريق الحرب، وذلک عنـد أسـر الأعـداء، رغم ذلک جعل الإسـلام بديلًا لـذلک حيث منـح المسـلمين الحق فى تحرير الاسـرى أو تبـديلهم بفديـة، ومن جانب آخر أكـد على اسـتحباب تحرير العبيـد وفرض لذلک ثواباً عظيماً «۲» لكى يتشـجّع المسـلمون على تحرير عبيـدهم. وقد ورد فى بعض الروايات أن عليّاً أعتق ألف عبدٍ من كدّ يده. «۳» كما قد جاء فى رواية أن الإمام الحسن عليه السلام حرّر جارية له بمجرد أن أهدت له يوماً زهرة، امثال القران، ص: ۲۶۵ وقال لها: «أنتِ حرة لوجه الله»، وبعـد تعجب أحـد أصـحابه على عمله هذا، قال له: «أدّبنا الله تعالى». «۱» وتمشـياً مع مبدأ التحرير المطلق للعبيد، فرض الإسلام تحرير الرقّ ككفارة لكثير من الذنوب. إنَّ الشخص إذا أفطر فى شهر رمضان عمداً، فعليه- اضافة إلى القضاء- الكفارة، وأحـد خيـارات الكفـارة المفروضـة هـو تحرير عبدٍ، وكـذا الحـال بالنسبة إلى حنث اليمين والعهـد والنـذر فـإنَّ تحرير عبـد هو أحد الخيارات المفروضة هنا. وبهذا المنهج الدقيق للإسلام تحقق التحرير التدريجى للعبيد، قبل أن تُعلن الدنيا عن قرار تحرير العبيد بمئات السنين.

۲- العبودية المتطوّرة

يعتبر القرآن المجيد المؤمنين أحراراً والمشـركين عبيداً. ومن هنا ندرک أنَّ مصطلح (العبيد) لا ينحصر فى معناه المتعارف، بل هناک أنواع اخرى للعبودية، وهى عبودية الشهوة والهوى والهوس والمال والثروة والجاه والمقام وأصناف اخرى للعبودية المتطوّرة. يقول ابن عباس: «إنَّ أول درهمٍ ودينارٍ ضـرباً فى الأرض نظر إليها إبليس فلمّا عاينهما أخذهما فوضـعهما على عينيه، ثمّ ضـمّهما إلى صدره، ثمّ صرخ ثم ضـمهما إلى صـدره ثمّ قال: أنتما قرة عينى، وثمر فؤادى، ما ابالى من بنى آدم إذا أحبّوكما أن لا يعبدوا وثناً، حسبى من بنى أدم أن يحبّوكما». «۲» أى أن صـنم المال والثروة وعبوديـة المال والـدنيا هى أخطر من العبوديـة المتعارفة. العالم اليوم الذى أعلن عن

تحرير العبيـد، هو فى الحقيقة غيّر نوعية العبودية ولم يزلها بالكامل. أرباب القوى العظمى عند تبريرهم للجرائم التى يرتكبونها يقولون بصـراحة: إنَّ هـذه الجرائم تقتضـيها مصالحنا، فإنَّه لو لم يكن هناك حرب وإهراق للدماء وقتل واختلاف وتفرقة، فإنَّ معامل الاسـلحة ستتعطّل. ألم يكن هذا شركاً وعبادة للأصنام؟! امثال القران، ص: ۲۶۶ أليس هؤلاء أسرى أموالهم وثرواتهم وعبيداً لها؟! هناك بعض يغتمون كثيراً ويقيمون العزاء لأجل حرمانهم من تجمّلات الدنيا وزخرفها! إن هؤلاء أسرى حقيقيون.

يوسف عليه السلام إنسان حر

المستفاد من القرآن المجيد هو أنَّ زليخا (زوجة عزيز مصر) لم تكن الوحيدة التى دعته لتنفيذ رغباتها وشهواتها الشيطانية، بل إنَّ كثيراً من نساء اشـراف مصـر وكبارها كنَّ يشـجّعن يوسف عليه السـلام على إطاعة زليخا والقيام بهذا العمل الشيطانى، لذلك جاء فى كلام يوسف عليه السـلام: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلى مِمَّا يَدْعُونَنِى إلَيْهِ». «۱» هناك احتمالات فى مضـمون الكلام المسـتخدم لتشجيع يوسف عليه السـلام، فقـد يكون مضـمون الكلام هو: (يوسف! أنت شاب وزليخا إمرأة جميلة فلماذا لا تستسـلم لها)؟ وقد يكون: (إذا لم تهو جمـال زليخا وحسـنها، فلا أقل فكّر فى مقامها وجاهها، فانك قـد ترتقى مقاماً من خلالها)، وقـد يكون: (إذا لم تكن من أهل الجمال والجـاه والمقـام، فخف انتقام زليخا وطعنها بك). أما يوسف الحر فقـد قاوم هـذه الوساوس التى تقمّصت ثياباً جميلـة وجذابـة ورجّح عبوديـة الله على أى شـىء آخر وقال: «رَبِّ السِّجْنُ أحَبُّ إِلَى مِمّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ». إلهى! إنَّ هـذه النسوة الملوّثات يدعننى لتحمّل أسـر الهوى والهوس، وأنا أبغى الحرية وأحبها رغم أنّها قد لا تحصل إلّا فى الزنزانات والسـجون، وذلك أحب إلى من أسر النفس الأمارة، يا إلهى العظيم! إنّ هذه المحنة عصـيبة جداً وأنا غير قادر عليها لوحدى فلا تتركنى دون عناية منك، ولا تكلنى إلى نفسـى طرفة عين. انَّ الله أعان يوسف الحر وجعله يعيش الحريـة فى سـجون العزيز، التى اقترنت مع رفعـة رأس وافتخار، كما أنها كانت مقدمة لحكومته وسـلطانه وإثبـات نزاهته وطهارته. امثال القران، ص: ۲۶۷ إنَّ يوسف عليه السـلام لو لم يـذهب إلى السـجن لما توافرت له فرصة تعبير المنام، وتعبير المنام لو لم تتوافر فرصته لما تبرّء من الاتهامات ولما اقترب من السلطان ولما حكم فى النهاية. إلهى! نحن جميعاً أسارى الهوى والهوس نوعاً ما، لكن نحب أن تنقذنا من أسرنا، فأعنّا على ذلك.

على عليه السلام حرٌ آخر

من التفاسير الواردة فى تفسير المؤمن الـذى ورد فى آيـة المثـل هو الإمـام على بن أبى طالب عليه السـلام. «۱» نعم إنّه كـان حرّاً من عبوديـة الهوى والهوس والمال والثروة. كان ينفق كل ما عنـده من ثروة فى سبيل الله حتى فى اثناء الصـلاة. نال الحكومة الظاهرية بعد سكوت وقعود فى البيت ومظلومية تحملها مدة سـنوات، وقد أصبـح آنذاك حاكماً وذا سـلطة، رغم ذلك ما كان يجرؤ على التلاعب فى بيت المال وإنفاقه بما تروق له نفسه. وقصـته مع أخيه عقيل خير شاهـد على هذا، ولنقرأ القصة على لسان أخيه هنا، وقد مرّت على لسان الإمام على عليه السـلام فيما سـبق: «أقويت (أى افتقرت) وأصابتنى مخمصة شديدة، فسألته فلم تند صفاته (التعبير كناية عن بخل الإمـام) فجمعت صبيانى وجئته بهم والبؤس والضـر ظاهران عليهم. فقال: (ائتنى عشـية لأدفع إليك شـيئاً)، فجئته يقودنى أحـد ولـدى، فأمره بالتنحى ثم قال: (ألا فدونك)، فأهويت حريصاً قد غلبنى الجشع (الحرص الشديد) أظنها صـرّة، فوضعت يدى على حديد تلتهب ناراً، فلمّا قبضـتها نبـذتها وخرت كما يخور (أى يصـيح) الثور تحت جازره، فقال لى: (ثكلتك امّك هـذا من حديـدة أوقـدت لها نار الدنيا، فكيف بك وبى غداً إن سـلكنا فى سلاسل جهنّم)؟ ثم قرأ: «إِذْ الأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِم وَالسَلَاسِلُ يُسْحَبُونَ» «۲» ثم قال: (ليس لك عندى فوق حقك الذى فرضه الله لك إلّا ما ترى) فانصـرف إلى أهلك». «۳» امثال القران، ص: ۲۶۸ إنَّ عقيل قام ليخرج بعد ما رأى فى هـذا الحاكم الصـلابة وعـدم اسـتعداده للعدول عن طريق العدالة ولو للحظة واحدة. هل نعلم على طول التاريخ حاكماً قادراً يعامل أخـاه هـذه المعاملـة، التزاماً بالعدالـة؟ إلهى! وفّق مسؤولينا للعمل كما كان يعمل الامراء الاحرار، لكى يقـدموا الضوابط والقوانين على

العلاقات.

المثل الثامن والعشرون: المؤمن والمشرک

اشارة

یقارن الله فی الآیة ۷۶ من سورة النحل بین المشرک والمؤمن ویقول: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَیْنِ أحَدُهُمَا أَبْکَمْ لَا یَقْدِرُ عَلَی شَیءٍ وَهُوَ کَلٌّ عَلَی مَولَیهُ أیْنَمَا یُوَجِّهَهُ لَا یَأتِ بِخَیْرٍ هَلْ یَسْتَوِی هُوَ وَمَنْ یَأمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیم».

تصویر البحث

عنت الآیة بالمقارنة بین الإنسان المؤمن والإنسان المشـرک، وقد قارنت الآیة بین الاثنین بمثل جمیل ودقیق بحیث لا یمکن إثره انکار الفوارق بین الإنسـانین، وبخاصـة إذا لاحظنا الصـفات التی ذکرت للمشـرک فی الآیـة، فانَّ ملاحظتها یفرض علینا القول بعـدم امکانیة المقارنة بینهما لشدة الاختلاف فی هذه الصفات.

الشرح والتفسیر

«وَضَـرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَیْنِ» فی هذا المثل قارن الله بین شخصـین الأوّل وهو المشرک یحمل الصفات الخمس التالیة: ۱- «أَحَدُهُمَا أبْکَمٌ» أی أنّه أخرس. وأبکم مفردة اخری للاخرس، والفرق بینهما أن الأخرس هو الـذی عرضت له هذه الحالة أثناء حیاته، ولم یکن أخرس منـذ الولادة. أمّا الأبْکَم فهو الـذی یلـد علی هـذه الحالة. امثال القران، ص: ۲۷۰ وقـد أضاف بعض من أهل اللغـة أن الابکم هو الذی یکون علی هذه الحالة منذ الولادة، والسبب عقلی أی الضعف فی قواه العقلیة، فهو یعانی من تخلف عقلی. وعلی هذا فالابکم صاحب دماغ ضعیف وسقیم، ویشبّه الله المشرک بهذا الذی یلد ضعیف العقل. ۲- «لَا یَقْدِرُ عَلَی شَیءٍ» الخصلة الثانیة لهذا الإنسان هی أنّه غیر قادر علی عمل شـیء، فهو ضـعیف روحیاً وجسـمیاً. ۳- «وَهُوَ کَلٌّ عَلَی مَولَیهُ» الخصـیصة الاـخری لهـذا الإنسـان أنّه کلٌّ أو ثقل علی الآـخرین، أی أنّ هـذا العبـد ثقل علی مولاه. المتعارف أنَّ الناس یقتنون العبیـد لأجل حلِّ مشاکلهم، إلّا أن العبـد هـذا، لا أنه لم ینجز عملًا انتاجیاً أو خدمـة ما فحسب، بل هو مسـتهلک بحت ولذلک کان کلًا علی مولاه. ۴- نسـتفید من العبارة الماضیة أن هذا الشخص عبد ولیس حراً، بعبارة اخری انه ملک لغیره لا لنفسه ولا یملک إرادة نفسه. ۵- «أیْنَمَا یُوجّههُ لَا یَأتِ بِخَیْرٍ» آخر خصلة له أنه لا یتوقّف فی أی عمل یقدم علیه، ویرجع منتکس الرأس کلّما ارسل لقضاء حاجة. وعلی هذا، فإنَّ المشـرک یبدو شخصاً یحمل الصفات التالیة: ۱- عبد یفقد الارادة. ۲- أبکم منذ الولادة. ۳- لا یستطیع انجاز عملٍ ما. ۴- کَلٌّ علی مولاه. ۵- فاشل فی جمیع أعماله. «هَلْ یَسْتَوِی هُوَ وَمَنْ ...» أی هل یستوی هذا الإنسان الحامل لهذه الصـفات مع إنسان ستأتی صفاته؟ الإنسان الآخر (المؤمن) الذی سنبثُّ بتوصیفه یحمل خصـلتین ممتازتین وبارزتین: ۱- «یَأمُرُ بِالعَـدْلِ» أول خصائصه أنّه یأمر بالعـدل والقسط، أی أنَّه عادل ویعمل طبقاً لما تسـتلزمه العدالـة. وأمره بالعدالـة یکشف عن شخصـیته القیادیـة والاداریة. امثال القران، ص: ۲۷۱ ۲- «وَهُوَ عَلَی صِـرَاطٍ مُسْـتَقِیم» فهذا الإنسان اضافـة إلی عـدالته وأمره بهـا، یحضـی بخصـیصة اخری، وهی أنَّه یخطو علی الصـراط المسـتقیم. قـد یکون البعض من طلّاب العـدالة والقسـط فی المجتمع، لکن بمـا أنّ مسـاعیهم لم تنشأ ولم تصب فی الطریق الصواب والصـحیح فهی کثیراً ما تنتهی إلی الظلم والجور. وقـد نجـد شخصـیات من الشـیوعیین یطـالبون بالعدالـة حقاً، لکنهم سـلکوا طریقاً غیر صائب لاجل تحقیق العدالـة، فانتهی أمرهم إلی جرائم کثیرة وبشـعة اقترفوها خلال سـبعین عاماً من حکومتهم. إذن، مثل المؤمن مثل الإنسان العادل والطالب للعدالة الذی یسیر علی طریق الحق والصواب، أما مثل الکافر فمثل العبد الابکم الذی لا إرادة له و .... وهل یتساوی (مع هذه المفارقة) المشرک والمؤمن؟ لا

شک أنه لا یوجد من ینکر المفارقة هذه.

خطاب الآیة

الشرک وعبادة الأصنام فی القرن العشرین

یتصور البعض أنّ عهد الشرک وعبادة الأصنام قد ولّی ولا یوجد مشرک حالیاً، مع أنّ الواقع لیس کذلک، فهناک مشرکون وعبدة للأصنام؛ وذلک لأنَّ للشرک (ذلک البلاء المهلک) أنواعاً وأقساماً کثیرة. من هنا قال القرآن: «وَمَا یُؤمِنُ أَکْثَرُهُمْ بِاللهِ إلّا وَهُم مُشْرِکُونَ». «۱» نعم، إنَّ أکثر الذین یدّعون الایمان نجد فی معتقداتهم عروقاً من الشرک تصب فی قلوبهم. لو قیل للذی ادّخر مالًا وأعدّ لنفسه ثروة ضخمة: انَّ هذه الثروة لیست لک، وأنت مجرد أمین علیها، فاعط المحتاجین کما نصّت الآیة علی ذلک: «وَأَنْفِقُوا مِمّا جَعَلَکُم مُسْتَخْلَفِیْنَ فِیْهِ». «۲» امثال القران، ص: ۲۷۲ لأجاب: لی أولاد وبنات وهم مقبلون علی الزواج وعلی دخول الجامعات، ومصارفهم کثیرة وثقیلة ... إنّ هذا المسلم مشرک فی الحقیقة؛ وذلک لأنَّه غیر مقتنع برازقیة الله بشکل کامل، وتوحید رازقیة الله عنده ناقص، وإلّا فإنَّ الله الذی کان قادراً علی حفظ هؤلاء الأطفال فی أرحام امهاتهم قادر علی إعانتهم فی الدنیا إلی نهایة عمرهم. إنّ المترائین الذین یتظاهرون بعبادة الله أمام الناس، لأجل کسب العزة والجاه عند الناس، هم فی الحقیقة یمارسون الشرک بتظاهرهم هذا؛ لأنَّ الآیة ۲۶ من سورة آل عمران نصّت علی أنّ الذل والعز بید الله تعالی لا بید هؤلاء الناس الفقراء إلی ربّهم «قُلِ اللَهُمَّ مَالک المُلْکِ تُؤْتِیَ المُلْکَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ المُلْکَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلّ مَنْ تَشَاءُ ...». إنّ المشرک ضعیف وفاشل ووحید دائماً، أما المؤمن الموحّد والآمر بالعدل والسائر فی الطریق الصواب فإنَّ الله معه دائماً. لذلک یقول الله تعالی فی الآیة ۵۱ من سورة غافر: «إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والّذِیْنَ آمَنُوا فِی الحَیاةِ الدُّنْیا وَیَوْم یَقُومُ الأشْهَادُ». کما قال الله فی الآیة ۳۰ من سورة فصلت المبارکة: «إنّ الّذینَ قَالُوا ربّنا اللهُ ثُمّ استَقَامُوا تتَنَزَّلُ عَلَیْهِمُ المَلائِکَةُ ألّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وأبْشِرُوا بالجَنّةِ الّتی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ» حسب ما صرّحت به هذه الآیة، فإنّ الله یعین المؤمنین من خلال إرسال الملائکة إلیهم. وعلی هذا، فإنَّ الشرک (الذی هو منشأ کثیرٍ من المفاسد) لا زال موجوداً فی عالمنا الیوم، وله أقسام عدیدة علی المؤمنین أن یتبرؤوا منها. من الآیات التی فُسّرت فی الإمام علی علیه السلام هی هذه الآیة (آیة المثل)، وحسب ما جاء فی روایة وردت عن أهل البیت علیهم السلام: أنَّ المُرَاد من «مَنْ یَأمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیم» هو الإمام علی والائمّة المعصومون علیهم السلام. «۱» بالطبع هذا لا یعنی عدم شمول الآیة للآخرین، بل الروایة تعنی أنَّ علیاً والائمة علیهم السلام هم امثال القران، ص: ۲۷۳ أبرز مصادیق هذه الآیة. «۱» نعم، إنّ عدالة علی علیه السلام بمستوی جعلته یستحوذ لا علی قلوب المسلمین فحسب، بل علی قلوب جمیع الأحرار فی العالم. من هنا یقول الکاتب المسیحی (میخائیل نعیمة): لا یختص علی بالمسلمین فحسب، بل نحن المسیحیون کذلک نحب علیاً. حقاً کما قال، ولو کان الإمام علی علیه السلام مختصاً بالمسلمین فحسب لما کتب الکاتب المسیحی المعروف (جورج جرداق) کتاباً فی علی علیه السلام أسماه: (صوت العدالة الإنسانیة)، حیث تعامل فیه مع علی علیه السلام کمعاملة عاشق له، عاشق لفکره، عاشق لعدالته، عاشق لقلمه، عاشق لسلوکه واخلاقیاته، عاشق لتقواه. ویبدو أنَّ هذا الشخص ذاته الذی قال فی علی علیه السلام: یا دنیا! مالک لو تستنفری جمیع قواک لیکون لک رجل کعلی فی کل قرن، لکن أسفاً أن الدنیا غیر قادرة علی ذلک. هناک مطالب کثیرة وردت فی عدالته، إلّا أنّ بعضها باعتبار شهرتها لم تنل الاهتمام الدقیق والکافی. إنَّ کثیراً من خطبه ورسائله فی نهج البلاغة تحکی عن عدالته، منها قصته المعروفة مع أخیه عقیل التی قد أشرنا لها فی البحوث الماضیة مراراً، وهی تشکل قصة لا مثیل لها فی التاریخ أبداً. وفی نفس الخطبة التی جاءت فیها قصة عقیل جاءت قصته مع الأشعث بن قیس المنافق الذی کان سبباً لکثیر من الاختلافات والإستفزازات والمؤمرات فی عصر حکومة الإمام علی علیه السلام. إنَّ هذا المنافق تخاصم مع مسلم علی قطعة أرض وقد وقعت اضبارة الاثنین بید علی القدوة فی العدالة. وفی لیلة أراد الاشعث إرشاء علی علیه السلام بإهداء حلوی له

فکـان جواب علی هو النفی والتأنیب، فهی إمّا رشوة أو صدقـة أو زکاة، وکلها حرام، فالرشوة حرام علی جمیع امثال القران، ص: ۲۷۴ القضـاة، وأمّا الزکاة والصدقـة فهی حرام علی آل الرسول جمیعاً. «۱» أراد الأشـعث المنافق أن یکسب الموقف ولو بطلی الباطل صبغة الحقّ، حیث قال: إن هـذه هدیـة، وهی لا تـدخل فی العناوین السابقـة، ولکل مسـلم الحقّ بأن یهـدی، وردّها غیر صـحیح. «۲» فاجابه: «هبلتک الهبول! أعن دین الله أتیتنی لتخـدعنی؟ أمختبط أنت أم ذو جنّةٍ، أم تهجر؟ والله لو أعطیت الأقالیم السـبعة بما تحت أفلاکها، علی أن أعصـی الله فی نملـةٍ أسـلبها جُلب شـعیرة ما فعلته، وإن دنیاکم عندی لأهون من ورقة فی فم جرادة تقضـمُها». نعم، الدنیا التی تُقترف الجرائم لأجل کسب مقدار قلیل من زینتها هی أهون من ورقة شـجرة فی فم جرادة. علینا نحن الشیعة أن ندرس أنفسنا ونراجع لنعرف إلی أی مـدی نتحلی بالعدالـة العلویـة؟ وأی مقـدار فهمنا من دروس عدالـة علی؟ وهل یا تری خطونا الخطوات الکافیـة لأجل ذلک، أم أنّا شـیعة فی القول واللسان فقط دون العمل؟ لا شک إذا کنا نبحث عن السـعادة والنجاة، فلا مفرّ من العبور من صراط علی، کما علینا التزام حبه وعشقه دائماً، لأنَّ السعی لا یجدی نفعاً إذا لم یقترن بالحب. امثال القران، ص: ۲۷۵

المثل التاسع والعشرون: حدیثوالعهد بالإسلام

اشارة

یقول الله فی الآیة ۹۲ من سورة النحل: «وَلَا تَکُونُوا کَالّتی نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْـدِ قُوَّةٍ أنْکَاثاً تَتَّخِذُونَ أیْمَانَکُم دَخَلًا بَیْنَکُمْ أنْ تَکُونَ أُمَّةٌ هِیَ أرْبَی مِنْ أمَّةٍ إنَّمَا یَبْلُوَکُمُ اللهُ بِهِ وَلَیُبیِّنّنَ لَکُمْ یَوْمَ القِیَامَةِ مَا کُنْتُمْ فِیْهِ تَخْتَلِفُونَ».

تصویر البحث

کان المسـلمون فی صدر الإسـلام أقلیة والمشـرکون یشـکلون الأکثریة. وتلک الثلة من الشباب، الذین عشقوا الرسول وآمنوا به، کانوا یواجهون ضـغوطاً من قبل عوائلهم وأصـدقائهم والمجتمع المشـرک عموماً، «۱» فبعض منهم مثـل أبی ذر وبلال وعمـار قاوموا جمیع الضـغوط وثبتوا علی عقیـدتهم وضـحّوا لأجلها وماتوا وهم مسـلمون، إلّا أنّ البعض الآخر لم یطق ملامـة المحیطین به (وهم الاکثریـة) واعتراضـاتهم، وارتـدّوا بعـد مـا اجتـازوا مراحل الإسـلام والایمان الصـعبة، والآیـة هـذه تعرضت للثلـة الاخیرة من المسـلمین المتزلزل إیمانهم.

الشرح والتفسیر

«وَلَا تَکُونُوا کَالّتِی نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْـدِ قُوَّةٍ أنْکَاثاً» یخاطب الله فی هـذه الآیـة حـدیثی العهـد بالإسـلام الـذین تحمّلوا مشاق الإسـلام والایمان وتخطّوا مشاکل هذه المرحلة وتتوجوا امثال القران، ص: ۲۷۶ بالإسلام أفضل دین سماوی، ویحذّرهم دون أن یکونوا کتلک التی نقضت غزلها بعـد أن تحملت مشاق ومتاعب الغزل والحیاکة. فإنَّ مثل الذی یرتد عن الإسـلام والایمان إلی الشـرک کمثل تلک السـفیهة أو البلهاء. اختلف العلماء فی اسم تلک السـفیهة، فبعض قال: انها رائطـة، وبعض قال: انها ربطـة، وبعض آخر قال: إنّها رابطـة. المهم أنها امرأة کانت تعیش فی عهد الجاهلیة ولشدة غبائها وبلهها کانوا یسمونها حمقاء. إنَّ ما کانت تعمله هذه الحمقاء المتموّلة هو أنّها فی صـباح کل یوم کانت تعدُّ صوفاً وتأمر جاریاتها بغزل الصوف، ثم تأمر الجاریات عصر ذلک الیوم بارجاع الغزل إلی الصوف، أی تأمر بنقض الغزل. وعملها هـذا کان یتکرر کل یوم. یحذّر القرآن الکریم حدیثی العهد بالإسـلام أن لا یعملوا بایمانهم واسـلامهم کما کانت تعمل هـذه المرأة الحمقاء بغزلها. «تَتَّخِذُونَ أیْمَانَکُمْ دَخَلًا بَیْنَکُمْ» أی لا تتخذوا قسـمکم ذریعة للخیانة والفساد ولا تتماطلوا فی بیعتکم مع الله. «أنْ تَکُونَ أُمَّةٌ هِیَ أرْبَی مِنْ أمَّةٍ» أی لاـ تتخـذوا قلتکم وکثرة المشـرکین ذریعـة لنقض بیعتکم مع الله ورسوله، فإنَّ

القلـة والكثرة ليسـتا إلّا ذرائع وتبريرات. «إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ» أى أنَّ هـذه القلـة فى العدد هى امتحان لكم، وما عليكم إلّا السـعى لأجل اجتيـازه بنجـاح. «وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيَامَـةِ مَـا كُنْتُمْ فِيْهِ تَخْتَلِفُونَ» لاـ شـك أنّ الله سـيبّين للجميع يوم القيامـة ما كان يختلف فيه الناس، وآنذاك سـيندم الكفار والمشـركون على عدم إيمانهم. هذا المثل جميل وبليغ وجذّاب جداً، كما أنَّه تحذير للمسلمين على أن يغزلوا حبال إيمانهم باستحكام وقوة خوف النقض بعد هذه المشاق والمتاعب وخوف الوقوع فى الشرك تارة اخرى.

خطابات الآية

۱- إنَّ الصوف إذا لم يُفتـل فلاـ فائـدة فيه، ولا يمكن صـناعة شـىء منه، أما عنـدما يُغزل، فاذا امثال القران، ص: ۲۷۷ كان غزله رفيعاً ودقيقاً تبـدل إلى خيوط تصلح لصـناعة الاقمشـة والسـجاد، وإذا كان سـميكاً تبـدل إلى حبال وأمكن صـناعة خيام صـحراوية منه. إنَّ المجتمع المتشـتت والمتفرق كالصوف غير المفتول لا يصـلح لشـىء، أما إذا اتحـد وتلاحم، فانّ ذلك سـيكون منشأ لخيرات وبركات كثيرة. ۲- إنَّ الصوف فى الحالات الاعتياديـة ضـعيف وهش ويـذهب به الريـح حتّى لو كان نسيماً، ولا قـدرة له على المقاومة، رغم ذلك فإنَّه لو افتل وغُزل باسـتحكام فقد نتمكن حمل أثقل السـلع بواسـطته، بل قد يتحكمون ويسيطرون على السفن الكبيرة من خلال ربط خطاف السـفينة به. ۳- إنّ السـبب الوحيـد لاسـتحكام هـذا الصوف هو اتحاد وتلاحم فتائله. نعم؛ إنَّ اتحاد هذه الفتائل والتنسـيق والتعاضـد فيما بينها وترك الاختلاف والتشـتت هو منشأ لخيرات كثيرة. وهذا يعلّم الإنسان أن فى ذاته قابليات كثيرة تكمن وتوجد فيه بالقوة، وهى قابليات إذا فتلت واسـتحكم غزلها فسـتثمر محاصـيل جديدة اخرى مثل الارادة ووحدة الكلمة والايمان والتوكّل على الله. من هنـا خـاطب القرآن المسـلمين بـأنهم فُتلوا بالايمـان، وعلى العاقل أن لا يفتـح فتائل الايمان هـذه. لقـد ورد فى خطبـة زينب (عليها السـلام) عنـدما وصـلت بوابة الكوفة وخاطبت الناس هناك: «إنّما مثلكم كمثل الّتى نقضت غزلها من بعد قوّة ...». «۱» والواقع كذلك حيث بايعوا علياً فى عهـده وبايعوا سـفير الحسـين مسـلم بن عقيل بعـد ذلك. وهذا أمر أحكم غزلهم لكنهم نقضوا هذا الغزل إثر وعد ووعيـد وتهديدات. وبذلك يثبت أنّ دعوتهم للإمام الحسـين عليه السـلام وإعلانهم عن الوفاء له لم تكن إلّا خدعة، وهم الآن يبكون ويقيمون المآتم عليه! إنَّ الـذى له باع فى الأدب العربى وطالع خطبـة زينب (عليها السـلام) يـدرك قيمـة هذه الخطبة. ونحن نعتقد أنَّ زينب (عليها السـلام) بعملها هـذا هزت عرش حكومة الشام، وكانت المقدمة لسـقوط بنى أُمَيَّة والثورات والحركات التى حصـلت بعد ذلك الحين.

أهمية الوفاء بالعهد

هناك الكثير من الروايات أكّدت على أهميـة الوفاء بالعهـد، نشـير إلى ثلاث منها: ۱- فى حديث قصـير للرسول صـلى الله عليه و آله يقول: «لا دين لمن لا عهـد له». «۱» هـذا الحـديث المهم يعنى أنَّ الـذى لا يلتزم بعهده يتساوى مع الذى لا دين له أبداً. والذى يعاهد اليوم وينقضه غـداً هو إنسان دون دين، فإنَّ الإنسان الـذى لا يفى بعهـده أمام خلق الله سوف لا يفى بعهـده أمام الله كذلك. ۲- يقول الإمـام على عليه السـلام فى عهـده لمالـك الاشتر: «۲» «وإن عقـدت بينك وبين عـدوّك عقـدة، أو ألبسـته منك ذمـة، فحط عهدك بالوفـاء، وارع ذمتك بالأمانـة، واجعل نفسك جُنّـة دون ما أعطيت، فإنّه ليس من فرائض الله شـىء الناس أشـدُّ عليه اجتماعاً، مع تفرّق أهوائهم، وتشـتُّت آرائهم، من تعظيم الوفـاء بالعهودِ». إنّ العالم اليوم يفى بالعهود وأكثر الـدول تلتزم بما تعهـدت به، وكـذا الناس فى عهـد الجاهلية وعهد عبادة الاصـنام، فإنّها سـنة لم تختص بالقرآن والمسـلمين فحسب بل عامة، ومما ينبغى على المسـلمين هو وفاؤهم بعهودهم مع الله ومع خلقه. ۳- يقول الإمام الباقر عليه السلام فى حديث جميل له: «ثلاث لم يجعل الله عزّوجلّ لأحد فيهنّ رخصة أداء الأمانـة إلى البرّ والفـاجر والوَفاء بالعهـد للبرّ والفاجر وبرّ الوالـدين بَرين كانا أو فاجرين». «۳» على مـا قرأنـا فى الآيات والروايات، فإنَّ الوفاء بالعهد يقع فى صدر قائمة أعمالنا. وإذا أراد عبد أن يستجيب الله لدعوته وطلباته عليه أن يفى بعهوده مع الله.

المثل الثلاثون: كفران النعمة

اشارة

يقول الله تعالى فى الآيتين ۱۱۲ و ۱۱۳ من سورة النحل: «وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأتِيْهَا رِزْقُهَا رَغداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأنْعُمِ اللهِ فَأذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَائَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأخَذَهُم العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ».

تصوير البحث

تعرّضت الايتان إلى مصير اولئك الذين لا يشكرون نعمَ الله بل يكفرون بها، ولأجل ذلك استحقوا العذاب الشديد من الله.

الشرح والتفسير

«ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً» شبّه القرآن المجيد الكافرين بنعم الله والمنكرين لها بالقرية «۱» المعمورة التى تحضى- بسبب عمرانها المادى والمعنوى- بالمواصفات الأربع التالية: ۱- «آمنة»، إنَّ الأمان هو أوّل صفة لهذه القرية، وباعتبار أنَّ نعمة الأمان أهم النعم امثال القران، ص: ۲۸۰ الإلهية لذلك قدّمها على غيرها من النعم على ما يبدو. فى الحقيقة، الامان إذا كان مفقوداً فى مكان ما فإنَّ المكان سيفقد الإقتصاد السليم، كما أنَّه سيفقد امكانية التعليم والصناعة والتقنية الحديثة، وامكانية العبادة وأداء الشعائر الدينية، وخلاصة سوف لا يُنجز عمل بشكله الصحيح إذا لم يقترن بالأمان. إنَّ شعب ايران الأبى سوف لا ينسى أنه كان يواجه مشاكل أثناء الدفاع المقدس «۱» حتى فى مجال العبادة، فقد يكون البعض فى أثناء صلاته ويسمع صفارة الأنذار، الأمر الذى يوقع المصلى فى حرج ومازقٍ روحى يجعله يشك فى كيفية أداء عبادته. وعلى هذا، فإنَّ قضية الأمن تحضى بأهمية كبيرة تؤثر حتى على العبادة وكيفية أدائها. عندما وطأت قدما إبراهيم الخليل عليه السلام أرض مكة الجرداء، وبنى بين الجبال بيت الله الحرام، دعى لأهل تلك المدينة دعاءً ينقله الله فى الآية ۱۲۶ من سورة البقرة كما يلى: «رَبِّ اجْعَلْ هَذا بَلَدَاً آمِنَاً وارْزُقْ أهْلَهُ مِنَ الثّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخَرِ». فى هذه الآيات النورانية نقرأ أنَّ أوّل دعاء دعى به إبراهيم لأهل المدينة هو الأمن. إنَّ عقوبات اولئك الذين يخلّون بأمن البلد والمجتمع هى من أشدّ العقوبات فى دين الإسلام المقدس، ولذلك فرضت على "المحارب "عقوبات شديدة قد تصل إلى مستوى الإعدام. إنّ السّراق المسلحين- سواء بالاسلحة النارية أو غير النارية- يُعدُّون محاربين وينبغى عقابهم بأشد العقوبات، كما أنَّ الذين يخلّون بأمن منطقة واسعة يعدون (مفسدين فى الأرض) وعقابهم الإعدام. «۲» ۲- «مُطْمَئِنَّةً» قد تحضى المدينة بأمان، لكنَّ أمانها متزلزل وغير ثابت، وقد تحضى بأمان ثابت وغير متزلزل، والامان الذى أشارت إليه الآية هو الأمان المتواصل والثابت. ۳- «يَأتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدَاً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» كما مضى فإنَّ الأمان يجلب كل شىء حتى الإقتصاد السليم والقوى. فى هذا البلد الذى أمن من السوء تأتى الناس أرزاقهم من كل مكان وصوب، امثال القران، ص: ۲۸۱ وهناك مجالات كثيرة ومتنوّعة لكسب الرزق. ۴- «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ» أى أنَّ الله إلى جانب ما وفَّر لهم من نعم مادية (الأمان والإقتصاد السليم) منحهم نعمة معنوية وهى إرسال نبىّ معصوم وبصير منهم؛ لكى يتمَّ تعاليمهم ومعارفهم. إنَّ أهل هذه المدينة يتمتعون بهذه الخصال الأربع ويعيشون فى رخاء، رغم ذلك لم يشكروا الله على نعمه. «فَكَفَرَتْ بِأنْعُمِ اللهِ فَأذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والخَوفِ» إنّ أهالى هذه البلدة كفرت بدل أن تشكر نعم الله، وكانت النّعم سبباً لتكبرّهم وغرورهم وأنانيتهم، فظلموا بدل أن يفيدوا من النعم بشكل صحيح، وكان نتيجة ذلك نزول العذاب الإلهى، وأذاقهم الله، إثر ذلك، الطعم المرَّ للجوع وسلب منهم الأمان، فكانت السرقات والغارات تهددهم فى كل وقت، وتسلَّط أوباشهم عليهم، وتدمَّر اقتصادهم إثر تزلزل الأمان عندهم. سؤال: إنَّ تعبير «أذَاقَهَا» لا يتناسب مع تعبير «لِبَاسَ» بل المناسب هنا استخدام مفردة «ألْبَسَهَا»، فما سرّ هذا التعبير؟

الجواب: هناک نقطتان دقيقتان فی مجال استخدام (اذاق) مع (لباس) نشير إليهما هنا: الف- اللباس يضم الجسم کله ويحتويه، وکذا العذاب الإلهی فانه يشمل جميع القرية. باء- بالنسبة إلی عبارة «أَذَاقَهَا» ينبغی الالتفات إلی أنّ إحساس الإنسان واستيعابه ذات مراحل ومراتب: قد يدرک الإنسان شيئاً من خلال حاسة السمع، کأن يسمع بصوت النار، فيدرک وجود حريق. وقد يری الإنسان النار فيستوعب وجودها بالباصرة، وهذا الادراک ذات مرتبة أعلی من سابقه. وقد يلمس النار فيدرک وجودها، وهذا النوع من الادراک يقع فی مرتبة أعلی من السابقتين. وقد يدرک الإنسان الشیء من خلال تذوّقه، وهذا أعلی درجات الاحساس. وسبب امثال القران، ص: ۲۸۲ استخدام الآية الشريفة لمادة الاذاقة هو أنها تريد الأشارة إلی شدّة إدراکهم وتحسسهم للعذاب الإلهی وطعمه المر. «بِمَا کَانُوا يَصْنَعُونَ» أی أنَّ صنيعة أهل القرية هو السبب فی نزول هذا العذاب الإلهی، فانَّ الإنسان قد يقترف الذنوب التی ترجع عواقبها عليه، رغم صعوبة تحمّلها. علی سبيل المثال، إذا حلَّ النظام الطبقی فی مجتمع ما، وکان الاغنياء لا يکترثون من معاناة الفقراء، فإنَّ الأمان الاقتصادی سيسلب من هذا المجتمع وتعود مردوداته جُلّها علی الاغنياء أنفسهم، وسبب ذلک ليس إلّا بخل الاغنياء وامتناعهم عن الانفاق وإعانة الفقراء. لذلک جاء فی رواية: «إذا بخل الغنیّ بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه». «۱» أی أنّ الفقر هو السبب فی السرقات وفی النهاية السبب فی فقدان الأمن فی المجتمع. کما جاء فی رواية اخری: «سُوسُوا أموالکم بالصّدقة». «۲» أی أنَّ طريقة حفظ الأموال ليست هی ادخارها، بل فی التصدُّق ببعضها لکی لا يؤدی نار الفقر إلی إحراق أمن المجتمع وإحراقها فی النهاية.

خطابات الآية

۱- العذاب والبؤس نتيجتان لأعمالنا

إن الذی يُستشفُّ من آيات القرآن، وبخاصة الايتين هنا، هو أنَّ مشاکلنا وما نتحمله من العذاب هو نتيجة أعمالنا وأنَّ الله لا يظلم أحداً. إذا کان معظم الشباب فی مجتمع لا يتمتعون بأبسط وسائل العيش ولا يمکنهم التقدم علی الزواج، ومن جانب آخر فيه أفراد يتمتعون بأفضل وسائل العيش ويوفّرون لأولادهم مبالغ کبيرة کصداق لزواجهم ويصرفون الملايين فی هذا المجال، وشاع فی هذا المجتمع الفساد والفحشاء وعدم الأمن، فهل المقصر فی هذه الظواهر غير أفراد المجتمع ذاتهم؟! مَنْ يُلامُ غير أفراده؟ امثال القران، ص: ۲۸۳ من هنا يقول القرآن المجيد فی الآية (۴۱) من سورة الروم: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِی الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا کَسَبَتْ أَيْدِی النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». نعم، إنَّ منشأ جميع هذه المصائب والمشاکل هو ذات الإنسان. إنَّ الأب الذی لا يفکر إلّا فی جمع المال وادخاره ولا يکترث بتربية الأولاد والعائلة، إذا واجه فی المستقبل مشاکل اخلاقية ومصائب من قبيل تعاطی أولاده للمخدرات، فلا يلوم إلّا نفسه؛ لأنّه هو السبب فی تلک المشاکل لا غيره. عندما اعتقلنا عام ۱۳۴۲ ه‍. ش بصحبة بعض الشخصيات السياسية والدينية، وارسلنا إلی معتقل طهران، کنا نسمع فی بعض الأيام أصواتاً مرعبة، کنت أتصور أنها نتيجة التعذيب الروحی الذی کان يلحقه أفراد الأمن بالسجناء، إلّا أنّی علمت بعد ذلک أنّ منشأها هو المتعاطون للمخدرات وقد حان الوقت لتناولهم هذه المواد، وباعتبار فقدانها فی السجن کانوا يواجهون آلآماً شديدة ... لا شک أنَّ هذه المصائب نتيجة لأعمالهم. ليت النتائج تتوقف إلی هذا الحد، بل إنَّها قد تطال العرض، فيبيع هذا الشخص عرضه مقابل مقدار بسيط من هذه المخدرات. شخص من أهل الهوی والهوس کان يحب بنتاً ولا يتوفق للقاء بها رغم أنّه جرّب جميع الطرق، إلی أن فکّر فی جرّ أخيها إلی المخدرات وتعاطيها، فتوفق فی ذلک، وبعد الاعتياد عليه قطعها عنه، وقال له: لا طريق لک إليها بعد ذلک إلّا أن تصطحب اختک معک. وبذلک توفق من النيل من هذه البنت. لقد استفاد العدو من طرق کثيرة لإيقاع شبابنا فی الفخ. والمخدرات هی أحد تلک الطرق التی استفاد منها، وهو يعلم أنَّ الشاب الذی يتعاطی هذه المادة ويبتلی بهذا المرض يفقد إرادته ويمکن جرّه إلی أی عمل شاء.

۲- هل کان وجود خارجی لهذه القرية؟

المستفاد من الآیـة هو أنَّ للقریـة ذات المواصـفات الاربع وجوداً خارجیاً، لذلک کان النقاش بین المفسّرین فی تحدید مکانها. امثال القران، ص: ۲۸۴ هناک احتمالات کثیرة نضـمّن بحثنا هـذا اثنین منها فقط: ۱- یعتقد بعض المفسّرین أنَّ هذه القریة الآمنة هی مکة، «۱» فهی مصداق بارز للقریة الآمنة، کما أنَّها فی الحقیقة تحضی بنعمة توفّر جمیع انواع الثمار فیها، ورغم أنها تفقد بذاتها بعض النعم، إلّا أن ذلک البعض یفـدها من باقی المناطق والدول، وهی بذلک تحضـی بنعم قلما نجد مکاناً یحضـی بها. عندما هجر الرسول صـلی الله علیه و آله مکـة قاصـداً المدینـة، کانت مکـة تعانی من الجفاف الـذی دام سـبع سـنوات، وکانت هـذه المحنة نتیجة کفرانهم نعمة تواجـد الرسول فیهم، وقـد بلغ بهم الجفاف أنَّ رسول الرحمـة صـلی الله علیه و آله أرسل لهم أغذیة من المدینة، کما أنَّ الجفاف هذا اقترن مع فقدان الأمن فیها. نعم، إنّ کفران النعمة سیتبعه عذاباً إلهیاً وهذه سنة إلهیة صادقة فی کل مکان وزمان، وتکرّر فی کل مکان تتکرر فیه کفران النعمة. ۲- یعتقد بعض آخر من المفسرین أنّ المراد من هذه القریة هو مدینة سبأ «۲» حسب ما جاء فی سورة سبأ، فإنَّ تلک البلـدة کانت عامرة کثیراً، وکان فیها سـدّ یُـدعی (مأرب) تبـدلت هذه البلدة بفضل هذا السدّ إلی قطعة من الخضار، وکانت النعم فیها متوفرة بشـکل لا یحتاج قاصـدها إلی أن یصـطحب معه غذاء ومتاع؛ لأنَّه یکفیه أن یضع سـلة علی رأسه ویمشـی فی طرقها، فإنَّ السـلة سـتمتلیٔ بعد فترة وجیزة بثمار الاشجار التی فی طرفی الشارع. إنّ هذه المدینة کانت تتمتع بالأمن والاستقرار والنعم الوافرة، إلّا أن أهلها اختاروا طریق الکفر لهـذه النعم، فأوحی الله إلی فئران أن دمّری هـذه المدینـة، فأثقبت هـذه الفئران السـد، وتوسـعت هذه الثقوب تـدریجیاً إلی أن دمّرت السـد فی لیلـة، وأخـذ المـاء بسـیوله الجارفـة المدینـة بأجمعهـا ودمّر مـا فیها من قصور ومزارع وبیوت وأشـجار وبساتین. وکان التدمیر إلی درجة اضطّر بعده للهجرة من سلم من أهالی المدینة، وما استطاعوا العیش فیها. امثال القران، ص: ۲۸۵ لقـد ذاق عصـرنا حالیاً ثمرة کفران النعمـة، فاوربا قبل الحرب العالمیـة الثانیـة کانت غارقـة فی النعم وکانت مدنها معمورة وذات حضارة متقدمة وتقنیة عالیة و ... فقد کانت تحضـی بکل شـیء، إلّا أنَّ کفرانهم للنعم أبلاهم بحرب شاملة کان ضـحیتها ثلاثین ملیوناً من القتلی وثلاثین ملیوناً آخرین بین معوّق أو مجروح، وتدمّر إثر ذلک قسم کبیر من أوربا. وعلی هذا، فإنَّ الآیات هذه تحذیر لنا بأن لا نکفر بنعم الله المعنویة والمادیة، ما علینا هو شکرها. امثال القران، ص: ۲۸۷

المثل الحادی والثلاثون: أمثال الکفّار

اشارة

یقول اللّه تعالی فی الآیة ۴۸ من سورة الاسراء: «انظُر کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الأمثالَ فَضَلُّوا فَلا یَسْتَطیعُونَ سَبیلًا».

تصویر البحث

هـذا المثل یختلف عمَّا تقدَّم وعمَّا سیأتی من أمثال؛ لأنَّ الأمثال التی جاءت فی القرآن أوضـحت أموراً عقلیة معقَّدة وغیر حسـیة، أمَّا هذه الآیة فحکت الأمثال التی جرت علی ألسن الکفَّار فی حق الرسول صـلی الله علیه و آله، وهی أمثال استهدفوا بها الإضلال، عکس أمثال اللّه حیث استهدفت الهدایة والإرشاد.

الشرح والتفسیر

لأجل معرفـة ما جاء علی لسان الکفار فی حق الرسول صـلی الله علیه و آله ینبغی الرجوع إلی الآیات التی سـبقت هـذه الآیة. یقول اللّه فی الآیة ۴۵ من سورة الاسراء: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَیْنَکَ وَبَیْنَ الَّذِینَ لَایُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً».

ما هو الحجاب المستور؟

اختلف المفسرون فی معنی الحجاب المستور، فبعض اعتبره الستار الحقیقی الذی یمنع من امثال القران، ص: ۲۸۸ رؤیة الأشیاء التی خلفه. وعندما کان الرسول صلی الله علیه و آله یتلو القرآن یُجعل ستار حائل بینه وبین الکفار یمنع من رؤیتهم إیَّاه، لکنهم کانوا یسمعون صوته. والمراد من المستور هنا هو غیر المرئی، أی أنَّه کان ستاراً لا- یُری بالعین یُجعل بین الرسول صلی الله علیه و آله والکفار. فلسفة هذا الستار غیر المرئی هی أنَّ الرسول صلی الله علیه و آله عندما کان ینشغل بتلاوة القرآن یقرأ آیات فی ذمِّ الکفّار والمشرکین والأصنام وآیات عن مستقبل الاسلام وانتصاراته ممَّا قد یغیظ الکفار ویجعلهم ینفجرون غیضاً وکمداً، وهو أمر یشکِّل خطراً علی حیاة الرسول؛ لاحتمال هجومهم علی الرسول وتعرّضه لبعض المساوئ، وقد جعل اللَّه هذا الستار لکی یحول بینه وبینهم «۱». یعتقد بعض آخر من المفسرین أنَّ عبارة «حجاباً مستوراً» کنایة عن الحجاب المعنوی من اللجاجة والتعصّب والجهل والعداوة، فهذه الصفات المذمومة تبلورت علی نحو حجاب للمشرکین حالت دون فهمهم آیات القرآن، التی هی سبب هدایة القلوب وضیائها، لکنها لا تؤثر فی هذه القلوب بسبب هذا الحجاب المضمر «۲». إذن، کلا التفسیرین فی مقام بیان مفهوم أنَّ هذا الحجاب کان مانعاً عن نفوذ الآیات فی قلوب المشرکین. جاء فی الآیة ۴۶ من نفس السورة: «وَجَعَلْنَا عَلَی قُلُوبِهِمْ أَکِنَّةً أَنْ یَفْقَهُوهُ وَفِی آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَکَرْتَ رَبَّکَ فِی الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَی أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً». بلغ تعصّبهم ولجالجتهم مستوی جعلهم یولّون أدبارهم عن الحق ویعرضون عنه نفرةً منه بدلًا من أن یولوا أدبارهم عن الباطل ویعرضوا عنه. ولهذا جاء التعبیر العجیب واللافت التالی علی لسان نوح علیه السلام فی الآیة ۷ من سورة نوح: «وَإِنِّی کُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُم جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِیابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَکْبروا اسْتِکْباراً». الآیة تحکی مستوی جهل وعناد معاصری النبیّ نوح علیه السلام حیث ما کانوا یکتفون بوضع امثال القران، ص: ۲۸۹ أصابعهم فی آذانهم بل کانوا یستغشون ثیابهم ویضعونها علی رؤوسهم لکی ینتفی بالکلیة احتمال سماعهم شیئاً من کلام نوح علیه السلام الحق. نعوذ باللَّه جمیعاً من بلاء التعصّب واللجاجة وحفظنا من حریق ناره. وجاء فی الآیة ۴۷ من سورة الاسراء: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا یَسْتَمِعونَ بِهِ إِذْ یَسْتَمِعُون إِلَیْکَ وَإِذْ هُمْ نَجْوی إذ یَقُولُ الظّالِمُونَ إنْ تَتَّبِعُونَ إلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً». والآیة تشیر إلی شیطنتهم من الاستماع ثم التسقیط والتنقیص بغیة منع الناس من الإهتداء، فیناجی أحدهم الآخر ویقول: إنَّ النبی رجل مسحور. إنَّ الرجل المسحور یُعدُّ من الأمثال التی قالها المشرکون فی حق الرسول.

ما تعنی المسحور؟

عرب الجاهلیة کانوا یرون سبب الجنون مساس الجن أو حلوله فی الانسان «۱» ویدعون الذی حلَّ فیه الجن مجنوناً، کما یرون سبباً آخر للجنون، وهو سحر السحرة ویدعون المبتلی بهذا مسحوراً. وبناءً علی هذا شبَّه المشرکون الرسول صلی الله علیه و آله بالمسحور علَّهم بذلک یحولون دون ترک أثر لکلام الرسول الجذّاب فی قلوب الناس. یستفاد من آیة المثل الشریفة أنَّ المشرکین کانوا قد ضربوا للرسول أکثر من مثل واحدٍ عَدُّوه فیها مسحوراً أو مجنوناً أو کاهناً «۲» وساحراً وشاعراً.

أسلحة الجاحدین

علی طول التاریخ کان ولا زال الرسل وأوصیاؤهم والأئمة ونوّابهم الخواص والعوام امثال القران، ص: ۲۹۰ والعلماء والفقهاء وکلُّ من خطی خُطاهم موضع إتِّهام من قبل الجاحدین ومنکری اللَّه، ولا- ینفکون دائماً عن إلصاق مختلف التهم والتخرُّصات والأکاذیب بهؤلاء الثلَّة من سالکی طریق الحق والحقیقة لغرض إبعاد طلّاب المعارف الإلهیة عنهم، کما فعلوا ذلک عند الثورة الاسلامیة فی إیران وقد شهدنا الأعداء دائماً یلصقون التُّهم بالثوّار وبالامام رحمه الله وبأتباعه وأنصاره الأوفیاء، لکنَّا نعلم جمیعاً أن حبل الکذب قصیر، ولا تبقی الحقیقة خافیة دائماً. من التهم التی الصقوها بالرسول صلی الله علیه و آله تهمتان رائجتان سبق وأن اتُّهم بهما باقی الأنبیاء، وهما:

ساحر ومجنون، وفی ذلک یقول القرآن: «كَذَلِكَ مَا أتى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلَّاقَالُوا سَاحِرٌ أوْ مَجْنُونٌ» «۱». کما قلنا فإن هذه التهم والتخرُّصات ما کانت إلَّاالإغفال الناس، لکنها لم تترک أثراً، لذلک ما انفکوا عن تبدیلها وتغییرها إلی مستوی التناقض أحیاناً من قبیل نسبة السحر والکهانة والجنون للرسول وهی متناقضة؛ لأن السحر والکهانة یستدعیان الذاکرة القویة والذهنیة الناشطة، ولا یمکن لمجنون أن یکون ساحراً أو کاهناً.

الحقائق المستبطنة فی الاتهامات

فی هذه الاتهامات حقائق مستبطنة ینشرها الأعداء بنحوٍ لا إرادی، فهم ینسبون الجنون والسحر للرسول مثلًا، وفلسفة هذه النسبة المستقبحة أنهم جاءوا للرسول وقالوا له: ما الهدف من دعوتک للدین الجدید؟ إذا کان هدفک جمع المال فسنعطیک مالًا تصبح به اغنی رجال مکة وإن کنت ترغب الزواج فسنزوّجک أفضل نساء مکة، وإذا کنت ترغب فی الرئاسة فسنجعلک رئیساً علینا. لکن الرسول صلی الله علیه و آله أجابهم بعبارته التالیة: «واللَّه لو وضعوا الشمس فی یمینی والقمر فی یساری علی أن أترک هذا الأمر حتی یُظهره اللَّه أو أهلک فیه ما ترکته» «۲». امثال القران، ص: ۲۹۱ ولأجل هذا الجواب الصریح کانوا ینسبون له الجنون؛ لأن شخصاً یترک أفضل النساء والجاه والمقام والثروة لغرض الدعوة للتوحید لابدَّ وأن یکون- حسب عقلیتهم- مجنوناً. نعم، إنَّ الموحِّدین مجانین من وجهة نظر عبدة الدنیا، الموحِّد عندما یجد ضالة فی الشارع أو الزقاق یسعی متواصلًا للحصول علی صاحبها، وهذا العمل یُعدُّ جنوناً من وجهة نظر الدنیویین؛ لأن العقل من وجهة نظرهم هو عبادة الدنیا، أمَّا الطهارة والتقوی فجنون! من هذه التهم التی أطلقها الأعداء نفهم أن الرسول صلی الله علیه و آله کان رجلًا لا- یراهن علی مبادئ الاسلام ولا یستبدلها بأی شیءٍ، ولذلک دُعی مجنوناً ومسحوراً. ونستفید من نسبة الکهانة إلیه أنه کان یعلم الغیب ویخبر عنه دون أن یخطأ بحیث یصدق إخباره ویتطابق مع الواقع، ولهذا جاء ما یلی فی الآیات الاولی من سورة الروم: «غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ويَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ». وفقاً للآیة غُلبت الروم بواسطة الفرس، وبعد فترة غیر طویلة غلبت الروم الفرس، وتزامن مع ذلک انتصار المسلمین، وعندما شاهد الکفار تحقُّق هذا الأمر وصدق إخبار الرسول بالغیب نسبوا إلیه الکهانة، واین هو من الکهانة مع أن إخباره عن الغیب یکشف عن واقع وحقیقة مستقبلیة لا کذباً ولا وهماً.

لماذا نسبوا إلیه الشعر؟

سبب نسبة الشعر إلی الرسول صلی الله علیه و آله هو أنَّ آیات القرآن کانت فصیحة وبلیغة وموزونة بدرجة استقطبت قلوب الناس، فما کان مفرٌّ للکفار إلَّاأن یقولوا: إنَّه شاعر، وقد أجابهم القرآن الکریم من الآیة ۶۹ من سورة یاسین بما یلی: «وَمَا عَلَّمنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إنْ هُوَ إلَّاذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبِينٌ». نسبة الشعر للرسول صلی الله علیه و آله تکشف عن جاذبیة ولطافة وظرافة فی القرآن. ونسبة السحر للرسول صلی الله علیه و آله تحکی عن آثار مهمة ومعجزة ترشَّحت عن الرسول صلی الله علیه و آله، الأمر الذی أعجزهم عن مواجهته بالحق والحقیقة والواقعیة فاضطرَّهم ذلک لإلصاق هذه امثال القران، ص: ۲۹۲ التهمة، وقصة أسعد بن زرارة التی مضی ذکرها فی الجزء الاول شاهد حسن علی ما نقول.

خطاب الآیات التربوی

الآیات المزبورة تعلِّمنا أنَّا إذا أردنا إدراک الحقیقة فعلینا إزالة الحُجُب التی تمنع من الإدراک وبخاصة حجاب التکبّر والتعصُّب والأنانیة واللجاجة، وإذا لم تزل هذه الحجب فسیبدو الباطل حقاً، وعندها ینحرف الانسان عن طریق الحق. یقول الرسول صلی الله علیه و آله: «مَن كانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقالُ حبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ من عصبیّة بعثه اللَّه یوم القیامة مع أعراب الجاهلیة» «۱». إذن، ینبغی إزالة حجاب

التعصُّب لرؤية الحق.

المثل الثانى والثلاثون: المستكبرون والمستضعفون

اشارة

إثنى عشر آية من سورة الكهف (وهى الآية ۳۲ إلى ۴۴) تشكِّل المثل الثانى والثلاثين من بحثنا، يقول اللَّه فى هذه الآيات: «وَاضرِب لَهُم مَثَلًا رَجُلَين جَعَلْنَا لأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أعْنَابِ وحَفَفْنَاهُمـا بِنَخلٍ وجَعلنا بَيْنَهُما زَرْعاً* كلتا الجَنَّتَينِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظلِم مِنْهُ شَيئاً وفجّرنَا خِلالهُمَا نَهَراً* وكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصَاحِبِه وهَوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وأَعَزُّ نَفراً* وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفسِه قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أبَداً* وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُددْتُ إلى رَبّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً* قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أكفَرْتَ بالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا* لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أحَداً* وَلَولَا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلَّا باللَّهِ إنْ تَرَنِ أَنَا أقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَداً* فَعَسى رَبِّى أن يُؤتِيَنِ خَيْراً مِن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسَباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً* أوْ يُصبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَستَطِيعَ لَهُ طَلَباً* وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأصْبَحَ يُقلِّبُ كَفَّيهِ عَلَى مَا أنفَقَ فِيهَا وهى خَاويةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أحداً* وَلَمْ تَكُن لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وما كَانَ مُنتَصِراً* هُنَالِكَ الوَلايةُ للَّهالحَقِّ هُوَ خيرٌ ثَوَاباً وَخيرٌ عُقْباً»

تصوير البحث

تضمَّنت الآيات الإثنى عشر مثلًا هو من أكبر أمثال القرآن، وهو مثل المؤمنين والكافرين امثال القران، ص: ۲۹۴ أو المستكبرين والمستضعفين، فشبَّه اللَّه الطائفتين بشخصين، أحدهما: ثرى ومغرور بماله وثروته، والآخر: مستضعف لكنه موحِّد. ونهاية هذين الشخصين زوال ثروة الثرى وفناءها، ممَّا أدى إلى استيقاظه من نوم الغفلة. والمثل يستبطن نكات ظريفة ولطيفة نعرض لها تدريجياً.

علاقة آيات المثل بسابقاتها

لماذا طرح اللَّه هذا المثل ضمن هذه السورة؟ وهل هناك علاقة بين آيات المثل والآيات التى سبقتها؟ الجواب: إذا راجعنا الآيات السابقة للمثل وجدنا علاقة بينها وبين آيات المثل، وبذلك تبدو ضرورة بيان هذا المثل فى هذه السورة. ولأجل ذلك يقول اللَّه فى الآية ۲۸ من نفس السورة: «وَاصْبِر نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدوة والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجهَهُ وَلَا تعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أغْفَلنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أمْرُهُ فُرُطاً». قيل فى شأن نزول الآية: إنَّ مجموعة من أثرياء العرب المشركين جاءوا للرسول صلى الله عليه و آله وأعربوا عن رغبتهم للإلتحاق بدين الرسول ولكنهم قالوا: ما يمنعنا من الالتحاق بركبك وجود فقراء حواليك من أمثال سلمان وأبى ذر وصهيب وخبَّاب، فلا تناسب بيننا وبينهم فأبعدهم عنك لكى نلتفَّ حولك «۱». ولهذا الشأن نزلت الآية وأوضحت معيار الاسلام الأصيل ومنهجه فى هذا المجال، وأوضحت وظيفة الرسول صلى الله عليه و آله تجاه القضية.

تحطيم القيم الكاذبة من أهداف الأنبياء

من الأهداف المهمة للأنبياء والأولياء وبخاصة الرسول الكريم صلى الله عليه و آله هو تحطيم القيم الكاذبة؛ لأنه كان للمال والثروة أرفع قيمة من وجهة نظر عَبَدَة الأصنام عهد الجاهلية، ولا امثال القران، ص: ۲۹۵ زالت هذه النظرة تحكم عالمنا اليوم، ولا تنتظم الحياة الدنيا ما دامت هذه القيم الكاذبة تحكم مجتمعاتنا. عندما بُعث الرسول صلى الله عليه و آله وأنبأ عن دينه الجديد قال بعض مشركى مكة: تعالوا اسمعوا خبراً جديداً، إنَّ يتيماً فقيراً لا يملك مالًا يدَّعى النبوّة ويبلّغ لرسالة جديدة من اللَّه، وهل هذا ممكن؟ ولو أراد اللَّه

أن يبعث لنا رسولًا فلماذا لم يبعث واحداً من أثرياء مكة أو الطائف؟ «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» «۱». سبب تفوّه المشركين بهذا الكلام هو أنهم كانوا يصنّفون المال والثروة في أعلى مرتبة للقيم، وقد سبقهم في ذلك فرعون، فعندما دعاه موسى عليه السلام إلى الدين الالهي نظر إلى ظاهره وقال ضاحكاً: وهل يمكن لراعٍ أن يكون نبياً؟ أنا لا أستسلم لراعٍ مع ما أملك من ثروة وسلطة. نعم، كانت السلطة والثروة تشكّل أعلى مراتب القيم عند هؤلاء الناس، وكانت بعثة الرُسُل لغرض تحطيم هكذا قيم سقيمة. في آيات كثيرة من القرآن المجيد عدَّ اللّه القيم الدنيوية كالمال والبنون لعباً ولهواً «۲»، كما اعتبر القيمة الحقيقية تتمثّل في التقوى «۳». من هنا قال اللّه في الآية ۳۳ من سورة الزخرف: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ امَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمنِ لِبيُوتِهِم سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرونَ». وفي الآية ۵۳ من نفس السورة يتحدَّث فرعون عن نبوّة موسى عليه السلام ويقول لمن حواليه وللمصريين: «فَلَوْلَا الْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ» ويريد بذلك أنَّ على الرسول أن يكون ثرياً. بُعث الأنبياء لإبطال هذه التوهّمات وتحطيم هذه القيم الكاذبة، وآية المثل الكريمة تدخل امثال القران، ص: ۲۹۶ في هذا الاطار، أي أنَّها تريد تحطيم هذه القيم الكاذبة، حيث قالت: «واصْبِر نَفْسَكَ مَعَ الَّذِين يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالغَدوة والعَشِيّ يُرِيدَون وَجْهَهُ» أي عليك يا أيها الرسول أن تكيّف نفسك مع أمثال سلمان وأبي ذر وبلال وصهيب الذين يدعون ربَّهم دائماً ويتوجّهون إليه رغبة في وجهه الكريم رغم فقرهم وفقدهم للمال والثروة وغيرها من القيم الدنيوية الكاذبة. «وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُم تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدُّنْيا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنا» أي لا تتناسهم رغبة في زينة الحياة الدنيا وطاعة لمن غفل قلبه عن ذكرنا، أي ذكر اللّه. «واتَّبَعَ هَواهُ وَكَانَ أَمرُهُ فُرُطاً» «۱» فإن هؤلاء الأثرياء تابعون لأهوائهم، وأعمالهم لا تخلو عن الإفراط والتفريط. المستفاد من هذه الآية أن الاسلام للمستضعفين والفقراء لا الأثرياء المغرورين. كان هذا المنطق والنهج عجيباً للبعض لذلك ضرب لهؤلاء مثلًا أوضح فيه شأن المستضعفين والمستكبرين لكي تتضح من خلال ذلك القضية للجميع.

الشرح والتفسير

«وَاضْرِب لَهُم مَثَلًا رَجُلَيْن» يطلب اللّه من الرسول أن يضرب لهم مثل رجلين أخوين أو صديقين. اختلف المفسرون في أنهما كانا صديقين أو أخوين، فبعض قال بأنهما كانا أخوين بلغهما ثمانية آلاف درهم كإرث من أبيهما، أحدهما اشترى بمقدار قليل من الأربعة آلاف درهم وسائل بسيطة يعيش بها وانفق ما تبقى أمَّا الآخر فاستهلك سهمه من الإرث كله لأغراضه الشخصية ولم ينفق منه في سبيل اللّه ولا درهماً، فأصبح صاحب رأس مال وبستان وحياة مرفّهة، والآية تشير إلى قصة هذين الأخوين. امثال القران، ص: ۲۹۷ يرى بعض آخر من المفسرين أنَّ الرجلين كانا صديقين ولا نسبة بينهما «۱». مضمون الآيات يفيد أنَّ النظرية الثانية هي الصحيحة، أي أن المراد من رجلين هو صديقان لا أخوان. المطلب الآخر الذي يمكن استفادته من الآيات هو أن الآيات ليس بياناً محضاً لمثلٍ كما ظن البعض ذلك، بل هي بيان لقصة حقيقية حصلت في الأزمان الماضية بيّنها اللّه في صيغة مثل. «جَعَلْنا لأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعَاً كِلْتا الجَنَّتَينِ آتَتْ اكُلَهَا وَلَمْ تَظلِمْ مِنْهُ شَيئاً وَفجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ». المستفاد من عبارة «وَفَجَّرْنَا خِلالَهُما نَهَراً» أن البُستان كان يُسقى من الخارج، ثم اكتفى ذاتياً من حيث السقي بعد ما فُجرِّ النهر في داخل آرضه. «فَقَالَ لِصَاحِبِه وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَراً». عندما ينال ضيّقو الصدر والمغرورون شيئاً من مال الدنيا ويبلغون مستوى فيها يبدون وكأنَّ الزمان والمكان يدين لهم، فبعضهم عندما يبلغ شأناً في المجتمع ينسى صديقه الذي كان إلى جنبه مدَّة سنوات، وعندما يلتقيه يتصرَّف وكأنَّه لم يلتقِ به من قبل. إن صاحب البستان الثري الذي تحدَّثت عنه الآية كان من هذا القبيل، فقد اغترَّ بنفسه عندما شاهد بستانه والنهر الذي يجري فيه وما انتج من ثمار، فكان يتفاخر بما حصل وينظر إلى صديقه القديم والفقير نظرة تحقير ويقول: أنا أكثر منك مالًا وأعزُّ نفراً من العمال والمزارعين والحشم والخدم. «وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لَنَفسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً» أي أنه ما كان يظن أن بستانه سيفنى يوماً ما بل سيبقى دون أن يزول بآفة أو ما شابه. عبارة «وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ» تشير إلى أن كل ظالم يبدأ

بظلم نفسه فی البدایهٔ ثم ظلم الآخرین، کما هو حال المحسنین حیث یفیدون أنفسهم بأعمالهم الصالحهٔ ثمّ یفید الآخرون بها. علی أی حال، نسی هـذا المغرور ذکر اللَّه الـذی خلق له هـذه الجنَّهٔ والذی یمکنه أن یفنیها فی کل لحظهٔ بحیث لا یبقی لها أثر مذکور. امثال القران، ص: ۲۹۸ «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَهَ قائِمهً وَلئِنْ رُددْتُ إلی رَبِّی لأَجِدَنَّ خَیْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً». لقد أنکر هذا الرجل یوم القیامهٔ بسبب تفاخره وغروره ونسیانه ربّ العالمین، وبلغ جحوده مستوی أن قال لصـدیقه: لا أظن أنَّ هناک قیامهٔ، ولو کانت هناک قیامهٔ کان ذلک یعنی موتی وانفصالی عن أموالی وجنتی وزراعتی، وأنا لا اریـد الانفصال عن الدنیا لذلک أنکر یوم القیامهٔ. ثمّ قال: علی فرض وجود قیامهٔ فـإنِّی سأکون من المقرّبین کـذلک، ولو لم أکن من المقرّبین لما أعطانی اللَّه هـذا المقـدار من المال والثروهٔ، فکثرهٔ الثروهٔ دلیل علی قربی إلی اللَّه فی عالم الآخرهٔ- علی فرض وجوده- وسأکون هناک أقرب منک إلی ربِّ العالمین. هذا هو ظن کثیر من الأثریاء، جهلًا منهم بأنَّ ذلک اختبار إلهی وقـد یکون بلاءً. «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ یُحَاوِرُهُ أَکَفَرْتَ بالَّذِی خَلَقَکَ مِنْ تُرابٍ ثُمّ مِن نُطْفَهٔ». صدیقهٔ الفقیر صاحب الصـدر المشـروح یری رفیقه مریضاً فیهمُّ فی علاجه بأسالیب نفسانیـهٔ جمیلهٔ لعلاج مرض الغرور فیه، أی مرضه الأساس الذی سببته کثرهٔ النعم، ولو عالج مرضه هذا تعالجت باقی أمراضه.

طریقان لمعالجهٔ الغرور

یمکن معالجـهٔ الغرور عن طریقین: الاـول: أن نرجع المغرور إلی ماضـیه، إلی طفولته، حیث کـان عاجزاً عن الاحتفاظ بلعاب فمه، إلی الزمن الذی کان فی رحم امّه، حیث کان جنیناً یتغذّی من الدم، وما کان أحد غیر اللَّه قادراً علی مساعدته، نرجعه إلی حیث کان نطفهٔ قـذرهٔ ینفر الانسان من النظر إلیها، ونرجعه إلی حیث کان تراباً فاقـداً للقیمـهٔ. الثانی: أن نـذکِّره بالمستقبل ونرسـمه له، فنأخذ بیده إلی المقبرهٔ ونقول له: یرقـد فی هـذه المقبرهٔ انـاس کـانوا مثلنـا أقویـاء ومتموّلین لکنهم مـاتوا فی النهایـهٔ، فتلاـشت أجسامهم ولم یبق منها إلَّاالعظام، والعظام سـتتآکل کـذلک بمرور الزمان ولم یبق من الإنسان إلَّاالصـخرهٔ التی توضع علی قبره، والصـخرهٔ ستزول کذلک ولم یبق من الانسان إلَّااسماً فی التاریخ، والتاریخ امثال القران، ص: ۲۹۹ سینسی بعد مدَّهٔ من الزمان، بحیث لم یبق من الانسان شیء یُذکر وکأنَّه لم یلد أبداً.

عاقبهٔ الانسان المغرور

لم یکن ولن یکون عاقبـهٔ حسـنهٔ للمغرور أبداً. کان وزیر عهد حکومهٔ رضا خان الظالم یُدعی تیمور تاش وکان مغروراً وجباراً وخطراً وصاحب صـلاحیات وسـلطهٔ واسـعهٔ بحیث یُعـدُّ المحور الأساس للسـلطهٔ. فی یوم کان علماء طهران قـد اجتمعوا فی مجلس فبلغهم أن تیمور تاش وزیر البلاط یقصد المجیء إلیهم، فدخل هذا الرجل الذی یعیش سـکرهٔ الغرور وقال: «أنتم تقولون: للکون ربٌّ؟! یمکننی أن أبرهن علی عدم وجود الربّ بألف دلیل». نظر العلماء إلیه وما کان أحدهم یتجرّأ بالتفوّه بشیء، کما أنَّهم یعلمون ما من شیء یؤثِّر فیه ولاـ یرونه أهلًا للإجابـهٔ. وعلی کل حال ختم المجلس وذهب تیمور تاش. لکن ریاح الزمان لا تجری دائماً بما تشـتهیه السـفن، فلم یمضِ زمن طویل حتی أصـبح تیمور تاش موضع غضب الشاه فادع السـجن الانفرادی ثم حکم علیه بالإعـدام. عنـدما کان فی السـجن ذهب أحد العلماء لزیارته فوجده یدور فی زنزانته مردداً أبیات عرفانیهٔ للشاعر مولوی «۱» تقرُّ باللَّه. یقول هذا العالم: تعجبّت من ذلک واقتربت منه وقلت له: هل تعرفنی؟ قال: نعم، قلت: جئتُ لُابطل ألف دلیل ادعیت وجودها بـدلیل واحـد، وهو: إن اللَّه هو الذی أسـقط تیمور تاش المغرور من قمـهٔ السـلطهٔ لیضـعه فی سـجن. فهزَّ رأسه معرباً عن أسـفه. نعم، هـذا هو شأن ضـیقی الصـدر والمغرورین، أما واسـعو الصدر فیکونون متواضـعین، کالامام علی علیه السـلام، حیث لم یختلف شأنه أثناء ۲۵ سـنهٔ من سکوته مع شأنه أثناء ۵ سنوات من حکومته. امثال القران، ص: ۳۰۰ یقول الامام علی علیه السـلام: «سُکْر الغفلهٔ والغرور أبعد إفاقهٔ من سُکر الخمور» «۱»؛ وذلک لأنَّ الانسان یفیق من سـکرهٔ الخمر بعد لحظات أمَّا سـکرهٔ الغرور فلا یفیق منها الانسان حتی الموت أحیاناً ولا یوقظه منها إلَّاصـفعهٔ الموت

والأجل، حيث لا وقت للتدارك والجبران. وفى رواية اخرى يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «بينكم وبين الموعظة حجاب من الغِرَّة» «۲». إذن، علينا التوقّى من الابتلاء بالغرور من خلال استذكار الماضى والتفكّر فى المستقبل، وخاصة بما بعد الموت. «ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا». أى صَنَعَ منك رجلًا بعد اجتياز مراحل الجنين المختلفة، والتى تشكّل كلٌّ منها اعجوبة فريدة من نوعها، ومن خلال برنامج منتظم ومتكامل يخلق إنسان كامل لا ينقصه شىء، ولو طرأ أقل تغيير فى هذا البرنامج لولد الطفل أعمى أو أصم أو معتوه أو توأم متلاصق وما شابه. من فلسفة وجود ولادة الأطفال المشوهين وناقصى الخلقة هو الاطلاع على هذه المرحلة المهمَّة من الخلقة، ولكى يتذكّر الانسان بعدما يصبح متموِّلًا وصاحب سلطة، ولكى لا يغتر، ولكى يكون شاكراً لنعم اللّه ولولى نعمته دائماً. ولأجل ذلك لا يسأل النزيهون عن جنس الطفل عند ولادته بل عن سلامته؛ لأن الذكورة والانوثة كلاهما من نعم اللّه تعالى والمهم هو سلامة الطفل. «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلَا اشْرِكُ بِرَبّى أَحِدَاً». بعد ما بيَّن القرآن منطق ذلك الصديق الثرى الغافل عن اللّه بدأ ببيان منطق الصديق الفقير المؤمن الذى نصح الثرى ولم تؤثر نصيحته فى صديقه. استخدام الآية لمفردة الربّ دون باقى أسماء اللّه يحضى بأهمية قصوى، فهو استخدام دقيق ويعنى أنَّ اللّه ربّانى منذ أن كنت نطفة إلى آخر عمرى، ولو لم تكن تربية الربّ القادر لم أكن شيئاً يُذكر، فهو ولى نعمتى وصاحبى ومالكى، وهل يمكن جعل شريك لربٍّ يملك كل ما لدى؟! امثال القران، ص: ۳۰۱ «وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاـ قُوَّةِ إِلَّاباللَّه». بعدما بيَّن الصديق المؤمن منطقه ومنهجه اتَّجه إلى صديقه قائلًا: عند دخولك جنَّتك الواسعة ذات الثمار الكثيرة والمعطَّرة بعطور الفواكه والمضلَّلة بالاشجار والباردة والمنشطة لماذا لاـ تقول: هذه ممَّا أنْعَمَ اللّه علىَّ من نعمٍ فلا قوة لأحدٍ غيره، وكل قوّة تنشأ منه. يا صديقى! عليك عدّ هذه النعم من اللّه، وعليك شكره على هذه النعم والألطاف والرحمات، ولا تغتر بل استفد منها بأفضل ما يمكن، كما عليك أداء حق الأيتام والفقراء والمحتاجين منها. «إنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَداً فَعَسى رَبَّى أَنْ يُؤتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ». يذكّر المؤمن صديقه هنا قائلًا له: إنَّك تفكّر بوضعك الراهن حيث إنك متموّل وصاحب سلطة، وأنا فقير ولا أملك سلطة ولا أفراداً، لكنَّك لا تفكّر فى المستقبل الزمن الذى قد يدمّر فيه اللّه جنتك فى لحظة واحدة ويعطينى جنَّة أفضل من جنتك. الروايات التى وردت فى ذيل هذه الآية حكت عن أن الوضع المالى لذلك الفقير كان جيداً «۱». «ويُرسِلَ عَلَيْهَا حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً». الحسبان يعنى إصابة السهم للهدف، والتسمية باعتبار أن الإصابة كانت عن حساب، كما يُطلق الحسبان على الصاعقة التى تصيب الهدف، وكذلك الزلزال التى تصيب الهدف وتدمّره، والخلاصة أن الحسبان يُطلق على كلِّ بلاء مؤثر ومحسوب. الآية تتمة خطاب المؤمن الفقير لصديقه، فيقول له: قد يغيّر اللّه كلّ شىء فى لحظة واحدة ويرسل على جنتك بلاء سماوياً أو حسباناً يبدّل به جنتك المثمرة إلى صحراء. «أوْ يُصْبِحَ ماؤها غَوْراً فَلَنْ تَستَطِيعَ لَهُ طَلَباً». أو تبتلع الأرض كل ما احتوته جنتك فلا يبقى منها أثر، ولا قدرة لك عندئذٍ لعمل شىء، كما يحصل ذلك عند حصول الزلزال وماشابهها من الكوارث الطبيعية بحيث تُدمَّر قرية كاملة أو تغطَّى بالوحل فى لحظة واحدة. امثال القران، ص: ۳۰۲ إذن، على الانسان أن لا يغتر بما لديه، بل المفروض به التفكير فى تحولات قد تطرأ فى المستقبل. «وَاحِيطَ بِثَمَرِه فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها». وكما قال له صديقه المؤمن فإنَّ بلاءً سماوياً وصاعقة نزلت ودمَّرت أشجار جنَّته وزراعته، فبهت المغرور عندما دخل جنَّته ورأى الثمار مدمَّرة والأشجار قد احترقت، وقد ذهبت كل أمواله وآماله سُدى فأصبح يُقلّب كفّيه تحسراً على ما كان قد أنفق على زراعته وما استثمره من الأموال فيها. «وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِها». الآية تصف كيفية خراب الأبنية والعمارات، وهى عجيبة من حيث إنها تصف الانهدام بأن الجدران والأعمدة سقطت على السقوف، بينما المألوف هو سقوط الجدران والأعمدة ثم سقوط السقوف عليها. قد يكون سبب ذلك هو أنَّ الصاعقة هدَّمت السقوف فى البداية ثم هدمت الأعمدة والجدران فسقطت على السقوف «۱». «وَيَقُولُ يا لَيْتَنى لَمْ اشْرِك بِربّى أَحَدَاً». استيقظ الصديق المغرور من سكرة الغرور بعد ما نزل العذاب الإلهى ودمَّر جنّته وزراعته وأفقده كل ما يملك من رأس مال، وقال: ليتنى لم اشرك باللّه ولم أنكر يوم القيامة والمعاد ولم ابتلِ بسبب الشرك والجحود بالعقاب الإلهى. «وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّه وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً». لم ينصره أحد ممَّن كان يحوم حوله عندما كان صاحب مال وثروة من الأصدقاء والمعارف، ولم يحمه أحد من عذاب اللّه،

وما كان لهم القدرة لنصرته.

اعتبروا

كان شخص فى قم يُدعى السيد صادق، كان قد فقد إحدى عينيه، وكان له بستان عنب، امثال القران، ص: ۳۰۳ عندما كان يحلُّ فصل جنى العنب يجتمع حوله أصدقاؤه ويهمّون بتمجيده واحترامه ويدعونه فى هذه الأيام (الحاج السيد صادق)، وعند انتهاء فصل جنى العنب يتباعدون عنه وإذا أرادوا ذكره دعوه بصادق الأعمى كان السيد صادق ملتفتاً إلى اتصاف أصدقائه بأحد صفات الذباب وقد أنشد فى المجال أبياتاً وصف فيها أصدقاءه وأحوالهم السقيمة. «هُنالِكَ الوَلايَةُ للَّهِ الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وخَيْرٌ عُقْباً». أى أنَّ الولاية الحقيقية للَّهوحده فقط، ولا يمكن الوثوق بولاية وصداقة أحدٍ غيره. اختلف المفسرون فى أن «هُنالِك» إشارة لعالم الدنيا أم الآخرة. لكن يبدو أنها إشارة إلى العالمين، والآية تعرّضت لولاية اللَّه فى كلا العالمين. الولاية شأن مهم جداً، وتأتى من مادة التوالى، أى مجىء شيئين أحدهما بعد الآخر، فيقال لشعبان ورمضان اللذين يأتى أحدهما بعد الآخر شهران متواليان. وإذا جاء طبيبان إلى العيادة أحدهما تبع الآخر قيل: توالى الطبيبان على المجىء إلى العيادة. بما أن الصديق يصاحب صديقه الآخر دائماً قيل له: ولى، أى كلٌّ منهما ولىّ الآخر، وبما أن اللَّه صديق المؤمن ومصاحبه وناصره قيل له: ولى. إذن، الولى يعنى الصديق والناصر والمعين والرئيس. فرّق البعض بين الوِلاء (بالكسر) مع الوَلاء (بالفتح)، فبالكسر تعنى النصرة وبالفتح تعنى السيادة والرئاسة. وهناك بعض آخر اعتبر الكلمة بمعنى واحد سواء كانت بالكسر أو بالفتح.

خطابات الآية

۱- زمن تأثير التوبة

ممّا يستفاد من آيات المثل الاثنى عشر هو: أنَّ للتوبة زمناً خاصاً فاذا مضى ذلك الزمن ترفض التوبة. امثال القران، ص: ۳۰۴ رغم أن الروايات حكت سعة باب التوبة وأنه باب يدخله المذنبون والعاصون والمجرمون إلّا أن هذا الباب يُغلق فى ثلاثة أزمنة: الف: التوبة عند نزول البلاء إذا تاب الانسان عند تورطه بشوكة البلاء فلا تُقبل توبته. ولهذا يقول اللَّه فى الآية ۶۵ من سورة العنكبوت: «فَإذا رَكِبُوا فى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّين فَلَمَّا نَّجاهُمْ إلى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشرِكُونَ». أى أنهم يتوبون ويدعون اللَّه عندما يبتلون بأمواج البحر وعندما يشعرون بتهديد وتحدّى الموت، وتوبتهم هنا مرفوضة؛ لأنها نشأت عن اضطرار، وهى من قبيل إعلان شخص عن توبته واستغفاره تحت ضربات السوط، فإن توبةً من هذا القبيل غير مقبولة. هؤلاء المشركون الذين أعلنوا عن توبتهم واستغفارهم ودعوا اللَّه فى ظرف الخوف الذى عاشوه فى السفينة، وعندما يهدأ البحر أو ترسو السفينة قرب اليابسة ينسون اللَّه تارة اخرى ويعودون إلى شركهم. إذن، لا تُقبل توبة كهذه؛ لأن التوبة هى التى يتغيّر معها منهج حياة الانسان، وهذه التوبة لم تغيِّر من منهج المشركين ولا سلوكهم شيئاً. التوبة التى تحصل فى الزنزانة وتُنسى بعد الخروج منها، أو التى تحصل عند المرض وتُنسى بعد الشفاء، أو التى تحصل فى خضم الحوادث وتُنسى بعدها، هذه كلها توبات غير مقبولة؛ لأنها ردود فعل مؤقتة تحصل إثر جلد الحوادث الإلهية وصفعاتها. باء: توبة المذنبين عند الموت عندما يسمع الانسان صفعة الأجل وتفتح عينيه نحو البرزخ ويتبلور عنده اليقين بالموت والوداع مع الدنيا فلا تقبل منه توبة، وقد قال اللَّه تعالى فى الآية ۱۸ من سورة النساء: «وَلَيْسَت التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُون السَّيِّئاتِ حَتَّى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ إنِّى تُبْتُ الآنَ وَلَا الذِينَ يَمُوتُونَ وهُمْ كُفَّارٌ اولئكَ أعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أليماً». وفرعون من زمرة هؤلاء، فانَّه عندما شاهد شوكة الموت ووجد نفسه على عتبة الغرق امثال القران، ص: ۳۰۵ قال: «آمَنْتُ أنَّهُ لَاإلَهَ إلَّاالَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسْرائِيلَ وَأنَا مِنَ المُسْلمين» «۱» ، لكن توبته هذه لم تُقبل، وقد ورد فى بعض الروايات أن جبرئيل أخذ حمأة (أى طيناً أسود منتناً) فوضعه فى فم فرعون وقال له: «ألآن

وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» «۲». وهل من المناسب قبول توبة فرعون بعد كل هذه الجرائم التى ارتكبها من شق بطون الحوامل وقتل أولادهنّ الذكور، والاجراءات الظالمة بحق الناس ومطاردة بنى اسرائيل وتعذيب مؤمنيهم؟ إذن، لا تُقبل التوبة على عتبة الموت وعندما تفتح عينا الانسان نحو البرزخ. جيم: التوبة عند مشاهدة العذاب الإلهى كثير من الناس يتوب عند مشاهدة العذاب الإلهى، وتوبة من هذا القبيل غير مقبولة. يقول اللّه فى هذا المجال فى الآيات ۸۴ و ۸۵ من سورة المؤمن (غافر): «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَت فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ». لا تأثير للتوبة عند رؤية العذاب، ولذلك لم تُقبل توبة قوم نوح عليه السلام عند الطوفان ولا توبة قوم لوط عند نزول عذاب الأحجار التى تساقطت من السماء وكذا غيره من العذاب. أعزّتى، الموت لا يخبر عن وقت مجيئه، بل هو يكمن فى كلّ لحظة من لحظات العمر، وعوامله وأسبابه بسيطة جداً تتحقق لأىإنسان. ولذلك على الانسان أن ينوب إلى اللّه ويتوب توبة حقيقية فى كل لحظة، ولا يترك التوبة إلى زمن قد اغلقت فيه جميع أبوابها. المستفاد من الآيات المتقدِّمة أنَّ رفض التوبة فى ظل الظروف المزبورة لا يختص بقوم أو شعب أو نحلة ما، بل هو سنة إلهية تجرى فى حق جميع الأقوام والشعوب والنحل.

۲- لا قيمة للدنيا

اشارة

يستفاد من آيات المثل أن لا ـ قيمة ولا ـ اعتداد بالأموال والمقام والثروات والقوى الجسمانية، والاعتماد على الامور الدنيوية بمثابة الاعتماد على بيت العنكبوت بل على ما هو أضعف وأوهن «۱». قوة الشباب والنشاط والقوى العضلية ليست دائمة، لا ينبغى الاغترار بها. قد يصبح بطل من الأبطال أضعف انسان بسبب المرض، كما حصل ذلك فى الواقع، وهناك بعض من الأبطال عجزوا فى آخر عمرهم عن المشى والحركة دون الاستعانة بالآخرين.

قصة بطل

كان بطل قمى معروف بالقدرة البدنية وطول القامة وكان يخدم فى حرم فاطمة المعصومة سلام اللّه عليها فى قم «۲»، وعند إرتدائه ملابس الخدمة يكتسب ابّهة أكثر، وكان يهابه الشررون فى المدينة بحيث يبتعدون عنه عندما يرونه، وفى يوم من الأيام وجدته على كرسىالمقعدين يدفعه طفل لإيصاله للحرم لغرض الزيارة. تذكرت عندها أيام بطولته وقدرته البدنية العالية وقلت: أين هذا وأين ذاك؟! يا لها من دنيا غادرة، لم تكن جنَّة ذلك المغرور الأمر الوحيد الذى هو عرضة للزوال والدمار بل انَّه لا يمكن الوثوق بجميع امور الدنيا.

المطبخ السلطانى

تشاجر اثنان من امراء خراسان إثر اختلاف بينهما، وقد انتهى الشجار إلى حرب وهزيمة وأسر أحدهما بيد الآخر. وفى يوم من الأيام جىء للأسير بالغذاء وكانت آنية ذلك الزمان تشبه السطل ذات المقبضين، وقد تركه إلى جانب ليبرد فجاء كلب وأراد الأكل منه، فلعق منه وبسبب حرارته صدر منه رد فعل سريع أدَّى إلى دخول رأسه فى مقبض الآنية ففرَّ والآنية معلّقة برقبته، فضحك الأمير الأسير بصوت عالٍ وقال: كان مطبخ السلطان تحمله أربعمائة امثال القران، ص: ۳۰۷ عربة واليوم يسرق كلب حساء ومطبخ الأمير «۱».

۳- التدقيق فى اختيار الصديق

كما تقدَّم أنَّه كان لهذا الثرى صاحب البستان والثروة والسلطة أصدقاء كثيرون، وكان يتفاخر بهم، لكنهم تفرّقوا وابتعدوا عنه عندما فقر وواجه الخسارة وأصبح مُداناً، فما أعانوه على مشكلته، كما أنَّه بنفسه ما استطاع جبران ما تحملّه من خسائر. يا ترى ما سبب عدم إعانة إصدقائه له؟ سبب ذلك واضح، فإنهم لم يكونوا أصدقاءً له بل لثروته وسلطته، فكانوا بمثابة الذباب الذى يحوم حول السكريات. إنَّ أصدقاءً من هذا القبيل تنتهى صداقتهم بنهاية سلطة الانسان وثروته، فبعض منهم أصدقاء لسلطة الانسان وتنتهى صداقته بانتهاء السلطة، وبعضهم أصدقاء لجمال الانسان وتنتهى صداقته بانتهاء الجمال، وبعضهم أصدقاء لثروة الانسان وتنتهى صداقته بانتهاء الثروة، وبعضهم أصدقاء للمقام، وتنتهى صداقته بانتهاء المقام وبلوغه نهاية الخط. أصدقاء الثرى الذين ورد ذكرهم فى آيات المثل كانوا من هذا القبيل، أى أنهم كانوا أصدقاء لثروة ذلك الانسان وسلطته ولم يكونوا أصدقاءً له بالذات، مضافاً إلى أنَّهم لم يكونوا أصدقاء حقيقيين عندما كان ثريّاً بل كانوا بلاءً عليه؛ لأن أشخاصاً من هذا القبيل وبأهداف مادية دنيوية يظهرون له- بتملّقهم- الزين شيناً والشين زيناً، أى أنَّهم لم يكونوا أصدقاءً حقيقيين أبداً. سؤال: من هم الأصدقاء الحقيقيون؟ وعلى مَن يُطلق عنوان الصديق الحقيقى؟ الجواب: ينبغى الأخذ بنظر الاعتبار معايير خالدة لانتخاب الصديق، لكى تبقى صداقته وتدوم. علينا اعتبار محبىّ العلم والإيمان والتقوى وما شابه ذلك أصدقاء لنا؛ لأنَّ محبة هؤلاء لا تتزلزل بالحوادث والمتغيّرات، والمحبة تستمر مادام التقوى والايمان والعلم والاعتقاد بالآخرة موجوداً. امثال القران، ص: ۳۰۸ وقد وردت هذه المواصفات كمعايير لاختيار الصديق فى بعض الروايات نشير إلى اثنين منها: ۱- يقول الامام على عليه السلام: «مودَّة أبناء الدنيا تزول لأدنى عَرَضٍ يُعْرَضُ» «۱». إن أصدقاء من هذا القبيل يتخذون صبغة خاصة فى الحوادث بحيث يبدون وكأنهم لا- يعرفون صديقهم السابق أو لم يروه من ذى قبل. ۲- يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام فى رواية اخرى «وُدُّ أبناء الآخرة يدوم لدوام سببه» «۲». صداقة أمثال هؤلاء صامدة وثابتة على كل حال، سواء أقبلت الدنيا أم أدبرت، وفى الأسر والحرية، وفى المرض والسلامة. هكذا أصدقاء قليلون وبخاصة فى آخر الزمان، لذلك ورد عن الرسول صلى الله عليه و آله قوله: «أقلُّ ما يكون فى آخر الزمان أخ يوثق به أو درهم من حلال» «۳». حقاً إنَّ كليهما قليلان وعزيزان. فلنفرض حصول الانسان على مالٍ حلال بمشقة كثيرة فيضعه فى حسابه فى البنك، عندئذٍ يختلط بأموال أشخاص مرابين ولا يعتقدون بالخمس والزكاة ولا يدفعون ما عليهم من وجوه شرعية اخرى أو يرتزقون عن طريق السرقة أو يحتكرون ما يحتاجه الناس أو يهرّبون السلع المحظورة وغيرهم ممَّن لا تخلو أموالهم من الحرام، ورغم أنه لا تكليف فى الظاهر ملقى على عاتق الانسان المفروض هنا إلَّاأنَّ اختلاط أمواله الحلال بالأموال الحرام يترك أثراً وضعياً. وقد يكون هذا هو سبب ما ورد فى الحديث التالى: «يأتى على الناس زمان لا يبقى أحد إلَّاأكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره» «۴» نتطلع إلى اليوم الذى يسعى فيه الناس جميعاً لكسب الرزق الحلال ويرفع المرابون أيديهم امثال القران، ص: ۳۰۹ عن الربا ويمتنع السارقون عن السرقة والمحتكرون عن الاحتكار والمهربون عن تهريب المخدرات.

۴- من هو ولىّ المؤمنين؟

اللَّه ولى الذين آمنوا وناصرهم ومعينهم فى الدنيا والآخرة، فهو القادر على كل شىء، كما جاء ذلك فى الآية ۲۵۷ من سورة البقرة: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذين كَفَرُوا أوْلِياؤهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ اولئكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». كما أن أولياء اللَّه هم أولياء للمؤمنين كذلك، حيث يقول اللَّه فى الآية ۵۵ من سورة المائدة: «إنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقيمُون الصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ رَاكِعُون». بناءً على هذه الآية يُعدُّ الرسول صلى الله عليه و آله والامام على عليه السلام «۱» أولياءً للمؤمنين. كما ورد فى الآيتين ۳۰ و ۳۱ من سورة فصِّلت كون الملائكة أولياء للمؤمنين كذلك: «إنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا ولَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَولِيَاؤُكُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيا وفِى الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها مَا تَشْتَهِى أَنْفُسُكُمْ ولَكُمْ فِيها مَا تَدَّعُونَ». وبما أنَّ الناس غير معصومين فالملائكة تهمُّ

دائماً بحفظ المؤمنين من الحوادث والمخاطر، وهذه هى الولاية التكوينية. وجود الرسول صلى الله عليه و آله والأئمة عليه السلام وأولياء اللَّه سبب للبركة والآثار المعنوية، وعندما يُسأل المعصوم عن فائدة وجود إمام غائب، أى المهدى (عجل اللَّه فرجه) بيننا، يقول: «كما ينتفعون بالشمس إذا سترها سحاب» «۲». امثال القران، ص: ۳۱۰ إذن، اللَّه والرسول صلى الله عليه و آله والأئمة عليهم السلام والملائكة أولياء للمؤمنين، بشرط أن يخطو المؤمن فى طريق الحق تعالى، فاذا خطى المؤمن خطوة نحوه تعالى خطى اللَّه باتجاهه خطوات كثيرة، وإذا قلنا (ربّنا) واستقمنا شملتنا ألطاف إمام الزمان (عجل اللَّه فرجه)، كما شملت بعضنا. علينا مدّ أيدينا نحو السماء والتضرُّع إلى اللَّه تعالى لكى يحلَّ مشاكلنا الفردية والاجتماعية والسياسية بعناياته الخاصة.

المثل الثالث والثلاثون: الحياة الدنيا

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآيات ۴۵ و ۴۶ من سورة الكهف: «وَاضرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنيَا كَمَاءٍ أَنَزلنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاختَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأصبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ مُقْتَدِراً* المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالبَاقيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيرٌ عِنْدَ رَبِّکَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلًا».

تصوير البحث

شبَّه اللَّه تعالى الحياة الدنيا فى هذا المثل بماء الغيث. الخصوصية البارزة لهذا الماء أنَّه يضفى طراوة ونشاطاً على الزرع والنباتات مدّة أيام، لكن هذه الطراوة والنشاط تنتهى بحلول فصل الخريف، أى فصل الموت المؤقت للنباتات، وينتهى به شوط قصير من حياة النباتات. وهذا الشوط تحذير فى الحقيقة إلى الانسان الغارق فى الحياة الدنيوية بأنَّ حياته سيحلُّ فيها فصل الخريف حيث بداية الموت.

الشرح والتفسير

«وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا». يخاطب اللَّه بهذه الآية الرسول صلى الله عليه و آله بأن يضرب للناس الغارقين فى الدنيا مثلًا على هذه الحياة ويشبّهها بما شببها. لماذا ضرب اللَّه هذا المثل هنا؟ امثال القران، ص: ۳۱۲ قد يكون ذلك باعتبار أنَّه أشار إلى عاقبة عَبَدَة الدنيا والذين غرقوا فى مُتعها من خلال الآيات الاثنى عشر الماضية، ولأجل اتّضاح أصل الحياة الدنيا طرح اللَّه هذا المثل تعقيباً للمثل المتقدِّم. «كَمَاءٍ أنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ». يسقط هذا الماء على أرجاء الأرض كلها سواء كانت خصبة أو سبخة، لكن الأراضى لم تستفد من هذا الماء بنحوٍ واحد، فقد يكون هذا الماء سبباً للحياة فى جزءٍ وقد يكون سبباً للعذاب الإلهى فى جزءٍ آخر. «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْضِ». عندما يسقط هذا الماء على الأراضى الخصبة يضفى عليها حياة وطراوة ونشاطاً وافراً، فتنبت من جراء ذلك نباتات مختلفة ومتنوّعة، كلٌّ منها تكشف عن قدرة الخالق، وتتشكل بذلک مناظر طبيعية خلابة ومحيّرة للعقول فى فصلى الربيع والصيف، وتحرّض كل صاحب بصيرة لتمجيد الخالق وتحسينه. «فَأَصبَحَ هَشيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ». لكن عمر الطراوة والنشاط، الذى منحه الماء للنباتات وجمَّل الارض، قصير؛ لأنّه بعد أيام حيث يحلُّ فصل الخريف والشتاء ويتبدَّل الخضار إلى صفار والنشاط إلى خمول وموت، وعندما تهبُّ الرياح حاملة معها رسالة الموت الظاهرى للطبيعة تتساقط أوراق الأشجار التى كانت تجمّل الطبيعة وتجعلها خضراء خلابة، وبعدما ترقص فى الهواء للحظات تقع على الأرض لتُدفن فى باطنها. «وَكَانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شىءٍ مُقتدِرَا». بالطبع، هذه التحولات والتغييرات التى تطرأ على الانسان وجميع الموجودات فى العالم تحتاج إلى قدرة اللَّه من حيث الوجود والبقاء، فهى فقيرة إلى قدرته تعالى، أمَّا ذات

الحق فقادرة ومستطيعة دائماً، ولا يؤثّر فيها مرور الزمان وتحوّلات الفصول والمناخات وغير ذلك، بل اللّه بقدرته أوجد هذه التحوّلات، وكل شيء يتغيّر إلّاذاته الطاهرة. نعم، اللّه قادر على كل شيء. امثال القران، ص: ٣١٣ «المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا». البنون كالمال بمثابة رأس مال فى الحياة الدنيا، كما هو حال النباتات ففى برهة من الزمن تُعدُّ سبباً لجمال الأرض ويتباهى بها الانسان أحياناً، لكنها ممّا لا ينبغى الوثوق بها، ولا ممّا تسبب إنقاذ الانسان ونجاته فى الدنيا وفى الآخرة. «والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلًا». الرصيد الذى يمكن الاعتماد عليه والذى يُعد ذخراً حَسَناً عند اللّه تعالى هو الأعمال الصالحة الباقية التى عبَّر عنها اللّه فى هذه الآية بالباقيات الصالحات. نعم، الأعمال الصالحة والقيم الثابتة تعدُّ رصيداً يعتمد عليه، فهى ذات صبغة خالدة ولا خريف فيها ولا موت.

بأى شىءٍ شبِّهت الحياة الدنيا؟

سؤال: بأى شىءٍ شُبِّهت الحياة الدنيا فى هذه الآية؟ هل شبِّهت بالأشجار الطرية ذات العمر القصير والتى تموت بحلول فصل الخريف، كما تقدَّم شرح ذلك، أو أنَّها شبِّهت بماء المطر الذى ينزل من السماء شفافاً صافياً؟ إذا كان الثانى فعلينا معرفة وجوه الشبه بين الدنيا والمطر؟ الجواب: الإنصاف أنها شبِّهت بكليهما، والمعنيان والتشبيهان صحيحان، وقد تقدَّم تفصيل تشبيه الدنيا بالنباتات، أما وجه تشبيهها بالغيث فهو كون الغيث ينزل من السماء وينصبُّ فى قالب النباتات، ويمنحها حياة ونشاطاً وقوة فتخضر الدنيا بها وتصبح زاهية بزهور النباتات، وبعد مدَّة قصيرة من عمرها تتَّجه نحو الموت وتنتهى ويتبخَّر الماء ويتركها هيكلًا بلا روح متّجهاً نحو السماء تارة اخرى وهذا هو الذى يُؤدى إلى موت النباتات. نعم، ينزل الغيث من السماء لكى يرسخ فى صلب النباتات ويمنحها حياة، وبعد مدَّة يرجع إلى السماء «إِنَّا للّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» «١» عائداً إلى أصله ومحافظاً على سنة الرجوع والعود إلى الأصل. امثال القران، ص: ٣١۴ الهدف من تشبيه الحياة الدنيا بالغيث هو إفهام الانسان بأنَّ روحه مثل الماء الذى ينزل من السماء ومن العالم العلوى جُعلت فى هيكله المادى، فعليه انتهاز فرصة تواجدها فى جسمه والاستفادة من الحياة بأحسن وجه ممكن، وعليه الإكثار من الأعمال الصالحة، وليكن مطيعاً مخلصاً وعبداً خاضعاً لذات الحق تعالى، وهذا هو متاعه فى سفره نحو الآخرة والصعود إلى دار العقبى والعالم العلوى. إذن فليقدّر الانسان لحظات عمره القصيرة فى الدنيا ولينتهزها حتى أقصى لحظة. يشبّه أحد العلماء أرواح الناس بالغواصين الذين يبحثون عن اللؤلؤ والمرجان ويضطرّون لأجل ذلك للغوص إلى أعماق البحار، والغوص يستحيل على الغواص إلّاأنْ يصحب معه ثقلًا ثم يفصله عندما يعثر على اللؤلؤ أو المرجان المستهدف لكى يمكنه أن يطفو على سطح الماء تارة اخرى الانسان فى هذه الحياة بمثابة الغواص الباحث عن اللؤلؤ والمرجان المعنوى، وهى المقامات والكمالات الاخلاقية والطاعات العبودية، خضوعاً للّهالأحد فى بحر الوجود الموّاج، قضاءً لأيام من الاسر فى عالم التراب، والانسان الموفّق والناجح والمنتصر فيه هو الانسان الذىاصطاد صيداً جيداً واستطاع تحرير نفسه من قيد جسمه الترابى صعوداً نحو دار البقاء متحرّراً من كل قيد.

اختلاف هذه الآية مع الآية ٢۴ من سورة يونس

جاء ما يلى فى الآية ٢۴ من سورة يونس والتى تقدَّم الحديث عنها فى المثل الثامن عشر: «إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْض مِمَّا يَأْكُلُ النّاسُ والأنْعَامُ حَتَّى إذَا أَخَذَتِ الأرْضُ زُخْرُفَهَا وأزَّيَنَتْ وَظَنَّ أَهلُها أَنَّهُمْ قَادِرونَ عَلَيْها أتَاهَا أمْرُنا لَيْلًا أوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأمْسِ كَذلِك نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». والسؤال: هل المثل المذكور فى الآية ۴۵ من سورة الكهف تكرار للمثل المذكور فى الآية ٢۴ من سورة يونس من حيث اتحاد وجه التشبيه فيهما؟ الجواب: المثلان مختلفان وليسا مكرَّرين؛ لأنَّ الحديث فى المثل المطروح فى سورة يونس امثال القران، ص: ٣١۵ عن حصول حادث مفاجئ يمحو آثار حياة النباتات ونشاطها، وذلك قبل إتمام عمرها الطبيعى، أمَّا المثل الذى هو موضع بحثنا (الآية ۴۵ من سورة الكهف) فالحديث فيه ليس عن حادث

خاص یطرأ فجأهٔ بل الحدیث عن حادث یطرأ تدریجیاً فی فصل الخریف یسلب النباتات خضارها ونشاطها وطراوتها حتی ینتهی الأمر إلی جفافها وموتها فی نهایهٔ المطاف، لکن تدریجیاً لا فجأهٔ. هذه السنَّهٔ الالهیهٔ تصدق فی حق الانسان کذلک، فهو یمرُّ بمرحلهٔ الطفولهٔ ثمّ الشباب ثم الکهولهٔ والشیخوخهٔ. علی کلِّ حال، هذه الحیاهٔ الدنیا زائلهٔ وینبغی الإعداد والتهیّوء لحیاهٔ البقاء الاخرویهٔ حیث الدیمومهٔ والقیمهٔ العالیهٔ.

خطابات الآیهٔ

۱- تنوّع النباتات من معالم القدرهٔ الإلهیهٔ

«فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْضِ». هذه العبارهٔ تشیر إلی تنوع واختلاف النباتات، وعدد فصائلها حالیاً یبلغ مئات الآلاف، وهذه الإحصائیهٔ التی یقرُّها علماء النباتات تخص الأماکن التی بلغها البشر دون تلک التی لم یستطیع بلوغها أو الوصول إلیها. یقول العلماء: ما یعادل هذا العدد وقد یزید علیه من فصائل نباتیهٔ توجد فی أعماق البحار والغابات التی لم تطئها أقدام البشر ولم یکتشف نباتاتها، ولهذا یقال بأن عدد فصائل النباتات قد یصل إلی الملیون «۱»، ولکلِّ فصیلهٔ منهج وبرنامج خاص، کما أنَّ لکلٍّ عجائب کثیرهٔ. امثال القران، ص: ۳۱۶ هناک نباتات تتشکّل من زهرهٔ فقط، أی أنَّها لا- تحتوی علی غصون وأوراق وغیر ذلک بل کل ما هناک زهرهٔ تنبت مباشرهٔ علی الأرض. والأعجب من ذلک هو النباتات الآکلهٔ للحوم، فهی تحس وتتحرّک، وعندما یقترب منها حیوان تلفُّ غصونها وأوراقها حول ذلک الحیوان لتلتقمه وتبتلعه. کلٌّ من هذه النباتات مَعْلمٌ من معالم القدرهٔ الإلهیهٔ، یسلِّم بها حتی المنکرون لو فتحوا أعینهم وأبصروا بها، فإنَّ آثار اللَّه تجدها کل مکان لکن رؤیتها تحتاج إلی عین باصرهٔ.

۲- ما هی الباقیات الصالحات؟

ذکر المفسرون احتمالات عدیدهٔ للباقیات الصالحات، نشیر إلی خمسهٔ منها: الف: المراد هو الصلوات الیومیهٔ الخمس «۱»؛ لأنها أعمال صالحهٔ وخالدهٔ کذلک، فالصلاهٔ تعمر کل مکان اقیمت فیه من البیت والدائرهٔ والمجتمع والبلد، والمکان الذی لا تُقام فیه صلاهٔ یخرب ویُدمَّر. الصلاهٔ إذا وجَّهت القلب الذی هو مرکز الاضطرابات والقلق نحو اللَّه طمأنته وسکّنته «۲»، وملخَّص الکلام هو أنَّها معیار قبول أوردّ الأعمال وباقی العبادات «۳». باء: المراد من الباقیات الصالحات هو الذکر الشریف التالی: «سبحان اللّه والحمدُ للّه ولا إله إلَّااللَّهُ واللَّهُ أکبر» «۴». هذا الذکر ینزّه اللَّه تعالی عن کل عیب ونقص ویوصفه بصفات الکمال، وربٌّ بهذه الصفات جدیر بالحمد والثناء؛ لأنَّه الوحید المتصف بهذه الصفات الکمالیهٔ والوحید الذی هو جدیر وأهل للعبادهٔ، ولا معبود غیره، وهو أرفع شاناً ممَّا نصفه به وممَّا نظن ونتصوَّر وأعظم من أن تحدَّه افکارنا. امثال القران، ص: ۳۱۷ جیم: المراد منها صلاهٔ اللیل «۱»، فهی صلاهٔ تحضی بأهمیهٔ کبیرهٔ، وکل ما قلنا فیها کان قلیلًا، یقول اللَّه فی هذا المجال: «وَمِنَ اللّیلِ فَتَهَجَّد بِهِ نَافِلَةً لَکَ عَسَی أنْ یَبْعَثَکَ ربُّکَ مَقَاماً مَحْمُوداً» «۲». بلوغ المقام المحمود غیر میسَّر حتی للرسول صلی الله علیه و آله إلَّامن خلال صلاهٔ اللیل. بالطبع لا- ینبغی للانسان أن یأتی بجمیع آداب ومستحبات صلاهٔ اللیل وبخاصهٔ بالنسبهٔ إلی أولئک الذین قصدوا تواً نیل هذه السعادهٔ العظمی بل یکفیهم الاتیان بأحد عشرهٔ رکعهٔ بنحوها العادی والمألوف، رغم أن الذی یأتی بباقی آدابها ومستحباتها سینال قسطاً أوفر من الثواب عند اللَّه قطعاً. أتمنی التوفیق للقیام بهذه العبادهٔ الکبری لکی یتسنَّی لنا الإحساس بلذهٔ بلوغ المقام المحمود تدریجیاً. دال: فسَّر بعض المفسِّرین الباقیات الصالحات بالبنات اللاتی یتم تربیتهنَّ بالآداب الاسلامیهٔ لیصبحن امهات نموذجیات «۳»؛ لأنَّهن منشأ أمل لوالدیهن فی عالم الآخرهٔ. هاء: نقرأ فی روایهٔ وردت عن الامام الصادق علیه السلام أن حبَّ أهل البیت وولایتهم من مصادیق الباقیات الصالحات «۴». هذه خمسهٔ تفاسیر مختلفهٔ للباقیات الصالحات، لکن تقدَّم منا أنَّ هذه التفاسیر رغم تضادها الظاهری غیر متضادهٔ ولا متنافیهٔ فی الواقع، ویمکن شمول

الباقيات الصالحات لها جميعاً من خلال القول بأن كلًا من التفاسير التى ذكرناها والتفاسير التى لم نذكرها «۵» بمثابة المصاديق للباقيات الصالحات «۶»، فإنَّ لهـذا العنوان مصـاديق متعـدّدة ومختلفـة. امثال القران، ص: ۳۱۸ والنتيجـة هى أن لاـ يتعلَّق الانسان بـدنياه الفانية والعاجلة بل عليه التعلُّق بالباقيات الصالحات.

مباحث تكميلية

۱- ماهى الحياة الدنيا؟

الـدنيا مؤنث أدنى والحيـاة فى عبـارة «الحيـاة الـدنيا» مؤنث موصوف، والـدنيا صـفتها. الـدنيا والأـدنى يعنيان القرب وقـد تعنى الـدنائة والوضاعة. وبهذا يكون معنى الجملة الحياة القريبة ويقابلها الحياة البعيدة أى الآخرة، أو بمعنى الحياة الوضـيعة والدنيئة، ويقابلها الحياة العليـا والرفيعـة، أى الآـخرة. الـدنيا مجموعـة من الامكانيـات الماديـة من قبيـل الثروة والمال والمقام والزوج والولـد والمنزل والسـيارة والامور الاخرى التى تحضى بأربع خصال: ۱- فانية وغير دائمة، كما اشـير إلى ذلك فى كثير من الآيات والروايات. ۲- خادعة وذات مظهر جـذاب، فهى جميلة وفاتنة جداً إذا نظرنا إليها من بعيد. ۳- جوفاء، أى رغم ظاهرها الجـذّاب نجدها- عند الاقتراب منها- جوفاء خاليـة، كالسـراب الـذى يبدو ماءً من بعيد، لكنه لا شـىء فى الواقع ومن قريب. ۴- ممزوجـة بمختلف المشاكـل والمصائب، فلا تخلو الحياة من المشاق والمتاعب أبـداً. مجموع ما تقـدَّم مع هـذه الخصائص الأربع يشـكلّ الحياة الدنيا، رغم ذلك فانَّها إذا اتّخذت صـبغة إلهيـة والتزمت الأهـداف الساميـة والعليـا فلا تبقى دنيا بل تصـبح آخرة. عن ابن أبى يعفور: قلت لأبى عبـداللّه عليه السـلام: إنَّا لنحبّ الدنيا، فقال لى: «تصنع بها ماذا»؟ قلت: أتزوّج منها وأحج وأنفق على عيالى وأنيل إخوانى وأتصدق، قال لى: «ليس هذا من الدنيا، هذا من الآخرة» «۱». إذن، إذا اتُّخـذت الحياة لغرض الالتـذاذ المادى ولتلبية الشـهوات والأهواء كانت عبادة امثال القران، ص: ۳۱۹ للدنيا، وإذا اتّخذت جسراً لبلوغ الأهداف المعنوية السامية كانت آخرة.

۲- الدنيا من وجهة نظر الروايات

فى الروايات نجد مباحث كثيرة وواسعة عن الدنيا، بل يمكن القول بأنَّ الدنيا من أوسع المباحث المطروحة فى الروايات. من المباحث المطروحـة فى الروايـات عن الـدنيا هو التمثيـل لها، نشـير إلى نماذج منها. الف: يقول الإمام الكاظم عليه السـلام: «مثل الـدنيا مثل ماء البحر كُلَّما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله» «۱». وفقاً لهذا الحديث كون الدنيا لا تروى عطش أىٍّ من عَبَدة الدنيا، وإذا ظنَّ أحد أنَّه سيقتنع، بمستوى خاصٍ من مستويات الدنيا ومقاماتها فإنَّ ظنَّه وَهْمٌ وخيال لا أكثر، ومن المحالات، وعكسه، أى طلب الزيادة، هو الواقع الصـادق. لم يبلغ أثريـاء الـدنيا الكبار مسـتواهم المعاشـى ودنياهم الدنيـة إلَّابعـد ارتكاب جرائم تنفر النفس لبيانها فضـلًا عن أرتكابها، وقـد أعـدوا لهم إثر هـذه الجرائم حياة كماليـة اسطورية يصـعب تصوّرها على الآخرين، فقـد قيل فى بعضـهم أن له حوض سباحـة فى طـائرته الخاصـة. لكن يـا ترى هل يشبعون؟ وهل ذلك يروى ضـمأهم؟ كلا، انّهم يسـعون لاكتساب الأكثر فالأكثر دائماً، ولأجـل ذلـك يقتحمون كـل مجالاـت التجارة مهمـا كـانت، فيتـاجرون بالأسـلحة التى يُقتل بها المـذنبون وغير المـذنبين سواء، كما يتاجرون بالأسـلحة الكيمياويـة التى يكفى قذيفـة منها لقتل الآلآف من المدنيين العُزَّل بأبشع وجه، فيضـيق العيش عندئذٍ لا على البشـر فحسب بل على جميع الموجودات الحية، رغم ذلك فهم غير مكترثين بالعواقب المفجعة والوحشية لهذه الأعمال والتجارة، وما يهمهم هو زيـادة أربـاحهم وأموالهم. إنَّهم مستعدون- لإـرواء عطشـهم تجاه الـدنيا لأن يتاجروا بالمخـدرات وأن يحطّموا عوائل ومجتمعات ويسلبوا الشـباب إرادتهم بهـذه المواد؛ وذلـك لأجل زخرفـة دنياهم أكثر فأكثر. امثال القران، ص: ۳۲۰ إن هؤلاء القذرين حاضـرون للمتـاجرة بالبشـر، وهى تجـارة قـذرة تشـمئزُّ منهـا النفوس، فيشترون الأطفـال- سواء بنـات أو بنين- من الـدول الفقيرة وبمبـالغ زهيـدة

ليبيعونهم بمبالغ طائلة للمتموّلين وأصحاب الأهواء من أمثالهم، وهى عملية تخلّف آلاماً وحسرات، حيث يبقى الوالدان يتحسَّران على رؤية ولدهم ويتحمّلون حرقة فراقه إلى آخر العمر. ولا يهمهم ذلك؛ لأنَّ هدفهم زيادة المال وإنماءه. يا لهم من اناس دنيئين؟ لكن لماذا هم كذلك؟ يمكن الإجابة على ذلك بالقول: إنّهم لا يفكّرون بغير الدنيا ولذاتها المتنوعة، ولا علاقة لهم بشأن الدين والشرف والانسانية، وقد قيِّد وجدانهم البشرى فى زنزانة الحرص والطمع وطلب الزيادة، ودُفنت فطرتهم تحت تلٍّ من الرذيلة والدناءة. باء: يقول سابع إمام للشيعة موسى بن جعفر عليهما السلام واصفاً الدنيا: «مَثَلُ الدنيا مَثَلُ الحيَّة مسُّها ليِّن وفى جَوفِها السمُ القاتل» «۱». هذا الحديث يشير إلى خداع الدنيا ويشبهّها بالحية ذات المنظر الفاتن والباطن المسموم والقاتل. جيم: يقول الامام على عليه السلام: «إنَّما الدنيا شَرَكٌ وقع فيه مَن لا يعرفه» «۲». ويا له من شرك واسع وكبير يسع لصيد وقرابين مختلفة ومتنوّعة! دال: كما يقول أول أئمة الشيعة: «الدنيا ظلُّ الغَمَام وحُلم المَنَام» «۳». يحكى هذا الحديث الشريف جانباً من الدنيا، وهو كونها زائلة وغير دائمة، فهى من قبيل امثال القران، ص: ۳۲۱ الظلّ الذى تفتعله الغمام، وهو ظلٌّ سائر وغير دائم ولا ثابت فى محل ما، فلا يمكن اللجوء إليه هروباً من حرارة الشمس. الدنيا منام يراه الانسان النائم، وهو خيال أجوف، من قبيل رؤية الانسان لكنوز كثيرة يمتلكها، ولا يجدها ولا آثارها فى اليقظة. إذن، الدنيا فانية، كما أنها جوفاء وخالية من المحتوى. هاء: فى حديث يصف لقمان الحكيم الدنيا لابنه كما يلى: «إنَّ الدنيا بحر عميق قد غِرق فيها عالَمٌ كثير» «۱». الذى يغرق إمَّا أن يصبح طعاماً للحيوانات البحرية أو أن أمواج البحر تلقى به إلى أماكن بعيدة، بحيث لا يبقى منه أثر. والدنيا تفعل بالانسان كما يفعل البحر بالغريق، فهى قاسية وغير وفيّة. عاش فى هذه الدنيا أقوام ونحل كثيرة لا نجد لها أثراً حالياً، فهى قد غرقت فى بحر الدنيا، فعلينا البحث عن وسيلة نجاة من بحر الدنيا يُطمئن إليها ننقذ بها أنفسنا من الغرق. واو: يقول الامام على عليه السلام فيما يخصُّ أهل الدنيا: «أهل الدنيا كَرَكْبٍ يُسار بِهِم وهُمْ نيام» «۲» عبدة الدنيا يقضون حياتهم فى نوم الغفلة، وقد أدهشتهم شهوات الدنيا ولذّاتها، لذلك لا يصطحبون معهم متاعاً فى سفرهم نحو الآخرة، يستيقظون عندما يشعرون بصفعة الأجل، عندها يندمون ويأسفون، لكن ذلك لا يفيدهم؛ لأن زمن التدارك قد مضى وولّى زاء: يصف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الدنيا بمثل جميل ويقول: «الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر» «۳». يحكم المؤمنين قيود كثيرة فى الدنيا، هى من قبيل الحلال والحرام ورضا اللَّه وغضبه والمحرمات والواجبات، وهى قيود تحدُّ من نشاطات المؤمنين كثيراً، أمَّا الكفَّار فهم فى حلٍّ من امثال القران، ص: ۳۲۲ جميع هذه القيود، فهم أحرار والأهواء هى التى تحكمهم، ولذلك يُعدُّ المؤمن سجين الدنيا فى زنزانة تتحطّم عند الموت لتحلِّق روحه منها نحو الحرية. وهذا هو السبب فى أنَّ أولياء اللَّه يتطلّعون إلى الموت ويعدونه فوزاً «فُزْتُ وربِّ الكعبة» أو يتمنّونه «اللهمَّ عجِّل وفاتى سريعاً»، فهم يستقبلون الموت برحابة صدر ولا يهابونه أبداً. إذا كان دفتر أعمال الانسان أبيض كان الموت نعمة له؛ لأنه يتخلَّص عنده من الدنيا المفعمة بالمصائد والفخاخ الشيطانية، ويتخلَّص كذلك من قيود الدنيا ليبلغ نعمة الحرية التى ينالها المؤمن فى الآخرة. حاء: يصف النبى عيسى عليه السلام الدنيا كما يلى: «إنَّما الدنيا قنطرةٌ فاعبروها ولا تعمروها» «۱». الدنيا ليست هدفاً ولا غاية، بل وسيلة، والنظر إلى الدنيا من هذه الزاوية يعدُّ إيجابياً جداً، ونرتكب خطأً كبيراً إذا نظرنا إليها كهدف وغاية. لذلك شبّهها النبى عيسى عليه السلام بالجسر الذى ينبغى العبور عليه لا المكث فيه، فالعاقل لا يبنى منزلًا على الجسر، فهو ليس محلًا للتوقف والعيش، والعجيب إذا صدر ذلك من الانسان. فى هذا المجال ورد حديث عن الامام على عليه السلام يقول فيه: «عجبت لعامر الدنيا دار الفناء وهو نازل دار البقاء» «۲». طاء: ينقل الامام على بن الحسين عليهما السلام مكاشفة عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما يخصُّ الدنيا الدانية، حيث يقول: «إنّى كنت بفدك فى بعض حيطانها، فإذا أنا بامرأة قد قحمت علىّ وفى يدى مسحاة وأنا أعمل بها، فلمّا نظرت إليها طار قلبى ممَّا تداخلنى من جمالها فشبهتها ببُثينة بنت عامر الجُمحى وكانت من أجمل نساء قريش، فقالت: يا ابن أبى طالب، هل لك أن تتزوّج فاغنيك عن هذه المسحاة وأدلك على خزائن الأرض فيكون لك الملك ما بقيت ولعقبك من بعدك؟ فقال لها: مَن امثال القران، ص: ۳۲۳ أنت حتى أخطبك من أهلك؟ فقالت: أنا الدنيا. قال: قلت لها: فارجعى واطلبى زوجاً غيرى». ثمّ أنشد عليه السلام أبياتاً جميلة فى ذمها «۱». تقدَّمت تسعة من الأمثال الواردة عن الدنيا على لسان المعصومين واذا جمعناها

إلى الآیة تصبح عشر أمثال جمیلة تعکس بوضوح الجوانب والخصائص الأربع التی ذکرناها للدنیا. اللافت أن المعصومین أینما تحدَّثوا عن موضوع بیّنوه بنحو واف لا لُبس ولا نقص فیه، وبه تتمُّ الحجة علی الجمیع بحیث لا یمکن لأحد أن یدَّعی عدم العلم أو المعرفة.

۳- ما سبب ذم الروایات الدنیا؟

کثرة مذمّة الدنیا من قبل الروایات إشارة منها إلی نقطة جاءت فی نفس الروایات تحدّد فلسفة وعلة هذه المذمّة، علی سبیل المثال جاء ما یلی فی روایة وردت عن الوجود المقدس للامام الصادق علیه السلام: «رأس کلِّ خطیئة حب الدنیا» «۲». هذه الروایة تُرجع الذنوب کلها (وهی من قبیل السرقة والتهمة والغیبة والاستهزاء وإیذاء المؤمن والزنا واللواط والاعتداء علی الآخرین وترک الواجبات وفعل المحرمات) إلی حبّ الدنیا وعبادتها. وفی روایة لافتة وجمیلة یقول الامام الکاظم علیه السلام: «إعلم أنَّ کل فتنة بذرها حبُّ الدنیا» «۳». وفی روایة یقول رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «أکبر الکبائر حبُّ الدنیا» «۴».

تحلیل الروایات

الدنیا محلّ التزاحم عکس الآخرة، فلا تزاحم فیها، وبعبارة اخری للتزاحم مجال فی الامور الدنیویة، ولا یُتصوَّر هذا التزاحم فی الامور المعنویة. وعلی سبیل المثال إذا کنت حافظاً للقرآن فلا- یتزاحم ذلک مع حفظ القرآن من قبل الآخرین حتی لو حفظه نساء الدنیا ورجالها جمیعاً. وعکس ذلک فی الأمور الدنیویة فإذا کنت مالکاً لقطعة من الارض، تزاحم ذلک مع ملک شخص آخر لنفس الأرض. أی هناک تزاحم بین ملکک وملک الآخرین أو إذا کان زید رئیساً للجمهوریة فلا یمکن لعمرو أن یکون رئیساً للجمهوریة کذلک. وبما أنَّ هذه الدنیا دار تزاحم کانت سبباً للذنوب. وامکانیات الدنیا لو قسمت بعدالة بتکافؤ لأمکن للجمیع الاستفادة منها بالنحو المطلوب إلّاأن طلّاب الزیادة وعبدة الدنیا حالوا دون حصول تعادل فی توزیع الامکانیات ووفّروا الأرضیة للتعدی والتجاوز علی الحقوق، وبذلک تندرس حقوق الضعفاء وتضیع. وهذا هو تصویر کون الدنیا منشأً للذنوب. إذن، لو اقتنع الانسان بما لدیه واتَّخذ القناعة کمنهج لحیاته حفظ نفسه بعیداً عن التلوّث بکثیر من الذنوب.

المثل الرابع والثلاثون: تنوّع أمثال القرآن

اشارة

«وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِی هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ وَکَانَ الْإِنْسَانُ أَکْثَرَ شَیءٍ جَدَلًا» «۱».

تصویر البحث

خلافاً لباقی الأمثال حیث تحدَّثت عن عینیات خارجیة فان الحدیث فی هذه الایة عن المسائل الکلیة وتنوع أمثال القرآن، لعلَّ هذه الأمثال تقنع بتعدّدها وتنوّعها الانسان الجاحد والمجادل وتهدیه إلی الصراط المستقیم.

هل هذه الآیة من أمثال القرآن؟

اختلف المفسرون فی هذا الباب، فبعض عدَّها من أمثال القرآن وبعض آخر رفض إدراجها فی الأمثال، وبرأیی أن الإجابة علی هذا السؤال یتوقّف علی کیفیة تفسیرنا لأمثال القرآن، فإذا کان المراد من المثل التمثیل بشیء ذی عینیة خارجیة، کما هو حال الکثیر من

أمثال القرآن، كانت هـذه الآيـة خارجـة عن نطاق المثل، وإذا كانت الإشارة الكليـة إلى أمثال القرآن كافيـة فى صدق المثل اندرجت هذه الآية تحت هذه الأمثال؛ لأن هذه الآية تشير إلى تنوّع الأمثال القرآنية. امثال القران، ص: ۳۲۶ يُذكر أن بعضاً ممَّن كتب فى أمثال القرآن أخطأ هنا، ومع احترامى له أقول: لا ينبغى عـدّ الآيـة مثلًا بمجرد تضـمّنها مفردة (مثل)، فقد جاء فى الآية: «فأتوا بِسُورةٍ مِنْ مِثْلِهِ» «۱» رغم ذلك لا علاقة للآية بالأمثال القرآنية، بل تحدَّثت عن إعجاز القرآن المجيد. كما وردت مفردة (مثل) فى الآية التالية: «للذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ» «۲» وهى كـذلك لا علاقة لها بأمثال القرآن، بل الحديث فيها عن الإرث. ومن جانب آخر، هناك البعض من أمثال القرآن لم تستخدم فيهـا مفردة (مثل)، رغم ذلك يعـدها الجميع من الأمثال. النتيجـة: وجود أو عـدم وجود مفردة (مثل) لا يـدل على كون الآية من الأمثال أو ليست من الأمثال، بل المثل هو أن تبيّن الآية معنى عقلياً معقداً فى قالب أمرٍ محسوس يسهل استيعابه للجميع.

الشرح والتفسير

«وَلَقَدْ صَـرَّفْنا فِى هَذَا القُرآن للنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ». مفردة «صَـرَّفنا» من مادة التصـريف ويعنى التبديل والتغيير، ولذلك يقال صَـرَّافاً لمن يبدّل النقد من عملة إلى اخرى فيبدل الدينار بالدولار أو بالعكس مثلًا. وقد اطلق اصـطلاح (علم الصرف) على العلم المعروف؛ باعتبار كونه علماً يعنى بتبـديل الكلمـة إلى أشـكال وصـيغ مختلفـة من الماضـى والمضارع واسم الفاعل والمفعول والجمع والتثنيـة والمـذكر والمؤنث والمخاطب والغائب وغير ذلك. يقول اللَّه فى هذه الآية: إنَّا بيّنّا أمثالًا مختلفة ومتنوّعة للناس، وبيّنا الموضوع المتحد باشـكال وصيغ مختلفة ومتنوعة لعلَّ الانسان يهتدى بها إلى ربّه. امثال القران، ص: ۳۲۷ «وَكَانَ الإنسانُ أكْثَرُ شَىءٍ جَدَلًا».

ماذا يعنى الجدل؟

الجـدل يعنى فتل الحبل فتلًا جيداً، كما يطلق على المتصارعين، باعتبار اشـتداد وانفتال أحدهما بالآخر، كما يُطلق على نقاش شخصـين فى القضايا الفكريـة والمنطقية، حيث تُفتل أفكار كلٍّ منهما بالآخر وتلتحم. النتيجة: كون الجدل فى البداية اطلق على فتل الحبل وشدّه ثم توسّع هذا المفهوم ليشمل كل انفتال مادى حتى لو كان من قبيل تصارع شخصين، ثم اطلق على مفهوم أوسع ليشمل انفتال الأفكار بالنحو المشار إليه فى الأسـطر المتقدّمة. استخدم القرآن ولغرض هداية الانسان أمثالًا متعدّدة ومتنوّعة، لكن الانسان رغم ذلك يجادل فى الحق ويقف أمـامه أكثر من أى موجود شـاعر آخر. الانسـان موجود مجادل، هـذا هو سـبب عـدم تسـليمه للحق وهو سـبب جحود البعض فى صـدر الاسـلام وعـدم إيمـانهم رغم سـماعهم آيـات القرآن من الرسول صـلى الله عليه و آله ورؤيتهم إيّاه كل يوم، وظلوا هكـذا حتى الموت. وقبـال هؤلاـء اناس آمنوا بمجرّد سـماعهم آيـة من آيات القرآن دون أن يروا الرسول صـلى الله عليه و آله. سـبب ذلك واضـح، فالـذين لم يؤمنوا كانوا اناساً مجادلين يقلبون الحقائق بالجدل، أمَّا اولئك الذين آمنوا بالرسول لمجرّد جرعة واحدة من جرعـات الهدايـة دون أن يروا الرسول فقـد كانوا يبحثون عن الحقيقـة والهـدى وهـذا هو الشـرط الأساس للهدايـة. أشار اللَّه إلى هـذا الموضوع المهم فى بدايـة سورة البقرة وعبر جملـة قصـيرة حيث قال: «ذلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدَىً للمُتَّقِينَ»؛ وذلك لأن المراد من التقوى فى هـذه الآيـة ليس المعنى المألوف والمصـطلح بل المتقين هنا هم اولئك الـذين خلت قلوبهم من العناد واللجاجـة والجـدل، فالقرآن بالنسـبة إلى هؤلاء سـبب للهداية، أمَّا أصحاب اللجاجة والعناد فما يزيدهم القرآن إلَّا ضلالًا فضلًا عن أن يكون سبباً لهدايتهم. أمثال أبى لهب وأبى جهل لم ينهلوا من القرآن شيئاً، وذلك لأنهم كانوا يفقدون أرضية النهل من بركات ونعم هذا الينبوع، فإنَّ قابلية القابل شرط مضافاً إلى فاعلية الفاعل، فكما أنَ امثال القران، ص: ۳۲۸ نزول قطرات الغيث الشفافة شرط لنمو النباتات كذلك الأرض المعدَّة والخصبة شرط لنمو النباتات.

خطابات الآية

۱- تنوّع أمثال القرآن

سؤال: لماذا استخدم القرآن أمثلة متنوّعة؟ ولماذا بيّن مطلباً ومضموناً واحداً بقوالب متباينة؟ تارة يمثّل بالحيوانات وأُخرى بالصالحين أو الفاسدين واخرى بالنباتات أو نور الشمس وما شابه ذلك، فما سبب هذا التنوّع؟ الجواب: ذهنية الأشخاص تختلف كاختلاف أشكالهم الظاهرية، فشخصيات الأفراد وقدراتهم على الاستيعاب والتحليل وأذواقهم وثقافتهم مختلفة، وإذا أراد المتكلّم أن يتوفّق ويؤثر في المخاطبين فعليه صياغة كلامه بقوالب مختلفة ومتنوّعة ناظراً في ذلك إلى قابليات المخاطبين؛ لأنَّ منهجاً في البيان قد يكون مؤثراً في الشباب وغير مؤثر في الكهول أو بالعكس، وقد تؤثر جملة في شخصٍ امّي ولا تؤثر في المثقف، وقد تكون بعض المطالب مؤثرة في النساء غير مؤثرة في الرجال وهكذا. إذن، على المتكلّم أن يلاحظ هذه النقطة المهمة وينوّع في أساليب بيانه سعياً في التأثير على جميع المخاطبين وبمختلف مستوياتهم. مخاطبو القرآن المجيد اناس كانوا عهد البعثة، وسيكون له مخاطبون إلى يوم القيامة وفي أرجاء المعمورة وبأذواق وأفكار ومستويات وتطلّعات ومعلومات مختلفة فاستخدم أمثالًا متنوّعة علماً منه باختلاف البشر في مختلف الجوانب. وبعبارة اخرى إنَّ كتاباً من هذا القبيل لا ـ يمكنه أن يتحدَّث بأدبيات واحدة مع اختلافات وتنوّع مخاطبيه، بل عليه تنويع أدبياته ليستوعبه الجميع. على سبيل المثال تحدّث القرآن عن نفسه بأنحاء مختلفة، ففي مورد يقول: «قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ امثال القران، ص: ۳۲۹ نُورٌ وكِتَابٌ مُبِينٌ» «۱» فشبَّه نفسه بنور الشمس حيث ينفذ في كل مكان ويؤثر أثره حيث ينفذ. وفي مورد آخر يشبّه نفسه بالشجرة ذات الجذر والأصل الثابت والتي تثمر في كلّ وقت وفصل، حيث يقول: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُها فِي السَّماءِ* تُؤتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُون» «۲». القرآن الكريم هو من ضمن التفاسير الواردة للكلمة الطيبة «۳»، فإنّه بمثابة الشجرة المثمرة والطيّبة دائمة وعامة البركات ويمكن للجميع الاستفادة منها، كلٌّ حسب قابليته. وفي مورد آخر تحدث القرآن عن سعة كلامه الحق قائلًا: «قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً» «۴». القرآن المجيد من التفاسير الواردة في هذه الآية «۵». إنَّ بطون القرآن ومفاهيمه وتفاسيره ومصاديقه الجديدة كثيرة جداً بدرجة لا يكفيها استخدام بحار الأرض كمداد وحبر للكتابة. عندما نراجع كلمات المعصومين عليهم السلام نجدهم قد انتهجوا منهج القرآن في الكلام مع المخاطبين، ويعبرون عن المطلب الواحد تعابير مختلفة ويستخدمون له بيانات متنوّعة. على سبيل المثال عندما يجيبون عن السؤال عن قدرة اللَّه يجيبون أجوبة متناسبة مع قابليات الأفراد وقدراتهم على الاستيعاب، لا حظوا النموذج التالي: امثال القران، ص: ۳۳۰ السؤال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: هل يقدر ربّك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ الجواب: يجيب الامام علي عليه السلام كما يلي: «إنَّ اللَّه تبارك وتعالى لا يُنسب إلى العجز والذي سألتني لا يكون» «۱». لكن هذا السؤال غلط مِن الأساس؛ لأنَّ مفهوم هذا السؤال كون العالم كبيراً وصغيراً في ذات الوقت، وهو من قبيل القول بأن موجوداً طوله عشرين متراً وعشر أمتار في آن واحد، فهذا تناقض محال. ولو طلبت من طالب أن يقسّم عشرين جوزة بين ثلاثين طالباً على أن لا يصل لكلٍّ منهم أقل من جوزة كاملة ما استطاع الطالب فعل ذلك، فهل التقصير منه أو من طلبتك غير الممكنة؟ طبيعي أن لا تعكس هذه المسألة عجز الطالب بل انَّ المسألة غلط. الامام علي عليه السلام عندما وجد في السائل ذهنية جيدة ومعرفة بمسائل من قبيل التناقض والامكان وما شابه أجابه بما تقدَّم من جواب. ذات السؤال سأله آخر من الامام الرضا عليه السلام فكان جواب الامام الرضا عليه السلام مختلفاً عن جواب الامام علي عليه السلام، فقد قال له: «نعم وفي أصغر من البيضة، وقد جعلها في عينك، وهي أقل من البيضة؛ لأنك إذا فتحتها عاينت السماء والأرض وما بينهما، ولو شاء لأعماك عنها» «۲». وجواب الامام كان متناسباً مع عقلية المخاطب وقابليته وقدرته على الاستيعاب. النتيجة: هي ضرورة اختلاف الخطاب باختلاف المخاطب من حيث القدرة على الاستيعاب والقابلية على إدراك المفاهيم «۳»، وهذا لا يعدُّ نقصاً ولا يُحمل على قلة معلومات المتكلم بل يعد فناً عظيماً يكشف عن قدرة المتكلم على البيان، ولذلك على مبلغينا أن يلمّوا بألسن جميع المخاطبين وعقليّاتهم لكي ينفذوا في قلوب الجميع ويؤثروا أثرهم وإلَّا فيُحرمون من الموفقية.

۲- منع الجدال

الجدال والمراء عن غير حق حرام في الاسلام، ويعد من الكبائر، ولذلك لا يرضى الاسلام امثال القران، ص: ۳۳۱ بالمناظرات إلّاإذا قصد طرفاها اتّضاح الحق والحقيقة وكانا يبحثان عن الحق، أمّا إذا قصد كلٌّ منهما التغلّب على الطرف الآخر كان ذلك جدلًا محرماً. على المناظرين أن يتحلّوا بشجاعة لقبول الحق، وهذا هو المطلوب في الاسلام. في مجال الجدال نقرأ آية وروايتين. ۱- جاء في الآية ۳ من سورة الحج: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيْدٍ». يجادل البعض حول التوحيد وحول اللَّه تعالى دون أن يكون له علم ومعرفة في هذا المجال، ويطلق مجادلاته عن هوى وهوس، وهؤلاء المجادلون يعدون من أتباع الشيطان؛ لأن الشيطان رائدهم في هذا المجال، وقد انحرف بواسطة الجدل، عندما أمره اللَّه بالسجود بصحبة الملائكة امتنع عن السجود مستخدماً القياس وقائلًا لربّه: خلقت آدم من تراب وخلقتني من نار، والنار أفضل من التراب «۱». مع أن السجدة لم تكن لترابية آدم عليه السلام بل للروح الالهية التي نفخها اللَّه فيه. إذن، جدال إبليس هو الذي جلب له الشقاء، كما أنَّ المجادلين أتباع الشيطان المجادل. ۲- يقول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في رواية: «ما ضَلَّ قوم إلّاأوثقوا الجِدَلَ» «۲». وهذا الحديث يعني أن الجدل سبب الضلالة. ۳- يقول الامام على عليه السلام في رواية قصيرة: «الجِدَلُ في الدين يُفسد اليقين» «۳». خلاصة ما تقدم كون الجدل غير المنطقي سبباً في الضلالة ومفسداً لليقين، والمجادلون أتباع الشيطان، وما علينا هو الابتعاد عن الجدل والتسليم إلى الحق والخضوع له.

المثل الخامس والثلاثون: التوحيد والشرك

اشارة

الآية ۳۱ من سورة الحج تشكّل المثل الخامس والثلاثين، وقد جاء فيها: «وَمَنْ يُشرِكْ باللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ».

تصوير البحث

المثال يحكي موضوعاً هو موضع اهتمام جميع الأديان، أي الشرك والتوحيد، فقد شبّههما هنا بالسماء والسقوط منها، وسيأتي شرح ذلك.

الشرح والتفسير

«وَمَنْ يُشرِكِ باللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ». في هذه الآية شُبِّه التوحيد بالسماء والشرك بالسقوط من السماء ذات الشمس والقمر والنجوم، أي مصادر النور والضياء والبركات، مضافاً إلى أن السماء نفسها تحضى بجمال وعظمة خاصة. التوحيد مركز النور والعظمة الإلهية ويأتي للموحدين بالبركة والضياء، أمّا الشرك فبمثابة السقوط من سماء التوحيد. مع الالتفات إلى هذه المقدمة تقول الآية: اولئك الذين امتنعوا عن توحيد اللَّه وجعلوا امثال القران، ص: ۳۳۴ شريكاً له وخرجوا عن صفوف الموحّدين بمثابة الذي يسقط من السماء، ومن الطبيعي أن لا يعيش الذي يسقط من السماء إلى الأرض. «فَتَخْطَفُهُ الطيرُ أَوْ تَهْوى بِهِ الرِّيحُ وفى مَكَانٍ سَحِيقٍ». المشرك الذي يسقط من السماء إلى الأرض لا ينجو؛ لأنه سيبتلي- وهو معلق في الهواء- بأحد مصيرين نتيجة كلٍّ منهما الموت والفناء. الأول: أن يقع فريسة للطيور الجوارح آكلات اللحوم والجيف، بحيث كل طير منها تلتقم جزءً من لحمه، وعندها لا يصل إلى الأرض إلّاعظامه. الثاني: إذا لم يبتل بالطيور المتقدّم ذكرها فسيبتلي بالأثناء برياح وعواصف تلقيه في مكان بعيد لا يصله انسان لكي ينقذه.

وخلاصـة الكلام أن المشـرك شُبِّه فى هذه الآية بالذى يسـقط من السـماء نحو الأرض ويبتلى فى الأثناء بطيور جوارح آكلة لحوم أو رياح وعواصف تلقى به إلى مكان سحيق يستحيل على انسان الوصول إليه.

خطابات الآية

۱– ما المراد من الطيور؟

لاـ يبعـد أن يراد من الطيور المتقـدّم ذكرهـا هو الاـهواء «۱». المشـرك مبتلى بالأـهواء، فبعض من الأـهواء تُـذهب بمـاء وجه الانسان، وبعضـها الآخر تُذهب بانسانية الانسان، وبعضـها الآخر تُذهب بشـجاعة الانسان أو مروّته أو غير ذلك، وفى النتيجة لا يبقى من الانسان المشرك شىء، بل طيور الأهواء والهوى والهوس تأكل كل ما لديه من شخصية وانسانية.

۲– ما المراد من الريح

قد يكون المراد من الريح التى أشارت إليه الآية والذى يلقى الانسان الساقط إلى أماكن امثال القران، ص: ۳۳۵ بعيدة يصعب الوصول إليها هو الشيطان الطاغى «۱»، فالمشرك إذا نجى من طيور الهوى والهوس قع أسيراً بريح الشيطان العاصى فيأخذ به إلى حيث لا ناصر ولا معين يعيش الضلال والشقاء.

۳– لا هدوء للمشرك

جاذبيـة الأـرض من نِعم اللَّه علينـا، فهى تسـبب أن يكون وزن لكل شـىء، ولولاها لما كان اسـتقرار وثبات لشـىء فى الكرة الأرضـية. المنازل والمزارع والمعامل والمـدارس والمستشـفيات مسـتقرَّة فى مكانها بسـبب وزنها والجاذبية التى ترد عليها. وهذه الجاذبية خاصـة بالأرض وتقلُّ كلما ابتعـدنا عن الأرض ومركزها، والأشـياء تفقـد أوزانها خارج ميـدان جاذبيـة الأرض، ولـذلك يـدخل روّاد الفضاء دورات تعليم وتـأقلم على الفراغ والفضـاء الخـالى من الجاذبيـة قبل رحلتهم الفضائيـة لكى يسـتعدوا لقضاء مـدّة فى الفضاء. من سـبل تجربة الفراغ وفقدان الجاذبية هو السـقوط الحر من الأماكن المرتفعة، عندها يجرّب الانسان حياة لم يجرّ بها سلفاً، ولهذا يعتقد الأطباء أن كثيراً من الذين يسـقطون من شاهق تحصل لهم سـكتات قبل الوصول إلى سـطح الأرض. يشـعر المشـرك عند سـقوطه من السماء بحالـة الفراغ والخلو من الوزن، وعنـدها تنتـابه أحاسـيس الاضـطراب تخيّم على وجوده بالكليـة، ويبـدو أن الـذى ينفصل عن التوحيد ويتوجّه نحو الشـرك يودّع الهـدوء والطمأنينـة ويلتقى بالاضـطراب والقلق، ولا يعود له الاطمئنان والهدوء إلّاتحت ظلِّ التوحيد وترك الشـرك وعبادة الأصنام «أَلَا بِذِكَرِ اللَّهِ تَطمَئِنُّ القُلوبُ» «۲». وهذا أمر يقرُّ به حتى المشـركون أنفسـهم، فقد جاء فى الآية ۶۵ من سورة العنكبوت: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»؛ وذلك لأنَّهم يعلمون جيداً بأنَّه لا أحد سيُرجع لهم الطمأنينة غير اللَّه، فيـدعونه مخلصـين له، أمَّا الأصـنام فيعلمون بعجزها عن إنقاذهم، لكن امثال القران، ص: ۳۳۶ توحيدهم مؤقت ويعودون إلى الشـرك تارة اخرى بعدما يصلون إلى السواحل حيث ترسو سـفنهم. والخلاصة أن الشـرك وعبادة الأصنام سبب للاضطراب والقلق، والتوحيد سبب للطمأنينة والهدوء.

۴– لا إرادة للمشرك

الانسان صاحب إرادة قبل السـقوط، لكنه عندما يسقط ويعلق فى الفضاء تنسلب عنه الإرادة، ولا يستطيع تقرير شىء، والمشرك عندما يسقط من سماء التوحيد يكون كذلك ويفقد إرادته وقدرته على اتّخاذ قرار.

أهمية التوحيد

التوحيـد أهم مباحث القرآن المجيد وباقی الکتب السـماوية، وقد دعی الانبياء وأوصـياؤهم الناس إليه وحذّروهم عن الشـرک وعبادة الأصـنام. لا مسألة أهم من التوحيد فی التعاليم الدينية، والشاهد علی هذا آية من القرآن تکرّرت بالنص فی موضعين من سورة النساء، هما الآية ۴۸ و ۱۱۶، حيث جـاء هنـاک: «إنَّ اللّهَ لا ـ يَغْفِرُ أنْ يُشرَـکَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَلِکَ لِمَنْ يَشَاءُ». واللافت هنا أن المراد من الغفران هنـا هو الغفران دون توبـة، أمَّا مع التوبـة فيُغفر الشـرک کـذلک. فـإنَّ أکثر الصـحابة باسـتثناء بعض قليـل مثل الإمام علی عليه السـلام کـانوا مشـرکين، وعنـدما أسـلموا وتـابوا غفر اللّه لهم. إذا مـات العاصـی قبل أن يتوب فلا يُغفر له إن کان مشـرکاً ولا أمل فی غفرانه، أمَّا إن کـانت معصـيته اموراً اخری غير الشـرک فيحتمـل أن يغفر اللّه له وأن يشـفع له أولياء اللّه، أمَّا المشـرک فلا يُغفر له ولا يُشـفع له، فالشـرک لا ـ يقع موضع غفران ولا شـفاعة. وهـذا يکشف عن أهميـة التوحيـد وخطره وعظمته فی الحياة الـدنيا وفی الآخرة، فالتوحيد ينبوع السعادات والشرک ينبوع الشقاء ودمار لکل حسنة. امثال القران، ص: ۳۳۷ سؤال: ما سبب أهمية التوحيد؟ وما سبب ذم الشـرک وبغضه إلی هذا الحد؟ الجواب: فلسفة الأهمية البالغة للتوحيد والذم الشديد للشرک هی امور مختلفة نشير إلی بعضها: الأول: أول أثر وبرکة للتوحيد هو اتّحاد المجتمعات البشـرية. تختلف البشـرية فيما بينها باللغات والأعراف والعقائد والأفکار والتقاليد والثقافة ومـا شابه ذلک، وفی بلـد مثل ايران حيث يشـکّل جزءً بسـيطاً من العالم توجـد لغات عديـدة وثقافات وأقوام متنوّعـة، وقس عليه باقی أرجـاء المعمورة، ففيها آلاف اللغات والقوميات والثقافات، لکن يا تری ما حلقـة الاتصال بين البشـر؟ وما نقطـة الاشتراک بينهم؟ وإذا قرّرت الشـعوب والحکومـات العيش تحت ظـلِّ حکومـة عالميـة واحـدة فمـا الـذی يشترکون فيه؟ لا ـ شـکَّ أن التوحيـد المتجـذّر فی معتقداتهم الأساسـية يشـکّل أهم عامل فی اتحادهم، فالتوحيد محور جيّد جداً للاتّحاد وحبل متين يمکن للجميع أن يتمسک به. يشير اللّه إلی هـذا المطلب فی الآية ۶۴ من سورة آل عمران قائلًا: «قُلْ يَا أهْلَ الکِتَابِ تَعَالوا إلی کَلِمَـةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَکُمْ ألَّا نَعْبُـدَ إلَّااللّهَ وَلا نُشْـرِکَ بِهِ شَـيْئاً وَلا ـ يَتَّخِـذَ بَعْضُـنا بَعْضـاً أرْبَابـاً مِنْ دُونِ اللّهِ». تتجلّی هـذه الوحـدة فی مراسم الحـج علی أرض الحجـاز، حيث يمکن مشاهـدة الملايين من المسـلمين من بلاد مختلفة وبألوان ولغات وثقافات وتقاليد متفاوتة جميعهم محتشدين هناک متجهين نحو کعبة معبودهم، يبـدون کالنهر الشـفاف قاصـداً الالتحاق ببحر الوحدة اللامتناهی ينبعون من قلل الانسانية العالية ويلتقون حول الکعبة معلنين خضوعهم وتسـليمهم للحق تعالی. فی آخر صـلاة جمعة قبل عرفة فی مکة المکرمة يشترک أکثر من مليون مسـلم، وهی أعظم صـلاة جمعـة للمسـلمين فی السـنة، يصـطفون جميعم فی صـفوف العبوديـة ويرفعون أيـديهم دفعـة واحـدة داعين ربّهم معظّمينه وممجّـدينه، فيرکعون متّحدين، ويسجدون متّحدين، وبذلک امثال القران، ص: ۳۳۸ تتشکّل لقطات بديعة فريدة للاتحاد والتلاحم «۱». يا تری کم ستزداد اللقطـة جمالًا وبداعـة لو أن رقعـة الاتحـاد تجـاوزت المسـلمين لتبلغ مسـتوی العـالم بمختلف ثقافاته، تمسـکاً بحبل اللّه. إذن، الاتحاد من الآثار المهمة للتوحيد، وفی قباله الشرک الذی يؤدی إلی التفرّق والاختلاف. کان للعرب الجاهليين ثلاثمائة وستين صنماً، وهذا يعنی اختلافهم وتشـتتهم إلی ثلاثمائة وستين فرقة صـغيرة وانقسام مجتمعهم إلی هذا العدد رغم صغره، ومن الطبيعی أن لا يخلو هکذا مجتمع من نزاع وجدال وصـراع وقتل وعصـيان وأن لا يکون له نصـيب من السعادة والهدوء، لکن هذا المجتمع اتَّحد وتماسک فی ظل التوحيـد وهدايـة الاسـلام ورسوله، وتفوّق عندها علی جميع المجتمعات. الثانی: الأثر الآخر للتوحيد هو منحه الموحّدين قدرة وقوّة، کما أن الشـرک يسـلب عن المشرکين قدرتهم ويجعلهم عاجزين. ما انفک المشرکون عن حياکة المؤامرات ضد الرسول صلی الله عليه و آله والمسـلمين عنـدما کانوا اقليـة فی مجتمع مکـة، فکانوا يأتون کل يوم بمؤامرة جديدة سـعياً لإطفاء نور الاسـلام وإخماد جـذوته. جاء رؤساء قريش لأبی طالب فی يوم من الأيام لکی يعلنوا وقف اطلاق النار- کما يصـطلح عليه حالياً- مع الرسول صـلی الله عليه و آله وبعد النقاش الذی دار بين الطرفين قال الرسول صلی الله عليه و آله: مخاطباً أبا جهل: «أدعوهم إلی أن يتکلّموا بکلمة تدين لهم بهـا العرب ويملکون بهـا العجم»، فقـال أبو جهـل: مـا هی وأبيـک لنعطيکهـا وعشـر أمثالهـا؟ قال: «تقولون لا إله الَّا اللّه وتخلعون الأنداد من دونه» «۲». لا زالت هذه العبارة التی أطلقها رسول اللّه صـلی الله عليه و آله تشـکّل طريق حلٍّ للبشر حيث عيوا امثال القران،

ص: ۳۳۹ الحروب والخلافات والنزاعات؛ وذلک لأن الرجوع إلى شجرة التوحید الطیبة هو الحل الوحید لحلّ هذه المشاکل وبلوغ السلطة المتزامنة مع العزة والأمان والهدوء والطمأنینة والعدالة الحقیقیة. تعالوا نفکر ونتأمل فی کیفیة تبدیل الاسلام عرب الجاهلیة فی مکة والمدینة، الذین کانوا غارقین بالاختلاف والنزاعات الدامیة، إلى اناسٍ مقتدرین وذوی عزّة استطاعوا تحت ظلّ الاخوّة والاتحاد أن یفتحوا شرق الأرض وغربها فی أقل من نصف قرن؟ ألم تکن تلک العظمة ثمرة للتوحید والتمسک بحبل اللَّه؟ الثالث: التوحید یأتی بالهدوء والطمأنینة إلى المجتمع. السبب الأساس للجرائم والمعاصی فی الدنیا هو الشرک وعبادة الأصنام، والشرک لا یقتصر على عبادة الأخشاب والاحجار بل یشمل کل عبادة لغیر اللَّه من المقام والهوى وما شابه، فهذه کلها شرک نوعاً ما، والانسان عندما یعبد هذه الامور یغفل عن اللَّه فیرتکب الکثیر من الذنوب والمعاصی والجرائم. تقدّمت الاشارة إلى روایة حکت أن الشیطان قبّل أول درهم ودینار ضربا فی الأرض، ونظر إلیهما ووضعهما على عینیه ثم ضمهما إلى صدره ثمّ قال: «أنتما قرّة عینی وثمرة فؤادی ما أُبالی من بنی آدم إذا أحبوکما أن لا- یعبدوا وثناً، حسبی من بنی آدم أن یحبوکما» «۱». لازال الشرک رائجاً فی عصرنا رغم حلول الفکر والتعقل مکان الجهل، فکم من جرائم تُرتکب لأجل جمع المال واکتنازه؟ لا هدوء ولا أمان فی مجتمعات هذا العصر، بل النزاع والاضطراب هو الحاکم فیها، ولو کانت المجتمعات موحِّدة لحلَّ فیها الأمان والطمأنینة والهدوء. لبلوغ المجتمع الموحِّد علینا کسر أصنام أنفسنا، وعلینا مراجعة معبد الأصنام الکائن فی قلوبنا بین الحین والآخر لنکسر الأصنام التی تکوّنت فیها. ما أحلى القلوب التی شأنها شأن الکعبة بعد الاسلام حیث تکسّرت جمیع الأصنام التی کانت فیها. إنَّ قلوب البعض تشبه الکعبة قبل الاسلام حیث کانت تکتض بالأصنام، لکن أصنامها من نوع الثروة والمال والنساء والأولاد والجاه والمقام والأمانی وغیرها. القلب بیت اللَّه علینا تطهیره من کل الأصنام، ومن صدأ الشرک لکی نشاهد من خلاله صاحب البیت الأصلی. امثال القران، ص: ۳۴۱

المثل السادس والثلاثون: عبادة الأصنام

اشارة

جاء فی الآیة ۷۳ من سورة الحج: «یَا أَیُّها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إنَّ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ یَخْلُقُوا ذُباباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وَإنْ یَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَیْئاً لا یَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ».

تصویر البحث

هذا المثل حول الشرک والتوحید، کما هو حال المثل المتقدّم، وهما تنویع لبیان مطلب واحد، لعلّ ذلک یفید الجمیع؛ باعتبار اختلاف مستویاتهم. واللَّه تعالى ضرب مثلًا هنا صوَّر فیه ضعف وعجز الأصنام وعبدتها.

ماهیة عبادة الأصنام

عبادة الأصنام من المسائل المعقّدة، یمکن الإجابة عن بعض أسئلتها التالیة: ما الأهمیة التی کان یولیها عبدة الأصنام لأصنامهم؟ هل کانوا یعدّونها خالقهم وربّهم؟ وإذا کان الجواب إیجابیاً فکیف یمکن للانسان العاقل أن یعتبر شیئاً قد صنعه بیده خالقاً له؟ وإذا کان الجواب سلبیاً فما تبریر عملهم الجاهلی تجاهها؟ طرح القرآن الکریم هذه التساؤلات، کما أجاب عنها. جاء فی الآیة الثالثة من سورة الزمر: امثال القران، ص: ۳۴۲ «أَلا للَّهِ الدینُ الخَالِصُ وَالَّذِین اتّخَذُوا مِن دُونِهِ أوْلیاءَ مَا نَعْبُدُهُم إلَّالِیُقَرِّبُونا إلى اللَّهِ زُلْفى إنَّ اللَّهَ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ فی مَا هُمْ فیهِ یَخْتَلِفُون». کما جاء ما یلی فی الآیة ۱۸ من سورة یونس: «وَیَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا یَضُرُّهُمْ وَلا یَنْفَعُهُمْ ویَقُولُونَ هَؤلاءِ شُفَعاؤنا عِنْدَ اللَّهِ». وفقاً لما ورد فی هاتین الایتین فانَّهم ما کانوا یعدون الأصنام خالقین، بل کانوا یعتقدون بخالقیة اللَّه تعالى،

لکنهم کانوا یولونها قداسة خاصة ویعتبرونها شافعة وواسطة جیدة بینهم وبین ربّهم، فهی تشفع لهم. هذا شأن غالب المشرکین، لکن بعضاً قلیلًا منهم کانوا یعدون الأصنام خالقین، أمّا الأغلب فما کانوا یحملون هذه العقیدة، وکانوا یعبدونها لأجل أن تقرّبهم إلی اللَّه خالقهم، فیطلبون منها السعادة والسلامة والسعة والبرکة وما شابه ذلک، وبذلک نسوا اللَّه تدریجیاً لتصبح الأصنام المعبود المستقل والمناجی الأصیل. سؤال: البیانات المتقدَّمة أوضحت مدی تعقّد عمل المشرکین، لکن یبقی سؤال وهو: کیف یمکن للانسان العاقل أن یسجد لشیء صنعه بیده ویعتبره واسطة ینال به من فیض اللَّه، ویعتبره مقدّساً إلی درجة قد یضحّی لأجله انساناً آخر. الجواب: لم تکن أصالة للأصنام فی الأیام الاولی من بدایة عبادتها، أی بدایة الانحراف الکبیر، فقد کانت عندهم نموذجاً للمقدسات. علی سبیل المثال لو جاء نبی أو وصی إلی بلدة عُدَّ عندهم واسطة بینهم وبین اللَّه تعالی وحضی باحترام خاص، باعتبار هذه العلاقة، وعندما یتوّفاه اللَّه یُصنع له نصب تذکاری لکی یستمر التقدیس والاحترام، لکن هذه العلاقة المفروضة تُتناسی بمرور الزمان بحیث یتَّخذ النصب ذاته طابعاً مقدساً، ولا- یتداعی فی أذهان الناس العلاقة الاولی لصاحب النصب وخالقه، بل یصبح النصب بذاته وعلی نحو الاستقلال مقدساً فیُعبد. وهذا هو حال الانصاب والتماثیل التی تُصنع لغرض الإشارة إلی مصادر البرکة والنور من الشمس والقمر وما شابه، فإنها تُعبد تدریجیاً وبعد مرور زمن. ومن هذا القبیل کذلک أن یؤتی بحجر من مکان مقدس مثل الکعبة فتوضع فی مکان لکی یتذکّر الحاج سفره الروحانی إلی بیت اللَّه متی ما انتبه إلی الحجر، لکن بعد فترة من الزمن تُنسی هذه العلاقة لیصبح الحجر بعد ردح صنماً ومعبوداً بحد ذاته. امثال القران، ص: ۳۴۳ أو من قبیل ما یعتقده البعض من أن اللَّه تعالی أرفع شأناً من أن تحیط به الأفکار، ولا یمکن للأفکار أن تفعل ذلک، ولا فائدة فی ربٍّ لا تحیط به الأفکار، لذلک ینبغی أن نبحث عن مخلوقاته التی هی فی متناول أیدینا ویمکن للأفکار أن تحیط بها فنعبد بعضاً منها. وهذا ممَّا نجده عند بعض الفرق الصوفیة المنحرفة، فالمرشد لهذه الفرق یقول لمریدیه: عندما تصلون للآیة: «إیَّاکَ نَعْبُدُ وإیَّاکَ نَسْتَعِینَ» فی الصلاة تصوّروا مرادکم ومرشدکم، وهذا هو نقطة بدایة الانحراف نحو الشرک. علی أی حال، کان للأنبیاء والرسل أطول مواجهة مع الشرک والمشرکین؛ لکون الشرک بلاءً کبیراً علی الانسانیة فی الماضی والحاضر.

أسالیب مواجهة عبادة الأصنام

سؤال: ضرورة مواجهة الشرک وعبادة الأصنام أمر بدیهی وواضح، لکن ما هی أسالیب هذه المواجهة؟ وما هی الأسالیب التی اختارها الأنبیاء والأوصیاء لمواجهة هذه الظاهرة؟ وکیف کان تعاملهم مع هذا الانحراف الخطر والعظیم والمعقَّد؟ الجواب: وفقاً لما جاء فی القرآن المجید فإن الأنبیاء سلکوا أسالیب متنوّعة لمواجهة الشرک وعبادة الأصنام نشیر إلی نماذج منها: الأول: تعریف الناس وبخاصة المشرکین بخالق الکون الأصیل. وقد أشار القرآن إلی هذا الاسلوب فی الآیة ۶۱ من سورة العنکبوت من خلال طرح سؤال والإجابة علیه، حیث جاء هناک: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ والأَرْضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَیَقُولُنَّ اللَّهُ فأَنَّی یُؤْفَکُونَ». أی أنَّ اللَّه خالقنا ورازقنا وولی نعمنا وملجأنا ومحیینا وممیتنا، وإذا کان کذلک فلماذا نعبد أصناماً من دونه؟ ألا ینبغی للانسان أن یسلِّم نفسه لولی نعمته ویخضع له؟ سعی الأنبیاء لإیقاظ فطرة المشرکین ومسح الغبار عنها لربطها بخالقها الأصلی وتوحیدهم إیّاه. امثال القران، ص: ۳۴۴ الثانی: تحقیر الأصنام وبیان عجزها وکذبها أمام القدرة الإلهیة، وذلک یقلّل من قداستها وقیمتها عند المشرکین. فی هذا المجال تُطرح علی المشرکین أسئلة من قبیل: هل تدرک هذه الأصنام ما یدور حولها من شؤون؟ أو هل یمکنها الإجابة علی أسئلتکم؟ أو هل هی قادرة علی حل مشاکلکم؟ من الواضح أن السلب هو جواب هذه الأسئلة جمیعها، وإذا کان الواقع کذلک کان ذلک یعنی أنها عمیاء صماء ولا إرادة لها، وعلی هذا کیف یمکن لها أن تکون حلالة لمشاکلکم؟ فی القصة المعروفة عن النبی إبراهیم علیه السلام عندما سئل عَمَّن کسر الأصنام وحطّمها أجاب: «بَلْ فَعَلَهُ کَبِیرُهُمْ هَذا فَسْألُوهُمْ إنْ کَانُوا یَنْطِقُون» «۱». القرآن ینقل جواب المشرکین کالتالی: «فَرَجَعُوا إِلی أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّکُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُکِسُوا علی رُءوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤلاءِ یَنْطِقُونَ» «۲». عندما شاهد فیهم

إقراراً على عدم امكانية تكلم الأصنام فضلًا عن دفاعها عن نفسها بدأ بذمّها تحقيرها والمشركين كذلك وقال: «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مـا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ افٍّ لَكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلونَ» «۳». سعى إبراهيم عليه السلام من خلال تحقير الأصنام وبيان ضعفها وكونها ليست منشأ لا للخير ولا للشرّ لتنبيه المشركين إلى سوء عملهم وبطلان اعتقادهم. الثالث: إيقاظ وجدان المشركين النائم وتوظيف هذا الوجدان فى هذا الطريق، وقد أشارت الآية ۶۵ من سورة العنكبوت إلى هذا الاسلوب حيث تورّط المشركون فى السفينة وسط البحر بأمواج عظيمة شعروا إثرها بقرب موتهم فاذا بهم يدعون اللّه مخلصين له وطالبين منه المعونة. وهذا يكشف عن لجوئهم إلى اللّه فى المعظلات حيث ينقطع أملهم بكل شىء غيره وتنغلق عليهم الأبواب إلّابابه، ويعرفون عندئذٍ أن لا معبود أهل للعبادة غير اللّه تعالى. امثال القران، ص: ۳۴۵ الآية التى هى موضع بحثنا بيان لضعف الأصنام وعجزها، ولمزيدٍ من الإيضاح نشرع بتفسيرها.

الشرح والتفسير

اشارة

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمِعُوا لَهُ». التعبير بضرب مثل قد يكون لأجل أن هذا المثل الجميل وذات المغزى كان دارجاً بين الموحدين منذ الأزمان الماضية ولم يكن جديداً، رغم ذلك طرحه اللّه هنا تارة اخرى لكونه ذات طابع تربوى عالٍ ويحتوى على عبرٍ جيدة. «إنَّ الَّذينَ تَدْعُون مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمعُوا لَهُ». الأصنام التى يعبدها المشركون ويسجدون ويركعون لها ضعيفة إلى درجة أنّها غير قادرة على خلق ذبابة، كحشرة صغيرة، بل ان اصنام العالم كلها لو تكاتفت واجتمعت لأجل خلق ذبابة واحدة ما استطاعت عمل ذلك. «وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ». بل ضعف الأصنام أشدّ ممّا ذكر، فلو أنَّ الذباب أخذ من الأصنام شيئاً ما كانت قادرة على استرجاعه، فهى لا إرادة لها ولا قدرة على عمل شىءٍ ما، أى أنَّها لا تنفع ولا تضرُّ ولا قابلية لها لدفع الشر عن عبادها؛ لأنَّها غير قادرة عن الدفاع عن نفسها فضلًا عن الغير. يقال: كان المشركون فى أيام خاصة من السنة، كأيّام العيد يطلون أصنامهم بالعسل والزعفران أو بموادٍ مشابهة لهما مما يجعلها ملجأً ومصدر طعام للذباب، وتستمر الذباب بالتردّد والحوم حول هذه الأصنام حتى آخر قطرة من العسل، وإذا أخذت الذباب ذرة بسيطة من هذا العسل فإنَّ الصنم غير قادر على استرجاعه «۱»، ولهذا يخاطبهم اللّه قائلًا: إنَّها أصنام ضعيفة عاجزة عن استرجاع ماسُرِق منها من العسل، فكيف يمكن للانسان أن يطلب منها العون والمساعدة. امثال القران، ص: ۳۴۶ «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ». نقلت احتمالات متباينة فى تفسير هذه الجملة، يبدو أن اثنين منها أقوى من الباقى: الاول: المراد من الطالب الذباب، ومن المطلوب الصنم، أى أن الذباب ضعيف، كما هو حال الصنم. الثانى: المراد من الطالب عبدة الأصنام (المشركون)، ومن المطلوب الأصنام، أ ىأن الأصنام وعبدتها كلاهما ضعيفان، أما ضعف الأصنام فواضح، وأمّا ضعف المشركين، فباعتبار ضعفهم الفكرى والعقائدى. أراد اللّه هنا التذكير بنقطة هى أن اللّه هو الوحيد القادر على حل مشاكل الانسان لا الموجود الضعيف والعاجز عن الدفاع عن نفسه. تتداعى هنا عدّة أسئلة:

۱- هل هناك تشبيه فى آية المثل؟

بحث المفسرون قضية الضعف وما إذا كان قد شُبِّه فى الآية بشىءٍ ما أو لا، فبعض قال: لا يوجد تشبيه فى الآية، والحديث فيها عن ضعف الأصنام وعجزها عن خلق موجود صغير مثل الذباب، ولم يشبّه المسألة بشىءٍ ما، وهو كلام أوقع ذلك البعض بمشاكل، وبرأينا مفردة (مثل) ذات معنيين: الاول: المَثَل تعنى الشبيه والمِثْل، وهو تشبيه لأمر معقول خارج عن الحس والتجربة بأمرٍ محسوس. الثانى: المَثَل بيان لمصداق واضح لأمرٍ ما. والمراد من المثل فى الآية هو المعنى الثانى؛ لأن اللّه أراد أن يبيّن بالآية ضعف عبادة الأصنام

وعقیدة المشرکین فی الأصنام، وبذلک حکی مصداقاً واضحاً لهذا الضعف والعجز فی قالب المثل المزبور.

۲- هل الذباب موجود حقیر؟

لم یشر القرآن إلی الذباب إلّافی هذه الآیة، وهو موجود یبدو للانسان حقیراً وفاقداً للقیمة، فهل هو کذلک حقاً؟ الجواب: ینبغی القول هنا: الذباب لا أنه موجود قیّم فحسب بل من عجائب المخلوقات ومن آیات اللّه. فهذا الموجود رغم صغرة یحتوی علی جهاز تنفّس وهضم وفم ولسان ومعدة وأمعاء وجهاز أعصاب وفهم وإدراک وعضلات قویة جداً، بحیث یمکنه تحریک أجنحته بها بسرعة، وله أعضاء اخری کذلک. اللافت أنه یحضی ببنیة هی أکثر تعقیداً ودقة من طائرة کبیرة، ویُعدُّ صناعة طائرة کبیرة أبسط من خلق ذبابة؛ فإنَّ الطائرة لا إدراک لها ولا شعور ولا إرادة ولا جهازاً تناسلیاً، وغیر قادرة علی إعداد غذاء لنفسها ولا یمکنها الدفاع عن نفسها، أمّا الذبابة فلها القابلیة علی جمیع ما تقدَّم. إذن، الذباب من عجائب المخلوقات حقاً، ولا أحد قادر علی خلق هذا الموجود، رغم التطوّر والتقدُّم العلمی الکبیر الذی حصل فی‌مجالات علمیة مختلفة، عندئذٍ یُطرح سؤال آخر. علی عتبة القرن الحادی والعشرین سمعنا أن الانسان أصبح قادراً علی الاستنساخ، وذلک یعنی تمکنه فی ظروف خاصة من خلق انسان أو حیوان من جزء صغیر جداً من أجزاء انسان أو أی حیوان آخر، والنتیجة هی: خلق موجود دون ام وأب، وهذا یکشف عن قدرة الانسان علی خلق ما هو أعظم من الذباب، فکیف یمکن عدّه عاجزاً عن خلق ذبابة؟ فی الجواب نقول: لا- یمکن عدّ هذه العملیة خلقاً، بل هی من قبیل غرس شتلة مأخوذة من شجرة لتصبح بعد مدة شجرة ضخمة ومثمرة، وجسم الحیوانات والانسان من قبیل الأشجار التی یمکن إیجاد أشجارٍ شبیهة لها بعد قطع جزءٍ صغیر منها وشتله فی مکان آخر، فیتحوّل بعد فترة شجرة کبیرة؛ والتناسخ من هذا القبیل، وبخاصة أنا نعتقد کون خلیة الانسان تحتوی علی کل خصوصیات الانسان، وتبقی قضیة الحیاة لغزاً من الألغاز لم یُحل بعد.

جسر نحو التوحید فی شهر التوحید

مهما کنّا ومهما استطعنا نبقی ضعفاء أمام القادر المطلق، ومرض السرطان المهلک من نماذج ذلک الضعف. تنمو خلایا الجسم بنحوٍ منتظم ومتوازن، لکن قد تکون هناک خلیة یخرج نموّها عن حاله الطبیعی فتنمو أکثر ممّا ینبغی أن تنمو وتکبر کثیراً لتتحوَّل إلی غدّة تشلُّ عضلات جسم الانسان تدریجیاً، والانسان رغم تقدّمه وتطوّره علمیاً ما استطاع أن یجد علاجاً لهذا المرض، وقرابینه تزداد کل یوم، هذا مضافاً إلی المرض الجدید الذی یُدعی (الایدز)، وذلک هو قول اللّه: «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ». إلهی، العزة لک والقدرة لک والعلم لک والحیاة والممات بیدک، وکل شیء منک، والسعادة منک نعبدک وحدک لا شریک لک «إنَّکَ عَلَی کُلِّ شیءٍ قَدِیرٌ» «۱».

المثل السابع والثلاثون: ذات اللّه لا مثیل لها

اشارة

الآیة ۳۵ من سورة النور تشکل المثل السابع والثلاثین من أمثال القرآن الجمیلة، یقول اللّه فیها: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ کَمِشکَاةٍ فِیهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِی زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ کَأَنَّهَا کَوْکَبٌ دُرِّیٌّ یُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَکَةٍ زَیْتُونَةٍ لَّاشَرْقِیَّةٍ وَلَا غَرْبِیَّةٍ یَکَادُ زَیْتُهَا یُضِیءُ وَلَو لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَی نُورٍ یَهدِی اللَّهُ لِنُورِهِ مَن یَشَاءُ وَیَضْرِبُ اللَّهُ الأمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِکُلِّ شَیءٍ عَلِیمٌ».

تصویر البحث

هـذا المثل من أهم أمثال القرآن المجيد، وقد هَمَّ المفسرون والعرفاء بتفسيره، وكلٌّ من الطائفتين ذكر له تفسيراً خاصاً، والآية تمثيل بيّن وبليغ لذات اللَّه تعالى، حيث شبّهته بالنور، ويأتى شرحه.

الآية تشتمل على مثلين

فى الآيـة مثلان، الأول هو المستبطن فى العبارة: «اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ والأرْضِ»، والثانى هو الذى تستبطنه باقى عبارات الآية. نحن على يقين بـأن اللَّه تعـالى ليس نوراً محسوساً لـذلك علينا تقـدير كاف التشبيه فى الآيـة لتكون كالتالى: اللَّه كنور السـماوات والأرض، فان تجسيم اللَّه تعالى أمر محال ذاتى. وعلى هذا تكون الجملة الاولى لوحدها مثالًا.

هل يجوز التمثيل لذات اللَّه؟

هل يجوز لنا أن نمثّل لـذات الخالق تعالى ونشبّه ذلك الموجود المعنوى الواجب الوجود بموجودات ماديـة ممكنـة الوجود؟ الجواب بالايجاب والسلب معاً، فلا إشكال فى التمثيل وفقاً لما جاء فى الآيـة الكريمـة، فإنَّ اللَّه نفسه مثّل لـذاته، لكن التمثيل ممنوع كـذلك وفقاً لما جاء فى الآيـة ۷۴ من سورة النحـل، فقـد جـاء هناك: «فَلا تَضْـرِبُوا للَّهِ الأمثالَ إنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وأنتُمْ لا تَعْلَمُونَ». وإذا كان التمثيل ممنوعاً وفقاً لما جاء فى الآيـة الأخيرة لماذا مثَّل القرآن لـذات اللَّه فى الآية ۳۵ من سورة النور؟ جاء الجواب على هـذا السؤال فى ذيل الآية ۷۴ من سورة النحـل، فقـد ورد هناك: «إنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وأنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»، أى أنَّه لا مانع من التمثيل للَّهمن قبل اللَّه نفسه، أمَّا التمثيل له من قبلكم فلاـ يجـوز؛ لأنـكم لاـ تعلمون بمـا تمثّلون به، فقـد تمثّلون لـذاته بمـا يثبت النقص له، بينمـا هو لاـ يمثِّل لـذاته إلَّاالتمـثيل المناسب؛ لأنَّه يعلم بـذاته والانسان لا يعلم بها. شأن نزول الآيـة ۷۴ من سورة النحل هو أن المشـركين كانوا يبرّرون عبادتهم للأصـنام بالقول بأنَّ اللَّه بمثابة الملك والأصـنام بمثابة وزراء له، وبما أنَّه لا يمكن الوصول إلى الملك فنقترب إلى الوزراء ونتمسك بهم تقرُّباً إلى الملك «۱». نزلت هذه الآية لردِّ التبرير المتقدِّم، معلنة منع التمثيل لذات اللَّه على الاطلاق، مغلِّطة ذلك التمثيل؛ وذلك باعتبار أنَّ الملـك أو أى انسـان آخر موجود ضـعيف ومحـدود من حيث الزمان والمكان، فلا يمكن للجميع الوصول إليه، أما اللَّه العالم والقادر فهو موجود وحاضر فى كل مكان وزمان وفى قلب كل انسان، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، والاتّصال به ممكن وسهل للجميع، بل أسـهل من الاتّصـال بالام والأب والزوج والأخ والاخت والولـد؛ وذلك لأنه غير محـدود ويمكن مناجاته وخطابه فى كل لحظة وآن، وفى النـوم واليقظـة، وعنـد القيـام والقعود، وفى الصـحارى والبوادى، وفى الشوارع، وتحت أى ظرف من الظروف. امثـال القران، ص: ۳۵۱ يصف اللَّه العلماء فى الآيـة ۱۹۱ من سـورة آل عمران قائلًا: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّه قِيامـاً وقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرونَ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأرضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا باطِلًا سُبْحانكَ فقِنا عَذابَ النَّارِ». إذن، لا مشـكلة فى الاتصال باللَّه والتواصل معه لكى نحتاج لإيجاده إلى واسـطة مثل الأصـنام، ولهذا لا يمكن تشبيه اللَّه بموجود ضـعيف عاجز، فهو يسمعنا ويرانا عند الصلاة التى ندعوه فى كل واحدة منها مرّتين على أقل تقدير ونقول: «إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعِينُ»، ولا يمكن قياسه مع ممكن الوجود. ونتيجة ذلك: عدم امكانية التمثيـل للَّهإلَّامن قبـل اللَّه نفسه فحسب. بـالطبع، مـا تُضـرب له من أمثـال توضِّح بعض الجهـات من وجوده وتعيننا على معرفـة جوانب خاصـة منه، ولا تمثيل يُبيّن جميع أبعاد وجوده فهو «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ» «۱» ؛ باعتبـار أن المخلوقات جميعها فانيـة أما هو فباقٍ، كما أنَّ كلَّ شيء متناهٍ وهو غير متناهٍ، وكل المخلوقات ضعيفة وجاهلة، وهو قادر وعالم.

الشرح والتفسير

اشارة

«اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ والأَرْضِ». لأجل اتّضاح هـذا المثل الذی شُبِّه فیه وجود اللّه المقدس بنور السـماوات والأرض علینا دراسة خواص النور. نور الشمس هو المصداق الباز والکامل للنور، وله خواص وآثار متعدِّدة، أهمها أربع:

۱ – الهدایة

یمکن الاهتـداء بالنور، ویمکن اسـتخدام نور القمر والنجوم لهـذا الغرض. ولهـذا یضلُّ الانسان فی اللیالی المظلمـة. فالاهتـداء أثر مهم للنور.

۲ – التربیة والنمو

الأـثر المهم الآـخر لنور الشـمس هو النمو، فالانسـان والحیوانـات والنباتـات وجمیع الموجودات الحیـة تنمو وتتربّی برعایـة هـذا النور، وتنعـدم الحیاة أینما انعدم النور. نور الشـمس ینفذ إلی عمق ۶۰۰ أو ۷۰۰ متر فی البحر، وتبـدأ الظلمات الخالصـة فیما بعد هذا العمق، ولأجل ذلک کان العلماء یتصوّرون کون الحیاة منعدمة فی تلک الظلمات، بینما عثروا علی موجودات حیة فیها. والسؤال المطروح هنا هو: کیف أمکن للموجودات أن تعیش وتتربی فی هـذه الأعمـاق دون نور؟ الحقیقـة أنَّ هـذه الموجودات تنـال نصـیباً من النور؛ لأـن بعض الأغذیة التی تُعدُّ فی المستویات الأعلی من هذه البحار تسقط إلی تلک الأعماق لتتناولها الموجودات هناک. وهذا یعنی أن اللّه قد أعدَّ مطبخاً واسعاً بحجم سطح البحار لإطعام الموجودات الحیة فی البحر. فالنمو والتربیة والحیاة أثر مهم آخر للنور.

۳ – إیجاد القدرة والحرکة

الأـثر المهم الآـخر لنور الشـمس کمصـداق أکمـل للنور هو إیجـاد القـدرة علی الحرکـة وإیجاد الطاقـة. یعتقـد العلماء أن منشأ الطاقة الموجودة هو نور الشـمس، والحرارة التی تصدر من الحطب عند احتراقه هی فی الحقیقة نتیجة لادّخار نور الشـمس فی الحطب عندما کان شـجرة تنمو بنور الشمس، وتتحررّ هذه الطاقة عند احتراق الحطب لتتبدل إلی قوّة محرّکة. یُعدُّ الفحم الحجری من مصادر الطاقة، وقد حصل علی طاقته من الشـمس کذلک؛ لانَّه- وفقاً لاکتشافات العلماء- عبارة عن بقایا لأشـجار تحجّرت فی باطن الأرض تدریجیاً لتصـبح فحماً بعد مرور زمن طویل. النفط من أهم مصادر الطاقة فی عصـرنا الراهن، وقد اکتسب طاقته من الشمس کذلک؛ لأنه عبارة عن بقایـا حیوانـات تربّت فی البحر وتفسّـخت بعـد جفـاف البحـار إثر تحولاـت امثـال القران، ص: ۳۵۳ وانقلابـات تحصـل علی وجه الأرض، تُـدفن بعـدها بقایا هـذه الحیوانات لتتـدّل بمرور الزمان إلی مادة سوداء معروفة بالنفط. ومن الواضح أن الحیوانات تتغذی من النباتات، والأخیرة تنمو بفضل نور الشـمس. الکهرباء من مصادر الطاقـة المهمـة، وهی کباقی مصادر الطاقـة تنال قـدرتها من الشـمس کـذلک، فمـاء البحر یتبخّر بواسـطة نور الشـمس ویصـعد إلی الطبقـات العلیـا من الجو، ثمّ یتبـدّل البخار إلی غیث یسـقط علی سـطح الأـرض، فتتبـدل قطراته إلی قنوات وأنهـار یُـدَّخر ماؤها خلف السـدود، ویوضع فی السـدود محرکات تربینیـة تُحرَّک من خلال الماء المتجمّع خلف السـدود عنـدما تُفتح منافذ له نحوها. الریح هو الآخر من مصادر الطاقة، وهو یحصل بفضل نور الشـمس. والنتیجة: کل مصادر الطاقة فی عالم المادة تستلهم قوتها وقدرتها من نور الشمس.

۴– رفع موانع الحیاة

من الآثـار المهمّـة الاـخری لنور الشـمس هو کونه بمثابـة مضـاد حیوی للمیکروبـات، فهو یعمـل علی تطهیر الأـرض من المیکروبـات والبکتیریا المضـرّة، والشـمس عندما تسطع تقتل هذه الموجودات إذا نالتها إشـعاعات من الشمس، ولو لم یکن نورها لتبدّلت الأرض إلی مستشـفی واسـعة ومقبرة عظیمة. إذن، تعدُّ الهدایة والتربیة وایجاد القدرة والطاقة ورفع موانع الحیاة من الآثار المهمّة لنور الشمس.

ومع الالتفات إلى الخصائص المتقدّمة لنور الشمس نبثُّ بشرح الآية الشريفة، لكى يتّضح كيفية تشبيه اللّه بنور السماوات والأرض. كما أن النور سبب للاهتداء كذلك اللّه تعالى، فهو مرشد وهادى الموجودات جميعها، المادية منها والمعنوية، وقد جاء فى الآية ۵۰ من سورة طه: «رَبَّنا الَّذِى أعْطَى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . هداية اللّه للموجودات تختلف باختلافها، فيهدى اللّه بعضها بالهداية الغريزية وبعضها امثال القران، ص: ۳۵۴ الآخر بالهداية الالهامية وبعضها من خلال التعاليم التى يأتى بها الإنبياء والأوصياء، والمسلَّم هو أن الموجودات كلها مشمولة بهداية اللّه تعالى، ولو لم تكن هدايته لما اهتدى موجود أبداً. على سبيل المثال، توجد طيور لا تعرف امها ولاـ أبيها؛ لأنها لم ترَ والديها أبداً، فهما يموتان قبل تفقس البيوض، رغم ذلك نرى الفراخ تَخرج من البيوض وهى تعلم منهج حياتها من الطيران والبحث عن الطعام واختيار الطعام المناسب والتزاوج والتلاقح وصناعة العش وما شابه ذلك، فكيف أمكنها تعلُّم ذلك دون أن يكون لها مرشداً من أب أو ام؟ ذلك عين الهداية الغريزية والتكوينية التى منحها اللّه سبحانه للموجودات، «الذى أعْطَى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»! شملتنا نحن البشر الهداية التكوينية والتشريعية كذلك، فمن الذى علَّم حديث الولادة أن يمصَّ ثدى امه؟ ومَن عَلَّمه أن يبكى عندما يشعر بالجوع أو العطش أو الألم؟ هذه كلها من مصاديق الهداية التكوينية، أما الهداية التشريعية فهى التى شملتنا بواسطة تعاليم الرسل والأنبياء والأئمة. كما أنَّ نور الشمس يربّى الموجودات ويجعلها تنمو كذلك اللّه خالق الموجودات فهو يربّيها، ولهذا اطلق عليه (رب العالمين)، ونكرّر هذه الصفة مرّتين فى كل صلاة نصلّيها. تربية اللّه للانسان تبدأ منذ انعقاد النطفة وتستمر حتى نهاية عمره، ولو انقطع فيض اللّه ورعايته لنا لحظة واحدة انتهينا جميعاً، ولهذا نقول بأن حياة جميع الموجودات بيد اللّه الحسيب. الأثر الآخر لنور الشمس هو كونه منشأ للطاقة، واللّه تعالى منشأ لجميع الطاقات المتصوّرة فى العالم حتى الشمس التى هى منشأ كل طاقة مادية على وجه الأرض، فهى من مخلوقاته تعالى وتستلهم طاقتها منه، ولو انقطعت فيوضات اللّه تعالى عن الشمس للحظة واحدة لتلاشت بحيث لا يبقى منها شىء رغم عظمتها وضخامتها، ولهذا يُقال: (لا حول ولا قوّة إلّاباللّه العلى العظيم). اللّه عظيم يمكنه منح المخلوقات حركة وقدرة وقابلية، وهو الوحيد القادر على خلق موانع مادية للحركة، وقادر كذلك على رفعها، فلو أراد تلاشت كل قدرة، أمَّا البشر فضعيف إلى امثال القران، ص: ۳۵۵ درجة قد يقتله ميكروب أو فيروس لا يمكن رؤيته إلّابمجهر قوى. علينا التدقيق فى عبارات تتردَّد على ألسنتنا كثيراً من قبيل: (لا حول ولا قوّة إلّاباللّه) أو (بحول اللّه وقوّته أقوم وأقعد)، فإن التدقيق فيها يوصلنا إلى نتيجة هى: لو رفع اللّه فيضه عن الانسان لفقد الانسان كل قواه ولأماتته موجودات ضعيفة جداً ولعجز عن حفظ لعاب فمه كما يعجز عن ذلك حديث الولادة. الآثر الآخر لنور الشمس هو عمله كمضادٍ حيوى، كما تفعل ذلك المضادات الحيوية والمطهرات الصناعية، واللّه يعمل كذلك، فهو يرفع موانع الحياة ليتسنَّى لموجودات من قبيل الانسان أن يعيش على وجه الأرض. على سبيل المثال، نذكر الأسماك كغذاء للبشر، فاناث الأسماك تفرز بيوضاً كثيرة جداً لو سمح للبيوض جميعها أن تعيش لاكتضَّ البحر بالأسماك بحيث تسلب ماء البحر قدرته على الحركة، لكن تدابير اللّه تعالى كانت فى خلق موجودات اخرى فى البحر تعيش على هذه البيوض وتقضى عليها، إيجاداً للتوازن والتعادل فى بيئة البحر. ومثال آخر، بعض النباتات تنمو بسرعة فائقة جداً يمكنها أن تغطى مدينة كاملة فى فترة قصيرة. ومثال آخر كذلك هو وجود حيوانات سريعة التكاثر لو سمح لها لما تركت مساحة ومجالًا للبشر وباقى الموجودات. لكن اللّه تعالى رفع هذه الموانع كلها وجعل تعادلًا فى البيئة ليتسنى للجميع العيش معاً. تحطُّ ميكروبات كثيرة على عيون الناس يومياً وبخاصة فى المدن الملوّثة، بامكانها أن تعمى عيون البشر جميعهم فى فترة قصيرة لكن اللّه خلق الدموع لدفع هذه الميكروبات وقتلها، فان الدمع يحتوى على مواد من صنف المضاد الحيوى يطهّر العين، وهى مواد موجودة فى لعاب الانسان كذلك وتلعب نفس الدور الذى تلعبه فى الدموع. إذن، اللّه كالنور سبب للهداية والتربية والطاقة والحيوية ويمنح الحياة ويرفع الموانع عنها، ولهذا هو: «اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ والأرْضِ».

الأشياء التى شُبِّهت بالنور

فی الآیات والروایات شُبِّهت أشیاء کثیرة بالنور، نکتفی بذکر خمسه نماذج. ۱- ذات اللّه تعالی، «اللَّهُ نُورُ السَّمَاواتِ والأرْضِ»، وقد تقدَّم شرح ذلک فی الأسطر السابقة. ۲- القرآن المجید، کما جاء فی الآیة ۱۵ من سورة المائدة: «قَدْ جَاءَکُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وکِتابٌ مُبینٌ»، والنور فی هذه الآیة إشارة إلی القرآن الکریم. ۳- الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، کما ورد ذلک فی الآیة ۴۶ من سورة الاحزاب: «وَدَاعِیاً إلی اللَّهِ بِإذْنِهِ وسِرَاجاً مُنیراً». ۴- أئمة الهدی علیه السلام فهم نور الهُدی فی ظلمات الضلال، کما جاء ذلک فی زیارة الجامعة الکبیرة: «خَلَقَکُم اللَّهُ أنْواراً فَجَعَلَکُمْ بِعَرْشِهِ مُحْدِقِینَ». ۵- العلم کذلک شُبِّه بالنور، فقد ورد ما یلی فی الروایة: «العلمُ نورٌ یقذفهُ اللَّهُ فی قلبِ مَن یشاء» «۱». یُذکر أن العلم من حیث الحصول علی قسمین: الف: علم اکتسابی تحصیلی، وهو الذی یحصل علیه الانسان بالسعی والجهد فی المدارس والحوزات والجامعات. باء: علم إلهی، وهو الذی یقذفه اللّه فی القلوب الجدیرة والمفعمة بعشق اللّه والطاهرة، وهو لیس اکتسابیاً. هذه خمسة نماذج ممَّا شُبِّه بالنور، وعند التدقیق فیها نراها تشترک فی شیءٍ واحدٍ، وهو اللّه تعالی، فالقرآن المجید کلام اللّه، والرسول صلی الله علیه و آله مبعوث من قبل اللّه، والائمة خلفاء رسول اللّه، والعلم یقذفه اللّه فی القلوب المؤهلة. وعلی هذا، جمیع الأنوار ترجع إلی اللّه تعالی «مَثَلُ نُورِه کَمِشکَاةٍ فیها مِصْبَاحٌ ...». امثال القران، ص: ۳۵۷ تقدَّم أن الآیة ۳۵ من سورة النور عبارة عن مثلین، مضی الحدیث عن المثل الأول حیث شبِّهت ذات اللّه بنور السماوات والارض، أمَّا المثل الثانی فیبدأ من عبارة «مَثَلُ نُورِهِ ...» إلی آخر الآیة. طرحت بحوث کثیرة فی ذیل المثل الثانی، فکل صاحب تخصُّص نظر إلی الآیة من زاویة تخصصه، وفسَّر علماء الکلام الآیة من وجهة نظرهم، وفسرها الفلاسفة من وجهة نظرهم الخاصة، وفسَّرها العرفاء من وجهة نظر عرفانیة، وفسَّرها مفسرو القرآن بما یتلاءم مع اختصاصهم، سنشیر إلی بعض من هذه التفاسیر، وقبل البتِّ بالتفسیر نورد توضیحاً حول السراج أو المصباح.

السراج فی التاریخ

کان الانسان یعیش فی الظلام قبل اکتشاف النار، وما کان یستفید إلَّامن الأنوار الطبیعیة، مثل الشمس والقمر والنجوم، ثم اکتشف أکبر وأهم نعمة إلهیة، وهی النار، بعد ما شاهد القدحة الحاصلة من اصطکاک شیئین أو احتراق مواد جافة لسبب ما، عندها حصل تحوّل عظیم من جمیع الجوانب فی حیاة البشر، بحیث یمکن الادّعاء بأنَّ النار أهم سبب للتقدُّم الصناعی ولتسهیل العیش علی الأرض. استخدم الانسان النار لإیجاد الحرارة وللإضاءة کذلک، وصنع لهذا الغرض وسائل تکاملت تدریجیاً، منها: السراج الذی اعدَّ لأجل استخدام النار للإضاءة. السراج الذی کان یستخدمه الانسان فی عصر الجاهلیة وأوائل ظهور الاسلام داخل ضمن سلسلة التکامل الذی نالته الصناعات البشریة، وهو آنذاک کان یتکوّن من خمسة أجزاء، ومورد الآیة هو السراج الذی کان یُستخدم آنذاک، لنتعرف هنا علی أجزائه الخمسة. ۱- الفتیلة، وهی الخرقة التی تجتذب الوقود لتحترق وتُضیء، والتی عُبِّر عنها بالمصباح فی الآیة الکریمة. ۲- الزجاجة، وهی التی توضع فوق الفتیلة لکی تنظم جریان الهواء، ولا تترک الفتیلة تخرج منها دخاناً بسبب عدم الاحتراق الکامل، الأمر الذی یؤدی إلی اسوداد السقف بسخام امثال القران، ص: ۳۵۸ المصباح، کما أن الانارة ضعیفة دون هذه الزجاجة. ۳- الوعاء الذی عبّر عنه القرآن بالمشکاة. السراج المزبور یعمل جیداً فی الظروف الاعتیادیة لکنه ینطفأ عند هبوب الریح، کما أن الزجاجة تنکسر إذا صدمها شیءٌ، ولهذا کان یستدعی وجود مکانٍ معدٍّ له، وعلی هذا الأساس تُصنع أوعیة خاصة تُقسَّم إلی قسمین: الف: الأوعیة المحمولة، وهی مستطیلة یحیطها الزجاج من کل الأطراف، فیها نافذة یدخل من خلالها السراج، ویمکن حملها ونقلها من مکان إلی آخر. باء: الأوعیة الثابتة التی لا یمکن نقلها من مکان إلی آخر، وغالباً ما توضع حیث یوجد رفّ أو شباک یطل علی ساحة البیت لیضیء المصباح للبیت ولساحته، ویجعل فوقه منفذ لتبادل الاوکسجین ونافذة لإدخال السراج فی الوعاء. وأحیاناً تجعل الزجاجة فی الجانب المطل علی الساحة ویترک الجانب المطل علی البیت دون زجاجة. فائدة هذا الوعاء هو المنع من انطفاء الشعلة أو تحطم زجاجة السراج. ۴- الوقود، الأمر الآخر الذی یستدعیه السراج هو الوقود الذی تجتذبه الفتیلة ویشتعل بعد إیقاد النار فی الفتیلة «۱». ۵-

مصـدر الطاقـة والوقود، إذا كان وقود السـراج زيت الزيتون فلابـدَّ وأن يكون مصـدر لهـذا الزيت، وهو شـجرة الزيتون. والنتيجة: كون شجرة الزيتون والوعاء والزجاجة والفتيلة تشكّل مجموعها عوامل خمسة لتوليد النور والإضاءة، وهى امور أشارت لها الآية الكريمة.

الشرح والتفسير

«مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فى زُجاجة الزُّجَاجَة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ». امثال القران، ص: ۳۵۹ زجاجة هذا السراج شفافّة ونظيفـة ولامعـة وتنير كإنارة النجم فى السـماء. «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَة لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ». مصدر طاقة هذا السـراج شـجرة الزيتون المباركـة والنابتـة لا فى شـرق البسـتان بحيث تكون فى الظلِّ عنـد شـروق الشـمس ولا فى غرب البسـتان بحيث تُحرم من نور الشـمس عند الغروب، بل هى وسط البستان تتمتّع بنور الشمس والهواء الطلق بأفضل ما يمكن. «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْه نَارٌ». وقود السـراج زيت الزيتون ذات جودة عالية جداً، يؤخذ من الشـجرة المزبورة، وهو شفّاف ويبدو بحدّ ذاته منيراً ومشعاً دون إيقاد النار فيه، فهو خالص جـداً. «نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ». النور يصـدر من كل أجزاء السـراج، من المصـباح ومن الزجاجة ومن الوعاء، بحيث يبدو السراج نوراً متراكماً، واللَّه سبحانه وتعالى يهدى ويرشد مَن يشاء إلى هذا النور الإلهى. «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ للنَّاسِ واللَّهُ بكُلِّ شىءٍ عَلِيمٌ». يضـرب اللَّه هذه الأمثال لكى يستوعب الناس بمختلف مستوياتهم المفاهيم العالية بنحو أفضل، واللَّه عليم بكل شىء.

خطابات الآية

۱- ما المراد من نور اللَّه؟

شبّه نور اللَّه تعالى فى هـذه الآية بالسـراج ذات الأجزاء المتقدّم ذكرها، فما ذلك النور الذى شـبّه بالسـراج؟ أبدى المفسـرون نظريات مختلفة فى هذا المضـمار، لكنَّ هناك نظرية منسجمة مع ما يراه المتكلمون، وهى كون المراد منه نور الإيمان. نور الايمان شعلة متّقدة ومصـباح فى زجاجـة قلب الانسـان، وقلب الانسـان ونور الايمان وضـعا فى وعاء الصـدر. المشـكاة هى صـدر المؤمن، والزجاجـة قلبه والمصـباح نور الإيمان المتّقـد فى قلب المؤمن. يسـتلهم نور الايمان المتّقـد فى قلب المؤمن طاقته من الكلمات النورانيـة للقرآن امثال القران، ص: ۳۶۰ المجيـد وروايات المعصومين، أى أن الآيات والروايات بمثابـة زيت الزيتون الذى يؤمّن وقود سـراج الايمان الكائن فى قلب الانسان، ولهـذا تزداد نورانيته كل يوم وكلّما اقترب من الآيات والروايات. مصدر وقود الايمان (الآيات والروايات) هو شـجرة الوحى المباركـة التى هى لاـ شـرقية ولاـ غربيـة، فليست ذات طـابع مـادى بحت ولاـ ذات طـابع معنوى بحت، بـل تغطى كل الجوانب والأنحـاء. وهـذا الوقود زلال وشـفاف وصاف جـداً، فلا خطأ ولا زيغ فى الآيات وكلمات المعصومين، فهى كلمات مضـيئة ولامعـة لا تحتـاج إلى شـىء آخر لإيقادهـا. كلٌّ من الآيات والروايات نور على نور، آيات اللَّه فى القرآن المجيـد نور، وكلمات المعصومين نور على نور كلمات اللَّه. إن اللَّه يهـدى من يشاء من خلال آياته وروايات المعصومين، واللَّه يضـرب الأمثال المتنوّعـة للناس، وهو يعلم ما يضـرب من الأمثال. إذن، وفقاً لهذا التفسـير، المراد من نور اللَّه هو نور الإيمان، والشاهد عليه ما ورد فى بعض الآيات من التعبير بالنور للاشـارة إلى نـور الايمـان، كمـا جـاء ذلـك فى آيـة الكرسـى: «اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ والَّذِين كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِن النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ» «۱». هذا مضافاً إلى الروايات التى دلَّت على أن كلمات المعصومين نور، وبهذا يكون المراد من النور فى الآية هو نور الإيمان.

۲- «يَهْدِى اللَّهُ لنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» ماذا تعنى؟

سؤال: هل أن اللَّه یهدی من أراد هدایته ولا یهدی من لم یرد هدایته؟ أو هل الهدایة الإلهیة المبتنیة علی اساس الحکمة تشمل أولئک الذین شـملتهم مشیئة اللَّه فقط؟ الجواب: مشیئة اللَّه تتبع حکمة اللَّه دائماً، والحکیم یهدی وفق محاسبات لا اعتباطاً. امثال القران، ص: ۳۶۱ إن هذه الهدایة الالهیة شـملت سـلمان الفارسـی الذی طوی مسافات شاسعة بین ایران والمدینة وتحمَّل المشاق والمتاعب الکثیرة لأجل لقاء الرسول وقبول دینه، وقد کان من أوائل المسلمین الذین لبّوا دعوة الرسول وبقی علی عقیدته وصمد وقاوم ودافع عنها حتی آخر لحظات عمره الشـریف. ولم تشـمل هـذه الهدایة أمثال أبی لهب وأبی سـفیان؛ لأنهما کانا إلی جنب الرسول وکانا یرانه کل یوم ویسمعان حدیثه وآیات اللَّه، ولم یزدهما ذلک إلّاعصیاناً ولجاجاً ومقاومة لهذا الدین. من الواضح أن شمول أو عدم شمول الهدایة لم یکونا اعتباطاً بل کانا عن حکمـة، فقـد تحمَّل سـلمان المشاق والمتاعب الوافرة لأجل هـذا الـدین، وتحمَّل عبء العبودیة والرق مرات عدیـدة وتحمَّل التعـذیب، ولم تثبِـط هـذه الامـور عزیمته علی لقاء الرسول، فکان جـدیراً للهدایـة حقاً، أما العصاة المتعصِّبون وعبـدة الأهواء والمغرورون، فکان التعصّب والغرور واللجاجة قد ضرب بینهم وبین نور الایمان ستاراً یمنع من نیلهم من هذا النور، فکانوا دون نصیب منه. لا یمکن للأعمی أن یهتدی بنور الشـمس مهما کان قویاً، وهذا لیس لنقص فی نور الشمس بل لسقم فی عینیه. والخفاش إذا کان یعیش فی الظلام ویهرب من نور الشمس سعیاً وراء الظلمات فلأجل أنه غیر جدیر ولا مؤهَّل لنور الشمس، بل ذلک هو شأنه. النور نور مهما کان، وما علینا هو إعداد أنفسـنا للاستلهام منه، فنتجنّب الرذائل الأخلاقیة لکی نکتسب أهلیه الهدایة الالهیة. إذن، الآیة: «یَهْدِی اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ یَشَاءُ» تعنی: یهدی اللَّه لنوره من وجدت فیه الأهلیة والجدارة. والآیة: «وَاللَّهُ بِکُلِّ شَیءٍ عَلِیمٌ» تعنی: اللَّه عالم بمن تحققت فیه هذه الجدارة فیهتدی ومن لم تتحقق فیه فلا یهتدی بل یُحرم من الهدایة. وبتعبیر آخر: لا یتوقّف الانسان لعمل إلّاإذا عشـقه، ولو أراد الانسان الهدایة الإلهیة فعلیه أن یحب اللَّه ویترک الأهواء واتّباع الشـیطان. شـکی شخص عند أحد العظماء بأنه لم یُوفّق لرؤیة صاحب الأمر والزمان (أرواحنا وأرواح العالمین لتراب مقدمه الفداء) حتی فی المنام، رغم حبه إیاه وعشقه الوافر له. امثال القران، ص: ۳۶۲ فقال له العالم: أدلّک علی طریق یبلغ بک إلی الرؤیـة، کُل هـذه اللیلـة طعاماً مالحاً جـداً ونم دون أن تشـرب ماء بعده. عمل هذا الشـخص بوصـفة هذا العظیم، فنام عطشاناً، وقد سرق العطش منه النوم إلّاأنه کان ینام بین الحین والآخر وکلَّما نام شاهد فی المنام ماءً وأنهاراً ومنامات تتعلَّق بالماء فقط ولم یرَ فی المنام شـیئاً غیر الماء. وفی الصباح استیقظ وقال مع نفسه: عملت بوصفه ذلک الرجل ولم أرَ إلّاالماء، فذهب وحکی له ما جری فأجاب ذلک الرجل: إنک کنت أمس عطاشاً ومشتاقاً للماء حقاً فما رأیت فی منامک غیره، ولو کنت مشـتاقاً لرؤیـة الحجة بن الحسن حقاً (عجل اللَّه فرجه) لرأیته. یناسب بحثنا روایة وردت عن رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله، فقد قـال فی طعم الإیمـان: «ثلاـثٌ مَن کنَّ فیه ذاق طعم الإیمـان، مَن کـان لا شـیء أحبُّ إلیه من اللَّه ورسوله، ومَن کان لإنْ یُحرَق بالنار أحـب إلیه مِن أنْ یرتـدَّ عَن دینه، ومن کـان یحبُّ للَّهویُبغض للَّه» «۱». وجود هـذه الثلاثـة فی الانسان یعنی الالتفات والتوجّه الخالص للَّهلا ـ للزوج والأولاـد والأـهواء والجیران والأصـدقاء والمعارف، کما تعنی اختیار الانسان الحرق بالنار فیما لو خُیِّر بینه وبین البقاء علی دینه، کمـا تعنی أن لا ـ یعـادی إلّامَن أراد اللَّه معاداته وان لا یحب إلّامن أحبه اللَّه، أی أن علاقاته تبتنی علی حبّ اللَّه وبغضه، عنـدئذٍ یـذوق الانسـان طعم الإیمان وحلاوته. وهناک روایـة اخری یقول فیها الرسول صـلی الله علیه و آله: «مَن کَانَ أکثرُ همّه نیل الشـهوات نزَعَ من قلبه حلاوة الإیمان» «۲».

کیف یقوی إیماننا؟

سؤال: مع الأخذ بنظر الاعتبار الأهمیة القصوی للایمان، فما نعمل لتقویته؟ أو کیف یمکننا امثال القران، ص: ۳۶۳ أن نوقد نور الایمان فی قلوبنـا؟ الجواب: هنـاک أسـالیب متعـددة لتقویـة الإیمـان نشـیر إلی بعضٍ منها: الاول: التعرُّف علی القرآن یقوی إیماننا أکثر کلَّما تعرَّفنا علی القرآن أکثر، ویضـعف إیماننا کلما ابتعدنا عن ینبوع السـعادة هذا، وقد صـرَّحت بذلک الآیة الثانیة من سورة الأنفال: «إِنَّمَا الْمُؤمِنُـونَ الَّذِینَ إذَا ذُکِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وإِذَا تُلِیَتْ عَلَیْهِمْ آیـاتُهُ زادَتْهُمْ إیمَانـاً وَعَلی ربِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ». أیُّهـا الأـعزة، علیکم التعرُّف

على القرآن أكثر فأكثر، فاتلوا القرآن وراجعوا تفسيره، وبخاصة أن تفاسيراً جيدة أصبحت فى متناول اليد هذا العصر. يسرّنى أن أرى بعض المسلمين الذِين يعيشون بين الكفار قد حافظوا على دينهم وإيمانهم بل ازدادوا إيماناً بفضل هذا الاسلوب. الثانى: التدقيق فى أسرار الخلق الدنيا التى نعيشها مفعمة بآيات اللَّه تعالى، وإذا سبق وأن قيل فى ورقة الشجرة: إنها بمثابة كتاب لُاولى الألباب، يقال فيها اليوم: إنها مكتبة لذوى العقول، وتكفى الانسان ليتعرَّف على اللَّه إذا لم يمر منها دون تفكّر، فهى من عجائب الخلق رغم كثرتها وتواجدها فى كل مكان من ساحات المنازل والشوارع والازقة. يقول العلماء: إذا وضعنا الورقة تحت مجهر نجدها تتكون من بناء ذات عدَّة طبقات، لكل طبقة بناء خاص ومسؤوليات خاصة. فى الورقة شبكة معقدة وطويلة ومنتظمة من الأنابيب، لا يمكن للمهندسين تصميم هكذا شبكة لأنابيب المياه فى مدينة. ولهذا يقال: كل ورقة مكتبة لمعرفة الخالق. لبلوغ هذا الهدف، يمكن للشباب أن يطالعوا ما دوِّن فى علم الأحياء والنبات، والتى تُدرّس بعضها فى الإعدادية، وكلَّما دققنا فى خلق اللَّه كلما زادت معرفتنا، وكانت نتيجة هذه المعرفة وثمرتها حب اللَّه، وفاكهة حب اللَّه الصون من الخطأ وارتكاب المعصية. امثال القران، ص: ۳۶۴ الثالث: التقوى والورع الاجتناب عن ارتكاب الذنوب والسير فى طريق الاسلام المستقيم من عوامل تقوية الايمان، وكلَّما زاد تقوى المؤمن وورعه كلما تنوّر قلبه بنور الإيمان أكثر فأكثر، وكذا العكس، أى كلَّما ضعف تقوى الانسان كلما ضعف إيمانه. كما أن هناك علاقة متبادلة بين الايمان والتقوى فكما أن التقوى تقوّى الايمان كذلك الايمان فهو يقوى التقوى ويزيد فيه. الرابع: التوسّل والدعاء التوسّل بلطف اللَّه والمعصومين عليهم السلام من عوامل تقوية الإيمان، فلا ينبغى الغفلة عنهما، والمفروض فى التوسّل والدعاء أن يقترنا بحضور القلب والواقعية، وأن ينطلقا من الإحساس بالحاجة حقاً، فلا ندعو ولا نتوسل إلَّاونعتبر أنفسنا فقراء محتاجين، ونخاطب اللَّه ونقول: (لا نأمل شيئاً إلَّامنك) أو (مَن لنا غيرك)؟ لو أحكمنا علاقتنا مع اللَّه تعالى أصلح اللَّه علاقتنا مع باقى المخلوقات. أتمنى أن نبلغ منازل الإيمان العليا من خلال العمل بهذه الأوامر والأساليب. فى نهاية البحث ننقل حديثاً جميلًا عن الرسول صلى الله عليه و آله يقول فيه: «إنَّ أعلى منازل الإيمان درجة واحدة مَن بلغ إليها فقد فاز وظفر، وهو أن ينتهى بسريرته فى الصَّلاح إلى أن لا يُبالى لها إذا ظهرت وأن لا يخاف عقابها إذا استرت» «۱».

مباحث تكميلية

تفاسير متباينة لآية واحدة!

اشارة

قلنا: للآية تفاسير مختلفة، تقدَّم تفسير واحد وسيأتى تفسيران (التفسير الفلسفى والتفسير الروائى)، وقبل التعرُّض لهذين التفسيرين ينبغى الإجابة عن السؤال التالى: هل يمكن أن يكون عدَّة تفاسير لآية واحدة؟ وهل يمكن أن يكون هناك عدَّة معانى لجملة امثال القران، ص: ۳۶۵ واحدة وفى وقت واحد؟ وهل يجوز استعمال اللفظ الواحد فى أكثر من معنى واحد؟ الجواب: نعتقد أن ذلك ليس جائزاً فحسب بل يُعدُّ فناً ويكشف عن بلاغة المتكلم وجمال وعمق كلامه؛ فاستعمال اللفظ فى أكثر من معنى من محاسن الكلام وكماله «۱». وعلى هذا، فلا مانع للآية أن يكون لها سبعون تفسيراً قصدها المتكلم جميعاً، ونجد نماذج لذلك فى باقى مجالات اللغة العربية بل حتى غير العربية. وعلى سبيل المثال ذُكر سبعون معنى لمفردة العين، كعضو الانسان المعروف والذهب والشمس وغير ذلك. وقد وصف أحد الشعراء الرسول صلى الله عليه و آله بالبيتين التاليين: المرتجى فى الدُّجى والمبتلى بعمىوالمشتكى ضمئاً والمبتغى ديناً يأتون سدته من كل ناحيةويستفيدون من نعمائه عيناً أى أنَّ طوائف أربع تأتى للرسول وتطلب منه شيئاً، هم: ۱- المبتلون بالظلمات يأتون لعين وشمس وجوده. ۲- العُمى الذين يقبلون عليه لنعمة عينه. ۳- الفقراء يأتونه لطلب العين، أى الذهب. ۴- المسلمون الذين يشعرون بالظمأ فيقدمون له لطلب عين الماء. ضمَّن هذا الشاعر الماهر المعانى الأربعة للعين فى مفردة العين التى

وردت فی شعره. علی أی حالٍ، لا مانع من استعمال اللفظ فی أکثر من معنی واحدٍ، ولهذا یمکن للآیة الواحدة أن یکون لها عدَّة معانی وتفاسیر، علی أن یکون لکلٍّ تفسیر شواهده وقرائنه لا أن یکون تفسیراً اجتهادیاً وبالرأی، فنحن ممنوعون من ذلک. بعد هذه المقدمة نَبتُّ بالتفسیرین الآخرین لهذه الآیة.

الف: التفسیر الفلسفی

ذکر الفلاسفة تفاسیر متعدِّدة لهذه الآیة نشیر إلی واحدٍ منها. امثال القران، ص: ۳۶۶ یقول الفلاسفة: هناک ثلاثة عوالم، هی: ۱- عالم المعقولات: وهو عالم العقول والمجرّدات، أی عالم ما وراء المادة، وهو عالم لا ـ زمان فیه ولا مکان ولا جسم ولا أجزاء. ۲- عالم النفوس: وهو العالم الذی تلتقی فیه المجرّدات بالمادة، مثل روح الانسان التی هی من المجرّدات تلتقی بجسمه الذی هو مادی. ۳- عالم الأجسام: وهو الذی أشارت إلیه العبارة: «مَثَلُ نُورِهِ»، فهی تعنی نور الوجود، فقد شبَّه الفلاسفة الوجود بالنور فی کثیرٍ من مباحثهم، وقالوا هنا: المراد من النور هو نور الوجود الذی یقع فی ثلاث مراحل، فی عالم المجردات توجد الملائکة، وفی عالم النفوس یوجد الناس وفی عالم الأجسام توجد الأجسام الاخری المراد من المصباح الذی ورد فی الآیة هو عالم العقول، وهذه العقول تقع فی الزجاجة التی هی عالم النفوس، وهذه العقول التی فی النفوس توضع فی مشکاة تُدعی أجسام. ینشر اللَّه نور الوجود، حیث خلق العقول والمجردات أولًا ثم الزجاجة التی هی النفوس ثمّ الوعاء والمشکاة، وهو عالم الأجسام، أما شجرة الزیتون المبارکة فهی ذات اللَّه تعالی، التی هی مصدر کل الموجودات فی العالم، وأما الزیت فهو فیض الوجود الذی ینبع من اللَّه تعالی. الخلاصة: فسَّر الفلاسفة النور الالهی بالوجود، وطابقوا المصباح والزجاجة والمشکاة علی العوالم الثلاثة.

باء: التفسیر الروائی

یستفاد من الروایات الواردة فی تفسیر هذه الآیة أن المراد من المصباح هو العلم، فهو سراج منیر یهتدی به الناس، والمراد من المشکاة قلب الرسول صلی الله علیه و آله الطاهر، والمراد من الزجاجة هو وصی الرسول، أی الامام علی علیه السلام، فقد حافظ علی الرسول وآثر بنفسه لأجل الرسول وتحمَّل الأخطار والمشاق فی هذا المجال، والمثال البارز لهذا الکلام دفاعه عنه فی معرکة (احد)، فقد کتب الشیعة والسنة أن مَن تبقی حیاً من المسلمین فرَّ إلَّاعلی فقد عکف فی امثال القران، ص: ۳۶۷ ساحة الحرب دفاعاً عن الرسول وللذود عنه فکان یحوم حوله ویواجه کل من قصد الرسول وأراد قتله. انتهت معرکة احد وعلی علیه السلام یحمل معه جروحاً کثیرة، عدَّتها بعض الروایات إلی تسعین جرحاً، وفی روایة وردت عن الامام نفسه یقول فیها: «أصابنی یوم احد ست عشر ضربة سقطت إلی الأرض فی أربع منهنَّ، فأتانی رجل حسن الوجه، حسن اللمّة، طیّب الریح، فأخذ بضبعی فأقامنی ثم قال: أقبل علیهم، فإنک فی طاعة اللَّه وطاعة رسول اللَّه، وهما عنک راضیان» قال علی علیه السلام: «فأتیت النبی صلی الله علیه و آله فأخبرته فقال: یا علی أقرّ عینک ذاک جبرئیل» «۱». جملة «نورٌ علی نورٍ» تشیر إلی الأئمة الاثنی عشر، فکلٌّ منهم نور علی النور الذی سبقه، والمراد من الشجرة المبارکة هو الشجرة الإبراهیمیة المبارکة التی تفرَّع منها الرسول صلی الله علیه و آله، والمراد من «لا شَرقِیَّة وَلا غَرْبِیَّة» هو نفی التوجُّهات الیهودیة والمسیحیة «۲».

المثل الثامن والثلاثون: سراب الحیاة

اشارة

جاء ما یلی فی الآیة ۳۹ من سورة النور: «وَالَّذِینَ کَفَرُوا أعْمَالُهُمْ کَسَرَابٍ بِقِیعَةٍ یَحْسَبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حتی إذَا جَاءهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئاً وَوَجَدَ

اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حسابَهُ واللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ».

تصوير البحث

وردت هذه الآية فى الكفار غير المؤمنين، عكس آية المثل السابق، حيث وردت فى المؤمنين (وفقاً لأحد التفاسير)؛ فهى أجابت على التساؤل التالى: هل تقبل الأعمال الحسنة لهؤلاء عند اللَّه أم لا تُقبل منهم أىٌّ من الأعمال الحسنة؟ جواب الآية على هذا التساؤل كان من خلال ضربها مثلًا يأتى شرحه.

الشرح والتفسير

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا أعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ». لأجل اتّضاح معنى الآية ينبغى شرح المفردتين (سراب) و (قيعة). السراب من مادة سَرْب، وتعنى الحركة والجرى من الأعلى نحو الأسفل، ففى العربية مفردات دقيقة، فقد وضع العرب للجرى من الأعلى إلى أسفل مفردة غير التى وضعوها للجرى من الأسفل إلى الأعلى أو الجرى على الارض المستوية، أى أنّهم كانوا يضعون مفردة امثال القران، ص: ۳۷۰ مستقلة للحالات المتباينة والمختلفة، فللجرى من الأعلى إلى الأسفل وضعوا (سَراب)، والذى تورَّط بالسراب يقال: (سَرَب)، كما قد يُطلق (سَرْب) على الماء الجارى؛ لأنه يجرى ويسيل من الاعلى إلى الأسفل دائماً، أما علميّاً فالسراب ليس ماءً بل يشبه الماء وينشأ من انكسار الضوء «۱». حرارة سطح الارض إذا ازدادت سببت ترقيق طبقات الجو القريبة من سطح الأرض، والضوء الذى يأتى من الطبقات العليا ينكسر عندما يصل سطح الأرض، ويبلغ الانكسار إلى مستوى الانعكاس الكامل، فيعكس لون السماء الأزرق فتبدو طبقات الجو القريبة من سطح الأرض ماءً، وهو ما يُطلق عليه السراب. أرجع بعض العلماء قصة سعى هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام بين الصفا والمروة إلى رؤيتها السراب، وخلاصة القصة: أن هاجر صعدت جبل الصفا سعياً نحو الماء فشاهدت سراباً على جبل المروة، فركضت نحو المروة، لكنها لم تجد ماءً، فنظرت إلى الصفا فرأت سراباً فركضت نحوه كذلك ولم تجد ماءً عندما بلغته، واستمر سعيها للبحث على الماء بين الجبلين سبع مرَّات حتى نبعت عين زمزم تحت رجلى اسماعيل عليه السلام، وبذلك نجيا من الموت «۲». اتضح بذلك معنى السراب لغةً وعلمياً، لكنَّ المعنيين غير منظورين فى الآية، والمراد من السراب فى الآية المعنى الكنائى، الذى هو عبارة عن الشىء الذى يبدو جميلًا وخلَّاباً من بعيد، وهو أجوف فى الواقع. مفردة (قيعة) تعنى الصحراء الخالية من الماء والكلأ، واختُلِف فى كون هذه الكلمة مفرداً أو جمعاً، والإنصاف أنَّها مفرد، كما هو حال السراب. إذن، من كان نور الإيمان منطفأً عنده ولا إيمان له فان أعماله الصالحة وعباداته وسجداته وانفاقه وإعاناته كسراب فى صحراء جرداء خالية من الماء والكلأ. «يَحْسَبُهُ الظمآنُ مَاءً». امثال القران، ص: ۳۷۱ الظمأ يعنى العطش، والظمآن هو العطشان، والسراب يجذب العطشان نحوه؛ باعتبار حاجته الملحّة للماء. «حَتَّى إذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً». الظمآن بعد ما يرى السراب، يتحرّك باتجاهه، وعندما يصل إليه لا يجد ماءً، فينظر إلى حيث كان، فيرى سراباً آخر، فيتّجه نحوه كذلك، وهذه العملية تستمر هكذا، ممَّا يؤدّى إلى ازدياد عطشه. هذا هو شأن الكفار يوم القيامة، فهم يبحثون عن أعمالهم الحسنة التى أدوها فى الدنيا لعلّها تنجيهم، لكنهم لا يحصلون على شىء فيرجعون خلو اليدين؛ لأن أعمالهم كانت بمثابة السراب الذى يبدو ماءً وما هو بماء. «فَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ». يتعطش الكافر يوم القيامة إلى الأعمال الصالحة، فيرى من بعيد تلًا من أعماله فيتّجه نحوها، وعندما يقترب منها يجدها لا شىء بل يجد اللَّه (أى يجد عظمته أو عذابه) يهتمُّ بحسابه ويريه جزاء أعماله القبيحة. «واللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ». لا يتوانى اللَّه فى حساب الكفار، بل يُسرع فى حساباتهم. وحساب يوم القيامة يختلف عن الحسابات العادية التى نمارسها يومياً، فهو حساب معقّد ودقيق ويستدعى وقتاً طويلًا، فمن الصعب جداً أن تُراجع أعمال الانسان كلها منذ بداية خلقته، سواء التى نفذّها بيده أو برجله أوبلسانه أو بقلبه أو بعينه أو اذنه. رغم ذلك جاء فى رواية: «إنَّه تعالى يُحاسب الخلائق كلّهم فى مقدار لمح البصر» «۱»، وهذا هو معنى «واللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ». لكن يا ترى كيف يمكن هذا؟ للاجابة على هذا

السؤال ینبغی إلقاء نظرة علی بعض منجزات البشر. یوضع فی الطائرة صندوق یُدعی الصندوق الأسود، وهو فی الحقیقة نظام مراقبة یشرف امثال القران، ص: ۳۷۲ علی حرکات وإیعازات الطیّار بدقة، وإذا برز نقص أو إشکال فنی فی الطائرة یحدّده مباشرة حتی لو سقطت الطائرة وتحطّمت وقُتِل مَن کان فیها. النموذج الآخر الحاسوب الذی تستخدمه المخابرات فی العالم، فهی قادرة علی سرد کل معلومات ذات علاقة بحادث أو قضیة أو شخص ما فی لحظات من خلال حاسوباتها. والنموذج الأبسط لذلک أجهزه الحاسوب التی تحدّد ساعات دخول وخروج الموظفین فی دائرة، فهی تعیّن مقدار تأخُّر الموظف وساعاته إن نقصت، ومقدار راتبه فی نهایة الشهر. کذلک أعمال الانسان فإنّها مراقبة من قبل أجهزة إلهیة دقیقة جداً، تسجّل عندها کل حرکة ونشاط للانسان، وبامکان اللَّه تعالی أن یحصل علی أعمال الانسان الکثیرة التی قام بها خلال عشرات السنین من عمره بنظرة واحدة، «واللَّهُ سَرِیعُ الحِسَابِ». غالباً ما تخلو الأعمال السریعة والمستعجلة مِن الدقة الکافیة، لکن الدقة هنا فائقة بحیث لا یبقی شیء ولو بسیط دون حساب، رغم السرعة العالیة. معاذ بن جبل یسأل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یا نبیّ اللَّه، وإنَّا لمؤاخذون بما نتکلَّم به یا رسول اللَّه؟ فیجیبه الرسول صلی الله علیه و آله: «فهل یکبُّ الناس فی النار علی مناخرهم إلَّا حصائد السنتهم» «۱». أی أن کلام الانسان لا یُحاسب علیه فقط بل خطره أکثر من خطر باقی الأعمال، ویمکنه إدخال الانسان فی النّار، وبخاصة أن کبائر الذنوب تُقترف باللسان. ولهذا علینا الانتباه عمَّا یصدر منَّا من أعمال، فإنَّا محاسبون علی کل واحد منها، خصوصاً اللسان الذی خطره أکبر من غیره. النتیجة: وفقاً لما جاء فی هذه الآیة کون أعمال الانسان الکافر بمثابة السراب الذی یبدو شیئاً من بعید، وهو لا شیء ولا واقع له من قریب، فلا یغنی من جوع ولا یروی من عطش.

خطابات الآیة

۱- المثل لدنیا الکافرین أم لُاخراهم؟

سؤال: هل أعمال الکفار فی الآخرة بمثابة السراب ولا فائدة تعقبها أم فی الدنیا کذلک؟ امثال القران، ص: ۳۷۳ وبتعبیر آخر: هل أن أعمال الکفار غیر مثمرة فی الدنیا والآخرة معاً؟ الجواب: نعتقد أن الآیة تشیر إلی دنیا الکفار وإلی آخرتهم، فأعمالهم فی الدنیا کذلک سراب لا أکثر. الانسان المعاصر تورَّط بأنواع مختلفة من السراب الذی یسعی حثیثاً نحوه ثمّ یجده لا شیء، ومن ذلک الحریة الغربیة. إذا نظرنا إلی العالم الغربی من بعید نری الحریة الجمیلة تتلألأ فیه وتجتذب الانسان نحوها، لکنَّا عندما ندخل فی المجتمعات الغربیة لا نجد أثراً للحریة الحقیقیة، بل نجد الغربیین اسری لُامور مختلفة من قبیل الأهواء والموضات والمخدرات ومختلف الأمراض الجنسیة والتمییز العنصری وما شابه ذلک. الإدمان جعل من الانسان موجوداً لا ابالیاً تجاه الدین والشرف والناموس. کما أن الموضات والأزیاء لا تنسجم مع العقل السلیم؛ لأن ترک لبس الحذاء أو الملابس بذریعة سقوط موضته یُعدُّ نوع إسراف مذموم. أما الأهواء فقد سیطرت علی الانسان کالأخطبوط الذی یسیطر علی فریسته، وقد سلب من الانسان کل نشاطاته العقلائیة. نعم، الحریة الغربیة سراب لا أکثر، فهی ذات ظاهر جذاب وباطن أجوف، کما هو حال حیاة الانسان غیر المؤمن، فهی حیاة سرابیة من جمیع الجهات، فقد نراها حیاة مرفّهة وسعیدة من بعید، لکن واقعها من قریب غریق الهموم والأمراض، بحیث نصیبه عند الغداء أو العشاء قرص صغیر من الخبز لا أکثر! کتبت احدی الصحف أنَّ فی أمریکا غابة تدعی غابة انتحار الأثریاء، یقصدها الأثریاء بعد مللهم من سراب الحیاة فیقدمون علی الانتحار. ألیست هذه الحیاة سراباً؟ فهی من بعید قصر فخم وحیاة مرفّهة وسیارة فاخرة وعمل مفضَّل وامکانیات وافرة ومعمل وأسهم و ... أمَّا من قریب فمرض واضطراب ویأس وفراغ وما شابه، إذن حیاة الکفار سراب لا أکثر. یقول اللَّه تعالی فی الآیة السابعة من سورة الروم: «یَعْلَمُونَ ظَاهِرَاً مِنَ الحَیاةِ الدُّنْیا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُون». امثال القران، ص: ۳۷۴ أی أنهم یعلمون زخارف الحیاة وزینتها وما ظهر منها، ویجهلون باطنها الأجوف. ومن نماذج السراب فی حیاة الانسان المعاصر هو الامراض النفسیة الموحشة. نعلم بتقدُّم العلم والطب کثیراً فی علاج الأمراض العضویة والبدنیة، کما أنه قضی علی کثیرٍ من الأمراض التی کانت فی العهود السابقة، أمَّا

الأمراض النفسية فقد أخذت بالانتشار، ومن المحتمل أن يأتى يوم يستحيل فيه العثور على انسان سليم نفسياً؛ لأنَّ سراب الحياة سلب منه النوم، ولا يمكنه أن يغفو ساعات متوالية إلَّابأقراص منوّمة. تجاوز هذه الدنيا الفانية والخادعة يتم من خلال العمل بالوصفة الدقيقة للطبيب الكبير المعالج لهذه الأمراض، أى الامام على عليه السلام، حيث قال: «تَخفَّفُوا تَلْحَقُوا» «۱». الاسفار القديمة كانت تتمُّ على نحو قوافل، وما كان يتوفّق فيها إلَّامَن كانت أمتعته قليلة وخفيفة وإلَّا يتخلَّف عن القافلة فى مراحلها الاولى والامام عليه السلام يرى شأن السفر فى الدنيا نحو الآخرة شأن السفر مع القافلة، فمن خفّف فيها استطاع اللحاق بها وإلَّا تخلّف.

۲- الاسلام دين النوعية لا الكمية

لم يطلب الاسلام أعمالًا كثيرة من المسلمين بل طلب منهم أعمالًا خالصة، ولهذا قد توضع يوم الآخرة تلًا من الأعمال فى الميزان لا تزن شيئاً. نفس الاشخاص يوزنون كذلك من حيث الاخلاص، وفى هذا المجال جاءت الرواية التالية: «إنَّه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة» «۲». إذن، ما يوليه الاسلام من أهمية هو عمق العمل، ولهذا لا يوصى الاسلام بالكثرة والكمية أبداً بل بالكيفية والنوعية. يقول اللَّه تعالى فى الآية السابعة من سورة هود: «لِيَبْلُوكُمْ أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلًا»، داعياً الانسان من خلال هذه الآية إلى الاهتمام بنوعية العمل وكيفيته.

المثل التاسع والثلاثون: أعمال المشركين

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآية ۴۰ من سورة النور: «أوْ كَظُلُماتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لم يَكَدْ يَرَاهَا ومَنْ لَمْ يَجْعَل اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ».

تصوير البحث

تضمَّنت سورة النور ثلاثة أمثال، أحدها: الآية ۳۵، وقد تحدثّت عن نور الايمان، وفى المثالين الآخرين (الآية ۳۹ و ۴۰) ورد الحديث عن أعمال الكفار، فشُبِّهت أعمالهم فى الآية ۳۹ بالضوء الكاذب الذى يبدو ماءً (السراب)، أمَّا فى المثل الذى هو موضع بحثنا فلا يعتبر اللَّه أعمالهم ضوءً ولو كاذباً بل ظلمات مطلقة.

الشرح والتفسير

«أوْ كَظُلُمَاتٍ فى بَحْرٍ لُجِّيٍّ». لجىّ من اللجاجة وتعنى الإلحاح على عمل، كما لو راجعت شخصاً لكى يقوم بعملٍ لك، لكنه يرفض فتراجعه تارة اخرى فيرفض كذلك وتستمر المراجعات ... وهذا لجٌّ. ومن هذا الباب اطلق لُجّى على البحر عندما تتتابع أمواجه، فكأنَّ الأمواج تلجُّ. واللَّه شبَّه أعمال الكفار بظلمات البحر إذا كان لجّيّاً. امثال القران، ص: ۳۷۶ «يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ». يصف القرآن هذا البحر الموَّاج بأن أمواجه تتلاحق موج بعد موج أو موج فوق موج وفى ليلة غائمة. البحار كلَّما عمقت كلما ازدادت أمواجها وعظمت، ويمكن تصوّر عظمة الأمواج فى البحار العميقة من خلال قياسها مع الأمواج الصغيرة التى تحصل فى حوض السباحة التى هى أصغر بكثير من أمواج البحار وبخاصة العميقة منها. المستفاد من توصيف القرآن بأن البحر لجّى كونه عميقاً، كما أن العلماء يقولون: لا ضوء فى الأعماق الأكثر من سبعمائة متر، وهذا يكشف عن وجود ظلمات دامسة فى هذه الأعماق. والعجيب أن فى هذه الأعماق توجد نباتات وحيوانات مشعَّة، أى يشعُّ منها ضوء. فمن اين جاءت بالضوء؟ وما هى الأجهزة التى تولّد الضوء؟ يا مَن فى

البحر عجائبه؟ «۱» ما سبب كون أعمال الكفّار بمثابة الظلمات التى فى البحر اللجّى وفى أعماق لا يصلها ضوء؟ لهذا الأمر علتان، أحدهما: عمق البحر، وثانيهما: أمواجه. الأمواج تسبب انكسار الضوء وتمنع من عبوره إلى أعماق البحر، مضافاً إلى هذه الظلُمات المتراكمة فإن السماء غائمة وممطرة، وعادة ما تكون الغيوم الممطرة متراكمة وتزيد من الظلام، عكس الغيوم الاخرى التى يقل تراكمها ويسهل عبور الضوء منها «۲». «ظُلَمَاتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إذَا أخْرَجَ يَدَهُ لم يَكَد يراها». ملخّص الكلام هنا أن عوامل الظلام جميعها قد اجتمعت فى هذا البحر، من الليل المظلم والسحب المتراكمة والممطرة التى تمنع من نفوذ الضوء فيها ومن العمق الكبير ومن الأمواج المتتالية التى تكسر الضوء. لقد تراكمت الظلمات هنا إلى مستوى لو أنَّ شخصاً وضع يده أمامه ما أستطاع رؤيتها حتى لو قرّب يده من عينيه، مع أنَّه بامكانه رؤيتها فى الليالى العادية. امثال القران، ص: ۳۷۷ «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ». اللَّه مصدر كل ضوء ونور، ومن أراد النور فعليه اخذه من مصدره، وهذا هو المراد من هذه الآية، والمراد من النور هنا نور المعنوية والعلم والمعرفة والإيمان، وما يمكن الحصول عليه إلَّا من منبع النور. أعمال الكفَّار مثل الشخص الذى ذكرته الآية حيث يكون فى قعر بحر مظلم تراكمت عليه الظلمات بحيث لا يمكنه رؤية يده، عكس المؤمنين فانَّ نور إيمانهم نور على نور، يفيد منه الآخرون كما يفيد المؤمنون ذاتهم منه.

خطابات الآية

۱- أعمال الكافرين فقط، لماذا؟

سؤال: أهم عامل يشكّل شخصية الانسان هو العقيدة والإيمان، فلماذا شُبِّهت أعمال الكافرين فقط هنا بالظلمات ولم تُشبَّه عقائدهم وكلامهم؟ الجواب: عمل الانسان ترجمة لعقيدته وطريقة تفكيره، وفى الحقيقة العمل يكشف عن ماهية الانسان وواقعه ولا يدع مجالًا للنفاق إلى مدَّة طويلة، مع أنَّ بالامكان إخفاء العقائد الفاسدة والتفوّه كذباً بما يعاكسها بحيث يبدو الانسان صاحب عقائد صالحة. الايمان القوى هو الذى يظهر أثره فى العمل، وقد جاء فى تعريف الإيمان: «الإيمان عقد بالقلب ولفظ باللسان وعمل بالجوارح» «۱». رغم أن العقيدة والايمان يشكلان أهم عاملين لشخصية الانسان، لكن العقيدة تتجسّد فى القول والعمل، وامكانية النفاق فى القول كثيرة، وعمل الفرد هو الذى يكشف عن شخصيته، والآية أكّدت على أعمال الكفَّار رغم أنَّ عقائدهم وأقوالهم كأعمالهم ظلمات فى ظلمات.

۲- «ظُلُماتُ بعضُها فَوْقَ بَعْضٍ» إلى أى شىء تشير؟

يقول البعض: إن الظلمات الثلاث ناظرة إلى عقائد الكفَّار وأقوالهم وأعمالهم. امثال القران، ص: ۳۷۸ وبعض آخر يقول: الظلمات الاولى تشير إلى ظلمة جهل الانسان، فالجاهل لا إيمان له، وإذا سلك طريق العلم هداه هذا الطريق وأرشده. والظلمات الثانية تشير إلى الجهل الناشئ عن الجهل، أى كون الانسان لا يعلم بأنه جاهل، وهو خطر كبير؛ لأنَّ الذى لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم يظن كونه هادياً ومصلحاً، لكن واقعه عكس ذلك، فجهله مركب، عكس الذى يجهل ويعلم أنَّه يجهل فإنَّ جهله بسيط. والظلمات الثالثة تشير إلى من يجهل ولا يعلم أنَّه يجهل بل يتصوَّر نفسه عالماً «۱». استخدم القرآن الكريم تعبيراً جميلًا جداً فى الآية ۱۰۴ من سورة الكهف واصفاً هؤلاء بما يلى: «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الحَياةِ الدُّنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنعاً». مثل هؤلاء يعدون خيانتهم خدمة، فيعصون اللَّه ويظنون أنهم يطيعونه، وهذه هى الظلمات الثلاث المتراكمة بعضها فوق بعض.

۳- الجبر أم الاختيار؟

سؤال: جاء فی نهایـة الآیـة: «وَمَنْ لَمْ یَجْعَل اللّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ»، فهل هی تعنی أن اللّه تعالی یمنح من نوره إلی البعض فیهتدون بـالطبع، ویمنع عن البعض نوره فیضـلّون بـالطبع؟ ألیس هـذا جبراً؟ الجواب: جرت سنَّةُ اللّه تعـالی علی أن یتم توفیر الأرضـیة من قبلنا والإفاضة منه، أی نحن نوجد القابلیة، والفاعلیة منه تعالی وعلی هذا یجعل اللّه نوره ویعطیه لمن وفَّر فی نفسه الأرضـیة والقابلیة اللازمة للنور الإلـهی. وهـذا لاـ یعنی أنَّ اللّه تعـالی یجعـل نوره اعتباطـاً ودون حسـاب أو کتـاب، بـل نور الایمـان لاـ یـدخل فی قلب اللجوج والمتعصّب والمعادی للحق وسیئ‌السـیرة ومتَّبع الأهواء؛ لأنّه لم یُعدّ الأرضـیة اللازمة لدخول هذا النور. القلب مرآة الانسان لا ینعکس فیهـا النور الالـهی ما لم تمسـح وتنظَّف، کما لا ینعکس لو کانت قـد صـدأت امثال القران، ص: ۳۷۹ وفسدت، وسـبب ذلک الانسان نفسه. علینا أن نوفّر الأرضیة اللازمة للنیل من الفیض الإلهی فی کل اللحظات. من هنا یتّضح الجواب عن سبب قولنا فی الصلاة: «إهْدِنَا الصِّراط المُسْتَقِیم»، مع أنا لو کنا فی غیر الصـراط المستقیم لما کنا نصلّی؟ ألیس ذلک تحصیل حاصل؟ وجوابه: أنا بحاجة إلی فیض اللّه تعالی ونوره فی کل لحظة، ولهذا علینا الحفاظ علی هذه القابلیة دائماً وفی کل وقت وعلی کل حال لکی نکون أهلًا لنور الایمان، کما هو شأن المصـباح الکهربائی الـذی یحتاج إلی الکهرباء فی کل آن ولحظـة وإلَّا فینطفأ بمجرّد انقطاع التیار. فی هـذا المجال یُنقل عن الرسول صـلی الله علیه و آله قوله دائماً: «إلهی لا تکلنی إلی نفسـی طرفـة عین أبـداً» «۱»، وهذا الحدیث یشـیر إلی حقیقة هی: أنَّ الانسان یستعدُّ لتقبُّل الهدایة الإلهیة بعنایة منه تعالی، ولا تتأتَّی هذه العنایة إلَّافی ظلِّ سعی الانسان فی طریق العبودیة.

مباحث تکمیلیة

۱- مظاهر من نور الإیمان

فی أول إجراء اتّخذه الرسول بعد الهجرة من مکة إلی المدینة أمر ببناء مسجد وتشکیل حکومة اسلامیة. وعلی هذا کیف یمکن القول بفصل الدین عن السـیاسة؟ من خلال الدراسة المبسطة لسـیرة حیاة رسول اللّه صـلی الله علیه و آله نعرف أن المسجد فی ذلک العهد کان بمثابة المقر والمرکز للقیادة رغم بساطته. وفقاً لما جاء فی الکتب التاریخیة فان مسجد الرسول صلی الله علیه و آله کان عبارة عن أربعـة جـدران بُنیت من الوحل، ولم یکن له سـقف، وکان ارتفاع الجدران بمسـتوی قامة انسان، وما کان بالامکان الاسـتفادة منه عند هطول الأمطـار، لـذلک جاء بعض الصـحابة إلی الرسول صـلی الله علیه و آله امثال القران، ص: ۳۸۰ یطلبون منه بناء سـقف للمسجد، وبعد أن سـمح بذلک بدأ المسـلمون ببناء السقف، فبنی من السعف، أمَّا أعمدته فکانت من جذوع النخل. وقد بقی هذا المسجد علی بساطته حتی آخر عمر الرسول صـلی الله علیه و آله، لکن بما أن الذین قاموا بهذا العمل أشـخاص مؤمنون، وکلٌّ منهم بمثابة منبع لنور الإیمان، توسع بعـد وفاة الرسول تـدریجیاً لیتبـدَّل إلی أعظم واجمل مسـجد فی العالم الاسـلامی بلغت مساحته حالیاً کل المدینـة عهد الرسول صـلی الله علیه و آله، ولو أن أحدنا بذل أموالًا طائلة فی سبیل رؤیة هذا المسـجد کان عمله فی محله. نعم، إنَّ أعمال المؤمنین النیّرة تنمو وتتسع. عنـدما أخـذوا بأسـری کربلاء إلی الشام أقعـدوهم فی بیت خرب یقرب من قصـر یزیـد الـذی شق السـماء بارتفاعه والذی کان یلفت نظر کل مارٍّ، أمَّا حالیاً فالبیت الخرب أصبح مزاراً تهوی إلیه قلوب الشیعة من محبی أهل البیت علیهم السـلام، وأمَّا القصـر فأصبح خربة لا أکثر، وأمَّا قبر معاویة فمهما بحثت عنه لا تجد إلَّاأثراً ضـعیفاً فی الباب الصـغیر، فی بیت صـغیر خرب، رغم أنه کـان حـاکم الشـام ومطلق العنـان فی تلک البلاد وظالماً جباراً لا یعرف غیر أهوائه وشـهواته. أمَّا بنت الحسـین الصـغیرة فقبرها معمور ویهوی إلیه الناس من کل مکان. نعم، ذلک من خصائص الایمان، فیعلو ضیاؤه وبهاؤه کلما طال عمره، أمَّا الکفر فتتراکم ظلماته کلَّما طال علیه الزمان. المصـداق الآخر لهذا الإدّعاء هو ما حصل فی معرکة احد حیث طُلِب من المسـلمین حفر خندق أطراف المدینة یمنع من عبور المشـرکین رجالًا وفرساناً وفی الأثناء واجهوا صـخرة عجزوا عن کسـرها ورفعها من مکانها فاستعانوا بالرسول، ولنقرأ الحادث علی لسـان الروایـة: «... فبینـا المهاجرون والأنصار یحفرون إذ عرض لهـم جبل لم تعمل المعاول فیه، فبعثوا جابر بن عبـداللّه الأنصاری

إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله یعلمه ذلک ... فقلت: یا رسول اللّه، إنّه قد عرض لنا جبل لا تعمل فیه المعاول، فقام مسرعاً حتی جاءه ثم دعا بماء فی إناء وغسل وجهه وذراعیه ومسح علی رأسه ورجلیه، ثم شرب ومجّ ذلک الماء فی فیه ثم صبّه علی ذلک الحجر ثمّ أخذ معولًا فضرب ضربه فبرقت برقهٔ فنظرنا فیها إلی قصور الشام، ثم ضرب اخری فبرقت برقهٔ امثال القران، ص: ۳۸۱ فنظرنا فیها إلی قصور المدائن، ثمّ ضرب اخری فبرقت برقهٔ فنظرنا فیها إلی قصور الیمن، فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: أما إنّه سیفتح اللّه علیکم هذه المواطن التی برقت فیها البرق، ثم انهال علینا الجبل کما ینهال الرمل» «۱». هزأ المنافقون من تنبؤات الرسول، وقالوا: کیف سیفتح المسلمون هذه البقاع وهم یعیشون حالیاً تحدیات تهدد وجودهم ودینهم، وما أستطاعوا الغلبهٔ علی المشرکین العرب فضلًا عن غیرهم. انتهت الخندق بنجاح المسلمین وانتصارهم ورفعهٔ رأسهم، ولم یمضِ زمن طویل من تنبؤات الرسول صلی الله علیه و آله حتی رأی المسلمون تحقّقها فی أرض الواقع، واستطاع الاسلام بعد خمسین عاماً من الحادث السیطرهٔ علی أجزاء کبیرهٔ من العالم. نعم، ذلک امتیاز نور الإیمان حیث یزداد بریقه وضیاؤه بمرور الزمن لیبدو أفضل من ذی قبل دائماً، أمّا الأعمال السوداء لغیر المؤمنین فتزداد ظلاماً بمرور الزمن. کل ما لنا فقد حصلنا علیه فی ظل الایمان، ویکفی للمؤمن أن یکون اللّه ولیّه یهدیه من وادی الظلمات إلی النور، وبئس حال الکفار، الذین ولیّهم الشیاطین یخرجونهم من وادی النور إلی وادی الظلمات.

۲- علامهٔ الإیمان

فی نهایهٔ البحث ننقل روایهٔ عن الرسول صلی الله علیه و آله یحکی فیها واحدهٔ من علائم المؤمن: «لا یستکمل عبدٌ الإیمان حتی یحبُّ للغیر ما یحبُّ لنفسه» «۲». من السهل التفوّه بهذه العلامهٔ، ولکن من الصعب جداً العمل بها.

المثل الأربعون: الأضل سبیلا

اشارهٔ

یقول اللّه تعالی فی الآیهٔ ۴۴ من سورهٔ الفرقان: «أمْ تَحْسَبُ أنَّ أکْثَرَهُمْ یَسْمَعُونَ أو یَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلَّا کالأنعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبیلًا».

تصویر البحث

المثل یخصُّ الکفار والمشرکین الذین سلکوا طریق اللجاجهٔ والعناد أمام الرسول صلی الله علیه و آله، وألحوا علی عقیدتهم الباطلهٔ وسعوا نحو أهوائهم حتی ذهبت قواهم العقلیهٔ فما باتوا یدرکون شیئاً، لذلک شبّههم اللّه بالأنعام.

الشرح والتفسیر

لاتّضاح خطاب هذا المثل الفرید من نوعه علینا دراسهٔ الآیات التی سبقت آیته. تحدَّثت الآیات السابقهٔ عمّا أورده الکفار من إیرادات وانتقادات تجاه الرسول صلی الله علیه و آله وقالت: «وإذَا رأوْکَ إنْ یتَّخذونَکَ إلّاهُزُواً»، أی أنهم یستهزؤون بالرسول متی ما شاهدوه، وکان ذلک أحد ردود الفعل التی صدرت من أعداء الرسل والأنبیاء، واقترنت مع نسبهٔ بعض امثال القران، ص: ۳۸۴ الصفات السلبیهٔ للانبیاء. فرعون- مثلًا- کان یعتبر نفسه ربّاً ویقول: «أنا ربُّکُمُ الأعْلَی «۱» وینسب إلی موسی الجنون قائلًا: «إنَّ رَسُولَکُمُ الذِی ارْسِلَ إلَیْکُم لَمَجْنُونٌ» «۲». «أهَذَا الَّذِی بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا» «۳» ، أی أنَّه لو کان رسولًا فلماذا یبدو کباقی البشر ویفعل کما یفعلون، «مَالِ هَذَا الرَّسُولُ یأکُلُ الطَّعامَ ویَمْشِی فِی الأسْوَاقِ» «۴» ، مع أن المفروض بالرسول أن یکون من الملائکهٔ. بطلان هذا الکلام واضح، فالمفروض بالرسول أن یکون من البشر لا الملائکهٔ «۵»، لکی یفهمهم ویفهم آلآمهم ومشاکلهم ویشعر بها فیعالجها بالعلاج المناسب.

ولو كـان من الملائكـة لمـا أدرك مشـاكلهم ولمـا احس بهـا، مضافـاً إلى أنّه لا ـ أحـد من البشـر يصـغى لكلاـم الملائكـة؛ لأنَّ الناس سيقولون: مـا تقوله الملائكـة خـاص بأمثالهـا وينـاسب ما يجانسـها؛ باعتبارها معصومـة ولا شـهوة لها، ولا يمكن لنا العمل بما تقول به الملائكـة، فإننا غير معصومين و ... أما لو كان الرسول من جنس البشـر فان هـذه الذرائع جميعها ترتفع ولا مجال للتشبّث بها. «إنْ كَادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلهتنا لَولا أنْ صَبَرْنا عَلَيْهَا» «۶» ، وهذا الكلام أطلقه المشركون بعد ما مضى منهم من استهزاء، ويريدون بذلك أنهم قاوموا الرسول وصـمدوا على عبادة الأوثان، ولولا ذلك لانجرفوا مع الرسول، كما يزعمون. كلمات المشـركين متناقضـة هنا، فهم ينسـبون له الجنون من جـانب، ومن جانب آخر امثال القران، ص: ۳۸۵ يبرزون تخوّفهم من تأثير كلام الرسول عليهم، مع أنه لا أحـد يخاف تأثير كلاـم المجنون عليه، ولو كـان مجنونـاً حقاً فلا ينبغى الخوف من تأثير كلامه، ولو لم يكن مجنوناً فالمفروض أن يكون كلامه صادقاً، فلماذا يُرفض كلامه؟ وكلامهم هـذا يكشف عن سـخف عقائـدهم ويبرز ذلك بوضوح. أجاب اللّه تعالى بثلاثـة أجوبـة على كلامهم الباطل والمتناقض: الاول: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَـذَابَ مَن أَضَلُّ سَبيلًا» «۱». وهذا الجواب يعنى الانتظار إلى يوم رؤية العذاب، فعندئـذٍ يتّضـح الحق والباطـل. سؤال: لماذا لم يـدرك الكفار الحق قبل نزول العـذاب؟ الجواب: الأهواء ضـربت على قلوبهم سـتاراً لا يسـمح دخول الحقـائق فيهـا، فالأـهواء وعبـادة الأصـنام والمـال والجاه والمقام الـدنيوى بمثابـة الحجب والموانع التى تمنع من إدراك الحقائق، وهـذه الموانع لا تُرفع إلّابالعذاب الإلهى. وهذا هو سبب اعتراف فرعون بحقيقة «أنَّه لا إله إلَّاالّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إسرائيلَ وَأنَا مِنَ المُسْلِمِينَ» «۲» بعـد ان أوشك على الغرق، رغم أنه كان يقول: «مَا عَلِمْتُ لكم مِنْ إلَهٍ غَيْرِى» «۳» ، لكن إيمانه عندئذٍ دون جدوى عنـدما ينزل العذاب الإلهى تُزال حُجب الغرور والغفلة والجهل، وبعدها يفهم الكفّار من هو الأضل سبيلًا. سؤال: الآية الكريمة فى مقام الإجابـة على الكفّار، وهل يُعدُّ التهديد بالعذاب الإلهى جواباً؟ الجواب: نعم، قد يكون التهديد بالعذاب آخر جواب، ولا يوجد جواب غيره. السفسطائيون ينكرون كـل شـىء ويشـكون فى كل ما يوجـد حتى فى شـكوكهم ذاتها، وكبار الفلاسـفة يقولون: السفسطائيون يرفضون كـل دليـل يُقـام، وأفضـل دليـل هو أن تُضـرم ناراً وتقرّبهم إليها وتقول لهم: لا وجود لهـذه النار والحرارة الصادرة منها، فهى خيـال لا ـ أكثر، ولا يمكن أن يحترق بها أحـد، لأنّ الاحتراق وهم لا حقيقـة، عنـدها يتراجعون عنها تـدريجياً ليتبـدَّل هـذا الانسان إلى واقعى بعـدما كان سوفسـطائياً. امثال القران، ص: ۳۸۶ إذن، لا ـ طريق لإيقـاظ المتعصبين واللجوجين من غفوتهم وغفلـة أفكـارهم غير العـذاب الإلهى، فهو الـذى يزيـح سـتار الغفلة ويوقظهم. الثانى: «أَرَأَيْتَ مَنِ اتّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا» «۱». كيف يمكن هدايـة من كـان إلهه هواه؟ إنَّ تعـاملهم غير المؤدب مع الرسول صـلى الله عليه و آله ومـا يطلقونه من كلاـم بـذىء تجاه الرسول، كله يرجع إلى اتّباع الأهواء، وإلّا فبطلان عبادة الأوثان أمر واضـح. أساساً لا يخفى الحق على أحد دائماً، بل لابدَّ وأن يظهر له فى وقت ما، ومـا يمنع من اتّضـاح الحق هو عبـادة الأوثان. ألم يكن الحق واضـحاً عهـد الامامعلى عليه السـلام فى حربه مع معاويـة (لعنه اللّه)؟ فى جانب كان على عليه السـلام مركزاً للعدالة والعبادة، وأنصاره عبارة عن ثلَّة من المسـلمين المخلصـين من الصـحابة الذين لا يبغون من الحرب إلّارضا اللّه تعالى، وفى الجانب الآخر كان معاوية مركزاً للظلم والتمييز وسـبباً للاضـطرابات وعدم الثبات فى الدولة الاسلامية، ويحوم حوله مجموعة من الذين جمعتهم مائدة معاوية الدسـمة ورشاويه، وهل يستحيل تشخيص الحق بين هاتين الطائفتين؟ بالطبع لا، لكن الأـهواء والموائـد المنوّعـة والرشـاوى والأـموال هى التى منعت من التشـخيص. يـا رسول اللّه، أنت لا ـ تسـتطيع إنقـاذ هؤلاء، فإن أربـابهم أهواءهم، وبئس للانسـان الـذى يصـبح إلهه هواه، فهو أخطر مـا يمكن أن يكون فى حياة الانسان. يقول المؤلف الشـهير ويل ديورانت: «لمَّا كـان لكـلِّ شـىء روح أو إله خفىٌّ فـالمعبودات الدينيـة لا ـ تقع تحت الحصـر»، كمـا يقول: «لا تكاد لا تجـد حيواناً فى الطبيعـة كلهـا- من الجعران المصـرى إلى الفيل عنـد الهنـدوس- لم يكن فى بلدٍ ما موضع عبادة» «۲». لكن جاء فى روايـة: «أبغض إلهٍ عُبـد على وجه الأـرض الهوى «۳»؛ وذلـك لأجـل أنَّ هـذا امثال القران، ص: ۳۸۷ الصـنم يلوّث الانسـان بكثير من الـذنوب، من قبيل: المسـكرات والمخـدرات والسرقة والتهريب والقتـل وما شابه. كثير من المجازر التى تُرتكب فى الوقت الراهن تحصل بـدافع من اتباع الهوى والنفس. إنَّ مجزرة هيروشـيما من قبـل امريكـا وقصف مدينـة حلبجـة بالاسـلحة الكيمياويـة من قبل النظام العراقى ودفن النساء

والأطفال البوسنيين وهم أحياء، كلها من الآثار المخرّبة لحكومة الاهواء على حياة البشر. على أى حال، لا مشكلة ولا صعوبة فى تمييز الحق عن الباطل، على أن لايتّبع الانسان هواه. الثالث: «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَو يَعْقِلونَ» «۱». فى هذه الآية يخاطب اللّه تعالى المشركين ويجيب على كلامهم الوارد فى آية المثل، قائلًا للرسول: إنَّ أكثرهم لا عقل لهم يدركون به ولا آذان لهم يسمعون بها، فهم كالحيوانات العاجزة عن الإدراك، بل هم أضلُّ سبيلًا من الحيوانات، فإن صوت الحق ملأ العالم، وآيات اللّه وآثاره موجودة فى كل مكان، لكن سماع صوت الحق ومشاهدة آثار اللّه وآياته تستدعى آذاناً تصغى وعيناً تشاهد وعقلًا يعى ويدرك، وهم يفقدون هذه الأشياء. لو أن ضوء الشمس ملأ الأرض كلها ما استطاع الأعمى أن يراه، كما أن الأصم لو كان جالساً على شاطئ البحر ما كان بإمكانه أن يسمع صوت أمواجه، وهذا هو شأن الكفار فلا يسمعون الحق ولا يرونه ولا يدركونه، فهم كالأنعام بل أضل.

لماذا شُبِّه الكفار بالحيوانات؟

كما لا حظنا فان اللّه شبَّه الكفّار الذين لا يسمعون ولا يرون ولا يدركون من الحق شيئاً بالحيوانات، بل اعتبرهم أضل من الحيوانات، لكن لماذا؟ هناك وجوه شبه بين الكفار والحيوانات، هى: الف: لا تدرك الحيوانات شيئاً، فلا قدرة لها على الفهم والاستيعاب ولا شعور لها، وأعمالها امثال القران، ص: ۳۸۸ تصدر عنها بدافع غريزى، وهذا هو شأن الكفار، فلا شعور لهم، لذلك لا يدركون شمس‌الحقيقة؟ باء: الحيوانات لا تشعر بالمسؤولية، فهى لا تدرك كون المزرعة ليتيم أو موقوفة وأن الدخول إليها حلال أم حرام، فهى لا ترى نفسها مسؤولة تجاه هذه الامور؛ لأنَّها لا تدرك، أى أن عدم إحساسها بالمسؤولية ينشأ عن عدم إدراكها، وعدم احساس الكفار بالمسؤولية من هذا القبيل، فهو ناشئ عن عدم إدراكهم. جيم: الحيوانات تابعة لغرائزها، فهى لا تعرف غير العلف والاصطبل، وكذا حال المشركين، فهم لا- يعرفون غير أهوائهم وما تمليه عليهم. دال: الحيوانات غير تابعة للمنطق، ولا- ترى معنى للاستدلال، وكذلك الكفار، فهم عاجزون عن إدراك استدلالات القرآن القوية رغم بساطتها، والتى وردت فى مجالات مختلفة مثل التوحيد والمعاد، ويصرّون دائماً على كلماتهم التى يرددونها دائماً. هاء: لا تشخّص الحيوانات المصالح والمفاسد، ولا تعلم بما يصلحها أو يفسدها، ولهذا قد تجازف أو تقرب من المخاطر وهى لا تعلم ما قد أقدمت عليه، كما هو حال الكفار الذين لا يعلمون بأنَّ عبادة الأصنام واتّباع الأهواء لا يجلب لهم نفعاً ولا فائدة، كما لا يعلمون أن السعادة والنجاح يتحقق فى ظلِّ التوحيد. هذه وجوه خمسة يشترك فيها الكفار مع الحيوانات، ولهذا شُبِّهوا بها فى الآية الكريمة. «بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا». مقارنة الحيوانات بالمشركين تثبت تفوّق الحيوانات على المشركين، وكون الأخيرين أسوأ حالًا من الحيوانات، للُامور التالية: الأول: الحيوان حيوان كان ويكون وسيبقى كذلك، وهذا هو شأنه ولا يمكنه أن يتجاوز حيوانيته؛ لعدم قابليته على التطوّر والتقدُّم، أمَّا الانسان فله القابلية على التطوّر ليكون حتى أفضل من الملائكة، لكنه قد يبقى فى مرحلة الحيوانية بسبب تماديه فى العناد وتعصبه، ممَّا يجعله أن يكون دون مستوى الحيوانات. لا يُلام الشخص على عدم انتفاعه من السوق إذا دخله دون أن يكون له رأس مال، بينما امثال القران، ص: ۳۸۹ يُلام لو دخله وقد كان له رأس مال ولم ينتفع منه. والانسان الذى سجدت له الملائكة ونفخ اللّه فيه من روحه وأصبح أفضل المخلوقات إذا سقط كان أضل من الحيوانات دون شك. الثانى: الحيوانات تقدِّم خدمات كثيرة للانسان، فبعضها تمنح الانسان لبناً يعبّر عنه القرآن تعبيراً جميلًا فى الآية ۶۶ من سورة النحل، حيث جاء هناك: «نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنَ فَرْثٍ ودَمٍ لَبَناً خالِصاً سَائغاً للشاربين»، وكثير من المنتجات الاخرى مثل اللحم والعظم والصوف والجلد بل حتى الدم فان الانسان وكذا باقى الحيوانات تفيد منه، هذا كله مضافاً إلى الإفادة منها كوسائل للنقل والحمل، علاوة على كونها أداة طيّعة بيد الانسان «۱». الثالث: الحيوانات تتّبع منهجاً غريزياً، بعبارة اخرى إيعازات خلقتها هى التى تهديها إلى أهدافها أمَّا المشركون فان الأهواء ضربت على عقولهم وفطرتهم ستاراً، لذلك كان خطر ضلالتهم أكثر. الرابع: خطر الحيوان محدود مهما بلغ، فالذئب من أخطر الحيوانات، وأقصى خطره أن يهاجم قطيعاً من الغنم ويأكل أو يقتل عدّة خرفان، أمَّا خطر الانسان عندما يتّبع الأهواء ويعصى العقل فقد يلقى بقنبلة نووية فى هيروشيما ويقتل (۸۵۰۰۰) انساناً فى لحظة واحدة

ویصیب آخرین لازالوا یعانون من إصاباتهم. ألم یکن هکذا اناس أضل من الحیوانات؟ الخامس: الحیوانات لا تسعی للتمظهر بمظهر حسن عندما ترتکب ذنباً ولا تسعی لتبریر أعمالها السیئة، أمَّا المبعدون عن الهدایة فیبرّرون جرائمهم الکبری ویقولون فی تبریر قصف مدینتین یابانیتین بقنابل نوویة: لو لم نعمل هذا لاستمرَّت الحرب وطالت ولزادت الضحایا والقرابین إثر ذلک! یقول أحد الکبار: لو أنَّ الآیة الشریفة المزبورة کانت قد نزلت دون ذیلها «بَلْ هُم أَضَلُّ سَبِیلًا» لمتُّ غیظاً؛ لأن الحیوانات أفضل من بعض الناس بکثیر.

خطاب الآیة

العزَّة فی ظل الإیمان

یستفاد من مجموع ما قیل فی تفسیر هـذه الآیـة الکریمـة أن الانسان إذا کان یسعی نحو بلوغ امثال القران، ص: ۳۹۰ مقامه الحقیقی وشأنه الواقعی وأراد تنمیة قابلیاته والنجاة من خطر السقوط فعلیه السیر تحت ظل الایمان والطاعة، والعمل بما أوصی به الإمام علی علیه السلام حیث قال: «مَن أراد عزّاً بلا عشیرة، وغنی بلا مال، وهیبة بلا سلطان فلینتقل عن ذلّ معصیة اللَّه إلی عزّ طاعته» «۱».

المثل الحادی والأربعون: اتَّخذوا أولیاءً من دون اللَّه

اشارة

الآیة ۴۱ من سورة العنکبوت تشکّل المثل الحادی والأربعین من أمثال القرآن، حیث جاء فیها: «مَثَلُ الَّذِین اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أوْلِیَاءَ کَمَثَلِ العَنْکبُوتِ اتَّخذَتْ بَیْتاً وَإنَّ أوْهَنَ البُیُوتِ لَبَیْتُ العَنْکَبُوتِ لَوْ کَانُوا یَعْلَمُونَ».

تصویر البحث

بما أنَّ التوحید والشرک من أهم مباحث القرآن ولهما دور أساسی فی سعادة الانسان وشقائه، لذلک خصَّ اللَّه تعالی بعضاً من أمثلته بهذا الموضوع، مستخدماً مبدأ التنویع فی بیانه. والمثل المزبور یتعلق بالشرک وعبادة الأوثان، مشبّهاً فیه المشرک وما یعبد من الاصنام بالعنکبوت وبیته، بیاناً لضعف الأصنام وعجزها.

أهمیة التوحید

تقدَّم أن الشرک کان أول اهتمامات الإنبیاء والرسل، وکان یشکل أساس المواجهة بینهم وبین معاصریهم، أمَّا التوحید فکان أهم ما دعی إلیه وأساس دعوتهم؛ وذلک لأجل أنَّ الشرک أساس شقاء البشر ومنشأ کل الدنوب والانحرافات العقائدیة، أمَّا التوحید فأساس السعادة ومنشأ النجاح والفلاح. امثال القران، ص: ۳۹۲ التوحید ینیر القلب ویوحِّد المجتمع، أمَّا الشرک فلا یجلب معه إلَّاالظلمات والتشتّت والتفرقة فی المجتمع، ولهذا اختص ثلث القرآن بموضوع التوحید والمسائل ذات الصلة به.

الشرح والتفسیر

«مَثَلُ الَّذِینَ اتّخذوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أوْلیاءَ». شبَّه اللَّه تعالی المشرکین هنا بالعنکبوت وأصنامهم ببیت العنکبوت، والتشبیه لا یختص بالمشرکین بل یشمل کل مَن اتّخذ إلهاً غیر اللَّه کولی لنفسه، فالآیة عامة دون اختصاص بالمشرکین. وعلی هذا تکون شاملة لوثن المقام والسلطة والشهوة والأهواء النفسانیة والثروة وکل ما یمکن أن یُعصی اللَّه به. «کَمَثَلِ العَنْکَبُوتِ اتَّخذتْ بَیْتاً». أی أن مثل هؤلاء کمثل العنکبوت التی تتّخذ بیتاً لتلجأ إلیه، وهؤلاء قد یکونون مشرکین أو غیرهم ممَّن اتخذ إلهاً غیر اللَّه، ومثل آلهتهم کمثل بیت

العنكبوت، وهو قد يتمثّل بالمقام أو الشهوة أو الصنم أو ما شابه، فهذه كلها بيوت للعنكبوت. «وإنَّ أوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتِ العَنْكَبُوتِ». وهل يمكن الوثوق بمثل بيت العنكبوت؟ وهل يمكن الوثوق بغير اللَّه والاطمئنان به؟ الجواب بالسلب قطعاً؛ لأن بيوت العنكبوت من أوهن البيوت وأضعفها؛ وذلك لأنها مصنوعة من مواد لا مقاومة لها أمام الحوادث، وتتلاشى بقطرات ولو قليلة من المطر، فضلًا عن السيول، كما أنها تتلاشى بشعلة الشمعة الضعيفة، فضلًا عن الحريق، كما يكفيها نسيماً من الريح لتتلاشى دون حاجة إلى إعصار، كما أنها تتلاشى بغبار بسيط وبما شابه ذلك وهذا يكشف عن ضعف هذه البيوت، كما يلاحظها الجميع. «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». أى أن الاتكاء على الأوثان المزبور كالاتكاء والوثوق ببيت العنكبوت لو كان هؤلاء يعلمون بذلك.

خطابات الآية

١– أصنام جديدة

كما تقدَّم فإنَّ عبادة الأوثان لم تقتصر على عبادة أحجار أو أخشاب، بل تشمل كل عبادة لغير اللَّه، وفى عصرنا الحاضر هناك الكثير من الأوثان من قبيل المقام والشهوة والمال والثروة والأهواء النفسانية والشياطين وكل ما يغفل الانسان عن اللَّه. تحدَّثت الآية ٦٠ من سورة يس عن أحد أشكال عبادة الأصنام قائلة: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدوا الشَّيْطانَ»، أى أنَّ عبادة الشيطان وطاعته من أصناف عبادة الأصنام، لكن هل تعلمون كيف تكون عبادة الشيطان؟ وهل هى تعنى الصلاة والصوم للشيطان؟ فى الإجابة على ذلك ينبغى القول: كلا، فلا يعمل أحد هذا، وعبادته تعنى متابعة شخص والائتمار بأوامره «١». العمل وفق أوامر الشيطان عبادة له، وكل أمر لم يصدر من اللَّه وائتمر به الانسان كان نوع شرك وعبادة للأصنام.

٢– بيت العنكبوت من آيات اللَّه العظمى

بيت العنكبوت من عجائب الخلق، كذلك العنكبوت نفسه الذى يبدو بأعيننا موجوداً قليل القيمة. وقد اكتشف العلماء حتى الآن عشرين ألفاً من أصناف العنكبوت ذات أشكال وسلوك وحياة متباينة. فى القسم التحتانى من بطنه توجد حفرة صغيرة بحجم رأس الأبرة، فى داخلها سائل لزج يُدخل العكبوت أطرافه فيها ويخرج مقداراً من هذا السائل اللزج يصنع منه خيوطاً تُستحكم عند تعرُّضها للهواء، وبهذه الخيوط ينسج بيتاً أو شبكة للصيد. يوفر العنكبوت غذاءه من خلال الحشرات التى تقع فى شبكته، فهو من الحيوانات التى امثال القران، ص: ٣٩٤ تتغذّى على اللحوم. بعض الحشرات تقع فى الشبكة وهى طائرة، فيهمُّ بسرعة على لفِّها بخيوطه لتصبح سجينته حتى الموت فيأكلها عندئذٍ. لهذه الخيوط خصائص فريدة نشير إلى بعضٍ منها: الاولى أكثر استحكاماً من الفولاذ، فإذا صنعنا خيوطاً من الفولاذ بنفس مقاسات خيوط العنكبوت كانت خيوط العنكبوت أكثر استحكاماً، وإذا صنعنا أنابيب من سائل العنكبوت بحجم قطر انابيب الفولاذ كانت أنابيب سائل العنكبوت أقوى وأكثر استحكاماً بمرات. الثانية: ينسج العنكبوت من السائل الموجود فى حفرة بطنه ما يقرب من ٥٠٠ خيطاً أو وتراً، وهذا أمر عجيب حقاً. الثالثة: الأعجب من ذلك كله أن بعض الخيوط تشكّلت من أربعة خيوط أقل سمكاً، كلٌّ منها يتشكل من ألف خيط. ألم يكن ذلك من آيات اللَّه؟ «وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالأَرْض يَمرُّونَ عَلَيْهَا وهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ» «١». الرابعة: هندسة العنكبوت مما تثير الإعجاب، فهذا الحيوان الضعيف ينسج بيته على غرار أشعة الشمس بنحو مساوى ومنتظم، مراعياً فى ذلك الفواصل والزوايا بدقة فائقة. خلاصة الكلام، أن اللَّه تعالى أعمل دقة ونظاماً فى غاية الدقة عند خلقه هذه الحشرة التى تبدو ضعيفة. كلٌّ من العجائب تكفى لمعرفة اللَّه تعالى، مع أن الكون مفعم بهذه العجائب والآيات، ولا مسألة غير التوحيد تتمتع بهذا المقدار من البراهين والأدلة، فلها مليارات من البراهين، فكلٌّ من النجوم والكواكب وحتى الحيوانات وأوراق الاشجار والبشر كلها أدلة على اللَّه تعالى، فهو ليس بالأمر الخفى. سؤال: إذا كان وجود اللَّه تعالى بهذه الدرجة من الوضوح فلماذا

ينكره المـاديون؟ امثـال القران، ص: ۳۹۵ الجـواب: إنَّهم يقرّون بوجود اللَّه بنحوٍ أو آخر لكنهم يبـدّلون اسـمه، فعنـدما يتحـدّثون عن عظمـة اللَّه وقـدرته المتجلّيـة فى معـدة الانسـان حيث يمكن له العيش بثلثهـا فقط، يقولون: (الطبيعـة عملت بنحوٍ حيث يمكن للانسان العيش بثلث المعـدة إذا تعطَّل ثلثـا أجزاء المعـدة، فعنـد التعطيـل يقوم الجزء غير المعطَّل بجميع النشاطات المطلوبـة من المعـدة). وفى الحقيقـة مرادهم من الطبيعـة هو اللَّه تعـالى، فنحن نـدعوه ونخـاطبه ولاـ نـدعو الطبيعـة ولاـ نخاطبها؛ لأنَّها غير ذات شـعور وليست أهلًا للخطاب.

۳- فلسفة التمثيل بحيوان ضعيف

عندما سـمع المشـركون تشبيه اللَّه المشـركين بالعنكبوت وأصـنامهم ببيت العنكبوت اعترضوا وتساءلوا عن سـبب تمثيل اللَّه بحيوانات ضعيفـة، وهـل هى تتناسب مع عظمـة اللَّه؟ أجاب القرآن عن اعتراضـهم وتساؤلاتهم من خلال الآيـة ۴۳ من نفس السورة، حيث قـال: «وَتِلْكَ الأَمثَالُ نَضْـرِبُهَا للنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلَّاالعَالِمُونَ». أى أن الفصـيح والبليغ يتكلَّم بما يقتضـيه الحال، فإذا كان الحـديث عن ضـعف وهـون موجـودٍ من قبيـل معبود المشـركين فعليه التمثيـل بمـا يكشف عن هـذا الضـعف والوهن، وأى مثـال أفضـل من بيت العنكبوت يكشف عن ضعف وهون الأوثان؟

۴- قيمة العلم

أكّد القرآن على العلم والمعرفة فى موضـعين من الآيات المتقدّمة: الاول: فى نفس المثل حيث ذيّله بالعبارة التالية: «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». والثـانى: عنـد الإجابـة على اعتراض المشـركين على تمثيـل القرآن بحيوانـات ضـعيفة مثل العنكبوت والبعوض، فقـد جاء هناك: «وَمَا يَعْقِلُهَا إلَّاالعالِمُونَ». مفهوم الجملتين، حيث أكّـد فيهما القرآن على العلم، هو كون العلماء والمفكرين هم المخاطبون الأصـليون لهـذا الكتاب، رغم أنَّه كتاب لجميع البشـر. امثال القران، ص: ۳۹۶ كلَّما ازدادت قابليـة الانسان العلميـة كلَّما ازداد نهماً منه. أهمية العلم فى ديننـا بالغـة بحيث يُعـدُّ رأس الفضائل وغايتها «۱»، كمـا أنَّه من الأعمـال الموصـى بها فى ليالى القـدر، رغم كون هـذه الليالى للـدعاء والمناجاة والتوبة «۲».

مباحث تكميلية

۱- لنعتبر من التاريخ

اشارة

عنـدما نتصـفّح التاريـخ نجـد شواهد كثيرة تحكى عن ضـعف وهون كلّ قدرة غير اللَّه تعالى. يحكى القرآن الكريم قصة قوم سـبأ فى الآيات ۱۵- ۲۱ من سورة سبأ، وهى نموذج كامل وشاهد حقيقى على ما نقول.

خلاصة قصة قوم سبا

كانت فى بلاد قوم سـبأ جبال تجرى منها سـيول عنـد هطول الأمطار، ممَّا يؤدى إلى تدمير مزارعهم ومنازلهم، فأقدموا على إيجاد سـدٍّ ترابى يمنع وصول السـيول إلى المزارع والمنازل، ويبدو أنَّه أول سدٍّ بناه البشر، فأوجدوا بحيرة عظيمة خلف السد، كما أوجدوا قنوات لرى المزارع والبساتين. تبـدّلت بلادهم ببركـة هـذا السـد إلى مزرعـة عامرة عظيمة ملؤها الأزهار والثمار والفواكه، فازدهر اقتصادهم،

وكان منشأ لبلورة حضارة سمّيت باسمهم، وقد بلغ الرفاه والنعم فى بلدهم إلى درجة كانت الطرق جميعها مُظلَّلة بالاشجار المثمرة، وكان المسافرون يمشون تحت ظل الاشجار ما داموا فى هذا البلد، كما كانوا فى غنى عن حمل أمتعة معهم باعتبار وفرة فواكه واثمار أشجار الطريق، بل كان يكفيهم أن يحملوا معهم سلة يملؤونها من أمتعة الطريق. لكن وفور النعمة يبعث إلى الغرور والغفلة، فقد بدأ يصدر من البعض ما يكشف عن امثال القران، ص: ۳۹۷ نكرانهم نعم اللَّه، فكانوا يقولون مثلًا: (يا له من وضع، فقد كان السفر خاصاً بالأثرياء، وحالياً الجميع بإمكانه السفر)، أو (يا له من بلد تتّصل فيه القرى بالمدن والقرى بالقرى وكل مكان فيه مشجّر ومعمور؟ يارب فرّق بين القرى ، وكثير من الكلمات الاخرى التى تصدر عن غفلة. أدَّى نكران النعمة إلى نزول العذاب الإلهى وتدمير ما كان معموراً. هل تعلمون كيف دمّر اللَّه هذا البلد العامر؟ هل دمَّره بالقنابل النووية؟ كلا، كانوا ضعفاء كبيت العنكبوت، فما كانت الحاجة إلى قنابل نووية، فقد أوكل اللَّه وظيفة تدمير هذا البلد إلى مجموعة من الفئران، لكى يُفهم الانسان أن كل قدرة غير اللَّه ضعيفة كضعف بيت العنكبوت. أوجدت الفئران ثقوباً صغيرة فى السد توسَّعت هذه الثقوب تدريجياً إلى أن أدت إلى انهيار السد فى ليلة تزامن مع صوت مرعب، وغطى الماء البلد لكى يتبدَّل إلى مستنقع بعد ما كان يبدو بلداً أخضر من كثرة الأشجار والمزارع والبساتين، ولم يعد بلداً مؤهلًا للعيش، فهجره أهله إلى البلاد المجاورة.

۲- أليس الاتكال على غير اللَّه اتكال على بيت العنكبوت؟

النموذج الآخر للقدرات الشبيهة ببيت العنكبوت هو قدرة الشاه نادر قلى أفشار، فقد استطاع بقدرته طرد الأفغان الذين كانوا يسيطرون على إيران ظلماً وعدواناً ثمّ أقدم على توسيع رقعة سلطته، فهاجم عدَّة دول حتى وصل الهند وتحوّل إلى اسطورة، لكنَّ هذه الأسطورة وافاها الأجل ببساطة. فى ليلة غضب على أحد طباخيه، وخوفاً من توقيع حكم إعدامه صباح اليوم اللاحق سابق الطباخ وأقدم على قتل نادر شاه ليلًا وقطع رأسه، وهو نائم. نعم، هذا هو شأن كل قدرة بيت عنكبوتية، وإذا دقَّق الناس فهموا أنه لا يمكن الوثوق بقدرة غير قدرة اللَّه، ولا يمكن الاتكاء على غير الوحيد الأحد.

المثل الثانى والأربعون: توحيد المالك

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآية ۲۸ من سورة الروم: «ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقُومٍ يعْقِلُونَ».

تصوير البحث

نظراً للأهمية الفائقة للتوحيد وفروعه المختلفة جاء هذا المثل لبيان أحد فروع الشرك والتوحيد، منطلقاً من بعض عقائد المشركين وموظفاً وجدانهم وفطرتهم للتفكير فى التوحيد، ومن خلال طرح بعض التساؤلات حثَّهم على التفكُّر فى عبادة الأصنام وقضاياه المختلفة.

فروع التوحيد

اشارة

للتوحيد فروع مختلفة نشير إلى بعض منها باختصار.

۱- توحید الذات

توحید الـذات یعنی القول بأن ذات اللَّه تعالی واحدة، وهو خالق ومبدأ کل شیء، وفی قبال ذلک الوثنیون الـذین یقولون بمبدأین الکون هما: اللَّه والشیطان، وأن الانسان مخلوق من الشر والخیر، وخالق الخیر لا یمکنه أن یکون خالقاً للشر، کما أن خالق الشر لا یمکنه أن یکون امثال القران، ص: ۴۰۰ خالق الخیر، واللَّه مبدأ الخیر، والشیطان مبدأ الشر. واجهت الأدیان التوحیدیة وبخاصة الاسلام هذه العقیدة، ومن وجهة نظر المسلم لا شرَّ فی العالم، وکل ما یوجد هو خیر، لکن الأشقیاء یسیؤون استخدام الأشیاء، فالمال والثروة والمقام والشهوة کلها خیر، لکن المسیئین یستخدمونها بنحو غیر مشروع، وبذلک یتبلور الشر، وسوء استخدام شیء لا یدل علی کونه شراً. تجری هذه القاعدة فی حق باقی الأحیاء کذلک، فسموم الحیوانات لیست شراً؛ لأنها وسائل للدفاع عن نفسها، کما أنَّ کثیراً من الأدویة تُعدُّ بهذه السموم، لهذا نری اهتمام بعض شرکات صناعة الأدویة بقضیة تربیة الحیوانات السامة من قبیل الأفاعی. إذن، لا شرَّ فی الکون لکی نحتاج للقول بوجود مبدأین للکون، وکل ما یوجد یُعدُّ خیراً ولا مبدأ للعالم اکثر من واحد، فهو مبدأ کل شیء وکل أمر وهو ذات اللَّه، وهذا ما یطلق علیه توحید الذات.

۲- توحید الصفات

المراد من توحید الصفات هو کون کـلٍّ من الصفات عین الاخری، عکس صفات الانسان، فکلٌّ منها غیر الاخری یدا الانسان من مظاهر قدرته، ودماغه وسیلته للتعقل والإدراک، أمّا اللَّه تعالی فذاته کلها قدرة وذاته کلها علم، وذات قدرته عین ذات علمه، وذات علمه عین ذات قدرته. وهناک تفسیر آخر لتوحید الصفات، وهو أنَّه لا یمتلک أحد الصفات الإلهیة، وهو وحید فی صفاته ومنفرد بها، علمه وقدرته ورحمته وحکمته موجودة فیه بنحو استقلالی، ولم یأخذها من آخر، عکس ما علیه الانسان فقد اکتسب قدرته وعلمه من اللَّه ولم تکن فیه علی نحو الاستقلال، واللَّه هو الذی منحه هذه الصفات.

۳- التوحید فی الأفعال

هذا التوحید یعنی رجوع جمیع الأفعال والحرکات والنشاطات إلیه، وکل ما یملکه امثال القران، ص: ۴۰۱ الآخرون حتی الأنبیاء والأولیاء من حیاة وحرکة ونشاط یرجع إلیه تعالی. إذا قالت الشیعة بالتوسُّل بالأولیاء فلا یعنی ذلک قدرة الأولیاء علی العمل علی نحو الاستقلال وأن قدرتهم علی أداء شیء فی عرض قدرة اللَّه تعالی، بل تعتقد الشیعة بقدرة هؤلاء علی عمل شیء بإذنٍ من اللَّه تعالی أو أن بإمکانهم الطلب من اللَّه لیلبی حاجاتنا. إذا استطاع عیسی علیه السلام علی إبصار الأعمی أو إحیاء الموتی أو تبدیل تمثالٍ لطیر إلی طیر حقیقی أو معالجة المرضی الذین انقطعت الآمال عن شفائهم، فذلک کله بإذن اللَّه لا أن عیسی علیه السلام کان قادراً بنحو مستقل علی تنفیذ هذه الأعمال، کما صُرِّح بذلک فی الآیَة ۴۹ من سورة آل عمران والآیَة ۱۱ من سورة المائدة. خطأ الوهابیة فی نسبة الشرک إلی الشیعة وبعض الفرق السنیة ینشأ من تصوّرهم أنَّا نقول بالقدرة المستقلة لکلٍّ من الأولیاء ونعتبر قدرتهم فی عرض قدرة اللَّه، مع أنَّا نعتقد فی أولیاء والائمة المعصومین نفس الاعتقاد الذی صرَّح به اللَّه سبحانه فی حق عیسی علیه السلام. یسرّنی أن بعضاً من مفکّریهم التفت إلی هذا الخطأ وأصلح معتقداتهم فی هذا المجال، ونشرت له کتب تخص الموضوع «۱».

۴- التوحید فی الحاکمیة

الحاکم الوحید للکون هو اللَّه تعالی، ومَن أراد الحکومة فعلیه کسب الإذن من اللَّه والعلم وفق قوانینه، وهذا ما یُطلق علیه التوحید فی الحاکمیة، وهو من فروع التوحید. الحکومات حتی حکومات الأنبیاء تکتسب شرعیتها من تأیید اللَّه لها، وإذا شکّل النبی صلی الله علیه

و آله حكومة فى المدينة فبإذنٍ من اللّه تعالى. وإذا شكّل الامام على عليه السلام حكومة فى الكوفة فبأمر من رسول اللّه وإذن من اللّه، وكذلك حكومة باقى الأئمة عليهم السلام. حكومة الولى الفقيه فى هذا الزمان مشمولة بهذه الضابطة، فالفقيه يتولّى الحكومة فى عهد امثال القران، ص: ۴۰۲ الغيبة، وفقاً لما جاء فى روايات عن امام الزمان (عجل اللّه فرجه) وباقى المعصومين عليهم السلام، وبهذا تكتسب حكومة الولى الفقيه شرعيتها من اللّه، رغم أن قبولها من قبل الناس يعد عاملًا مؤثراً جيداً فى المجال التنفيذى. الآية ۱۸۹ من سورة آل عمران تشير إلى هذا الفرع من فروع التوحيد، حيث جاء هناك: «وَللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شىءٍ قَدِيرٌ».

۵- توحيد المالك

توحيد المالك يعنى اعتبار اللّه مالكاً لكلّ شىء فى السماوات والأرض، بعبارة اخرى الملكية الحقيقية للّهفقط، وما عند الآخرين فبإذن اللّه ومنه تعالى. ملكية اللّه للكون ملكية تكوينية، فهو الذى خلق الكون وحافظ عليه. وقد جاء فى بداية آية الكرسى: «اللَّهُ لَاإلهَ إلَّا هُوَ الحَىُّ القيُّوم» «۱» ، والقيوّم تعنى القائم بالذات والمقوِّم للغير، أى أن اللّه قائم وباق بالاتكاء على ذاته، وقيام وبقاء باقى الموجودات مرتبط به، فهو خالق الكون وحافظه، ولهذا يُعدُّ المالك الحقيقى له. أمَّا ملكية الانسان للبيت والسيارة وما شابه فملكية اعتبارية لا حقيقية، رغم امكانية تصوّر الملكية الحقيقية فى حق الانسان؛ لأن ملكيته لعينه ويده واذنه وباقى أعضائه ليست ملكية اعتبارية بحيث يمكن بيعها وشراؤها ونقلها بل ملكية حقيقية، بالطبع فى طول ملكية اللّه لها لا فى عرضها. إذن، اللّه المالك الحقيقى للكون كله، وجعل مالك له غير اللّه يُعدُّ شركاً، والمشركون عُدُّوا كذلك؛ لأنهم كانوا يعتبرون الأصنام تملك النفع والضرر، ويقولون بتأثيرها بنحو مستقل لا بإذن اللّه، وذلك شرك. أشارت آية المثل إلى هذا الفرع من فروع التوحيد، ومع لحاظ ما تقدَّم نبتُّ بشرحها.

الشرح والتفسير

«ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِن أنْفُسِكُمْ». جملة «مِن أنْفُسِكُمْ» تشير إلى مطلب جيّد، وهو أن اللّه يوظّف معتقدات المشركين الباطلة امثال القران، ص: ۴۰۳ لإبطال عقائدهم الاخرى وهى نقطة مهمة فى المناظرات والمناقشات، ولا تعنى صحة الاعتقادات الموظّفة والمستدل بها. «هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ مِنْ ما رَزَقْنَاكُمْ». خلاصة المثل: لو كان لك عبد لا يملك شيئاً ولا صلاحية له لعمل شىء إلّابإذنك، فهل أنت مستعد لجعل ذلك العبد شريكاً لك فيما رزقك اللّه وفيما جعله ملكاً لك؟ «فَأنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ». بأن تتساوى أنت وعبدك فى الأملاك واتخاذ القرارات وإبداء الرأى. «تَخَافُونَ كخيفتِكُم أنْفُسَكُم». ذكرت تفاسير مختلفة لهذه العبارة نبيّن واحداً منها: ان تشترك مع عبدك فى جميع الاموال والممتلكات وتخاف أن يتصرَّف العبد بالأموال المشتركة بنحو مستقل «۱». عندئذٍ فهل أنت مستعد لإشراكه فى أموالك كلها؟ أنت غير مستعد قطعاً. إذن لماذا تجعلون للّهشركاء من الأصنام، مع أن جميع ما فى الكون من مخلوقات للّه؟ وهل يمكن أن يكون مخلوق اللّه شريكاً له؟ عبدك ليس شريكاً لك، فكيف تجعل مملوك اللّه شريكاً له؟ أنت غير مستعد لإشراك عبدك فى أموالك رغم أنَّ ملكيتك لها اعتبارية، فكيف لك أن تجعل مخلوق اللّه شريكاً له، مع أن ملكيته للمخلوقات حقيقية؟ «كَذَلِكَ نفصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». العقلاء والعلماء والمفكرون مخاطبون فى القرآن دائماً، والدين الذى يدعو دائماً للتعقل والتفكير والعلم هو دين إلهى؛ لأنَّ الأديان الباطلة وغير السماوية تدعو للجهل، وتجعل امثال القران، ص: ۴۰۴ أتباعها يعيشون الجهل لكى يتيسَّر لها الاحتفاظ بهم. جاء فى رواية عن الامام الصادق عليه السلام: «إن الثواب بقدر العقل» «۱»، وبناءً على هذا الحديث لو أنَّ عدداً من الناس صلوا ركعتين فانهم لا ينالون ثواباً متساوياً، فقد يعادل ثواب صلاة أحدهم مائة ألف ضعف ثواب صلاة الآخر، بل قد لا يصل ثواب صلاة أحدهم مستوى ثواب ركعتين؛ وذلك لأن العقل مُعامِل لثواب الأعمال.

خطابات الآية

۱- اللّه مالک لکلِّ ضرر ونفع، ولا یؤثر شیءٍ دون إذنه، وحتی النار لا تحرق دون إذنه، ولهذا لم تحرق نار نمرود إبراهیم علیه السلام ولم تضرّه أقلّ ضرر؛ لأن اللّه لم یأذن لها بذلک. السکین لا تقطع دون إذن اللّه، ولهذا لم تذبح إسماعیل رغم ظرافة رقبته ورغم قوّة إبراهیم علیه السلام؛ وذلک رغم أن اللّه أمر الخلیل بالذبح إلّاأنّه لم یأذن للسکین بالقطع، وهذا ما یُدعی بالتوحید فی الأفعال. ۲- تقدَّم أن اللّه یستخدم بعض عقائد المشرکین ویوظّفها لغرض إبطال عقائدهم الاخری، رغم أن العقائد المستخدمة غیر صحیحة. وقد استخدم القرآن هذا المنهج فی آیة هذا المثل، وأثبت بطلان عقائدهم من خلال عقائدهم ذاتها، وقال: إذا کنتم غیر مستعدین لتشریک عبیدکم بأموالکم وممتلکاتکم فکیف لکم أن تجعلوا مخلوقات اللّه شرکاء له؟ بالطبع لا یعنی ذلک أنهم لو استعدوا لهذه الشراکة جاز جعل شریک للّه. وقد استخدم هذا المنهج فی موارد اخری کذلک، علی سبیل المثال یعتقد المشرکون بأن الملائکة بنات اللّه، مع أنّهم یخجلون من تبشیرهم بولادة بنت لهم، کما نقرأ ذلک فی الآیة ۵۷- ۵۹ من سورة النحل: «وَیَجْعَلُون للّهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا یَشْتَهُونَ وإذا بُشِّرَ أحَدُهُمْ بالانْثی ظَلَّ وَجْهُهُ مُسوَداً وَهُو کَظِیمٌ یَتَواری مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرِ بِهِ أیُمْسِکُهُ عَلَی هُونٍ أمْ یَدُسُّهُ فِی التُّرابِ ألا سَاءَ مَا یَحْکُمُونَ». امثال القران، ص: ۴۰۵ إذا کنتم تعدّون البنت موجوداً غیر ذات قیمة فلماذا تجعلون للّهبنات. بالطبع، هذا لا یعنی إقرار اللّه تعالی بما یعتقدون به تجاه البنات، بل الآیة ترید تنبیه المشرکین علی عدم انسجام عقائدهم، وهو بحدِّ ذاته دلیل علی بطلانها؛ لأنَّ العقائد الحقة منسجمة دائماً.

بحث تکمیلی

الرق من وجهة نظر الاسلام

الرق ممَّا یرفضه وجدان البشریة جمیعها، ولهذا انتفضت ضده البشریة قبل قرن، لتعلن اغلاق اضبارة الرق، وما بات لأحدٍ بعدها الحق فی امتلاک انسان آخر أو اعتباره عبداً له، رغم أن بعضاً من مدافعی مایصطلح علیه بحقوق البشر یمارسون هذه التجارة ویشترون أطفالًا من الدول الفقیرة بأسعار زهیدة لیبیعونهم فی الدول الغربیة بأسعار باهضة. سؤال: ما رأی الاسلام فی الرق؟ وباعتبار أن الاسلام بشَّر بالحریة، فهل خطی فی هذا المجال؟ وهل سلک منهجاً خاصاً لتحریر العبید؟ الجواب: لاتّضاح الجواب علی هذا السؤال ینبغی توضیح ثلاثة مطالب: الاول: لم یبدع الاسلام ظاهرة العبودیة، بل هی کانت موجودة قبل الاسلام بآلاف السنین. الثانی: رسم الاسلام خطَّة لتحریر العبید ونفّذها خلال مراحل. المرحلة الاولی ترغیب الناس لتحریر العبید من خلال أقوال المعصومین علیهم السلام وکذا أفعالهم، فعلی سبیل المثال وردت الروایة التالیة عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «شرُّ الناس من باع الناس» «۱». طبقاً لهذا الحدیث فإن التعامل علی الانسان أسوء تعامل، ومعاملته أسوء معاملة، وهناک روایات اخری نعرض عن ذکرها. رغَّب المعصومون علیهم السلام الناس عملیاً فی تحریر العبید، ومن مفاخر الامام علیّ علیه السلام أنَّه حرَّر امثال القران، ص: ۴۰۶ ألف عبد من کد یده «۱». کما أن الامام الحسن علیه السلام حرَّر إحدی جواریه بداعی أنَّها أهدت له زهرة «۲». المرحلة الثانیة: الحدّ من مصادر التعبید، فالإسلام منع ترقیق الانسان بسبب دیونه أو سرقته، کما منع بیع الأحرار علی من غصبهم، کما نهی بشدّة عن بیع الأولاد من قبل والدیهم بسبب الفقر. المرحلة الثالثة: اتخاذ الإجراءات العملیة لتحریر العبید، فقد نفّذ الاسلام إجراءات عملیة کثیرة فی هذا المجال، من قبیل فتح مجال لهذا الأمر فی باب الزکاة، وجعل کفارة بعض الذنوب تحریر رقبة، کما منع بیع الجاریة ذات الولد من مولاها، لکی تتحرَّر من إرث ابنها بعد وفاة مولاها، کما سمح للعبید الاستئذان من المولی للعمل ولتهیئة المبلغ الکفیل لشراء النفس وتحریرها من مولاها. سؤال: لماذا لم یحرِّر الاسلام العبید دفعة واحدة، ولم یعلن حریتهم فی وقت واحد؟ الجواب: لم یکن ذلک لصالح العبید؛ لأنهم کانوا قد قدموا الحجاز من بلاد بعیدة، ولم یکن لهم فی الحجاز أحد، کما لم یکن لهم ثروة، ولو ترکوا أحراراً آنذاک لانسابوا فی الشوارع والأزقة، ولشکّلوا کارثة، ولمات بعضهم من الجوع، أمَّا لو تحرّروا بنحو تدریجی لاستقطبهم المجتمع دون مشکلة. الثالث:

غيّر الاسـلام مفهوم العبودية، ونهى عن قتل العبيد وتعذيبهم وإيذاءهم، واعتبرهم كباقى الناس، ومنحهم نفس الشخصية التى يتمتّع بها باقى البشـر، ولهـذا كان الامام على عليه السـلام يشترى ثوبين ويعطى واحـداً منهما لقنبر غَلامه، وفى روايـة أنه اشترى ثوبين أحـدهما بثلاثـة دراهم والآخر بـدرهمين وطلب من قنبر أن يأخـذ الذى بثلاثة دراهم «۳». امثـال القران، ص: ۴۰۷ وبهـذا لا يبقى العبد عبداً بل يصبـح سـيداً، بل أكثر من ذلك حيث سـمح الاسـلام للعبد أن يصبح إمام جماعة وقاضياً وآمراً عسكرياً. وجاء فى سيرة الامام السجاد عليه السـلام: كـان له عبـد كسـول وكـثير النوم، فـدخل الامـام المنزل يومـاً ورآه نائمـاً وقـد عرق كـثيراً من شـدّة الحر فأخـذ يروّح له بالمروحـة، وبعـد مـا استراح استيقـظ، فقـال له الامام: استرح لكن عليك أداء وظيفتك تجاهنا كـذلك. للمزيـد راجع الأمثل «۱» ذيل تفسير سورة محمّد صلى الله عليه و آله.

المثل الثالث والأربعون: انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة

اشارة

يقول اللّه تعـالى فى الآيـات ۱۳ - ۳۰ من سورة يس: «وَاضْـرِبْ لَهُم مَثَلًا أَصْـحَابَ القَرْيَـةِ إِذْ جَاءَهَا المُرسَـلُونَ* إِذْ أَرْسَـلنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَـلُونَ* قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحمنُ مِن شَـىءٍ إِن أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ* قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَـلُونَ* وَمَـا عَلَيْنَـا إِلَّا البَلاغُ المُبِينُ* قَـالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَـا بِكُمْ لِئِن لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِنَّا عَـذَابٌ أَلِيمٌ* قَالُوا طَائِرُكُم مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَل أَنتُمْ قَومٌ مُسْـرِفُونَ* وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْـعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَـلِينَ* اتَّبِعُوا مَن لَّايَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ* وَمَالِىَ لَاأَعْبُدُ الذِى فَطَرَنِى وَإِلَيهِ تُرجَعُونَ* ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ان يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُـرٍّ لَّاتُغْنِ عَنِّى شَـفَاعَتُهُمْ شَـيئاً وَلَـا يُنقِـذُونِ* إِنِّى إِذاً لَّفِى ضَـلالٍ مُّبِينٍ* إِنِّى آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْـمَعُونِ* قِيـلَ ادْخُـلِ الجَنَّةَ قَالَ يَـا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِـنَ المُكْرَمِيـنَ* وَمَـا أَنزَلنَـا عَلَى قَـوْمِهِ مِنْ بَعْـدِهِ مِن جُنـدٍ مِّنَ السَّمَـاءِ وَمَـا كُنَّا مُنزِلِينَ* إِن كَـانَتْ إِلَّا صَـيْحَةً وَاحِـدَةً فَـإِذَا هُمْ خَامِدُونَ* يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأتِيهِم مِن رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

تصوير البحث

المثل المزبور يرتبط بوضع المسـلمين فى مكة، فقد كانوا فئة قليلة، وكان المشركون يشكّلون الأكثرية، والقرآن استهدف من بيانه هذا المثل إعطاء المسلمين وعداً بالنصر امثال القران، ص: ۴۱۰ وتسكين قلوبهم وطمئنتها من خلال نقل قصص ذات صلة. هذا من جانب، ومن جانب آخر هـدَّد فئـة الأكثريـة من المشـركين وحذّرهم من الاغترار بكثرة نفوسـهم وقدرتهم فقد تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة. يمكن النظر إلى آيـة المثل من زاويتين، وفقاً لإحـداهما تكون الآيـة تشـجيعاً وطمئنـة للأقلية، ووفقاً لثانيهما تكون الآية تهديداً لأعداء الاسلام ومشركى مكة.

الشرح والتفسير

تذيّلت هذه الآيات بأبحاث مختلفة فى الروايات والتفاسـير، نأتى بملخّصها هنا، لكن قبل شرح الآيات نوضّح مفردة (قرية) و (أصحاب القرية). القرية لغة تعنى جمع الناس أو المصـر الجامع، ولهذا أطلق القرآن هذه المفردة على مكة «۱» رغم كونها مدينة كبيرة آنذاك، كما اسـتخدمت هذه المفردة فى مصر «۲» (البلـد العربى المعروف)، والقريـة تُطلق على كل تجمّع للناس سواء كان ذلك فى ريف أو مدينـة، وسواء فى المدينـة الكبيرة أو الصـغيرة أو بلـد، فهى تصـدق على كـل تجمُّع سـكانى انسـانى، لكن المعنى المراد فى الآيـة هو الاـول، أى تجمُّع النـاس. والمراد من أصـحاب القريـة هو أهالى انطاكيـة، وهى مدينـة تقع فى جنوب شـرقى تركيا على ضـفاف البحر

الأبيض المتوسط، وقد كانت جزءً من الشامات فى السابق، أى جزءً من الروم الشرقية، ووقعت بأيدى الفرنسيين فى الحرب العالمية الاولى وقد أراد الفرنسيون إرجاعها إلى المسلمين آنذاك؛ لكنهم وجدوا أغلب أهاليها من المسيحين واحتملوا إيذاءهم من قبل المسيحيين فأعطوها لتركيا. كانت انطاكية قبل ظهور المسيح بلداً عامراً ومركزاً لتجمُّع المشركين وعبدة الأوثان، وبعد بعثته أرسل إليها اثنين من حوارييه يُدعيان بولص وبرنابا «۳». امثال القران، ص: ۴۱۱ التقى المبعوثان قرب انطاكية راعياً كبير السنّ يُدعى (حبيب النجار)، فحصل حوار بينهم، سألهما حبيب النجار: من أنتما ومن أين جئتما؟ فقالا: نحن مبعوثا السيد المسيح رسول اللّه عيسى بُعث مؤخراً، جئنا انطاكية لدعوة أهلها إلى عبادة اللّه ودين عيسى عليه السلام. قال الشيخ: هذا إدعاء كبير، ويمكن لكلٍّ أحد أن يدعيه، فهل لكما دليل ومعجزة لاثبات كلامكما؟ قالا: نعم، نشفى الذين استعصت أمراضهم. قال الشيخ: لى مريض قعيد المنزل منذ سنوات، فإذا عالجتموه كنت أول من آمن بكم. قصد المبعوثان المريض وعالجاه، وبذلك آمن حبيب النجار بالدين الجديد. ثمّ دخلا المدينة ودعيا الناس إلى الدين الجديد، فآمن المشركون بعد ما رأوا معاجز منهما. وانتشر خبرهما وشاع فى انطاكية كلها، فكان الناس يقصدونها أفواجاً أفواجاً ويؤمنون بهما. غضب من هذا التحوّل أولئك الذين كانوا يرون مصالحهم فى الاستمرار على عبادة الأصنام، فهاجموا المبعوثين وانهالوا عليهما بالضرب الشديد. أحاط الخطر ببولص وبرنابا، فقصدا ملك أنطاكية يشتكيان عنده حالهما، لكن هؤلاء منعوهما من لقائه. وبعد التفكير فى الموضوع قرّرا الانتظار جنب جدار القصر ويلفتا نظر الملك بالتكبير (اللّه أكبر) عندما يخرج، باعتبار كون التكبير عبارة جديدة، وعندها يلتقيان به ويطرحان شكواهما عنده. بعد مدَّة خرج الملك من قصره، فكبّرا، فسمع تكبيرهما وانتبه لهما، فسأل حواشيه: مَن هما؟ فأجابوه: إنَّهما انتفضا على أصنامنا وأهانوها، فأمر بسجنهما دون أن يسمع كلامهما. بلغ عيسى عليه السلام خبر اعتقالهما، لكن هذا الخبر لم يثنه عن عزمه ولم يثبط عزيمته فى الدعوة إلى التوحيد، فكان يعلم بأن التبليغ لا يتمُّ إلَّابمبالغ طائلة وثمن غالٍ وبشهداء ومعوّقين واسرى وينبغى تحمُّل هذه كلها لأجل القيام بهذه المهمَّة، فأمر شخصاً آخر لاستمرار عملية التبليغ، وهو (شمعون الصفا) رئيس الحواريين. امثال القران، ص: ۴۱۲ بعد دخول شمعون المدينة أدرك ما كان قد أوجده الدين الجديد من ضجيج وصدى فما رأى المصلحة فى التبليغ له بنحو مباشر بل فى التقرُّب إلى الملك مستهدفاً النقطة الأساسية للخطر. ولأجل ذلك أوجد تدريجياً علاقة صداقة مع بعض شخصيات البلاط، وباعتبار حسن بيانه وفكره وأخلاقه كسب ثقة البلاط بسرعة، فعرّفوه إلى الملك، وبعد فترة قصيرة استطاع زرع محبته فى قلب الملك وازداد شأنه عند الملك شيئاً فشيئاً. مضت أيام وهو يترصد اليوم والفرصة المناسبة لإنقاذ زملائه وللقيام بعملية تبليغ الدين الجديد. وفى يوم انفتح الكلام عن سجينين يدعيان بولص وبرنابا، فسأل شمعون الملك: ما ذنبهما؟ فحكى الملك قصتهما بالتفصيل، فسأله شمعون: وهل حقَّقت فى ذنبهما أم لم تحقق؟ فأجاب الملك: عندما شاهدنا نشاطهما غضبنا عليهما وأودعناهما السجن دون أن نحقِّق فى أمرهما. قال شمعون: كان من الأفضل أن تحقِّق فى أمرهما، واسمح لهما حالياً أن يأتيا ليتم التحقيق. فوافق الملك على ذلك وجىء بهما إلى هناك. لم يعرّف شمعون نفسه، وباشرهما بالسؤال: لماذا سجنوكما؟ وما جنايتكما؟ قالا: نحن مبعوثا الرسول عيسى عليه السلام امرنا أن ندعو الناس إلى التوحيد. قال شمعون: وما دليلكما على ما تقولانه؟ وهل لكما معجزة تثبت ذلك؟ قالا: نعم، نعالج المرضى المستصعب علاجهم بإذن اللّه. أمر الملك للاتيان بمريض استحال علاجه فعالجاه، ممَّا آثار تعجّب الملك وحواشيه. فسألهما شمعون: وهل لكما معجزة اخرى قالا: نحيى الموتى بإذن اللَّه، ففعلا ذلك أمام الملك. عندئذٍ حذّر شمعون الملك من فقدانه التاج والعرش إذا لم يستسلم لمبعوثى عيسى عليه السلام؛ لأن آياتهما صحيحة وتثبت كونهما من مبعوثى رسولٍ بعثه اللّه. وبهذه الخطة الدقيقة التى رسمها شمعون أسلم الملك بعدما اتّضحت له الحقيقة، وبعد ما بلغ الناس اعتناق الملك الدين الجديد قدموا أفواجاً أفواجاً معلنين اعتناقهم الدين الجديد. اعتنقت انطاكية جميعها هذا الدين الجديد إثر مساعى هؤلاء المبلغين الثلاثة، وإثر تحمّلهم امثال القران، ص: ۴۱۳ المشاق والمتاعب والسجن والتخطيط الصحيح وتغيير اسلوب الدعوة فى الوقت المناسب. وفقاً لهذا التفسير، فإنَّ الآيات الثمان عشرة لهذا المثل عبارة عن طمئنة وتبشير للأقلية المسلمة المتواجدة فى مكة، فهى تخاطبهم: أيها المسلمون الذين تعيشون تحت وطأة الضغط والتعذيب، لا تخافوا قلَّة

عـددكم، فإنكم ستنتصـرون على الأعـداء الأكثريـة فى مكة إذا اسـتقمتم وتحملتم المصاعب وواجهتهم المشاكل والمصائب وخططتم تخطيطاً صـحيحاً واسـتخدمتم الاسـلوب الأنـجع فى الإعلام والتبليغ، رغم كثرة أعـدائكم وتفوّقهم عليكم بالكميـة. وفقاً لنقلٍ وحكايةٍ اخرى لهـذه القصـة، شـهدت عليه بعض الآيـات حسب الظاهر، فإنَّ رسل عيسـى عليه السـلام قتلوا بعـدما بتّوا بالتبليغ هناك ولم يؤمن الملك ولا الناس بهـذا الـدين الجديـد إلّا البعض، فابتلوا بعذاب اللّه، وكان من نوع الصاعقة السـماوية، أشارت لها الآية ۲۹ من سورة يس: «إنْ كـانَتْ إلّاصَيْحَةً واحِدَةً فَإذَا هُمْ خامِدُونَ». وفقاً لهـذا التفسـير، فإن الآيات المتقدِّمـة تهديـداً للأكثريـة المشـركة فى مكـة، وتخـاطبهم: لا تغتروا بكثرتكم، فلا حاجـة للكثرة والعـدد الكبير لتـدميركم، ويكفيكم صـيحة اللّه لتوجـد زلزال تحترقون به جميعكم. إذن، للآيات المزبورة تفسيران، أحدهما: كونها طمئنة للمؤمنين، وثانيهما: كونها تهديداً للمشركين.

خطابات الآيات

اشارة

للآيات المزبورة خطابات كثيرة نقتنع بثلاثة منها:

۱– لا تخافوا قلَّة عددكم

لا ينبغى للمؤمنين أن يخافوا الأعداء لقلَّة عددهم، وفى هذا المضـمار يقول الامام على عليه السـلام: «لا تستوحشوا فى طريق الحق لقلّة أهله» «۱»، فإن القلَّة عنـد اللّه كثرة، كما جاء فى الآية الكريمة: امثال القران، ص: ۴۱۴ «كَمْ من فِئةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بإذْنِ اللّه» «۱». على الشـباب الـذين يهاجرون للـدول الغربيـة لغرض الدراسـة أن لا يخافوا عنـدما يجـدون أنفسـهم وحيدين فى عبادة اللّه وطاعته بين مجموعـة كبيرة من عبدة الأهواء، ولا ينبغى لهم أن ييأسوا من هذا الوضع وينجرفوا مع الكثرة. أيها الموظف المتدين فى الدائرة، الذى تجـد نفسـك الوحيـد الـذى لاـ تسـمح لنفسـك أخـذ الرشوة، عليك أن لا تخاف من انفرادك، واسعَ لأن تنهى زملائك عن المنكر وتأمرهم بالمعروف، وإذا صبرت واستقمت فى هذا الطريق فسيلتحق بك الآخرون.

۲– الاتحاد سرّ الانتصار

خطـاب الآيـة الآـخر هو الاتحـاد والوفاق، فقـد انتصـر الحواريون عنـدما تكاتفوا، والتكاتف هو سـر انتصارهم وكل انتصار يحصل فى مكان أو زمان ما، وهو أمر نحتاجه فى هذا الوقت أكثر من أى وقت آخر، وكل ما يدعو للتفرقة هو من الشيطان؛ لأن الفرقة منه.

۳– التخطيط فى التبليغ

ينبغى بالاعلام والتبليغ أن يتم وفق خطـة ومنهـج مُعـد، فعلى حواريى عيسـى الأولين أن يـدعوا الناس إلى التوحيـد علناً، وعنـدما ابتلوا بالسـجن كان على شـمعون أن يسـلك المنهـج غير المباشـر فى التبليغ لكى تحصل النتيجة المطلوبة. هذا هو شأننا كذلك، فلا يمكننا النجاح فى العمل مع وجود عدوٍّ مكّار ومحتال إلّاأن نسـير وفق منهج وخطة مرسومة، وهل يمكن مواجهة عدوٍّ خطط للاستعمار خلال عشرات السنين المقبلة دون أن يكون لنا خطط وبرمجة مناسبة؟

المثل الرابع والأربعون: الشرك والتوحيد

اشارة

يقول اللّه تعالى فى الآية ۲۹ من سورة الزمر: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتشاكِسونَ وَرَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَستَوِيانِ مَثَلًا الحَمْدُ للَّهِ بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ».

تصوير البحث

هـذا المثـل ككثير من أمثـال القرآن يـدور حول محور الشـرك والتوحيـد. شـبِّه المشـرك هنـا بالعبـد الـذى يملكه أربـاب متعـددون ومختلفون فيما بينهم كثيراً، كلٌّ منهم يأمر العبـد بأمرٍ مختلف، ممّا يسبب حيرة العبـد، كما شـبِّه الموحّد بالعبـد الـذى له مولى واحـد، وكل اموره تجرى وفق برنامج ومنهج محدد.

التوحيد أساس الاصول والفروع

الكـثير من المسـلمين يتصوَّر أن التوحيـد أحـد اصول الـدين فحسب، وأنَّه بمثابـة بـاقى الاـصول الخمسـة من العدالـة والنبوة والامـامة والمعاد، كما أن فروع الـدين عشـر، مع أنَّ التوحيـد يُعدُّ الأساس لُاصول الدين وفروعه، وليس أصـلًا فى طول باقى الاصول، والاسـلام طرح أصل التوحيـد فى مجالات مختلفة، نشـير إلى بعض النماذج. امثال القران، ص: ۴۱۶ الاول: نعتقـد أن خالق الكون واحد، «اللَّهُ لا إلـهَ إلَّاهُوَ الحَىُّ القيُّومُ» «۱». الثـانى: الاسـلام يقول بنوع خـاص من التوحيـد فى حق الرسـل والأنبيـاء، ولاـ يفرّق بينهم ويكنُّ الاحترام لجميعهم، «لا نُفرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ من رُسُلِه» «۲» ، والفرق فى رسالاتهم ودينهم، فلكلٍّ دين خاص بزمانه وظروفه المكانيـة والزمانيـة، ويُعدُّ حقاً فى ذلك الزمان والمكان، فـدين موسـى كان دين الحق فى زمانه، ودين عيسـى كان دين الحق فى زمانه وعصـره، وهى من قبيل مراحل التعليم التى تبـدأ بالابتدائيـة وتنتهى بالجامعـة وتمر بالمتوسـطة والاعدادية، أمَّا الاسـلام فهو دين إلى آخر الزمان وقيام القيامة، ويمكن تنفيذه والعمل به فى كل عصر؛ لأن الرسول محمّد صلى الله عليه و آله خاتم الرسل والانبياء. إذن يعتقد المسلمون- وفقاً للآية المتقدمـة- بنوع خاص من التوحيـد فى حق الرسل والأنبياء. الثالث: يمكن تصوّر التوحيـد فى المعاد كـذلك، بمعنى أنَّ الناس جميعاً منذ بداية خلق الانسان وحتى آخر انسان سيجتمعون فى يوم القيامة للحساب، وقد أشارت الآية الكريمة ۴۹- ۵۰ من سورة الواقعة إلى هـذا المطلب، حيث قـالت: «قُلْ إنَّ الأوَّلين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقاتِ يَوم مَعْلُوم». إذن، هناك نوع توحيـد يمكن مشاهـدته فى يوم القيامـة. الرابع: الناس والبشـر مشـمولون بنوع خاص من التوحيـد؛ لأنهم جميعاً من أب واحـد وامّ واحدة، وكلهم سواسـية عند اللّه تعالى ولا رجحان لأحـدهم على الآخر إلَّابالتقوى وقـد أشار القرآن إلى هذا الصـنف من التوحيد فى الآية ۱۳ من سورة الحجرات: «يَا أيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وانثى وَجَعَلْنـاكُمْ شُـعُوباً وقَبَائِـلَ لَتَعـارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أتْقَـاكُم إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ». كمـا قـال الرسول صـلى الله عليه و آله: «المؤمنون تتكافئ دماؤهُم» «۳»، ولهـذا تتساوى دية المسـلمين سواء امثال القران، ص: ۴۱۷ الصغير الذى لم يمضِ من عمره إلَّاعاماً منهم والكبير الـذى أتمَّ مراحـل دراسـية عُليا. الخامس: القانون والـدين الإلهى واحـد، ولا يُقبل من الانسان إلَّاديناً واحـداً، وهو الاسـلام: «إنَّ الـدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسـلامُ» «۱». السادس: يتَّحـد المسـلمون فى القبلـة التى يتجهون نحوها فى الصـلاة. السابع: كتاب المسـلمين السـماوى واحـد، وهـم جميعاً تبع لكتاب واحـد، هو القرآن. الثامن: على المجتمع الاسـلامى أن يكون متحـداً ليشـكِّل امَّة واحدة. يوجد حالياً أكثر من خمسـين دولة اسـلامية تفرِّقها الحدود السياسـية والجغرافية، ومن وجهه نظر اسـلامية لا اعتبار بهـذه الحـدود، والمسـلمون جميعهم إخـوة وسواسـية، وفى هـذا المضـمار وردت الروايـة التاليـة: «المؤمن أخو المؤمن» «۲». وملخص الكلام أنَّ الـدعوة للتوحيـد والوحـدة نعثر عليها فى كل مكان، ولهـذا لا يُعـدُّ التوحيد أصـلًا من اصول الدين فحسب بل أساساً لُاصول الدين وفروعه. وهذا هو سبب تعدّد وكثرة الأمثال القرآنية التى تعرَّضت لهذا الموضوع.

الشرح والتفسير

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِیهِ شُرَکاءُ مُتَشاکِسُونَ». مثَّل اللّه المشرک بالعبد الذی یملکه عدَّة أرباب متشاکسین وغیر متفقین. مادة (شَکَس) تعنی الاختلاف والنزاع وسوء الخلق وسوء التعامل والمشاجرة، وأرباب هذا العبد متشاکسون ومختلفون دائماً، ویأمر کلٌّ منهم العبد بأمر یناسبه، فیتحیَّر العبد؛ لأن أحدهم یقول: إذهب إلی المکان الفلانی والآخر یقول له: لا تذهب، أو أحدهم یقول: استرح الیوم، والآخر یقول: علیک العمل الیوم وبذل جهد أکثر، أو أحدهم یقول: سافر الیوم، والآخر یقول: لا تسافر، وهکذا ... امثال القران، ص: ۴۱۸ هذا من جانب، ومن جانب فإنَّه فی حیرة من حیث مؤونته الشخصیة والیومیة؛ لأن کلًا من الأرباب یلقی مسؤولیة تأمین احتیاجاته علی الآخر. وبذلک تختل حیاته ویظل فی حیرة من أمره. مثل المشرکین کمثل هذا العبد؛ لأنهم جعلوا حیاتهم رهن هذه الأصنام فأصبحوا جاهلین بأهدافهم، وفی حیرة من أمرهم ولا- یعلمون بأیٍّ یتعلّقون، فتتعلق قلوبهم بشیءٍ یوماً ما وفی یوم آخر تتعلق قلوبهم بشیء آخر. شأنهم شأن غیر الموفقین والفاشلین الذین یبرمون عقدة الصداقة مع أحدٍ فی یوم ویفتحونها فی یوم آخر لیبرموها مع آخر، ویستمرون بنهجهم هذا. أو من قبیل اولئک الذین یمیلون مع الریح این ما مالت وینضمّون إلی رایة فی یوم ویلجؤون إلی اخری فی یوم آخر، فالیوم تهوی قلوبهم إلی الجاه والمقام، وغداً إلی الثروة وبعد غد إلی الشهرة، ولا ینتبهون إلی ما هم علیه إلَّاوقد انتهت أیام عمرهم. «رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ». أمَّا مثل الموحد فمثل العبد الذی له أرباب واحد، أمره واضح، وهو غیر متحیّر، ومطیع لسیده ومسلّم أمره إلیه، ولا- مشکلة له من حیث تأمین احتیاجاته. نعم، قلوب الموحِدین تعلّقت بمعبود واحد، فهو ملجأهم وناصرهم ومعینهم ومرادهم وملبیّ حاجاتهم، ولا- یرجون أحداً غیره، ولا- إبهام فی وظائفهم وما ینبغی علیهم فعله، فلا یعیشون حیرة ابداً. أیها الناس، کونوا فی ظل معبود کهذا، ونالوا من نوره الربانی، وأنیروا طریقکم به، فإن العزّة له والقدرة لدیه والذلة بیده، ولو أرادت الدنیا بأکملها شیئاً وهو أراد شیئاً آخر فلا- تتحقق إلَّاإرادته. کان فرعون قد قرَّر قتل موسی وهو فی بطن امِّه، ووظّف لأجل ذلک جمیع امکانیاته، فبقر بطون الکثیر من الحوامل، وقتل الکثیر من الأطفال، وارتکب جرائم کثیرة، لکنه ما توفّق لتحقیق رغبته وإرادته؛ لأن اللَّه کان قد أراد شیئاً آخر، فتربَّی موسی علیه السلام فی حضن فرعون نفسه، إذن علینا التعلق بربٍّ کهذا. «الحَمْدُ للَّهِ». امثال القران، ص: ۴۱۹ الحمد خاص له تعالی ومنحصر به؛ لأنّه خالق ورازق وحافظ وهادی، وما من شیء إلَّا منه عزّ وجلّ. «بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْلَمُونَ». المشرکون لا یعلمون شیئاً؛ لأن الطغیان والشهوات حالت دون إدراک الحقائق.

خطابات الآیة

۱- وحدة مصدر القرارات

أول خطاب للآیة هو أن یکون مصدر صناعة القرارات عند المشاکل الاجتماعیة واحداً، فلو تعددت مصادر صناعة القرار فی المجتمع ولم تتَّحد أو تتمرکز أصبح المجتمع بمثابة العبد الذی تعددت أربابه وظلَّ متحیّراً، وبذلک یفقد المجتمع قواه، وسوف تستهلک طاقاته فی النزاعات التی تحصل بین التکتلات، وبعد فترة ینسی المجتمع قضایاه الأساسیة.

۲- علی علیه السلام مصداق کامل لآیة المثل

المصداق الکامل والأتم لهذه الآیة التی وردت فی العبد، الذی لا مولی له إلا واحد، ولا یتّبع أحداً سواه ویتوکل علیه، هو مولی الموحدین وأمیر المؤمنین علیه السلام. فی هذا المضمار ننقل روایتین، احدهما وردت عن طریق أهل السنة، والثانیة وردت فی مصادر الشیعة: ۱- ینقل أبو القاسم الحسکانی فی (شواهد التنزیل)، الذی یجمع شأن نزول الآیات، حدیثاً عن الامام علی علیه السلام فی ذیل آیة المثل یقول فیه: «أنا ذاک الرجل السلم لرسول‌اللَّه». نعم، الامام علی علیه السلام سلَّم أمره إلی رسول اللَّه واجتنب عن اتخاذ موالی متعددین، وهذا لیس ادعاءً، بل التاریخ یشهد له بذلک، فقد کان عاشقاً للرسول ومطیعاً له وذاباً عنه فی أخطر اللحظات. ۲- یقول

المفسِّر الشیعی الکبیر العیاشی فی تفسیره وفی ذیل الآیة المزبورة: «الرجل السلم حقاً علیٌّ وشیعته». امثال القران، ص: ۴۲۰ کان قلب علی مفعماً بحب الرسول، وقلوب الشیعة مفعمة بحب علی، کانت حیاة علی إلهاماً من حیاة الرسول، وحیاة الشیعة إلهاماً من حیاة علی، وعلی ضحَّی بنفسه فی سبیل الرسول، والشیعة یضحّون بأنفسهم فی سبیل علی المرتضی تکمیلًا للبحث نذکر نموذجین من تضحیات الامام علی علیه السلام فی سبیل الرسول صلی الله علیه و آله. الف: جاء فی الآیة ۲۰۷ من سورة البقرة: «وَمِنَ النّاسِ مَنْ یَشْرِی نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ واللَّهُ رَؤوفٌ بالعِبَادِ». العلّامة الأمینی رحمه الله من عشاق أمیر المؤمنین ومن شیعته ینقل فی الجزء الثانی من کتابه القیِّم (الغدیر) تذییلًا للآیة عشر مصادر معروفة لأهل السنة یعترفون فیها بنزول الآیة فی شأن علی علیه السلام، ویدَّعی التواتر فی الروایات المنقولة هنا. جاء فی روایات هذا الباب: «کمن المتآمرون حول بیت رسول اللّه صلی الله علیه و آله محدقین به من کلِّ جانب، ومکثوا یرقبون ریثما یغلب علیه النوم لینهالوا علیه بضرباتهم، لکنَّ الحق تعالی أطلع رسوله علی مکرهم، ونزل جبرئیل بقوله عزّ وجلّ: «وَإِذْ یَمکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِیُثْبِتُوکَ أَوْ یَقْتُلُوکَ أَوْ یُخرِجُوکَ وَیَمکُرُون وَیَمکُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَیرُ المَاکِرِینَ» «۱». وأتاه الأمر بأن ینام أمیر المؤمنین علیه السلام فی فراشه وأن یغادر مکة فأخبر علیاً علیه السلام أن المشرکین آتون فی طلبه اللیلة، وأنه أمر بالرحیل عن مکة إلی غار ثور، وأمر بأن یخلّفه فی فراشه، کی لا یعلم المشرکون برحیله، فسأله علیه السلام: وهل ستکتب لک السلامة؟ قال: أجل، قال: حبّاً وکرامة، ثم سجد للّهشاکراً، وکانت تلک أول سجدة شکر فی هذه الامة، ثمّ رفع رأسه وقال: اذهب أینما أمرت روحی لک الفداء، ثمّ احتضنه صلی الله علیه و آله وبکی، ثمّ استودعه اللّه، وأخذ جبرئیل بیده وخرج به من البیت وهو یقرأ: «وَجَعَلْنَا مِنْ بَیْنَ أَیْدِیهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَینَاهُمْ فَهُمْ لَایُبْصِرُونَ» «۲». امثال القران، ص: ۴۲۱ فلمّا تقاطروا إلی البیت عند الصبح وقف لهم أمیر المؤمنین علیه السلام زاعقاً بهم، فسألوه: أین محمد؟ فأجاب: وهل أودعتموه عندی؟ لقد خرج ...» «۱». وبعدما دار نقاش بین الإمام وأبی جهل، قال الأخیر: لا تشتغلوا بعلی المخدوع لینجو بهلاکه محمد، وإلّا فما منعه أن یبیت فی موضعه وإن کان ربّه یمنع عنه کما یزعم؟ فقال علی علیه السلام: «ألی تقول هذا یا أبا جهل؟ بل اللّه قد أعطانی من العقل ما لو قسّم علی جمیع حمقاء الدنیا ومجانینها لصاروا به عقلاء ومن القوّة ما لو قسّم علی جمیع ضعفاء الدنیا لصاروا به أقویاء، ومن الشجاعة ما لو قسّم علی جمیع جبناء الدنیا لصاروا به شجعاناً ...» «۲». باء: فرَّ المسلمون فی معرکة احد عندما واجهوا الخسارة، لکن علیّاً بقی یدافع عن الرسول ویصدّ کل ضربة توجَّه إلیه، فکانت النتیجة ۹۰ جرحاً، وبعد انتهاء المعرکة بعث الرسول بطبیبین إلی علی، لکنهم عجزوا عن معالجته، وکلما خاطوا جرحاً انفتق جرح آخر لتقاربها. ثم جاء علی إلی الرسول قائلًا له: استشهد فی المعرکة من استشهد من أبطال الاسلام لکن الشهادة حیزت عنّی وشق ذلک علیَّ. فقال له الرسول صلی الله علیه و آله: «أبشر فانَّ الشهادة من ورائک» «۳». وعندما ضربه عبدالرحمن بن ملجم تذکّر ما بشره به رسول اللّه صلی الله علیه و آله من الشهادة والقتل فی سبیل اللّه فصاح بصوت عالٍ: «فُزْتُ وربِّ الکعبة» «۴». النتیجة أن علیاً علیه السلام أثبت حبّه الوافر للرسول وتضحیته فی هذا السبیل، کما اتّضح أن الاسلام کأفضل دین وأکمله لم یصلنا ببساطة وسهولة لکی نفقده کذلک، بل علینا الحفاظ والدفاع عنه بأثمن ما عندنا ونضحّی بالغالی والرخیص فی هذا السبیل. امثال القران، ص: ۴۲۳

المثل الخامس والأربعون: المسیح عیسی علیه السلام

اشارة

الآیات ۵۷ إلی ۵۹ من سورة الزخرف تشکّل مثلنا الخامس والأربعین، حیث جاء فیها: «ولَمَّا ضُرِبَ ابنُ مَرْیَم مَثَلًا إذا قَومُکَ مِنْهُ یَصُدُّونَ وَقَالُوا ءَالِهتُنَا خَیْرٌ أمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَکَ إلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إنْ هُوَ إلَّاعَبْدٌ أنْعَمْنَا عَلَیْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنی إسْرائِیلَ».

تصویر البحث

لم يمثّل القرآن هنا كما فعل فى أمثال القرآن الاخرى بل أشار إلى مثلٍ ضربه المشركون فى حق عيسى عليه السلام. وهناك اختلاف فى اعتبار هذه الآية من أمثال القرآن، فبعض أدرجها فى الأمثال وبعض آخر رفض ذلك.

معنى (المثل) فى استخدامات القرآن

لأجل اتّضاح المطلب المتقدّم علينا التعرّف على معنى أو معانى مفردة المثل الواردة فى القرآن. جاءت هذه المفردة بمعانى مختلفة، هى كالتالى: الاول: المعنى الذى هو موضع بحثنا فى أمثال القرآن، أى تشبيه معنى معقّد غير محسوس بمعنى محسوس وبسيط وواضح يسهل هضمه على الجميع، كتشبيه ثواب الصدقة بحبة أنبتت امثال القران، ص: ۴۲۴ سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة «۱». وأمثال القرآن تبحث عن هذا الموضوع فى الآيات حتى لو لم يرد فيها مفردة (مثل). الثانى: ما يطلقه عوام الناس من تشبيهات للانبياء، من قبيل ما ورد فى الآية ۷۸ من سورة ياسين: «وَضَربَ لَنا مَثَلاًونَسِىَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحيى العِظامَ وَهىَ رَمِيمٌ». وشأن نزول الآية هو شخص يُدعى (ابى بن خلف) أو (امية بن خلف) أو (العاص بن وائل) أو (عبداللَّه بن ابى) نهض للاحتجاج على الرسول صلى الله عليه و آله وابطال أدلّته على المعاد، فأخذ بعظام ومن المحتمل أنَّه فتتها أمامه وقال له: من يحيى العظام بعد ما تفتتت؟ ومن يستطيع إرجاع الحياة لها؟ وأىُّ عقل يمكنه التصديق بعودة حياة هذه العظام؟ فأجابه اللَّه جواباً حاسماً قائلًا: «قُلْ يُحييهَا الَّذى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» «۲». على أى حال، وردت مفردة المثل هنا وتعنى ما ضربه الناس من الأمثال لا ما ضربه اللَّه نفسه، وهى أمثلة خارجة عن موضوع بحثنا؛ لأنَّ بحثنا يخصُّ الأمثلة التى ضربها اللَّه نفسه لا الناس. الثالث: الحوادث المرّة والمؤلمة التى يواجهها الانسان فى طول حياته، فقد اطلق عليها مثل فى القرآن، كما جاء ذلك فى الآية ۲۱۴ من سورة البقرة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَأتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مسَّتْهُمُ البَاسَاءُ الضَرَّاءُ وَزُلْزِلوا حَتَّى يَقولَ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ ألَا إنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ». فالمثل هنا فسِّر بما جرى على مَن تَقدَّم من الأقوام. الرابع: بمعنى العبرة، وهذا المعنى ورد فى الآية ۵۵ و ۵۶ من سورة الزخرف: «فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأغْرَقْنَاهُمْ أجْمَعِينَ فَجَعُلْنَاهُمْ سَلَفاً ومَثَلًا للآخَرِينَ». المثل هنا بمعنى العبرة، كما أنَّ آياتٍ من هذا القبيل خارجة عن موضوع بحثنا، أى أمثال القرآن. امثال القران، ص: ۴۲۵ الخامس: بمعنى النموذج والاسوة، كما ورد ذلك فى آية المثل الذى نحن فيه، أى الآية ۵۹ من سورة الزخرف. المعنى الأول للمثل هو المعنى الوحيد الذى يدخل فى صلب موضوع بحثنا، ويخرج منه المعانى الأربعة الباقية، فهى خارجة عن كونها أمثالًا قرآنية، رغم أن البعض ضمّها إلى أمثال القرآن، وهو أمر مؤسف؛ لأنهم جعلوا كل آية اشتملت على مفردة المثل فى عداد أمثال القرآن، وذلك خطأ.

هل آية هذا البحث مثل قرآنى؟

اشارة

لهذه الآية تفاسير مختلفة ومتباينة، تندرج فى عنوان أمثال القرآن وفق بعض التفاسير، وتخرج عنها وفق تفاسير اخرى نلفت انتباهكم إلى بعض هذه التفاسير:

التفسير الأول

وفقاً لما جاء فى الآية ۹۸ من سورة الأنبياء فان الأصنام وعبدتها كلاهما فى النار، حيث ورد فيها: «إنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دون اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أنْتُمْ لَهَا وارِدُون»، أى أنهما يصبحان بمثابة الحطب لجهنَّم. افتعل المشركون ضجيجاً بأن المسيح وفقاً لهذه الآية يدخل جهنم (نعوذ باللَّه)؛ لأنه معبود لبعض المسيحيين، وكذلك الملائكة (نعوذ باللَّه)؛ لانها معبودات لبعض الناس، وجادلوا فى هذا الأمر

وأخذوا يهزؤون بالرسول ويقولون: إذا كانت جهنّم مأوى للملائكة ولعيسى فلابدّ وأن تكون مكاناً جيداً، ونحن مستعدون للذهاب إليها من خلال عبادة الأصنام. أجاب اللّه على هذه الضجّة بقوله: عيسى عبد من عبادنا، لم يدّع الالوهية، والمعبود الذى يدخل جهنّم هو الذى يرضى بأن يُعبد، أما المسيح لا أنه لم يرضَ على عبادة نفسه فحسب بل يكره ذلك ويتألّم منه. إذن، ما كانت الضجّة التى افتعلها المشركون إلّاجدلًا ومغالطة لا أكثر، وهى بمثابة الفقاعة الجوفاء. وبهذا التفسير تخرج الآية عن كونها من أمثال القرآن.

التفسير الثانى

شبّه اللّه تعالى المسيح عليه السلام بآدم عليه السلام فى الآية ۵۹ من سورة آل عمران، إذ قال: «إِنَّ مَثَلَ عِيْسى عِنْدَ اللّهِ كَمثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ من تُراب»، أى أنّه كما استطاع خلق آدم من تراب، يمكنه كذلك أن يخلق عيسى من مريم (سلام اللّه عليها) دون زواج. إذا اعتبرنا الآية ۵۷ من سورة الزخرف تشير إلى هذا المثل وأن ضجيج المشركين كان لأجل هذا الموضوع، فان الآية عندئذٍ تندرج فى أمثال القرآن، لأنها تشير إلى مثلٍ طرحه اللّه تعالى، وقد استخدم فيه تشبيهاً جميلًا.

التفسير الثالث

عندما انطرح مثل عيسى بدأالمشركون بافتعال ضجّة قالوا فيها: إن الرسول يريد دعوة الناس إلى عبادته، ولأجل التمهيد لذلك طرح مثل عيسى عليه السلام باعتباره معبوداً للنصارى والقرآن ردّ على هذه الدعاوى بقوله: عيسى عبد من عبادنا، ومن نعم اللّه على بنى اسرائيل. والآية مندرجة تحت أمثال القرآن وفقاً لهذا التفسير.

خطابات الآية

الضجيج من معالم الجاهلية

الجاهل انسان متعصّب، والمتعصّب من أصحاب الضجيج لا من أصحاب المنطق. للامام على عليه السلام خطبة فى (نهج البلاغة) تُدعى القاصعة، أشار فيها إلى الضجيج كبلاء كبير تعانى منه المجتمعات البشرية فى الماضى والحاضر، والخطبة وحدها تكفى للكشف عن مقام الأمير الرفيع وعلمه وعظمته ومنطقه. يقول أمير المؤمنين فى جزء من الخطبة: «فاللّه اللّه فى كِبْر الحمية وفخر الجاهلية، فإنّه ملاقح الشنآنِ ومنافخ الشيطان التى خدع بها الامم الماضية والقرون الخالية حتى أعتقوا فى امثال القران، ص: ۴۲۷ حنادس جهالته ومهاوى ضلالته» «۱». كلام الامام جميل جداً، وكأنّه بيان لآلآم المجتمع المعاصر، وعلى متعصّبى مجتمعاتنا الحالية أن يدركوا خطاب الامام ويتخلّوا عن التعصّب الذى ليس فى محلّه ويتركوا الضجيج ويسلّموا أنفسهم للحق والحقيقة.

المثل السادس والأربعون: الصحابة

اشارة

آخر آية من سورة الفتح تشكّل المثل السادس والأربعين من أمثالنا، يقول اللّه فيها: «مُحَمَّدٌ رسُولُ اللّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكّعاً سُجّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللّهِ وَرِضواناً سِيمَاهُمْ فى وُجوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التوراةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنهُم مَغفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً».

تصوير البحث

هـذا المثـل الجميـل الـذى يتكوّن من توصـيف ورد فى التوراة ومثـل ورد فى الإنجيـل يتحـدَّث عن أصـحاب الرسول الحقيقيين، وهو يحكى- من جانب- عمَّا كان يتّصف به الصـحابة، ومن جانب آخر يخبر عمَّا ينبغى عمله وما هى مواصـفات من أراد أن يصـير مسلماً حقيقياً وناصراً للرسول صلى الله عليه و آله وأهل بيته.

شأن نزول الآية

نزلت سورة الفتح بعد صلح الحديبية، إذ طلب الرسول من المسلمين فى السـنة السادسة من الهجرة أن يستعدوا للحج والعمرة وزيارة بيت اللَّه الحرام، فأحرم الرسول بصـحبة ألف امثال القران، ص: ۴۳۰ واربعمائة من المسـلمين فى مسجد الشجرة، وغادروه باتجاه مكة، ولم يأخـذوا معهم من المعـدات الحربية غير السـيف الذى كان يحمله كل مسافر لغرض الدفاع عن نفسه، وبذلك وبارتداء المسـلمين ثوبى الإحـرام بـدى بوضوح كونهم غير قاصـدين الحرب، وظـاهرهم يكشف عن نوايـاهم الحقيقيـة كزائرين. لأسـباب خاصـة تحرَّك الرسول صـلى الله عليه و آله بصـحبة المسلمين باتجاه الحديبية «۱»، وتوقّفوا هناك. قلق المشـركون واضـطربوا بسبب قدوم المسلمين، وكـان قلقهم ناشـىء عن أن دخول المسـلمين مكـة واتيـانهم بمناسك الحـج بالنحو المتباين مع النحو الـدارج يثير انتباه باقى الحجاج ويؤثر فيهم أو يميـل قلوبهم نحو الاسـلام فيسـلمون. ولأجـل ذلك قرروا منعهم من دخول مكـة، وبعثوا إلى المسـلمين شـخصاً يُـدعى (عروة بن مسـعود) وهو من علمائهم وأذكيائهم، وبعـد وصوله إلى المسـلمين سأل الرسول عن سـبب مجيئة إلى مكة، فأجاب الرسول: جاء المسـلمون للزيارة والعمرة المفردة، ولهـذا لم يأتوا معهم بعـدّة حربيـة من الـدروع والخناجر و ... وبعـد المفاوضات تقرَّر أن يبقى المسلمون فى الحديبية حتى يخبر عروة زعماء قريش بنتيجة مفاوضاته مع المسلمين. وفى هذه الأثناء شاهد عروة لقطة كانت مؤثرة فى انعقاد صـلح الحديبية، لقد شاهد الرسول صـلى الله عليه و آله يتوضأ والمسلمون يتسابقون على قطرات الوضوء التى تسقط من أعضائه ليتبرّكوا بها. بعـدما رجع عروة إلى مكـة عرض على زعماء قريش نتائـج مفاوضاته وأوصاهم بعـدم مواجهة المسـلمين؛ لأن المسـلمين ذائبون فى عشق الرسول صـلى الله عليه و آله ومستعدون لكل تضحية وعمل فى سبيله، وذكر لهم قصة وضوئه. امثال القران، ص: ۴۳۱ وبعد نقاش دار بينهم توصـلوا إلى أن يبرموا صـلحاً مع المسـلمين بشـرط أن لا يحجوا هذا العام. قصد عروة وسهيل بن عمرو الحديبية لإبرام عقد الصـلح مع المسـلمين، وبعد لقائهما الرسول صـلى الله عليه و آله واتفاقهما، أمر الرسول صلى الله عليه و آله الامام على عليه السـلام بكتابـة عقـد الصـلح. أمر الرسول عليّاً بكتابـة (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) لكن سـهيل اعـترض زاعمـاً أنَّهم لو كـانوا متفقين مع المسـلمين فى شـعاراتهم لما تنازعوا معهم، وطلب كتابة (بسـمك اللهمَّ) «۱». ثقل على المسـلمين كلام سـهيل، لكن الرسول صلى الله عليه و آله وافق عليه وأمر على كتابـة ما كان دارجاً كتابته ثم قال لعلى: «اكتب! هذا ما صالح عليه محمد رسول اللَّه سُـهيل بن عمرو»، فقال سـهيل: لو شـهدت أنك رسول لم اقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال لعلى: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمّد بن عبداللَّه سُـهيل بن عمرو ...»، وعندئذٍ انعقد صـلح الحديبية، وتقرّر فيه أن يقدم المسـلمون العام المقبل ويقيموا فى مكة مدَّة ثلاثة أيام لغرض الزيارة وأداء العمرة المفردة «۲». ترتبت آثار كثيرة على صلح الحديبية، والفتح المبين الذى أشارت له الآيات الاولى من سورة الفتـح هو هـذا الصـلح، فقـد كان فتحاً مبيناً حقاً؛ لكثرة مردوداته الايجابيـة وبركاته، رغم استياء بعض المسـلمين والمتطرّفين وضـيقى الصـدور ممَّن لا ينظرون إلّاللمسـتقبل القريب، حيث قال البعض: يا معشـر المسـلمين أأردّ إلى المشـركين يفتنونى فى دينى؟ فقـال له رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: «اصـبر واحتسب، فـانَّ اللَّه جاعـل لـك ولمن معـك من المستضـعفين فرجـاً ومخرجـاً». وبعد الانتهاء من كتابة الصـلح والإشـهاد عليه أمر الرسول المسلمين بالنحر والذبح للإحلال من الاحرام، ثمّ رجعوا إلى المدينة. عندها نزلت آيات تطمئن قلوب المسـلمين وتسـكّنها وتعـدهم بفتـح مكـة ودخولها بعز: «لَتَدْخُلُنَّ المَسْـجِدَ الحَرَامَ إنْ شَاءَ اللَّهُ» «۳» ، وهى تعـدُّ من

معجزات القرآن؛ لکونهـا أخبرت عـن الغیـب. امثـال القران، ص: ۴۳۲ کمـا وعـدت الآیـات المسـلمین الانتصـار علی بـاقی الأدیان والمـذاهب فی العالم: «لِیُظهِرَهُ عَلَی الـدّینِ کُلِّهِ» «۱» ، ثم أدرجت أوصـاف المؤمنین وأصـحاب الرسول. بعـدما اتضـح شأن نزول الآیهٔ نبتُّ بتفسیرها.

أوصاف أصحاب الرسول فی التوراهٔ

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» الانسان المتعصّب والجاهل مثل سـهیل بن عمرو ینکر نبوهٔ محمد صلی الله علیه و آله ورسالته، وهذا لا یغیّر الواقع، ومـا علی المسـلمین أن یسـتاؤوا من انکـار مثل هـذا الشـخص؛ لأن اللَّه خالق الکون قـد قبل نبوهٔ محمّـد صـلی الله علیه و آله ورسالته. «والَّذِینَ مَعَهُ أشِـدَّاءُ عَلَی الکُفَّار». الـذین معه ویسـیرون فی خطه ولم یـدّعوا الاسـلام فقط بل اثبتوا کونهم مؤمنین بجـدارهٔ فی میادین العمل، وکانت عقیـدتهم بالرسول صادقـهٔ وحقیقیـهٔ یحملون خمس صـفات عالیـهٔ. وأنتم کذلک، إذا أردتم أن تکونوا من أنصار امام الزمان (عجل اللَّه تعالی فرجه الشریف) فعلیکم الاتصاف بهذه الصفات الخمس. أول صفهٔ هی أن یکونوا أشداء وأقویاء أمام الأعداء، ولا یهابونهم، بل یقفون أمامهم کالسـد المانع ذی قوهٔ علی الصد والمنع الشدید. وفقاً لهذه الآیهٔ، فإنَّ اسـتخدام العنف فی حق الأعداء لاـ أنه غیر مسـتعاب فقـط بـل مطلوب ولاـزم أحیانـاً. اولئـک الـذین یرفضون العنف بالکلیـهٔ فی زماننـا هم لا یعرفون معنی العنف ولا یفهمونه، ولا معرفهٔ لهم بآیات القرآن وتاریخ الاسـلام. ینبغی الوقوف أمام الذئب الذی لا یفهم اللین والمنطق والاسـتدلال باسـتحکام وقوهٔ، بل ینبغی اسـتخدام کل ما نملک من سـلاح لصـده ومنعه. کثیر من الناس فی عصـرنا الحالی هم أسوء من الذئب، اولئک الذین یبقرون بطن الحامـل امثـال القران، ص: ۴۳۳ بطلقـهٔ رصـاص ویقتلونهـا مع طفلها تقمّصوا ثوب الانسانیـهٔ ولیسوا بأناس، وعلینا الوقوف أمامهم؛ لأنهم لا یفهمون غیر العنف، والعدالـهٔ عینها فی الـدفاع والمقاومـهٔ، وهو أمر منسـجم مع الطبیعهٔ، وذلک من قبیل کریات الدم البیضاء التی تفزع للمواجهـهٔ بمجرد احساسـها بالخطر وشـعورها بدخول عدو أجنبی، أی المیکروبات. إذن، أول صـفهٔ لأنصار الرسول هو مواجههٔ الأعداد بشدّهٔ والوقوف باسـتحکام أمامهم. «رُحَمَاءُ بَیْنَهُمْ». الصـفهٔ الثانیهٔ للمسـلمین الحقیقیین هی اللین والرحمهٔ فیما بینهم بنفس نسـبهٔ الشـدهٔ التی یتمتعون بهـا لمواجهـهٔ الأعـداء، فهم شدیـدون مع الأعـداء ومتراحمون فیمـا بینهم، أی یتمتعون بجذابیـهٔ تجاه بعضـهم الآخر ودافعهٔ تجاه الأعداء والکفار، والمسـلم الحقیقی هو الذی تجتمع فیه صـفهٔ القهر واللطف. لو لم یکن المجاهدون الشیعهٔ فی جنوب لبنان انعکاساً ل «أشِـدَّاءُ عَلَی الکُفَّار رُحَمَاءُ بَیْنَهُمْ» لاسـتطاعت اسـرائیل الزحف من لبنان إلی باقی الدول المجاورهٔ لها؛ لأن اسـرائیل ذئب، والـذئب لا یفهم شـیئاً غیر العنف، فقـد لمع هؤلاء الشـباب وفعلوا فعلتهم، وکما قال فیهم الأمین العام لحزب اللَّه السـید حسن نصـر اللَّه: إنّهم فعلوا مـا لم تفعله جیوش الـدول العربیـهٔ جمیعهـا. «تَراهُمْ رُکّعاً سُـجَّداً». الصـفهٔ الثالثـهٔ للمسـلمین الحقیقیین هی علاـقتهم المتواصـلهٔ مع اللَّه، فیرکعون ویسـجدون للَّه دائمـاً. وهـذه العبـارهٔ تعنی أن أعمالهم جمیعها من الرکوع والسـجود والاستراحهٔ والترفیه والحب والبغض وکل سـلوکهم عبارهٔ عن عبادهٔ؛ لأنها تصـدر عنهم بنیـهٔ القربهٔ وإرضاءً للَّهتعالی، ویسـتلهمون قدرتهم وقوتهم من خلال هـذه العبادهٔ، فیبـدون أشـداء أمام أعداءهم ولینین ورحماء فیما بینهم. «یَبتَغُونَ فَضْـلًا مِنَ اللَّهِ ورِضْوَاناً». صـفتهم الاخری هی خلوص نیتهم تبعـاً لرسولهم صـلی الله علیه و آله، فلاـ یبتغون ولا یطلبون شـیئاً من خلال أعمالهم غیر رضا اللَّه والفضل من قبله تعالی، ولاـ نجـد فی أعمالهم الریاء والتظاهر. امثال القران، ص: ۴۳۴ أیّهـا القرّاء، الإخلاص إکسـیر عجیب، والانسان یزداد توفیقاً کلما ازداد إخلاصاً، فالاخلاص والاخلاص ثم الاخلاص. «سِیمَاهُمْ فِی وُجوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ». الصفهٔ الاخری لأصحاب الرسول صلی الله علیه و آله الحقیقیین هو ظهور علامات وآثار العبادهٔ والسـجود فی وجوههم، فالإناء ینضح بما فیه. السیماء فی العربیهٔ تعنی العلامهٔ، وعلامهٔ المسـلم الحقیقی هو ارتسام عقیدته الباطنیهٔ وعباداته التی یمارسها فی الخفاء علی وجهه وسرایتها إلی ظاهره، ونور إیمان قلبه یشع من وجهه. وإذا وسَّعنـا فی معـانی الآیـهٔ قلنـا: یمکن مشاهـدهٔ آثـار الإیمـان فی جمیع لقطات حیاته، فی سـلوکه الفردی والاجتماعی، وفی حرکـاته وسـکناته. «ذَلِـکَ مَثَلُهُمْ فِی التَّوْراهِٔ». هـذه الصـفات الخمس لأصـحاب الرسـول صـلی الله علیه و آله ورد ذکرهـا فی التوراهٔ.

أعزتی، الطریق واضـح، لکنه بحاجـة إلی همّـة وإرادة مسـتحکمة، اتَّصف بهذه الصـفات الخمس لتری نفسک فی لواء أنصار صاحب الزمان (عجل اللّه فرجه). یا أیّها الـذین قضوا عمرهم قائلین: (یا لیتنا کنا معکم فنفوز فوزاً عظیماً)، إن الفوز العظیم فی الاتّصاف بهـذه الصفات الخمس.

علی علیه السلام نموذج کامل للصفات الخمس

فی مجـال المقاومـة والصـمود یقول الامام علی علیه السـلام: «واللّهِ لَوْ تظاهرت العرب علی قتالی لما ولَّیتُ» «۱»، وهو نفسه الذی کان رمزاً فی الغضب والمواجهة کان فی ذات الوقت بحراً من اللطف والعاطفة عندما یری یتیماً مسـلماً فیجلسه فی حضـنه ویلاطفه ویمسح بیـده علی رأسه ویـذرف الـدموع علیه، بحیث لا یصـدق أحـد أن هذا الرجل هو نفسه الذی یقف أمام الأعداء کالجبل الصامد. امثال القران، ص: ۴۳۵ علی یـذهب لمساعـدة زوجة شـهید ویقرّب وجهه من التنور لیذیق نفسه حرارته، خوفاً من أن یغفل یوماً عن الأیتام. علی یعیش العبودیـة دائماً، فهو أسوة العابـدین وقـدوتهم، وأحیاناً یأتی بألف رکعـة یومیاً «۱». لاـ مثیل لإخلاص علی، فکان قطعـة من الإخلاص، عنـدما بارز عمرو بن عبـدود فی معرکـة الخندق غلبه وکاد یقتله فبصق عمرو فی وجه علی وشـتمه فتوقف عن قتله ومشـی قلیلًا فی میدان المعرکة ثم قتله، وعندما سأله المسـلمون عن سبب ذلک الإجراء وأنّه لماذا لم یقتله مباشرة بعد ما تغلّب علیه، قال: «قد کـان لشـتم امی وتفل فی وجهی فخشـیت أن أضـربه لحظّ نفسـی فترکتُهُ حتی سـکن ما بی ثم قتلته فی اللّه» «۲»، أی أنه لو کـانه قتله مباشـرة کان لانتصار النفس سـهم فی قتله فهـدّأ نفسه لکی یکون قتله خالصاً لوجه اللّه تعالی. علائم الایمان کلها مطبوعة فی سـلوک علی، وآثار العبادة تشع من وجهه النورانی.

مثل أصحاب الرسول فی الإنجیل

قرأنا أوصاف أصـحاب الرسول فی التوراة من خلال الأسـطر السابقـة، وهذا یکشف ضـمنیاً عن أن الرسول لیس الوحید للذی کان قد ذُکر فی التوراة والانجیل بل وکذلک أصحابه من خلال ذکر أوصافهم، کما تقدم توضیح ذلک. آیة المثل أشارت إلی مثل أصحاب الرسول الحقیقین فی الانجیـل وقـالت: «وَمَثَلُهُمْ فی الإنجیـل کَزَرْعٍ». أی مثل أصـحاب الرسول الصادقین فی کتاب النصاری السـماوی (الانجیل) کمثل المزرعـة أو الزرع الـذی له مواصـفات خمس. ۱- «أخْرَجَ شَـطْئَهُ». امثـال القران، ص: ۴۳۶ للشـطأ معنیان، أحدهما: ما یخرج حول اصول الشـجر، فینمو تدریجاً لیستقل ویصبح شجراً بعد مدة. ثانیهما: فراخ الحیوانات إذا ازدادت، وعلی العموم الشطأ یفید معنی التکـاثر والتوسّع ومـا شـابه. أول خصـلة للزرع المـذکور فی الآیـة هو أنه غیر عقیم بـل یتکـاثر وتزداد رقعته، ولاـ حـدود له. ۲- «فَآزَرَهُ». آزر یؤازر تعنی الرعایـة والحمایـة والتقویة، وقد اطلقت مفردة (الوزیر) علی المقام المعروف، باعتباره یقوّی الملک ویحمیه، کمـا اطلقت هـذه المفردة علی الامـام علی علیه السـلام؛ باعتبـاره یـدافع عن الرسـول ویحمیه ویسـعی فی طریق تقویـة الـدین. الزراعة المفروضـة فی المثـل لاـ أنهـا تتکـاثر وتنمو وتزداد فحسب بل فراخها وما ینتـج منها ترفع الموانع من طریقها وتؤمن احتیاجاتها وتقوی أصلها وتؤازره. ۳- «فَاسْتَغْلَظَ». الخصیصة الثالثة هی أن الشطأ المحمی فی المزرعة یستحکم فی الأرض تدریجیاً وفی ظل هذه الحمایة یستغلظ ویقوی ۴- «فَاسْـتَوَی عَلی سُوقِهِ». تستمر الرعایة والحمایة للشطأ إلی حیث تشعر بالاستقلال وعدم الحاجة إلی التقویة والحمایة وأن عهـد الارتباط والحاجـة للغیر قد ولّی وتقوم بنفس العمل الذی کان أصـلها یقوم به، ویمرُّ شـطؤوها بالمراحل التی مرَّ بها الأصل، أی المؤازرة والاستغلاظ والاستقلال. ۵- «یُعْجِبُ الزُّراعَ لِیَغیظَ بِهِمُ الکُفّار». نمو الزراعـة وتکاثر اصولها کبیر ومبارک جداً بحیث تثیر إعجاب المزارعین والفلّاحین وتجعلهم فی حیرة من أمرها، فیضـعون أصابعهم فی أفواههم تعجباً، لما یشاهدونه من سرعة نمو الاشجار وازدیادها بحیث تغطی المزرعة بعد فترة قصیرة. أما الکفّار فیمتلؤون غیظاً. «وَعَدَ اللّهُ الَّذینَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجْرَاً عَظِیماً». امثال القران، ص: ۴۳۷ وعد اللّه أصحاب الرسول بالمغفرة والأجر العظیم إذا تحققت فیهم شرطان، الاول: آمنوا باللّه واصلحوا

اعتقاداتهم حقاً. الثانی: کانت أعمالهم صالحة کنتیجة للاعتقادات السلیمة، وهذا یعنی أن اللّه لم یعد جمیع الصحابة بل ذلک البعض الذی تحققت فیه الشروط المزبورة. والشاهد علی ذلک هو أنَّ «منهم» تبعیضیة، وتخصُّ بعض الصحابة ولا تشمل الجمیع. الخلاصة: الآیة شبهت أصحاب الرسول بالمزرعة النامیة، ولأجل إیمانهم وأعمالهم الصالحة بشّرتهم بالمغفرة والأجر العظیم.

خطابات الآیة

۱– الاسلام دین عالمی

الآیة المتقدّمة من أمثال القرآن العجیبة، وتحمل معها خطاباً مهماً وعظیماً للمسلمین. وفقاً لهذه الآیة، لا ینبغی للمسلمین أن یسعوا لإصلاح أنفسهم وحفظ دینهم وعقیدتهم فحسب، بل علیهم التفکیر والسعی لأجل نشر الاسلام وهدایة باقی الشعوب والامم. حفظ الدین أمر مطلوب ومستحسن لکنه غیر کاف، وعلی المسلم أن یخرج شطأً ویهتمّ بتربیة تلامذة وأولاداً طیبین ویختار أصدقاء جدیرین ویهمّ بإصلاحهم، ویشکّل عائلة نموذجیة، ویرعاهم ویحمیهم لکی یستحکموا تدریجیاً ویستقلوا، ثمّ کلٌّ منهم یدخل خط الانتاج والنمو والحمایة والاستحکام والاستقلال. المجتمع الاسلامی مجتمع متنامی ومتسع ومتکاثر، ولیس محدوداً ومنحصراً فی حدوده ولا یتقدَّم ولا یتطوَّر. الآیة تأمر المسلمین أن لا یقتنعوا بما لدیهم بل علیهم السعی لعولمة الاسلام، أی دین الحق الوحید. ماذا یقول القرآن؟ وماذا انجزنا وما عملنا؟ وماذا أنجز الآخرون وما عملوا؟ القرآن– وفقاً لهذه الآیة– یأمرنا باستخدام کل ما لدینا من وسائل وآلیات من المرسلات والأقمار الصناعیة والکامبیوتر والانتریت والمطبوعات والکتب والصحف والمبلّغین والسینما وتوظیفها جمیعاً لغرض تبلیغ الاسلام وإیصال رسالته إلی العالم کله. امثال القران، ص: ۴۳۸ هل ترجمنا القرآن، الذی هو وصفة سعادة البشر ویحتوی علی أفضل المعارف الدینیة، إلی لغات أجنبیة؟ هذا فی وقت ترجم فیه الانجیل المحرَّف إلی آلآف اللغات وعرض علی جمیع الشعوب والأقوام. وهل عملنا هذا یعدُّ استخداماً مناسباً للوسائل المتقدمة والتقنیة الحدیثة؟ آیة المثل توجّه خطابها للحوزات العلمیة لأن یعدّوا مبلغین جدیرین وبارزین ملمّین باللغات الأجنبیة تلبیة للطلبات، سواء فی داخل الدول الاسلامیة أو خارجها. بعد تحطّم الاتحاد السوفیتی شعرت اوربا الشرقیة بفراغ عجیب، وباعتبار وجود مسلمین هناک تبلورت الأرضیة لقبول الاسلام من قبل الاوربیین، لکن ممَّا یؤسف له أنَّا کنَّا نفقد المبلغین الذین ینطقون بلغات اوربا الشرقیة، ففقدنا هذه الفرصة الذهبیة، فی وقت أرسل البابا إلی هناک مائة ألفٍ من مبلّغیهم الذین ینطقون بلغات اوربا الشرقیة مع رأس مال یقدَّر بمائة ملیون دولار، وبذلک کانت الفرصة من نصیب المسیحیین. فی هذا المجال مسؤولیة الحوزات العلمیة والجامعات والحکومات الاسلامیة والآباء والامهات والمربین والمعلمین واللّه ثقیلة جداً. زعماؤنا الدینیون کانوا موفقین فی هذا المجال، کما کانوا موفَّقین فی المجالات الاخری علی سبیل المثال کانت لعلی علیه السلام فی عصره کلمات وخطب وحکم ورسائل کثیرة مفعمة بالمعارف، وقد جمع (نهج البلاغة) مقتطفات من تلک الکلمات والخطب والرسائل، لیت السید الرضی کان قد جمع کل ما صدر منه من رسائل وخطب وکلمات وحکم. کان علی علیه السلام بمثابة الزرع الذی یخرج شطأه، کان منشغلًا دائماً فی هدایة الناس والنشاطات الاجتماعیة والعبادیة. نشاهد عدد الألف فی سیرة علی علیه السلام کثیراً، فقد حرَّر ألف عبدٍ من کد یده «۱»، وکان أحیاناً یأتی بألف رکعة یومیاً «۲»، وقتل فی لیلة من لیالی معرکة امثال القران، ص: ۴۳۹ صفین خمسمائة وعلی روایة ألفاً من أنصار معاویة، وکان یکبر عند کل ضربة «۱». علی الشیعة أن یقتدوا بعلی فی جمیع امورهم وبخاصة فی مسائل من هذا القبیل. ما الذی عمله النبی صلی الله علیه و آله فی صدر الاسلام؟ کیف نمی الاسلام الذی ظهر فی مهد الجاهلیة وعلی أرض مکة الجرداء؟ کیف أخرج شطأه وتوسّعت رقعته لیغطّی أکثر بقاع الأرض خلال فترة تقل عن مائة عام؟ کانت مکة آنذاک محاطة بخمس حضارات، فی الشمال الحضارة الرومیة، وفی الشرق الحضارة الفارسیة وإلی جنبها حضارة بابل فی العراق، وفی الجنوب حضارة الیمن، وفی الغرب حضارة مصر، وعندما بدأت تنمو شتلة الاسلام استحکمت واستقلت ثم بدأت تخرج

شطأً فشطأً، وفی فترة تقل عن القرن فتحت ایران والیمن ومصر وبابل، واستطاعت الشتلة أن تغطّی ببراعمها بلاد أربع حضارات. علی المسلمین أن یکونوا هکذا، لکن ممَّا یؤسف له أنَّ بعضنا لا یسعی فی تربیة أولاده، فهو لا یراهم ولا یلتقیهم إلَّاوهم نائمون، یستیقظ صباحاً وهم نائمون ولا یرجع إلیهم إلَّالیلًا حیث غرقوا فی نومهم، ولا مجال له لیباشر عملیة تربیتهم. آخر شیء تبقَّی أنَّ المسلمین حالیاً إذا أرادوا أن یکونوا کما کان المسلمون فی صدر الاسلام حیث فتحوا بلداناً کثیرة فعلیهم أن یصلحوا أنفسهم وأن یدعوا الاختلافات ویبدّلوا فرقتهم إلی وحدة واتحاد وکتبهم وصحفهم إلی کتاب واحد وصحیفة واحدة.

۲- المثل لا یشمل جمیع أصحاب الرسول

یُطلق الصحابی علی کل مَن تشرَّف فی الکون بخدمة الرسول صلی الله علیه و آله وزاره من قریب، لکن هل المثل الجمیل المذکور فی الانجیل یعم کل من کان صحابیاً أم یخصُّ البعض من الصحابة؟ الجواب: یتّضح جواب هذا السؤال من خلال التدقیق فی الآیة ذاتها، فقد جاء فی ذیلها: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذینَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجراً عَظِیماً». امثال القران، ص: ۴۴۰ والآیة تقسِّم الصحابة إلی القسمین التالیین: الأول: الذین آمنوا منهم وعملوا الصالحات فلهم أجر عظیم. الثانی: الذین لم یؤمنوا حقیقة وما عملوا الصالحات فهم محرومون من الأجر الإلهی العظیم. إذن، تنزیه جمیع الصحابة- کما فعل ذلک بعض أهل السنة- لا ینسجم مع القرآن الکریم «۱»؛ لأن هناک آیات کثیرة خصوصاً فی سورة التوبة وردت فی ذم بعض الصحابة، مع أنَّا لو نزّهنا جمیع الصحابة واعتبرناهم جیّدین، فلماذا تنازعوا فیما بعد؟ ألا یعدُّ ذلک تناقضاً؟ فی أحد أسفاری إلی مکة کان لی نقاش فی المسجد الحرام بعد صلاة المغرب مع بعض الاخوة من أهل السنة، جرّنا الحدیث إلی قضیة الصحابة، فکانوا یقولون: إنَّهم منزَّهون جمیعاً، فسألتهم: لو کنتم فی حرب صفین فتنضمُّون إلی عسکر الامام علی علیه السلام أم معاویة؟ فقالوا: إلی عسکر علی علیه السلام، لکنَّا لا نسیء إلی معاویة. فسألتهم: لو أعطاکم الامام علی سیوفاً وأمرکم بقتل معاویة فما تفعلون؟ قالوا: ننفّذ أمر علی ونقتل معاویة، لکنَّا لا نقول فی معاویة إلَّاقولًا حسناً؟! وهذا یشبه النصب والهزل أکثر من الحقیقة. یبرّر البعض هذا المنهج من التفکیر بأن کلًا من علی ومعاویة عمل وفق اجتهاده واستنباطاته الشخصیة، ولذلک لا یعدان مقصرین، وکذا الحال بالنسبة إلی طلحة والزبیر وعائشة، فما خروجهم عن خلافة الامام علی علیه السلام إلَّاوفق اجتهاداتهم، ولهذا لا یعدون مذنبین أو مقصرین عند اللَّه؛ لأن کلًا منهم عمل وفق ما تفرضه علیه وظیفته الشرعیة. بطلان هذا التبریر واضح جداً، فإذا قبلنا هذا الکلام فلا یبقی مذنب علی وجه الأرض، لأن هابیل وقابیل عملا وفقاً لما تملیه علیهما اجتهاداتهما واستنباطاتهما، ولا یمکن مؤاخذة أیٍّ منهما وفقاً لهذا المنهج، کما أنَّ کلًا من موسی وفرعون، وإبراهیم ونمرود، وعیسی وعبدة الأصنام، وشعیب وقومه و ... عمل وفق اجتهاده واستنباطه، ولا یُعدُّ واحد منهم مقصّراً أو مذنباً!!!

المثل السابع والأربعون: الغیبة

اشارة

یقول اللَّه فی الآیة الثانیة عشر من سورة الحجرات: «یَا أیُّها الَّذِینَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ الظنِّ إنَّ بَعْضَ الظنِّ إثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا یَغْتَبْ بَعْضُکُمْ بَعْضاً أیُحِبُّ أحَدُکُمْ أنْ یَأکُلَ لَحْمَ أخِیهِ مَیْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِیمٌ».

تصویر البحث

رغم عدم ورود مفردة مثل فی هذه الآیة، إلَّاأن أمراً معنویاً وغیر مادی شُبِّه فیها بأمر محسوس ومادی، لهذا تندرج فی أمثال القرآن. فی هذه الآیة شُبِّهت الغیبة، التی هی من الذنوب الکبیرة والخطرة وبلاءً عاماً، بأکل لحم الأخ المیت، وترید القول من خلال ذلک:

كما أنَّه لا أحد يأكل لحم أخيه كذلك الحال المفروض فى الغيبة، فلا ينبغى أن ترتكب أبداً.

تعريف مجمل بسورة الحجرات

الحجرات هى السورة التاسعة والأربعون من القرآن، وهى مدنية وذات ثمانية عشر آية، وتضمَّنت مجموعة من الأوامر والآداب تخصُّ كيفية التعامل مع الرسول صلى الله عليه و آله وأولياء اللّه، ولو سميناها سورة الأخلاق كانت تسمية فى محلها؛ لما تضمّنته من أوامر أخلاقية عديدة. امثال القران، ص: ۴۴۲ فى فضل هذه السورة روى ما يلى عن الرسول صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة الحجرات اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد مَن أطاع اللّه ومن عصاه» «۱». قد يظنُّ البعض أنَّ ذكر فضائل جمّة من قبيل ما ورد فى الحديث الشريف لقراءة سورة صغيرة مثل الحجرات يُعدُّ مبالغة، لكن بطلان هذا الظن واضح؛ لأن الرسول صلى الله عليه و آله والمعصومين عليهم السلام عموماً لم يبالغوا أبداً، ومراد الحديث وما شابهه ليس التلاوة المجرّدة بل التلاوة مع التفكّر فى معانيها مقترناً بالعمل بمضامينها.

الشرح والتفسير

«يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا». المخاطبون فى هذه الآية هم المؤمنون وقد حذِّروا فيها من اقتراف ثلاثة أعمال، هى: ۱- «اجتنبوا كَثِيراً مِنَ الظنِّ إنَّ بَعْضَ الظنِّ إِثْمٌ». يطلب ألله من المؤمنين هنا أن يتركوا إساءة الظن للآخرين، لأنَّه إن كان خاطئاً كان إثماً كبيراً. يريد اللّه للمؤمنين محيطاً وبيئة آمنة تحفظ فيها الأموال والأرواح والشخصيات، لا على مستوى البيئة الخارجية فحسب بل على مستوى الأفكار والذهن. انظر إلى تعالى هذا الدين. ينقل المرحوم الفيض الكاشانى الحديث المفعم بالمعانى التالى عن الرسول صلى الله عليه و آله: «إن اللّه حرَّم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يظنَّ به السوء» «۲». إذا عملنا بهذا الأمر الأخلاقى فحسب فان كثيراً من البغض والعداوة والحسد سينتفى؛ لأن منشأ الكثير من هذه الذنوب هو سوء الظن. سؤال: إساءة الظن ليس إرادياً لكى يجتنب عنه، فقد يتبلور سوء الظن لمجرّد رؤيتنا للقطة امثال القران، ص: ۴۴۳ خاصة دون إرادة أو اختيار منا، فكيف يمكننا ترك ما ليس بأيدينا؟ الجواب: أولًا: ينبغى السعى لحمل أعمال الآخرين وتصرّفاتهم على الصحة وعلى محامل حسنة، وعلى سبيل المثال لو شاهدنا شخصاً يأكل فى شهر رمضان نقول: قد يكون مريضاً أو معذوراً لعذر آخر. وإذا شاهدنا شاباً مع شابة نحتمل أنّها من محارمه وأقربائه. وإذا شاهدنا تصرّفاً غير مناسب صدر من شخص نقول: لابدَّ وأنه صدر عنه إثر تعب أو اضطرار ... جاء فى الروايات: احمل أعمال الآخر على سبعين محملًا «۱»، وإذا تصوّرنا هذه الاحتمالات انمحت من أذهاننا سوء الظن عن الآخرين تدريجياً. ثانياً: إذا استحكم فى ذهنك سوء ظنٍّ تجاه شخص فلا تبرزه ولا تحرجه عن محيط ذهنك ولا تعمل وفقه، فإذا كان صديقك وتحبه فاستمر فى صداقتك وحبك له، ولا تقلّل منهما شيئاً. خلاصة الكلام: أن لا تسمح لسوء الظن أن يؤثر فى نفسك. ۲- «وَلا تَجَسَّسُوا». ثانى أمر أخلاقى أمرت به الآية هو عدم التجسس على الآخرين. جاء التجسّس والتحسّس بمعنى واحد، وهو الفحص أو البحث أو السعى لادراك الامور، والاختلاف بينهما فى أن التحسس هو التفحّص فى الامور المشروعة والمجازة، بينما التجسس هو التفحّص فى الامور غير المشروع التفحّص فيها. ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام لإخوة يوسف عليه السلام: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ» «۲». امثال القران، ص: ۴۴۴ للناس أسرار وأعمال سرية لا يرغبون البوح بها ولا اطلاع الناس عليها، والسعى للاطلاع عليها يُعدُّ تجسساً غير مجازٍ. جاء فى رواية: «إذا حدَّث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة» «۱»، أى أنه إذا كان يلتفت يميناً ويساراً خوفاً من اطلاع أحد على سرّه فعليكم الاجتناب من السعى لإدراك ما يقوله؛ وذلك لأن إفشاء اسرار الناس من الذنوب الكبيرة، وإفشاء أسرارهم يبدّل الدنيا إلى جهنم يصعب تحمّلها. لا يمكن للناس التعايش دون أن يتبادلوا الثقة، والتجسس يزلزل اسس الثقة وأعمدتها. بالطبع هناك موارد مستثناة لا إشكال فيها، من قبيل التجسس على شخص متَّهم بالارتباط بالأجانب يسرّب لهم معلومات، أو من قبيل التجسس على شخص متَّهم

بتهريب المخدرات وما شابه، وهذه الموارد ليست من قبيل التجسس بل هى تحسس، على أن يكون تحسساً منطقياً ووفق ضوابط لا يكون مطلق العنان بحيث يسمح فى الانصات للمكالمات الهاتفية مطلقاً. ۳- «وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً». ثالث وصية أخلاقية هو الاجتناب عن الغيبة، فلا ينبغى لأحد أن يفشى أسرار آخر فى غيابه. سؤال: ما العلاقة بين الذنوب الثلاث؟ وهل اقترنت اعتباطاً دون أن يكون بينها علاقة؟ الجواب: الانصاف هو أن هناك علاقة تربط هذه الذنوب فيما بينها، وكلٌّ منها معلول للآخر. عند المعاشرة يحصل سوء الظن، ولو استطاع الانسان مقاومته ومواجهته كان عليه شكر اللّه، ولو استمر أدّى إلى التجسس على أعمال الآخرين، ولو استطاع جهاد هذه المرحلة والتغلب عليها فبها ونعمت وإلّا أنتجت ثمرة غير مباركة، وهى الغيبة، فالغيبة معلول للتجسُّس. امثال القران، ص: ۴۴۵ إذن، سوء الظن منشأ للتجسس، والتجسُّس علة للغيبة، وبعبارة اخرى الغيبة معلول للتجسس، والأخير معلول لسوء الظن. «أيُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يَأكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُموهُ». بعد ما بيّن اللّه الذنوب الكبيرة الثلاثة ونهى المؤمنين عنها يضرب مثلًا للغيبة التى هى فاكهة مجالس أكثر الناس، قائلًا: إنَّها بمثابة أكل لحم الأخ الميت، وهل أحدٌ منكم مستعد لأكل لحم الأخ الميّت؟ سبب هذا التشبيه هو أنَّ الغيبة تذهب بماء وجه المغتاب، وإذهاب ماء الوجه بمثابة قطع قطعة من بدنه، بل قد يكون أصعب من ذلك. وبما أن المسلمين إخوة فاغتياب أحدهم الآخر بمثابة أكل لحم الأخ. وتشبيه الأخ المغتاب بالميّت باعتبار وجه الشبه بين الغائب عن المجلس والميت، فان كلاهما عاجزان عن الدفاع عن انفسهما. التمثيل عجيب جداً، وهل يمكن تصوّر ما هو أسوء من أكل لحم الأخ الميّت؟ وهل يستعد أحدنا عمل ذلك ولو كان مجنوناً؟ يجيب القرآن على هذه التساؤلات بقوله: «فَكَرِهْتُمُوهُ واتَّقُوا اللّهِ إنَّ اللّهَ توَّابٌ رَحِيمٌ». نعم، كلٌّ منا يكره عمل ذلك ويستاء منه. وعلى هذا، ينبغى بالانسان أن يتقى اللّه ويتجنَّب الغيبة، بل لا يفكّر بها، فالتفكير بها تفكير بأكل لحم الميت. اتقوا اللّه واتركوا سوء الظن لكى لا تتجسّسوا ولا تطّلعوا على أسرار الآخرين ولكى لا تفشوها، وإذا سبق وأن ارتكبتم هذه الذنوب أو ذنوباً اخرى فعودوا إلى اللّه وتوبوا منها بعد ما أدركتم قبحها، فاللّه يقبل التوبة ويغفر الذنوب، فهو غفور رحيم.

خطاب الآية

الغيبة قبيحة للغاية

خطاب الآية الواضح والموجَّه للجميع هو أن التلاعب بكرامات الناس واستعابتهم بمثابة أكل لحم الانسان، بل أكل لحم الانسان ميتاً، وأى ميّت؟ ليس ميّت الأعداء بل ميّت الإخوان، وهو عمل يصدر من الحيوانات الأكثر وحشية فقط. ومن الواضح أن الانسان لو امثال القران، ص: ۴۴۶ كان يحمل شيئاً بسيطاً من العاطفة لا يقدم على هذا العمل. إذن لماذا هذا التساهل فى التلاعب بكرامة الانسان وماء وجهه واعتبار الغيبة فاكهة المجالس؟

مباحث تكميلية

۱- عاقبة الذى يستغيب

أيّها القرّاء المحترمون، للغيبة عواقب سيئة كثيرة أشارت لها الروايات، نكتفى هنا بذكر روايتين: الف: جاء فى رواية: «مَن مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنّة ومن مات مصرّاً عليها فهو أول من يدخل النار» «۱». باء: ورد فى روايات أنَّ على الذى يستغيب أن يدفع غرامة غيبته، وهى عبارة عن أخذ بعض ذنوب المغتاب (إذا كانت له ذنوب) ووضعها فى صحيفة أعمال الذى يستغيب، وإذا كان المغتاب خالياً من الذنوب تؤخذ بعض حسنات الذى استغاب وتعطى للمغتاب «۲». وفى رواية: «يؤتى بأحد يوم القيامة يوقف بين يدى اللّه ويدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته فيقول: إلهى ليس هذا كتابى، فانّى لا أرى فيها طاعتى؟ فيقال له: إن ربّك لا يضل ولا ينسى

ذهب عملک باغتیاب الناس ...» «۳». الروایات السالفة تکشف عن أن الغیبة من حقوق الناس، وهی أشدّ وأصعب من حقوق اللَّه، ولهذا یجب احتیاطاً إبراء الذمة من المغتاب، وإذا کان فی‌الإبراء مفسدة فعلیة العمل للمغتاب بکثرة إلی درجة یجبر فیها سوء عمله تجاه المغتاب. بئس المصیر مصیر من اغتاب شخصاً ومات الشخص قبل أن یبرء ذمته من الغیبة، فلا یمکن الوصول إلیه عندئذٍ، لکن علیه الإکثار من الأعمال الصالحة له لکی ترضی روحه علیه.

۲- لا نخدع أنفسنا

کثیر من الناس یخدع نفسه فی مجال الغیبة ویسعی لتبریر سوء عمله بنحو وآخر، مثلًا عندما نعترض علی البعض ونأمره بعدم الغیبة یقول: (ذلک لیس غیبة، بل إنّی أقول هذا أمامه) أو (هذه لیست غیبة بل إحدی صفاته)، مع أن هذا تبریر خاطئ؛ لأن الغیبة لو لم تکن ذکراً لاحدی صفات المغتاب کانت تهمة أو بهتاناً علیه، وباعتبار کونها صفة لم یطّلع علیها الآخرون کانت غیبة، وذکرها عند المغتاب لا أنه لا یحلُّ المشکلة بل یضاعف من الذنب؛ لأنها تدخل عندئذٍ فی باب إیذاء المؤمن، وهو من الکبائر «۱». یتشبث البعض الآخر بعذر آخر من قبیل: (أنّه أساء لی فأغتابه)، مع أن هذا لا یسیغ الغیبة، فلو أن شخصاً أساء لعرض آخر فهل یمکن للأخیر أن یسیء لعرض الاول؟ بالطبع لا؛ لأن الحاکم الشرعی هو الوحید الذی یمکنه تعزیر المذنب.

۳- إضفاء صفة القداسة علی الغیبة

البعض من الناس یغتاب الآخرین بظاهر شرعی مقدس، کما لو سأله آخرون عن فلان فیجیبهم: (آسف علی أن الشرع لم یسمح لی بالکلام عنه)، وحدیثه هذا أسوء من الغیبة، ولو ذکر عیبه بصراحة کان أفضل بکثیر من ما یترکه من إبهام واحتمالات کثیرة فی ذهن المستمع لکلامه، وقد قال بعض العلماء فی هذا الکلام: إن صاحبه یتحمَّل ذنبین: الغیبة والریاء. اللهم وفقنا جمیعاً لترک هذه الذنوب الثلاثة وبالخصوص الغیبة.

المثل الثامن والأربعون: قرب اللَّه من الانسان

اشارة

یقول اللَّه تعالی فی الآیة ۱۶ من سورة (ق): «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ ما تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أقرَبُ إلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِیدِ».

تصویر البحث

لم تستخدم مفردة مثل أو کاف التشبیه فی الآیة، رغم ذلک أدرجناها فی الامثال؛ باعتبار ما تضمَّنته من تشبیه أمر معقول ومعنوی بأمرٍ محسوس. فی الآیة شبَّه اللَّه قربه إلی الانسان بقرب الورید إلی الانسان بل اعتبر نفسه أقرب إلی الانسان من قرب الورید إلیه.

إلقاء نظرة علی الآیات السابقة للمثل

آیات القرآن علی العموم مترابطة فیما بینها ترابطاً خاصاً، وهذا الترابط قد یبدو واضحاً وجلیاً، مثل آیات سورة یوسف التی تحکی قصة واحدة، وأحیاناً لا یکون الترابط جلیاً وواضحاً بل یتّضح بعد التأمُّل والتدقیق. العلاقة بین آیة المثل والآیات التی سبقتها من نوع العلاقة الثانیة، فلا تُدرک ببساطة بل بعد التدقیق والتفکیر. وبعد هذه المقدمة نلقی نظرة عابرة علی الآیات التی سبقت آیة المثل. امثال القران، ص: ۴۵۰ سورة (ق) مکیة، والسورة المکیة غالباً ما تتحدَّث عن التوحید والمعاد. ربَّی الرسول صلی الله علیه و آله المسلمین

خلال تواجده فی مکة تربیة عقائدیة مستحکمة بنحو کانت منشأً للحرکات المستقبلیة. والانسان إذا استحکمت عقیدته فی مجالی التوحید والمعاد تعبَّد له طریق العقیدة الکاملة واتضح له سبیل السعادة. إشکال الکثیر من الناس ینشأ عن ضعف عقیدتهم فی المبدأ والمعاد، وأمثال هؤلاء لا ـ یرون اللَّه حاضراً فی کل مکان ولا ناظراً علی کل شیء، ممَّا یحرّضهم علی اقتراف الذنوب وارتکاب الجرائم، وإذا اعتبروه حاضراً وناظراً فیبقی ضعف اعتقادهم أو انعدامه فی الحیاة بعد الموت. عندما امر ابن سعد بقتال الامام الحسین علیه السلام، استاء من ذلک الأمر کثیراً؛ لأنه أصبح بین خیارین، إمَّا قتال حفید الرسول وابن بنته وإمَّا رفع الید عن إمارة الری، ذلک البلد الخصب، فنشبت عنده الحرب بین عقله وأهوائه، وکانت الغلبة لأهوائه واختار إثر ذلک حرب الامام الحسین علیه السلام سعیاً لبلوغ إمارة الری، وأنشد عندها: یقولون إن اللَّه خالق جنةونار وتعذیب وغل یدین فإن صدقوا فیما یقولون اننیأتوب إلی الرحمن من سنتین وإن کذبوا فزنا بدنیا عظیمةوملک عقیم دائم الحجلین «۱» إذن، الاعتقاد بأصلی التوحید والمعاد مفید لا فی الآخرة فحسب بل فی الدنیا کذلک، وبهما نستغنی عن المحاکم والسجون، وهذا هو سبب تأکید الرسول صلی الله علیه و آله علیهما خلال تواجده فی مکة، کما أن محور حدیث غالب الآیات التی نزلت فی مکة هو هذان الأصلان. أمَّا الآیات المدنیة فقلَّ التأکید فیها علی هذین الأصلین، وغالبها کان یصبُّ فی قضایا أخلاقیة وفقهیة وتاریخیة وعسکریة، وقلَّما تعرَّضت للمبدأ والمعاد؛ وذلک لأن اسس عقائد المسلمین ثبتت فی مکة واستحکمت هناک. امثال القران، ص: ۴۵۱ تعرَّض القرآن فی الآیات ۶- ۸ من سورة (ق) إلی مسائل التوحید قائلًا فیها: «أَفَلَمْ یَنْظُرُوا إِلی السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ کَیْفَ بَنَیْنَاهَا وَزَیَّنَّاهَا وَمَا لَهُمْ مِنْ فُرُوجٍ». سؤال: یظنُّ البعض أنَّ السَّماء لیست سقفاً لکی نتصوّر فیه الثقب أو التزلزل، وما نراه شیء یشبه السقف لا سقفاً حقیقیاً، ویبدو أن کلام القرآن هنا غیر منسجم مع الاکتشافات العلمیة. الجواب: من معانی السماء هو غلاف الکرة الأرضیة، أی الجو الذی أحاط بالکرة الأرضیة ولا ثقب فیه، وهو رغم ظرافته یعد أکثر استحکاماً من السقف المصنوع من الفولاذ السمیک جداً، فهو یصد الشهب رغم عظمتها، وخطرها علی الأرض کبیر جداً، بحیث إذا سقطت علی الأرض أمکنها تدمیر منازل کثیرة ومزارع واسعة ومعامل وما شابه، لکن اللَّه حفظ الأرض وسکنتها من خلال هذا الغلاف الذی یحرق الشهب عندما تصطدم به، لتتبدل إلی رماد. هذا مضافاً إلی أن الغلاف یمنع من دخول بعض الأشعة المضرّة إلی الکرة الأرضیة، ولو سمح لهذه الاشعة بالدخول لعرَّضت حیاة الانسان إلی الخطر. إنَّ هذا الغلاف بمثابة المصفاة الذی یصفی الأشعة التی تصدر من الشمس لیصل المفید منها إلی الأرض وینعکس غیر المفید إلی خارج الجو. لو کان فی هذا الغلاف ثقوب لتسنَّی للشهب وکذا الأشعة المضرّة الدخول إلی الأرض، ولعرَّضت حیاة الانسان إلی خطر جدّی. ألا یفکر الانسان الجاحد بهذه الآیات لکی یدرک عظمة خالقه؟ «وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وأَلْقَیْنَا فِیها رَوَاسِیَ وأَنْبَتْنا فِیهَا مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ» «۱». کان سطح الأرض یعمّه الماء، وظهرت الیابسة تدریجیاً، ولهذا یُعدُّ ظهور الیابسة من آیات اللَّه العظمی ومن معالم التوحید. جبال الأرض بمثابة الأوتاد (الرواسی) التی تصدُّ الإعصارات الشدیدة، وتمنع من حصول امثال القران، ص: ۴۵۲ آثار الزلازل المخرّبة، وهی بذلک من آیات اللَّه ومعالم قدرته. قضیة الزوجیة فی الحیوانات والنباتات دلیل آخر علی عظمة الخالق. فی القرن السابع عشر من المیلاد اکتشف العلماء أن الزوجیة لا اختصاص لها بالحیوانات، بل النباتات لها ذکر وانثی وإلَّا لما أثمرت. کشف القرآن المجید عن هذا اللغز العلمی منذ ۱۴ قرناً وأعلن وجود الزوجیة حتی فی النباتات. «تَبْصِرَةً وذِکْرَی لِکُلِّ عَبْدٍ مُنِیبٍ» «۱». أی أنَّا جعلنا الآیات السالف ذکرها لغرض الإبصار والتذکر لکلِّ عبد تائب. بعدما تعرَّض اللَّه تعالی إلی قضیة التوحید فی الآیات الثلاث المتقدِّمة ینتقل فی الآیة ۱۵ من نفس السورة إلی قضیة المعاد والحیاة بعد الموت ویقول: «أَفَعَیِینَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِی لَبسٍ مِنْ خَلقٍ جَدِیدٍ». أی أنَّهم ظنوا أنا عجزنا فی الخلق الأول وشکوا فی امکانیة خلقنا الثانی أو الجدید. النتیجة: أن اللَّه تعرَّض فی الآیات التی سبقت آیة المثل إلی معارف توحیدیة، وآیة المثل تمتُّ بهذه الآیات بصلة؛ باعتبار أنَّ محاسبة أعمال الانسان من الآثار المفروضة للمعاد. المعاد للمحاسبة، وهی عملیة منوطة بتسجیل وتثبیت الأعمال، لکن من سجَّل الأعمال وأثبتها؟ هذا ما تجیب عنه آیة المثل.

الشرح والتفسیر

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسوِسُ بِهِ نَفْسَهُ». اللَّه يعلم بكل ما يصدر من الانسان، لا أعماله الخارجية وكلامه فحسب بل بكل ما يدور فى باطنه من أسرار واعتقادات وأفكار. الوسوسة فى الأصل تعنى الصوت الذى يحدثه الحلى عند احتكاك بعضها بالآخر، ثم امثال القران، ص: ۴۵۳ استخدم لكل ما يخدع الانسان، ومنها الأوهام والخيالات غير المرادة التى تنتقش فى ذهن الانسان. إذن، اللَّه يعلم بكل شىء حتى فى بالوساوس والأوهام التى تدور فى الأذهان، فبأى شىءٍ أنتم تشكّون؟ «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ». اللَّه ليس بعيداً عن الانسان بل قريب وقريب جداً أقرب ممَّا يتصوره الانسان. للوريد معنيان: ۱- الوريد الذى فى أحد طرفى عنق الانسان. ۲- الوريد الذى يتصّل بالقلب. القلب من مخلوقات اللَّه العجيبة، فهو جهاز يعمل متواصلًا ليل نهار مدَّة ثمانين سنة أو أقل أو أكثر. اللَّه أقرب إلى الانسان من وريد قلبه إليه، ومع هذا هل يبقى شىء من الانسان خافياً على اللَّه؟ هل تخفى على اللَّه أوهام الانسان وخيالاته؟ كلا، بل هو يعلم بكل شىء.

خطاب الآية

آثار الايمان بقرب اللَّه

إذا آمنا بقرب اللَّه إلينا وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد نبدأ نشعر بأنَّا فى محضرٍ من اللَّه تعالى دائماً، ونخجل من ارتكاب الذنوب والمعاصى فى محضره. العالم الخارجى ليس الوحيد الذى هو محضر اللَّه تعالى، بل كذلك عالم الباطن، وما أقبح المعصية وسوء الأدب فى محضر اللَّه الغفور الرحيم الكريم؟

مباحث تكميلية

۱- أمثال اخرى لقرب اللَّه من الانسان

ضربت أمثال اخرى لقرب اللَّه من الانسان، من قبيل: مثل اللَّه والانسان كمثل الروح إلى امثال القران، ص: ۴۵۴ البدن، أو كمثل الشمس إلى الكون، أو كمثل المولّد للكهرباء إلى المصباح أو الوسائل الكهربائية الاخرى التى تنطفئ بمجرد انقطاع التيار الكهربائى. لكن لا أحد من الأمثال المتقدّمة تبيّن قرب اللَّه إلى الانسان مثلما بيّنه مثل الآية الشريفة. اللَّه تعالى أقرب من كل قريب، ولا ينفصل عنا أبداً، لكن ليتنا نصدق ذلك؟ ولو صدَّق الانسان هذه الآية فقط لاستحال ارتكابه الذنوب وتلوّثه بالظلم والآثام.

۲- حديث للامام الكاظم عليه السلام

ورد فى حديث أنَّ أبا حنيفة (زعيم الطائفة الحنفية لأهل السنة) جاء إلى الامام الصادق عليه السلام يوماً فقال: رأيت ولدك يصلى والناس يعبرون من أمامه «۱» إلَّاأنَّه لم ينههم عن ذلك، مع أنَّ هذا العمل غير صحيح. فقال الصادق عليه السلام ادعوا لى ولدى موسى فدُعى له فكرّر الامام الصادق عليه السلام حديث أبى حنيفة لولده موسى بن جعفر فأجاب موسى بن جعفر قائلًا: «إنَّ اللَّه الذى اصلى له أقرب إلىَّ من حبل الوريد، إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يقول: نحن أقربُ إليه مِن حبل الوريد» «۲». وإذا كان اللَّه بهذا المستوى من القرب للانسان فما يؤثر عبور المارّة من أمام المصلى؟ إن اللَّه قريب جداً للانسان حقاً، فلماذا لا نستحيى؟ إنَّ عدم حياءنا بسبب عدم فهمنا للآية أو عدم تصديقنا لها، وإذا أردنا تصديقها فعلينا ترديدها والترنم بها كل يوم ليل نهار.

المثل التاسع والأربعون: مثل آخر للحياة الدنيا

اشارة

الآية ۲۰ من سورة الحديد تعدُّ مثلًا آخر للحياة الدنيا، يقول اللّه فيها: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُر بَينَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يكُونُ حُطَاماً وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضوانٌ وَمَا الحَياةُ الدُّنيا إلَّامَتَاعُ الغُرُور».

تصوير البحث

هذا المثل ضرب للحياة الدنيا، كما ضربت أمثال اخرى تقدَّم شرحها، لكنه يختلف عمَّا تقدَّم. فى هذا المثل شُبِّهت الحياة الدنيا بالغيث الذى يهبط على الأرض فينبت الزرع ويضفى على الأرض حياة وطراوة عجيبة، لكنه سرعان ما يفقد أثره وتنتهى الحياة والطراوة بعد فترة من الزمن.

الشرح والتفسير

«اعْلَمُوا أنَّما الحَيَاةُ الدُنْيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُم وتكاثرٌ فِى الأموَالِ والأولادِ». المخاطبون فى هذه الآية ليس المسلمين فحسب بل الناس أجمعين، الآية تقول: أيُّها الناس أينما كنتم وعشتم وفى أى زمان ومكان، إن الدنيا لا تخرج عن حالات خمس: ١- «لَعِبٌ». امثال القران، ص: ۴۵۶ الدنيا لعب يمارسه عدَّة من أتباع الأهواء، كما يفعل ذلك الأطفال، ورغم كبر سنهم إلَّاأنَّ عقولهم وسلوكهم طفولية. ٢- «لَهْوٌ». مجموعة اخرى من الناس هم أصحاب اللهو، وما داموا فى الحياة الدنيا لا يفكرون بشىءٍ غير اللهو، وشعارهم اللهو ما داموا قادرين عليه. ٣- «زِينة». الشكل الآخر للحياة الدنيا هو الزينة، فالبعض لا يهتم بأمرٍ مثل ما يهتم بالزينة، وهو دائماً منهمك فى الزينة والملابس الجديدة والموضات الجديدة والمنزل الجديد والحركات الجديدة، والخلاصة أنه لا شأن للبعض غير الزينة. ۴- «تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ». التفاخر هو الشكل الآخر للدنيا، وقد يكون المراد من التفاخر هنا هو التفاخر فى الجاه والمقام والشأن الاجتماعى، الذى يتفاخر به البعض على الآخر. ۵- «وتَكاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ والأولاد». الشكل الآخر للدنيا هو التكاثر فى الأموال أو الثروة والجانب الاقتصادى والأولاد. الدنيا تنحصر أشكالها فيما تقدَّم من الحالات الخمس. سؤال: ما المراد من حالات الدنيا وأشكالها الخمسة؟ هل المراد منها أن الناس ينقسمون إلى خمسة أقسام، بحيث حياة البعض مفعمة باللعب وحياة بعض آخر مفعمة باللهو وحياة بعض آخر مفعمة بالزينة وحياة آخرين مفعمة بالتفاخر أو التكاثر، أو أن المراد كون الانسان يمرّ بالمراحل والأشكال الخمسة من الحياة؟ الجواب: يعتقد بعض المفسرين أنَّ كل انسان يمرُّ بهذه المراحل الخمس حتى يبلغ الأربعين، وعندها يكون كاملًا، والسنوات التى تسبق هذا العمر تنقسم إلى خمس مراحل، كل مرحلة تتكوَّن من ثمان سنوات، المرحلة الاولى هى الثمان سنوات الاولى من عمر الانسان، حيث يقضى وقته باللعب، وفى الثمان سنوات الثانية يقضى وقته باللهو والعبث، وهى مرحلة الأشبال والأحداث، وفى الثمان سنوات الثالثة يقضى الانسان أوقاته فى الزينة، وهى مرحلة امثال القران، ص: ۴۵۷ الشباب، وفى الثمان سنوات الرابعة يسعى لكسب الجاه والمقام والتفاخر به، ومنذ الثانية والثلاثين وحتى الأربعين يحاول جمع أكبر حجم من الثروة والمال والذهب، وبدخوله الأربعين يتكامل وتثبت شخصيته وتستقر «١». «كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ». بعد ما بيَّن اللّه تعالى ماهية الدنيا وحقيقتها ضرب لها مثلًا فقال بأنَّها تشبه الغيث الذى ينزل على الأرض فيحييها وينبت فيها مختلف النباتات والزهور الجميلة، بحيث تثير إعجاب الكفَّار. المراد من الكفَّار هنا هو المزارعون والفلاحون، والكفر بمعنى الستر والتغطية، وأُطلق الكافر على غير المؤمن باعتبار أنه يستر الحقيقة وما تعتقد به فطرته، كما اطلق هذا اللفظ على المزارع باعتباره يستر البذور ويخفيها تحت التراب، كما يُطلق هذا اللفظ على القبر والليل؛ باعتبار أن القبر يستر الجسد والليل يستر أشياء كثيرة لظلمته. على أى حال، الآية تشير إلى أن الغيث يثير إعجاب المزارعين لما يمنحه من

حیاة وطراوة ونشاط على وجه الأرض، فینبت النباتات وتتغیّر وجه الأرض بها. «ثُمَّ یَهِیجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً». لکن عمر النباتات والاشجار والزهور التی نبتت جرَّاء الغیث لیس طویلًا، وینتهی بحلول فصل الخریف، فیُذهب بکل ما جاء به الغیث من حیاة ونشاط وطراوة. «ثُمَّ یکُونُ حُطَاماً». بعد ما تصفرّ النباتات تتبدَّل إلى حطام یتلاشى بریح بسیط أو نسیم، فیذهب به إلى مکان أو آخر، بعدما کان صامداً أما الأعاصیر عندما کان أخضر. نعم، الحیاة الدنیا بأموالها وزینتها ومقامها بمثابة هذه المزرعة، أوَّلها زخرف جذّاب، لکنَّها سرعان ما تتلاشى ولو شککنا فی ذلک یکفینا أن نلقی نظرة عابرة على حیاة النباتات التی امثال القران، ص: ۴۵۸ تدوم ستة أشهر، فحیاتها تصویر لحیاتنا المادیة، لکنها تعیش ستة أشهر والانسان یعیش ستین عاماً، والموت هو نهایة کل حیاة، وکلٌّ من الانسان والنبات یموت یوماً ما، والانسان ضعیف کالنبات، فهو فی بدایة ولادته عاجز على الاحتفاظ بلعاب فمه، وینتهی به الأمر فی الشیخوخة إلى ذلک أیضاً. «وفی الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِیدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّه ورِضْوانٌ». سیبتلی الانسان فی الآخرة بأحد المصیرین؛ العذاب الشدید أو المغفرة والرضوان. «وَمَا الحَیَاةُ الدُنْیا إلَّامَتَاعُ الغُرورِ». لیست الحیاة أکثر من سلعة للخداع، أی لها ظاهر جذاب خادع دون باطن.

خطابات الآیة

۱– الدنیا خادعة وفانیة

خطاب الآیة هو أن لا تخدعکم الدنیا بظاهرها ولا تصدّکم عن أهدافکم الأساسیة، فالدنیا ممَّا لا یمکن الوثوق بها، فهی خادعة زائلة. یصف الامام علی علیه السلام الدنیا کما یلی: «تغرُّ وتضرُّ وتمرُّ»، أی أنَّ لها صفات ثلاث: ۱– خادعة تغرُّ الانسان وتخدعه. ۲– تضرُّ الانسان وتصدّه عن الآخرة. ۳– فانیة وزائلة وغیر دائمة. ثم یقول: «إنَّ اللَّه تعالى لم یرضها ثواباً لأولیائه ولا عِقاباً لأعدائه». ثمّ یمثل للدنیا مثلًا جمیلًا ویقول: «وإنَّ أهل الدنیا کرکبٍ بینا هم حلّوا إذ صاح بهم سائقهم فارتحلوا» «۱». فی کل تشبیه ثلاثة أرکان، هی: المشبَّه والمشبَّه به ووجه الشبه، وعندما نشبّه الانسان بالأسد، یکون الانسان مشبَّهاً، والاسد مشبَّهاً به، والشجاعة وجه الشبه، أی أنَّا نشبّه الانسان بالاسد فی الشجاعة. امثال القران، ص: ۴۵۹ وفی المثل الذی هو موضع بحثنا تکون الدنیا مشبَّهاً، والغیث والنباتات مشبّهاً به، لکن ما هو وجه الشبه؟ أی ما هو الذی فی النباتات والزهور یشبه الدنیا؟ احتمل المفسرون عدّة احتمالات هنا: الاول: شبِّهت الدنیا بالنباتات من حیث عدم الثبات وکونها مؤقتة وزائلة، فکما أن طراوة النباتات وخضارها لیس دائماً وتصفرُّ بعد فترة من الزمن کذلک الحیاة الدنیا فلا دوام لها ولا وفاء لها لأیٍّ من البشر، فهی زائلة وفانیة «۱». الثانی: وجه الشبه هو التحولات الدنیویة السریعة، فهی سرعان ما تتغیّر، فالملک قد یتحوّل إلى فقیر متسوّل أو یُسجن، والرئیس قد یُقال من منصبه، وتحولات من هذا القبیل کثیرة فی الدنیا، ولا ینبغی الوثوق بها فی أی وقت، فهی کبیت العنکبوت، فإذا کنت شاباً فلا تغرّک طاقتک وقدرتک، وإذا کنت ثریاً فلا تغرّک ثروتک، وإذا کنت صاحب مقام وشأن فلا یغرّک شأنک ومقامک. الخلاصة: لا تغتر بوضعک الراهن، فان الأوضاع غیر ثابتة، ویمکن أن تتحول الأوضاع کلها فی حادث واحدٍ. الثالث: اعتبر البعض الخداع هو وجه الشبه، فکما أن النباتات جذّابة وخادعة ومتنوّعة کذلک الدنیا، فهی کالحیة ذات الظاهر الجذّاب والخادع. العاقل لا یفکّر بلحظة طراوة النباتات فقط بل بفصل الخریف، الذی سرعان ما یقدم ویبدّل خضار النباتات إلى صفارٍ، فلا یغتر بخضارها الخادع، ولا ظاهرها الفاتن دون أن یفکّر بباطنها الأجوف «۲».

۲– الهدف من الخلق

هل ینثر المزارع البذور فی الأرض دون هدف؟ هل ینمّی الفلاح النباتات والزهور دون امثال القران، ص: ۴۶۰ هدف؟ لماذا لم یزرع الفلاح أعلافاً وأشواکاً بدلًا عن النباتات المفیدة؟ لا شکَّ بأن للفلاح هدفاً، وعلى هذا کیف یمکن للّهالحکیم والأعقل من کل عاقل والأعلم من کل عالم أن یخلق الانسان والدنیا دون هدف؟ وهل یمکن للّهأن یخلق الانسان ویخلق جمیع المخلوقات لأجله، لغرض

اللهو واللعب والزينـة والتفـاخر والتكـاثر ولأجـل أن يعيش أياماً ثم ينتقل إلى عالم الآخرة؟ أيُّها الانسان، خلقك زارع الكون لهـدف أهم، وحياتك الخالـدة تبـدأ بعد الحياة الدنيا، والدنيا بمثابة عالم الأجنّة، حيث موتك فيه هو الحياة «وَانَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» «۱» ، فاسعَ لتلك الحياة الخالدة، ولا تلقِ نفسك فى مستنقع اللهو واللعب والتفاخر والزينة والتكاثر فى الأموال والأولاد.

المثل الخمسون والحادى والخمسون: اليهود

اشارة

الآيات ۱۴– ۱۷ من سورة الحشـر تشـتمل على مثلين، يقول اللّه فيها: «لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فى قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأسُـهُم بَيْنهُمْ شَديدٌ تَحْسَـبُهُم جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَومٌ لَّايَعْقِلُونَ* كَمَثَلِ الذِينَ من قَبْلِهِم قَرِيباً ذاقُوا وَبَالَ أمْرِهِم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* كَمَثَلِ الشَّيطَانِ إِذْ قَالَ للإنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كفَرَ قالَ إِنّى بَرىءٌ مِنکَ إِنّى أخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ* فَكَانَ عَاقِبَتَهُما أَنَّهُمَا فى النَّارِ خَالِدَين فِيها وَذلِکَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ».

تصوير البحث

الآيـات الأربع تضمُّ مثلين جميلين عن طائفـة من اليهود تـدعى بنى النضـير قصـدت الحرب مع المسـلمين بإيعاز من المنافقين، وهـذه الآيات حذّرت هذه الطائفة من الحرب ومن عواقبها لكلٍّ من المنافقين واليهود، وضربت مثلين يأتى شرحهما.

تاريخ اليهود فى المدينة

لاتضاح الآيات الأربع علينا إلقاء نظرة على تاريخ اليهود فى المدينة. كان فى المدينة يعيش ثلاث طوائف من اليهود، هى: بنى النضـير وبنى قينقاع وبنى قريظـة، كانوا قد صـنعوا لانفسـهم قلاعاً مسـتحكمة، وكانوا يعملون فى المجالات التجارية، وكانت أوضاعهم المالية جيـدة. امثال القران، ص: ۴۶۲ كان اليهود قـد قـدموا من شـبه الجزيرة العربية إلى المدينة؛ محاولة منهم للقاء الرسول الموعود؛ باعتبار أنَّهم كانوا قد سـمعوا من علمائهم أن الرسول سـيظهر فى الحجاز. كانوا يعيشون انتظار رؤية جمال الرسول الخاتم صـلى الله عليه و آله فى مكـة، كما كانوا يبشـرون أهل المدينة بظهوره وظهور دين جديد. عندما ظهر الرسول صـلى الله عليه و آله وجاء بدين جديد أضاء بنوره ظلمات الحجاز وجـد متعصّـبو اليهود هـذا الدين متضارباً مع مصالحهم وأهوائهم الشـيطانية فهموا بالمخالفة. اعاذنا اللّه من هوى النفس، ماذا يعمل؟ مجموعة تهاجر من وطنها لتسـكن موطن الرسول الموعود، حبّاً به وانتظاراً لرؤيته، وعندما تنقضـى لحظات الانتظار الصـعبة ويرونه أمامهم لا أنَّهم لا يستقبلونه ولا يرحّبون به فحسب بل يخططون لقتله ويتّحدون مع أعدائه ويتآمرون للقضاء عليه. انتصر الاسلام فى هذه المواجهة وفتح القلاع الثلاث ودمَّر اليهود وتركهم بين قتيل وبين مغادر المدينة بذلٍّ وصغار.

شأن نزول الآيات

بعد ما تلاشت طائفة بنى قينقاع إثر المواجهة التى حصـلت بينها وبين المسـلمين، همَّ المنافقون للإيعاز إلى طائفة بنى النضـير لمواجهة المسـلمين ولشنِّ حرب ضدهم، وقالوا لهم: لنتعاون معاً لطرد الاسـلام واجتثاثه من الجذور ما دام غير مستحكم ولم يشكل حكومة فى المدينـة بعـد. الآيـات المزبـورة تحـذّر اليهود من التعـاون مع المنـافقين ومن الوقوع فى مسـتنقع الشـقاء بسـببهم، والمنـافقون سوف لا ينفعونكم شـيئاً، وأنتم لوحدكم غير قادرين على المقاومة أمام المسلمين، ومصيركم هو نفس المصير الذى ابتلى به بنى قينقاع، وعاقبة كلا الطائفتين واحدة، ثم يضرب لهم مثلين.

الشرح والتفسير

«لاـ يُقـاتِلُونَكُمْ جَمِيعـاً إِلّافِى قُرىً مُحَصَّنَـةً أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ». امثال القران، ص: ۴۶۳ أيهـا المسـلمون، لاـ تخافوا هؤلاء اليهود، فهم لا يتجرّؤون مـواجهتكم، وإذا أرادوا مـواجهتكم فمن خلف قلاـع محصّ ـنة وجـدران، وهـذا يكشف عن قـدرتكم وقوتكم وعن ضـعفهم وعجزهم. «بَأْسُـهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيـدٌ تَحْسَـبُهُمْ جَمِيعـاً وقُلُـوبُهُمْ شَـتَّى . شديـدو البـأس فيمـا بينهم إذا تقـاتلوا، ممَّا يجعلكم تتصـوّرون أنَّهم متحدون وأقوياء، مع أنَّهم متشـتتين، واتحادهم ظاهرى، وبذور التفرقة مزروعة فى قلوبهم. هذا هو حال اليهود فى العصـر الحاضر، فهم أقوياء ومتحـدون عند القتال فى الظاهر، لكنهم عاجزون لا خيار لهم أمام مسـلمى حزب اللّه «۱»، وأن بذور الفرقة مزروعة فى قلوبهم، فهم ماديون ومن عبـدة الـدنيا، ويميلون حيثما مالت مصالحهم وينفصـلون ويتفرّقون أينما اقتضت تلك المصالـح. «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ». سـبب اختلافهم وفرقتهم هو جهلهم وعـدم كونهم من ذوى العقول والفكر، فالعقل سـبب للاتحاد، والجهل سبب للاختلاف والفرقة. إذن، ما على المسـلمين أن يرهبوا اليهود. وبعد بيان ما عليه اليهود من الفرقة والاختلاف شرع فى بيان مثلين لهم. المثل الاول: «كَمَثَـلِ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِمْ قَرِيبـاً ذاقُوا وَبَالَ أمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ». مثـل بنى النضـير كمثـل الـذين سـبقوهم ممَّن دفعوا ثمن أعمالهم وكفارتها، وهم حالياً يعيشون فى عذاب أليم. وبهذا مثَّل اللَّه بنى النضـير بالأقوام الذين سـبقوهم من حيث دفعهم كفارة سوء أعمالهم. احتمل المفسـرون احتمالين فى المراد من القوم المذكور فى الآية: الاول: المراد هو مشركو مكة الذين دفعوا ثمن أعمالهم أو كفارتها فى حرب بـدر. المنافقون أوعزوا لمشـركى مكة لخوض حرب بدر، وبعدما نشبت خسـروها ورجعوا أذلاء، واليهود امثال القران، ص: ۴۶۴ سـيبتلون بنفس المصـير الـذى ابتلى به هؤلاـء. الثـانى: المراد هو يهود بنى قينقـاع، الـذين تـأثروا بإيعـازات المنـافقين واغواءاتهم وخاضوا حرباً مع المسـلمين وخسـروها وارغموا على ترك المدينـة. فيا يهود بنى النضـير، إن مصـيراً كمصـير بنى قينقاع فى انتظاركم. المثـل الثـانى: «كَمَثَـلِ الشَّيطـانِ إِذْ قَـالَ للإِنْسَـانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَـالَ إِنّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنّى أخـافُ اللَّهَ ربّ العَالَمِينَ». كان المثل الاول مضـروباً فى حق اليهود الذين حاربوا المسلمين بإيعاز من المنافقين، أمَّا المثل الثانى فيخصُّ المنافقين، وبعبارة اخرى: كان المثل الاول يخصُّ مَن اثيروا تحرَّضوا، وهذا المثل لمَن أثاروا وحرّضوا. يقول اللَّه فى هذا المثل: المنافقون الذين أثاروا اليهود وأوعزوا لهم لحرب المسلمين مثل الشيطان الذى يثير الانسان ويوعز له لأن يكفر باللَّه، ويتركه هارباً بمجرّد أن لا يرى الموقف لصالحه. قد يتجلّى الشيطان بشـكل انسـان ليخـدع وليمرر حيله «۱»، نشـير إلى نمـاذج من هـذا القبيـل: الف: تمثَّل الشـيطان بشـكل انسان فى معركـة بـدر، يـدعو المشـركين للحرب ويحرّضـهم للهجوم على المسـلمين، وسـحب نفسه عنـدما مـالت كفّه الميزان لصالـح المسـلمين، وأنزل اللَّه عنـدها ملائكة لنصـرتهم، وعندما سـئل عن سـبب الانسـحاب رغم أنَّه كان يحرّض على القتال، قال: إنّى أرى ما لا ترون «۲». باء: عندما عقد زعماء قريش جلسة لدراسة قضـية كيفية مواجهة الرسول صـلى الله عليه و آله تمثَّل لهم كشـيخ عجوز من أهالى نجد، اقترح عليهم أن يُنتخب من كـل قبيلـة فتى يجتمعون ويهـاجمون بيت الرسول صـلى الله عليه و آله ويقتلونه، لكى يتوزَّع دمه على جميع القبائل، وتعجز قريش عن الانتقام من امثال القران، ص: ۴۶۵ جميع العرب، ووافقوا على هذه الخطة «۱». جيم: فى قضية بيعة أبى بكر بعد وفاة الرسول يُقـال: تمثَّل الشـيطان للمسـلمين كشـيخ عجـوز فى المسـجد، وكـان أول من أقـدم على بيعـة أبى بكر «۲». على كـل حـال، يقول اللَّه للمنافقين مثلكم كمثل الشـيطان الذى يوعز للانسان بالكفر ويحرّضه عليه، ثم يلوذ بالفرار من الساحة عندما يشعر بالخطر، ويقول: إنّى برىء منك إنّى أخاف اللَّه ربّ العالمين. هذا الكلام يصدر من الشـيطان عندما يرى نفسه على حافة العذاب، فيتوب، لكن لا فائدة فى التوبـة عند نزول البلاء والعذاب، كما أن التوبة غير مقبولة على عتبة الموت حيث تنجلى سـتار الغفلة، وحيث يتورّط الطرفان، الشـيطان الذى حرّض وأثار والانسان الذى تأثّر وتحرَّض، وكذا المنافقون الذى أثاروا اليهود وحرَّضوهم واليهود الذين أُثيروا وتحرّضوا، وعاقبة الطرفين هى جهنَّم وبئس المصير. المثلان ضربا فى اليهود والمنافقين فى صدر الاسلام، لكن هل يختصان بعهد الرسول؟ الإنصاف فى القول بـأن المثلين جاريـان فى جميع العهود والأزمان والأماكن، وشاملان لكلٍّ من همَّ بقتال المسـلمين بتحريض من المنافقين، الـذين

يرفعون يـد العون والإثارة عنـدما يرون الورطـة بأعينهم، بل أحياناً يهمّون بالـدفاع عمَّن حرَّضوا الآخرين ضده؛ وذلك لانعدام مفاهيم من قبيل العهد والوفاء فى قواميس المنافقين والشياطين.

خطابات الآية

١– أعداء الاسلام ضعفاء

وفقاً لما جاء فى الآية، أعداء الاسلام ليسوا كما نتصوّر، فهم غير متّحدين ولا أقوياء، ويقاتلون حتى حلفاءهم إذا ما تعرّضت مصالحهم للخطر، فقلوبهم متفرِّقة، وأفضل دليل على تفرّقهم هو عدم الاشتراك فى المصالح، فلكلٍّ مصالح تخصّه.

٢– الجهل سبب الاختلاف

جاء فى ذيل الآيـة كون الجهل هو سـبب التفرقـة والاختلاف بين المشـركين والكفّار، إذ يقول اللّه: «ذلِكَ بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايعقِلُون»، وهـذا يعنى أن الوحدة والاتّحاد يكشف عن النباهة والعقل والدراية. المجتمع الواعى هو الذى يهتم بالمصالح العامة لكل المجتمع، وسـلامة الفرد بسـلامة المجتمع ككـل. هـل أدركنـا هـذا الخطـاب المهم الـذى أوحاه الوحى وقال به العقل؟ وهل نحن مسـتعدون للتخلّى عن اختلافاتنا وميولنا الحزبيـة نزولًا عند طلب العقل والشـرع؟ كم من الطاقات والقوى تُهدر فى النزاعات الداخلية والحزبية؟ من المفروض أن تُصـرف هـذه الاموال والطاقات الفكريـة والثقافيـة فى طريق عمران البلاد والـدين، فلماذا تسـتهلك فى نزاعات داخلية تافهة؟ نعم، الاتحاد علامة العقل، والاختلاف علامة الجهل.

٣– الوثوق بالمنافقين خطأ

عرفنـا من آيـات المثـل أنَّه لاـ يمكن الوثوق بالمنـافقين الـداخليين ولاـ الأجـانب، ولا ينبغى لأنصار النظام الاسـلامى وأتباع المدرسـة القرآنية أن ينخدعوا بحيل المنافقين أو يتعاونوا معهم أو يثقوا بهم، فإنَّهم يلوذون بالفرار ويتركون الآخرين لوحدهم بمجرَّد إحساسهم بالخطر، بل يتعاونون مع الأعداء إذا وجدوهم أقوى كان المنافقون ولا يزالون يشـكّلون خطراً جدياً على الاسلام والمسلمين، وسيبقون كذلك، وما علينا إلَّاالحذر منهم.

۴– تاريخ المتقدِّمين يضىء الطريق للمتأخرين

إذا أردتم اختيار الطريق الصـحيح لحياتكم فعليكم دراسـة التاريـخ ومطالعة سـيرة المتقدِّمين، لكى تسـتفيدوا من تجاربهم وتعتبروا من عبرهم، فـانَّ التاريـخ يكرّر نفسه. يقول الامـام أمير المؤمنين عليه السـلام: «إنَّ الـدهر يجرى بالبـاقين كجريه بالماضـين». «۱» وهذا هو المراد من تكرُّر التاريخ. ينبغى النظر فى تاريخ المتقدِّمين وسـيرتهم، ومن خلال استيعاب ومعرفة عوامل انتصارهم أو خسارتهم يمكننا أن نخطو نحو المستقبل بثقة وبنحو أفضل.

۵– خُطى الشيطان والمنافقين واحدة

النتيجـة المسـتفادة من تشبيه المنافقين بالشـيطان هى أن نهـج الشـيطان والمنافقين واحد، وانهم يخطون فى نفس النهج، كما أن اليهود والمشـركين من هـذا القبيـل، ولهـذا شُـبِّه اليهود بالمشـركين. الاختلاف الوحيـد بين الشـيطان والمنافقين هو أن الاوائل شـياطين الجن والآـخرين شـياطين الإنس، أمَّا مناهجهم وخططهم فواحـدة، وينبغى الحـذر من كليهما. إلهى! نعوذ بك من شـر الشـيطان ونسألك أن

تحيمنا منه.

المثل الثانى والخمسون: جاذبية القرآن المتميّزة

اشارة

يقول اللَّه تعالى فى الآية ۲۱ من سورة الحشر: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وتِلْكَ الأمْثالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرونَ».

تصوير البحث

هذا المثل يتعلّق بالجاذبية الخارقة للطبيعة التى يتمتّع بها القرآن، وقد شبّه اللَّه تعالى قدرة النفوذ المعنوى لكلامه فى الانسان بخضوع وخشوع الجبال أمام القرآن، بحيث لو نزّل هذا القرآن على الجبال لخشعت وخضعت له؛ خوفاً من اللَّه ورهبة منه. ثمّ يعتبر التعقّل والتفكر فى آيات اللَّه هو الهدف من أمثال القرآن.

جاذبية القرآن العجيبة

سيرة الرسول صلى الله عليه و آله تكشف عن أن المشركين كانوا يخافون من جاذبية القرآن القوية. وقد بيّن القرآن خوفهم هذا فى الآية ۲۶ من سورة فصّلت كالتالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذا القُرآنَ والغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ». نعم، كانت جاذبية القرآن كبيرة جداً وكان خوفهم بدرجة حيث كانوا يوجدون ضوضاءً عند تلاوته من قبل الرسول صلى الله عليه و آله، لكى لا تصل كلماته إلى أسماع الناس، وغاية ما كانوا امثال القران، ص: ۴۷۰ يفعلونه فى هذا المجال أنّهم كانوا يوصون من يدخل المسجد الحرام بوضع قطنة فى اذنه لكى لا يسمع شيئاً من كلام الرسول صلى الله عليه و آله ويُسحر به «۱». ومن المؤسف أن هذا المنهج بأساليبه المتقدّمة متّبع حالياً، سعياً للحؤول دون بلوغ صوت الحق أسماع الناس. بعض التُّهم التى ألصقها المشركون بالرسول صلى الله عليه و آله تكشف عن هذا المعنى منها: تهمة السحر التى أشارت إليها الآية الثانية من سورة يونس: «قَالَ الكَافِرُونَ إنَّ هذَا لَسَاحِرٌ مُبينٌ».

الشرح والتفسير

«لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرآنَ عَلَى جَبلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ». نعم، لو أن هذا القرآن كان قد نزل على الجبال لتلاشت، لكن الانسان الغافل يسمعه يُتلى على لسان الرسول صلى الله عليه و آله ثلاثة وعشرين عاماً، وقلبه لا يتأثر به، وكأنَّه أقسى من الحجر. وردت نظريتان فى تفسير الآية الشريفة: الاولى لو كان للجبال عقل وإحساس وقابلية للاستيعاب والفهم وأنزلنا عليها هذا القرآن لخشعت، أى أنَّ الآية قضية شرطية لتنبيه الانسان، وأنَّ المفروض بالانسان أن يخشع قلبه للقرآن إذا كان له عقل، لكنَّه لا يخشع للقرآن ولا يخضع له لماذا «۲»؟ الثانية: الآية ليست قضية شرطية بل حقيقة؛ لأن لجميع الموجودات إدراكاً وإحساساً يناسبه «۳». وهذا المعنى انعكس فى آيات عديدة، منها: الآية الاولى من سورة التغابن، إذ جاء هناك: «يُسَبِّحُ للَّهِ مَا فِى السَّمَاواتِ وَمَا فِى الأرْضِ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». امثال القران، ص: ۴۷۱ ولو لم يكن للموجودات عقل وإدراك متناسب معها لما كان هناك معنى لتسبيحها، بل هى تدرك فتسبح وتقدّس وتحمد وتثنى، لكنا لا ندرك تسبيحها وتقديسها وذكرها، أمَّا الذى يتمتّع بحالة شهود عالم الباطن فيسمع تسبيح الموجودات ويفهمها. الآية تندرج فى أمثال القرآن طبقاً للتفسير الاول، لكنها تخرج عن موضوع بحثنا طبقاً للتفسير الثانى. الآية ۳۱ من سورة الرعد التى وردت فى تأثير القرآن شاهد على التفسير الاول، وقد جاء فيها ما يلى: «وَلَوْ أنَّ قُرآناً سُيِّرت بِهِ الجبالُ أوْ

قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَل لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً». فی شأن نزول هـذه الآیـة یری بعض الفطاحل أنَّهـا نزلت جواباً علی بعض مشرکی مکـة حیث جلسوا خلف الکعبـة واستدعوا الرسول صلی الله علیه و آله، فقدم إلیهم أملًا فی هدایتهم. قال له المشرکون: إذا أردت أن نتّبعک فعلیک إبعاد جبال مکـة، لکی تتسع من خلال ذلک أراضینا، وعلیک کـذلک تفجیر الأرض وجعل ینابیع وأنهاراً فیها، فنغرس أشجاراً ونزرع، فإنک- کما تزعم- لست أدنی من داود الـذی سخّر اللَّه له الجبال وکانت تسبّح معه «۱»، أو سخِّر لنا الریح تنقلنا إلی الشام نحلُّ مشاکلنا ونؤمّن حاجیاتنا ونرجع فی ذات الیوم، کما سخَّره اللَّه لسلیمان، وأنت- کما تزعم- لست أقل من سلیمان، کما علیک إحیاء جدّک قصی (من أجداد قریش) أو أیّ شخص آخر من الموتی لکی نسأله عمَّا تدعو له من أنَّه حق أو باطل؛ لأن عیسی علیه السلام کان یحیی الموتی وأنت- کما تزعم- لست أدنی شأناً من عیسی عندها نزلت هـذه الآیـة قائلة لهم: ما تقولونه صدر عن عناد ولجاجة لا سعیاً للایمان بالرسول، ویکفی الرسول صلی الله علیه و آله ما لدیه من معاجز «۲».

خطاب الآیة

هیبة القرآن وعظمته

هـذه الآیـة تحکی هیبـة القرآن وعظمته، وهی بدرجـة تجعل الجبال متصدّعـة، ومع هـذا کیف هو حال الـذین یُقرأ علیهم هذا القرآن متواصلًا دون أن یؤثر فیهم أدنی تأثیر، إن قلوب هؤلاء أکثر قساوة من الحجر. إلهی، زدنا علماً بالقرآن، واجعل کل آیة منه سبباً لزیادة ایماننا.

المثل الثالث والخمسون: علماء بلا عمل

اشارة

الآیـة الخامسـة من سورة الجمعـة تشـکّل مثلًا آخر من أمثال القرآن الجمیلـة، یقول اللَّه تعالی فیها: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلوا التّورَاة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ واللَّهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ».

تصویر البحث

الآیـة تحدَّثت عن الیهود الذین لم یؤمنوا برسالة محمّد صلی الله علیه و آله رغم أن التوراة بشَّرت بها، لکنهم تجاهلوا البشارة، وبتعبیر أدق: الآیة تضرب مثلًا للعلماء غیر العاملین بعلمهم وتشبّههم بالحمار الذی حُمّل کتباً لکن لا یمکنه أن یستفید منها.

شأن النزول

عندما نزلت الآیة الثانیة من سورة الجمعة التی قالت بأن اللَّه بعث الرسول صلی الله علیه و آله فی مجتمع امّی، قال متعصبو الیهود: عدم إیماننا بالاسلام بسبب أن الاسلام دین غیر شمولی ویخصُّ المجتمع الامی المذکور فی الآیة، التی هی بمثابة الاعتراف بعدم شمولیة الاسلام «۱». امثال القران، ص: ۴۷۴ غالباً ما یبحث اللجوجون والمغرورون عن الذرائع، والیهود اللجوجون غیر خارجین عن هـذه القاعدة، والآیة جواب لما تشبّث به هؤلاء من ذریعة.

الشرح والتفسیر

«مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلوا التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسْفَاراً». وهب اللَّه تعالی نعمـة إلهیـة کبری للیهود، وهی کتاب التوراة

السماوی، لكنَّهم لم يؤدوا حق هـذا الكتاب، وكأنهم لم يُوهبوا هـذه الموهبـة الكبرى ومثل هؤلاء كمثل الحمار الـذى يحمّلوه كتباً لا يفيد من مضمونها ومحتواها. التوراة بشَّرت بالرسول وذكرت علائم ومواصفات الرسول بنحو دقيق، بحيث أصبحت معرفتهم الرسول كمعرفتهم أولادهم، رغم ذلك أنكروا الرسول أو تنكروه، لماذا؟ «۱» ألم يهاجروا من بلدانهم الأصلية إلى الحجاز شوقاً لرؤية خاتم الرسل؟ إذن، لماذا أدبروا عن بشارات التوراة ولم يؤمنوا بالرسول وبدينه، بل حاربوه؟ مثل هؤلاء الذين لا يعملون بعلمهم كمثل الحمار الذى لا يفيد من مضامين الكتب التى يحملها. «بِئسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ» كيف لا يُشبَّه هؤلاء اليهود العنودون بالحمار مع أنهم أنكروا آيات اللَّه تعالى لا فى العمل فحسب بل أنكروها بألسنتهم كذلك؟ وهذا الموقف الذى صدر من اليهود لم يختص بيهود صدر الاسلام، بل اليهود- طبقاً لما ورد فى الآية ۸۷ من سورة البقرة- استكبروا أمام كل رسول جاءهم بما يخالف أهواءهم النفسية، فقتلوا بعضاً من الرسل وكذَّبوا بعضاً آخر، وهذه سيرتهم على طول التاريخ. «واللَّهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ». امثال القران، ص: ۴۷۵ رغم أن ذات اللَّه هى منبع الهداية ومصدرها إلَّاأن قابلية الانسان شرط فى ذلك، واللَّه لا يهدى إلَّامن توفّرت فيه هذه الأرضية، وهدايته لا تشمل من اتَّخذ العناد واللجاجة كمنهج له وظلم نفسه.

خطابات الآية

۱- المثل عام

معنى العبارة: «حُمِّلوا ... ثُمَّ لَمْ يَحْمِلوا» هو أن اللَّه منح اليهود نعمة كبرى دون أن يريدوها، والنعمة هى التوراة، لكنَّهم لم يفيدوا منها. وهذا أمر لايختص باليهود، بل تشمل كل انسان وكل نعمة منحها اللَّه للانسان ولم يفد منها شيئاً. العقل من النعم التى لا بديل لها وقد منحها اللَّه الانسان دون إرادة منه، لكن كثيراً من الناس لم يستفد من هذه النعمة بنحوٍ صحيح ومناسب. السلامة نعمة كبرى مجهولة «۱»، منحها اللَّه للانسان دون إرادة واختيار منه، لكن يا تُرى هل نفيد منها بنحو صحيح ومناسب، أم أنها من مصاديق «حُمِّلوا ... لَمْ يَحْمِلوا»؟ يا ترى هل استفدنا من المعارف الدينية والقرآن وسنة الرسول والائمة وأقوال العلماء والمراجع، التى هى نِعَم كثيرة منحها اللَّه إيَّانا دون إرادة منا، لغرض هداية أنفسنا والمجتمع؟

۲- لماذا الحمار؟

الحيوانات التى تستخدم للحمل كثيرة، لكن لماذا اللَّه مثَّل العلماء غير العاملين واليهود المتعصّبين بالحمار دون غيره من الحيوانات؟ الجواب: يبدو أن ذلك لاشتهار الحمار بالحماقة والجهل، ولهذا يُضرب به المثل فى حق الأحمق من الناس. ويكفى فى حماقة هذا الحيوان أنَّه لو امر بالعبور من طريق وعر ومفعم بالأخطار عشر مرَّات لفعل ذلك دون أن يحاول تغييره. امثال القران، ص: ۴۷۶ لأجل أن يبيّن اللَّه حماقة اليهود ولجاجتهم وكذا العلماء غير العاملين شبَّههم بالحمار الذى لا يفيد من الكتب التى يحملها على ظهره، ولا يعرف عنها غير إحساسه بالثقل والتعب. وهل يمكن تصوّر حماقة أكثر من حماقة الشخص الذى يحمل علوماً دون أن يفيد منها طول عمره؟

۳- سبب التعبير بالأسفار لا الكتب

الأسفار من مادة سِفر، ويعنى الكشف عن شىء، ويُطلق على النساء غير المحجبات سافرات؛ باعتبار كشفهنَّ عمَّا يجب ستره، كما استخدمت هذه المادة فى السفر (أى التنقل من مكان إلى آخر)؛ باعتبار أن الانسان يكشف عن نفسه فى السفر عكس ما كان عليه فى الحضر حيث يكون مستوراً فى محلته وبيته وبنايته التى يعيش فيها أو فى السيارة التى يتنقل بها أو فى دائرته أو معمله الذى يعمل فيه.

کما یُطلق علی الکتاب سفر؛ بإعتبار کشفه عن الحقائق والواقعیات والمعارف الانسانیة. الکتاب السماوی سبب لهدایة الانسان نحو الحقیقة ویکشف له عن الواقع، لکن الکثیر من البشر لا نصیب له من هذا الکتاب إلّاعناء حمله ونقله دون أن یفید منه شیئاً.

۴- الهدایة تستدعی قابلیة

کما تقدَّم، فإنَّ الأنوار الإلهیة تقدم من اللَّه، أمّا القابلیات فنحن نوجدها. لا خلاف فی طبع الغیث اللطیف، لکنه لا یُنبت الزهور أینما هطل، بل الأمر یتوقّف علی نوعیة الأرض، فاذا کانت سبخة فلا تنبت الّا الأعلاف، وتنبت الزهور قطعاً إذا کانت خصبة. لأجل ذلک قد یهتدی الانسان ویبلغ قلّة الکمال إثر سماعه کلمه صدرت من الرسول صلی الله علیه و آله قبل أکثر من ألف سنة، فإن انساناً من هذا القبیل یحمل قابلیة الهدایة. لکن أشخاصاً من قبیل أبی سفیان وأبی جهل قضوا عمراً إلی جنب الرسول صلی الله علیه و آله وسمعوا منه مباشرة آیات کثیرة وبلغتهم مواعظه العدیدة، ولم یخطوا ادنی خطوة باتجاه الانسانیة، بل کانوا یبتعدون عن الانسانیة شیئاً فشیئاً لیصبحوا کالأنعام بل أضل سبیلًا «۱»؛ وذلک لأجل انعدام القابلیة فیهم.

۵- الآیة شاملة لکلِّ عالم غیر عامل

کما تقدَّم، فإن الآیة رغم نزولها فی الیهود إلّاأنها دون شک شاملة لکل عالم لم یعمل بعلمه. یقول المفسر الکبیر المرحوم العلامة الطبرسی فی ذیل هذه الآیة: «قال ابن عباس: فسواء حمل علی ظهره أو جحده إذا لم یعمل به، وعلی هذا فمن تلا القرآن ولم یفهم معناه وأعرض عنه إعراض من لا یحتاج إلیه کان هذا المثل لاحقاً به وإن حفظه وهو طالب لمعناه فلیس من أهل هذا المثل» «۱». إذن، الآیة تحذیر للمسلمین جمیعاً بأن لا یبتلوا بالمصیر الذی ابتلی به الیهود، وقد شملهم فضل اللَّه بتنزیل القرآن علیهم، علی أن لا یترک علی الرفوف یتراکم علیه الغبار أو یعلّق علی الجدران لدفع العیون أو لیُهدی للعرائس أو لیُقرأ فی مجالس الفاتحة فقط، أو لتجوید آیاته وتلاوتها بصوت حسن وحفظه علی أقصی تقدیر دون أن تنعکس تعالیمه فی سلوکنا الفردی والاجتماعی، ودون أن نجد له أثراً علی عقائدنا وأعمالنا.

العلماء غیر العاملین فی الروایات

للعلم والعالم قیمة عالیة فی الثقافة الاسلامیة، حیث وصفت الروایات العلم بما یلی: رأس الفضائل، ووراثة کریمة، وأفضل غنیة، ومصباح العقل، ونعم دلیل، وأفضل هدایة، وجمال لایحظی وأفضل الأنیسین، وأفضل شرف، وأشرف الأحساب «۲». کما وصفت العالم بما یلی: العلماء ورثة الأنبیاء، ومصابیح الأرض، وخلفاء الأنبیاء «۳». ومن الواضح أن هذه الفضائل والقیم خاصة بالعلم الذی یُجسّد فی الخارج ویُترجم إلی واقع وللعالم الذی یعمل بعلمه، وإلّا فالعلم الذی یخلو من العمل لا أنه لا یسبب الهدایة ولا یضیء الدرب للآخرین بل لا یهدی حامله کذلک. ورد فی روایة یقشعر لها البدن عن الرسول صلی الله علیه و آله: امثال القران، ص: ۴۷۸ «مَن ازداد علماً ولم یزدد هدیً لم یزدد من اللَّه إلّابُعداً» «۱». ممّا یبعث إلی التأمُّل فی هذه الروایة هو أن الرسول صلی الله علیه و آله لم یقل من لم یزدد هدی بعلمه لم یقترب إلی اللَّه بل قال: یزداد من اللَّه بُعداً؛ وذلک لأن عذر الانسان مقبول عند اللَّه ما دام جاهلًا، لکنه عندما یزداد علماً فلا یقبل اللَّه له عذراً، ولهذا یتراجع ویتخلَّف أکثر من ذی قبل. النتیجة: ینبغی السعی لکسب العلم وینبغی تحمّل جمیع المتاعب التی تواجهنا فی هذا الطریق، کما ینبغی العمل بالعلم وجعل هذا العلم وسیلة لهدایة أنفسنا وهدایة الآخرین، لکی لا تصدق علینا الروایة والآیة السالفتان.

المثل الرابع والخمسون: من خصائص المنافقین

اشارة

جاء فی الآیة الرابعة من سورة المنافقون: «وإذا رأیتَهُمْ تُعجِبُکَ أجسَامُهُمْ وإنْ یَقولُوا تَسْمَعْ لِقَولِهِمْ کَأَنَّهُم خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ یَحْسَبُونَ کُلَّ صَیحةٍ عَلَیْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أنَّی یُؤفَکُونَ».

تصویر البحث

بما أنَّ المنافقین أخطر أعداء الاسلام کان من المفروض التعریف بهم والکشف عن واقعهم، من هنا وردت أوصافهم فی آیات مختلفة، منها الآیة المزبورة، التی أشارت إلی ثلاثٍ من خصائصهم، التی تکشف عن واقعهم وزیف ظاهرهم للجمیع.

أوصاف المنافقین

من الضروری التعرّف علی أوصاف المنافقین ذوی الوجهین، لغرض مواجهتهم، ومن هذا المنطلق بتّ اللَّه بالتشهیر بهم وتعریفهم فی کثیر من الآیات. وفی سورة المنافقون أشار إلی عشرة من أوصافهم «۱»، ثلاثة منها فی آیة المثل. امثال القران، ص: ۴۸۰ ونحن نبت بدراسة هذه الأوصاف الثلاثة، أملًا بالتعرُّف علی المنافقین من خلال هذه العلائم الثلاثة، کما یتعرَّف الطبیب الخبیر علی المرض المزمن والخطر من خلال علائمه.

الشرح والتفسیر

۱- «وإذا رأیْتَهُمْ تُعجِبُکَ أجسامُهُمْ». صفة المنافقین الاولی هی أن لهم ظاهراً جذّاباً وخادعاً، أمَّا باطنهم فضعیف، ولا یتمتَّعون بشخصیة ثابتة، ولهذا یهتمّون بظاهرهم کثیراً، فیبدون بظاهر قوی وجمیل ومنتظم، لکن حقیقتهم شیء آخر. أیها النبی، إذا نظرت لهم فلا یعجبک ظاهرهم ولا یخدعک، وهم عکس المؤمنین ذوی الظاهر البسیط وشخصیات ثابتة وواقعیة. روی بعض المفسرین فی صفة رئیس المنافقین (عبداللَّه بن ابی): «کان عبداللَّه بن ابی رجلًا جسیماً صبیحاً فصیحاً ذلق اللسان، وقوم من المنافقین فی مثل صفته، وهم رؤساء المدینة، وکانوا یحضرون مجلس رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فیستندون فیه، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن، فکان النبی صلی الله علیه و آله ومن حضر یعجبون بهیاکلهم ویسمعون إلی کلامهم» «۱». ۲- «وإن یَقولوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ کَأنَّهم خُشُبٌ مسندة». الصفة الثانیة للمنافقین هی کونهم یشبهون الاخشاب التی تستند أحدها علی الاخری (الخُشب) جمع (خَشَب)، و (مسنَّدة) تعنی الیابسة التی لا تعتمد علی نفسها بل تحتاج لشیءٍ آخر تعتمد علیه «۲». امثال القران، ص: ۴۸۱ یستبطن هذا التشبیه نکات مختلفة، وبتعبیر آخر: شُبِّه المنافقون بالخشب المسندة لوجوه مختلفة: الف: کما أنَّ الخشب المسنَّدة لا أصل ولا جذور لها، کذلک المنافقون فلا أصل ولا أساس لهم، وهم بحاجة إلی الآخرین دائماً ولا یمکنهم الاعتماد علی أنفسهم، فلا استقلالیة لهم بل هم بحاجة إلی الأجانب والکفار، فیرتبطون بهم، وتاریخ صدر الاسلام یؤیِّد هذا. وقد تقدَّمت قصة مسجد ضرار فی المثل الثامن عشر، وشاهدتم کیف تعاون أبو عامر النصرانی مع الرومیین واعتمد علیهم وبنی مسجد ضرار فی خطة للتآمر علی المسلمین. وبهذا تتّضح إحدی صفات المنافقین ألا وهی الارتباط بالأجانب والاعتماد علیهم لإیجاد البلبلة والاضطراب فی البلاد الاسلامیة. باء: الخصیصة الاخری للخشب المسنَّدة أنَّه لا فائدة فیها غیر استخدامها کوقود وإحراقها لهذا الغرض، فلا تثمر شیئاً ولا تنمو فیها الأوراق ولا توجد ظلًا، کما هو حال المنافقین، فلا فائدة فیهم. جیم: الخشبة الیابسة لا تقبل الانعطاف، کما هو حال المنافق، فلا یمکن تغییره؛ لتعصّبه ولجاجته، حتی لو أقمت له أفضل البراهین والأدلَّة وأوضحها، فلا یلینوا أمامها أبداً، عکس ما علیه المؤمنون من اللین والانعطاف، وهذا هو الذی یسبب اقتحامهم الأعاصیر. التفتوا إلی هذه الروایة الجمیلة التی وردت عن الرسول صلی الله علیه و آله: «مَثَلُ المؤمن کَمَثَلِ الزرْع، لا

تزال الرياح تفيؤه ولا يزال المؤمن يُصيبه بلاءٌ، ومثلُ المنافق مثل الشجرة الأرزة لا تهتز حتى تُستحصد» «۱». والحديث يشير إلى قابلية الانعطاف التى يتمتع بها المؤمن ولا يتمتع بها المنافق، فالمؤمن كالزرع الـذى تحنيه الرياح ثم يرجع إلى ما كان عليه، أمَّا المنافق فمثل شجرة الصنوبر ذات القامة المستقيمة التى لا تقبل الانحناء ممَّا يجعلها تنكسر بالرياح الشديدة. امثال القران، ص: ۴۸۲ خلاصة ما تقدم أن المنافق ذا الوجهين لا قابلية له على الانعطاف، وبمثابة الخشبة المسندة التى تستند على غيرها ولا أساس لها ولا فائدة ولا ثمرة. ۳- «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَة عَلَيْهِمْ». الصفة الثالثة للمنافقين هى أنهم يسيئون الظن، ويحسبون كل صيحة وضوضاء ضدّهم، فهم مصاديق للمثل المعروف (الخائن خائف) «۱». السارق يتلقَّى كل نظرة تُلقى عليه نظرة ذات معنى ويقول فى نفسه: أخاف أنه علم بسرقتى، أو أخاف أن يفشى سرقتى، أو أخاف أن يكون شرطياً يعقبنى، وما شابه ذلك من الأوهام والتصوّرات، هذا مع أنه من المحتمل أن يكون الناظر لم يرَ السارق من ذى قبل، لكن طبيعة الخائن أنه يشعر بالخوف والاضطراب دائماً، عكس الانسان الـذى لم يتلوّث بالخيانة وصحيفة أعماله طاهرة فلاـ يخاف الحساب والتحقيق، ولا ينتابه الخوف والاضطراب ولو نظرته آلاف العيون، ولو كان فى مركز الشرطة فلا يخاف شيئاً، بل سوف يشعر بالاطمئنان الأكثر عندما يجد نفسه جنب قوى الأمن. وخلاصة الكلام هنا أن سوء الظن «۲» من صفات المنافق. «هُمُ العدو فَاحْذَرْهُمْ». مع الأخذ بنظر الاعتبار صفات المنافقين السابقة فهم أعداء وليسوا أنصاراً، بل هم الأعداء الأصليون وإن كان لكم أعداء آخرون، لكن خطرهم أقل من خطر المنافقين، ولهذا عليكم الحذر من المنافقين أكثر من غيرهم. الجملة الأخيرة انعكست فى كلام الرسول صلى الله عليه و آله بنحو آخر، حيث قال: «إنّى لاـ أتخوّف على امتى مؤمناً ولا مشركاً، أمَّا المؤمن فيحجزُهُ إيمانه، وأمَّا المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوّف عليكم منافقاً عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون» «۳». امثال القران، ص: ۴۸۳ وهذا الحديث يكشف عن سبب اعتبار الآية المنافقين الأعداء الأصليين بصراحة. «قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ». بعد ما بيّن اللَّه الصفات الثلاث للمنافقين يشير إلى خطرهم البالغ ويعتبرهم أعدا المسلمين الأصليين يدعو عليهم بأن يقاتلهم اللَّه مثلما انحرفوا وضلوا وأضلّوا الآخرين «۱». إذن، ينبغى التعرُّف على المنافقين من خلال ما تقدَّمت الاشارة إليه من صفات وعلائم، وبعد التعرُّف عليهم ينبغى الاجتناب عنهم، وبخاصة فى زماننا الحاضر، حيث أصبح خطرهم أكبر ونشاطاتهم أوسع وأكثر تعقيداً.

خطاب الآية

معيار النفاق

إذا وجدت ضميرك لا يهتز بسماع آيات القرآن. وإذا وجدت نفسك لا تخطو نحو الأعمال الصالحة ولا تبتعد عن الأعمال السيئة عندما تقرأ آيات الثواب والعقاب الإلهى. وإذا وجدت نفسك لا تتأثر بكلام الحق وتستمر فى طريق الباطل فاعلم أن فيك رساً من النفاق قد نفذ فى قلبك جعلك تخطو فى طريق المنافقين. نعم، إنَّ المنافقين كالخشب المسنَّدة وكل من تشبَّه بهم صُنِّف معهم.

مباحث تكميلية

۱- مَن هو المنافق؟

للمنافقين وجهان وشخصيتان، ظاهرهم شىء وباطنهم شىء آخر، فى الظاهر يـدَّعون امثال القران، ص: ۴۸۴ الإيمان ويصنّفون مع المؤمنين ويؤدون العبادات، لكن قلوبهم تخلو من الإيمان أو فيها إيمان سقيم «۱». وقد ورد هذا المعنى فى الروايات الاسلامية، فقد ورد فى واحدة منها أن اللَّه خاطب عيسى بن مريم عليه السلام بالخطاب التالى: «يا عيسى ليكن لسانك فى السرِّ والعلانية لساناً واحداً وكذلك قلبك، إنّى احذّرك نفسك، وكفى بى خبيراً، لا يصلح لسانان فى فمٍ واحدٍ ولا سيفان فى غَمَدٍ واحد ولاقلبان فى صدرٍ واحدٍ» «۲». على أى حال، النفاق هو أن يكون للانسان وجهان وظاهر يضاد الباطن، ولا يمكن للانسان أن يتطهّر منه بالكامل إلَّاأنْ

یتّحد ظاهره مع باطنه ویتطابقا. اللهم، أعنّا علی هذا الأمر الخطر.

۲- أخطار النفاق

خطر المافقین فی کل مجتمع أشد من أی خطر آخر، وخطر الأعداء الذین یعلنون الحرب أقل بکثیر من خطر المنافقین ذوی الوجهین؛ لأن الانسان عندما یتعرَّف علی أعدائه یستعد لمواجهتهم ویتّخذ الإجراءات اللازمة ضدهم، أمّا الأعداء الذین تقمّصوا الصداقة فإنَّهم یباغتون الانسان ویهجمون علیه قبل أن یستعد للمواجهة. وهذا هو سبب کون خطر المنافقین أکثر وأشد من غیرهم من الأعداء. وإذا راجعنا تاریخ امثال القران، ص: ۴۸۵ الاسلام وجدنا المنافقین کانوا سبباً لأکثر الضربات والانتکاسات، وقد تحمَّل الاسلام الکثیر بسببهم، ولو جمعنا فی کتابٍ مؤامرات المنافقین وما افتعلوه من مشاکل ومصائب للمسلمین أصبح کتاباً تربویاً جیداً. نشیر هنا إلی بعض النماذج. الف: قصة الإفک یستفاد من مجموع الآیات ۱۱- ۱۶ من سورة النور أن امرأة بریئة ذات شأن وجاه اجتماعی تعرَّضت لتهمة تمسُّ بعرضها من قبل أحد المنافقین، وکان الغرض من هذه التهمة تشویه سمعة الرسول وتدنیس عرضه فی المجتمع. حاول بعض المنافقین المتظاهرین بالاسلام والایمان لاستغلال الحادث والتصیّد بالماء العکر وکسب بعض النتائج لصالحهم، فنزلت الآیات المزبورة وأفشت مؤامرتهم «۱». باء: إیجاد العقبات فی الحدیبیة قرر الرسول صلی الله علیه و آله بصحبة المسلمین فی السنة السادسة من الهجرة أن یقصدوا مکة للإتیان بالعمرة «۲». ثمّ أطلع الرسول المسلمین أنَّه رأی مناماً یدخل فیه بصحبة المسلمین المسجد الحرام ومکة، والجمیع منهمک بالاتیان بمراسم العمرة. تحرک المسلمون باتجاه مکة وبعد ما بلغو ذو الحلیفة «۳» أحرموا فیها، ثمّ تحرّکوا مصطحبین معهم نوقاً لأجل تضحیتها «۴». وبما أن الرسول لم یقصد من رحلته هذه غیر العبادة العظمی امثال القران، ص: ۴۸۶ (الاتیان بالعمرة) لم یحمل معه من الاسلحة إلّاسیفاً، وهو سلاح کل مسافر، وکذا باقی المسلمین، حتی بلغوا أرض الحدیبیة» .بعدما اطَّلع زعماء قریش علی حرکة المسلمین باتجاه مکة أغلقوا الطریق أمامهم لیمنعوهم من الاتیان بالعمرة، وبعد حوادث مختلفة حصلت آنذاک انتهی الأمر إلی انعقاد معاهدة صلح بین قریش والمسلمین تُدعی صلح الحدیبیة. أثناء تدوین المعاهدة خالف ممثل قریش (سهیل بن عمرو) کتابه (بسم اللَّه الرحمن الرحیم) و (محمّد رسول اللَّه) فی بدایة العقد، ممّا أثار حفیظة المنافقین، واتخاذ ذلک ذریعة لایجاد بلبلة، فأخذوا یقولون مثلًا: أیُّ منام أنت رأیته لنا؟! أی زیارة وعدتها إیّانا؟! یا له من امتیاز منحته للکفّار! وقد تعمّقت الاعتراضات إلی أن بلغت کلام اللَّه، حیث عدَّ صلح الحدیبیة فتحاً مبیناً «۲»، فقال بعضهم: أیُّ فتح هذا، حیث صُددنا عن زیارة بیت اللَّه وصُدَّ هدینا؟ وقال بعض آخر: لم نشک برسالة الرسول یوماً مثلما شککنا به الیوم. هذا مع أن صلح الحدیبیة أحد أکبر انتصارات المسلمین وقد کان له آثار إیجابیة جمَّة «۳». جیم: فشل محاولة اغتیال الرسول صلی الله علیه و آله «اثنی عشر رجلًا وقفوا علی العقبة لیفتکوا برسول اللَّه صلی الله علیه و آله عند رجوعه من تبوک، فأخبر جبرئیل علیه السلام رسول اللَّه بذلک، وأمره أن یرسل إلیهم ویضرب وجوه رواحلهم، وعمّار کان یقود دابة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وحذیفة یسوقها، فقال لحذیفة: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتی نحاهم ...» «۴»، وبذلک فشلت محاولتهم لاغتیال الرسول صلی الله علیه و آله. دال: اجتماع المنافقین فی السقیفة خبر موت الرسول صلی الله علیه و آله أفجع قلوب المسلمین، وقبل أن یتم تغسیل وتکفین ودفن امثال القران، ص: ۴۸۷ الرسول اجتمع عدَّة من المغرّر بهم والمنافقین فی سقیفة بنی ساعدة تلبیة لنداء الشیطان، فحاکوا مؤامرة خطرة ضد الاسلام، ورغم إیصاء الرسول صلی الله علیه و آله بعلی علیه السلام کخلیفة بعده إلّاأنّهم توفّقوا لابعاده عن الخلافة، وبذلک أوردوا أکبر ضربة قاصمة علی الاسلام «۱». اللهُمَّ العن أوَّل ظالم ظلم حقّ محمّد وآل محمّد وآخر تابع له علی ذلک. من الصعب إحصاء کل ما أوجده المنافقون من عقبات ومؤامرات وضربات قاصمة ضد الاسلام، فهؤلاء هم الذین جاءوا بمعاویة الذی ارتکب جرائم بشعة، وهؤلاء هم الذین جعلوا من الامام علی علیه السلام والامام الحسن علیه السلام قعیدی البیت، وهؤلاء هم الذین خلقوا حادثة کربلاء المفجعة، التی ذبح فیها أفضل البشریة و ... ملخص الکلام أن المنافقین أخطر الأعداء لا للمجتمع الاسلامی فحسب بل لکلِّ المجتمعات، ولذلک هاجمتهم الآیات القرآنیة بأعنف ما

یمکن، وکشفت عن حقیقتهم المزیّفة فی سورٍ مختلفة کسورة المنافقون والتوبة والبقرة والاحزاب. اللهم، احفظ الاسلام والمسلمین من شر المنافقین وافضحهم واخزهم. امثال القران، ص: ۴۸۹

المثل الخامس والخمسون: الضوابط لا العلاقات

اشارة

یقول اللّه تعالی فی الآیة ۱۰ من سورة التحریم: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِینَ کَفَروا امْرأةَ نُوحٍ وَامرأةَ لُوطٍ کَانَتَا تَحْتَ عَبْدَیْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَیْنِ فَخَانَتاهُما فَلَمْ یُغنیا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَیْئاً وَقِیلَ ادْخُلا النَّارُ مَعَ الدَّاخِلِینَ».

تصویر البحث

لاشکَّ أن لکلِّ شیء معیاراً، فما معیار نجاة الانسان فی الآخرة؟ هل ملاک النجاة العلاقة والانتساب إلی الرسول صلی الله علیه و آله والأئمة علیهم السلام وأولیاء الدین أم أنَّ الملاک الأساسی هو الإیمان والتقوی والعمل الصالح؟ اختصَّت هذه الآیة بالحدیث عن هذا الموضوع.

دراسة إجمالیة لسورة التحریم

لأجل اتّضاح العلاقة بین آیة المثل والسورة ککل ینبغی إلقاء نظرة إجمالیة علی جمیع آیات هذه السورة. السورة مدنیة، ولها اثنی عشرة آیة، والذی یبدو من اسمها أنها تتحدّث عن شیء حرَّمة الرسول علی نفسه، کما تشیر إلی الملابسات التی أدَّت إلی هذا التحریم. یدعو اللّه الرسول فی هذه السورة إلی نکث ما حرَّمه علی نفسه، کما هدَّد المتواطئون بعذاب إلهی شدید إذا لم یتوبوا، ثمّ بیَّن مطلباً، وهو أن العلاقة والقرابة لوحدها دون الأعمال الصالحة امثال القران، ص: ۴۹۰ لا- تنجی الانسان، فلا- ینبغی له أن یعتمد علیها، ثمّ یضرب مثلین جمیلین فی أمرأة نوح علیه السلام وامرأة لوط علیه السلام اللتین لم ینفعهما قرابتهما بالرسولین المذکورین؛ وذلک لأنهما لم یعملا صالحاً، فکان مصیرهما جهنم کباقی من دخلها من الناس.

قصة التحریم

وردت أقوال متباینة فی قصة التحریم، أنسبها ما یأتی: «إنَّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله کان یذهب أحیاناً إلی زوجته (زینب بنت جحش) فتبقیه فی بیتها حتی تأتی إلیه بعسل کانت قد هیّأته له، ولکن لمّا سمعت عائشة بذلک شقّ علیها الأمر، ولذا قالت: إنَّها قد اتفقت مع حفصة (إحدی أزواج الرسول) علی أن یسألا الرسول بمجرّد أن یقترب من أیٍّ منهما بأنَّه هل تناول صمغ المغافیر «۱»، علما أن الرسول کان یصرّ علی أن تکون رائحته دائماً «۲». وفعلًا سألت حفصة الرسول صلی الله علیه و آله هذا السؤال یوماً وَرَدَّ الرسول بأنَّه لم یتناول صمغ المغافیر ولکنَّه تناول عسلًا عند زینب بنت جحش، ولهذا أقسم بأنَّه سوف لن یتناول ذلک العسل مرة اخری خوفاً من أن تکون زنابیر العسل هذا قد تغذت علی شجر صمغ المغافیر وحذرها أن تنقل ذلک إلی أحدٍ لکی لا یشیع بین الناس أن الرسول قد حرَّم علی نفسه طعاماً حلالًا فیقتدون بالرسول ویحرمونه أو ما یشبهه علی أنفسهم، أو خوفاً من أن تسمع زینب وینکسر قلبها وتتألّم لذلک. لکنها أفشت السرَّ فتبیَّن أخیراً أن القصة کانت مدروسة ومعدَّة، فتألّم الرسول صلی الله علیه و آله لذلک کثیراً فنزلت علیه الآیات السابقة لتوضیح الأمر وتنهی من أن یتکرَّر ذلک مرة اخری فی بیت رسول اللّه صلی الله علیه و آله» «۳». طبقاً لهذه الروایة فإنَّ عائشة وحفصة ارتکبتا ذنوباً ثلاثة: ۱- حسدهما زینب بنت جحش لکثرة حب الرسول لها. امثال القران، ص: ۴۹۱ ۲- کذبهما علی

الرسول بأن فيه رائحة كريهة. ۳- إفشاء سر الرسول. وهذه الذنوب ثلاثتها من الكبائر.

الشرح والتفسير

بعد اتّضاح العلاقة بين آية المثل وباقی آيات السورة نبتُّ بشـرح آية المثل. «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للذِينَ كَفَروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ». رغم أن المثلين وردا فی امرأتين محـدّدتين إلّاأنَّ اسـتخدام (الذين) يفيد التعميم والشـمول للجميع. رغم أنَّ صـلة كانت تربط بين نوح عليه السـلام وامرأته وكذا بين لوط عليه السـلام وامرأته إلّاأن هذه القرابة والصـلة ما نفعتهما؛ لأنه لم يكن لهما أعمال صالحة. يعتقد بعض المفسـرين أن اسم امرأة نوح (والهـة) وامرأة لوط (والعـة) «۱»، لكن البعض عكس ذلـك واعتـبر اسم امرأة نـوح (والعـة) وامرأة لوط (والهة) أو (واهلة) «۲». «كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُما». المراد من العبدين الصالحين هو نوح ولوط فلم يستفيدا من نعمـة تواجـد هـذين العبدين إلى جنبهما ولم يستضيئا بهما الدرب ليهتديا، بل منعا الهداية عن الآخرين، خانتا زوجاهما. ينبغی التذكر بأن المراد من الخيانة هنا ليس الانحراف عن جادة العفة، فإن ذلك لم يحصل لأیٍّ من زوجات الأنبياء، وقد ورد عن الرسول صلی الله عليه و آله قوله: «ما بَغَتْ امرأة نبیٍّ قط» «۳»، وهذا الحديث يدلُّ على أن الخيانة لم تكن خيانة زوجية جنسـية، بل كانت من نوع آخر، وهو إفشاء سـر الزوج. امرأة نوح كانت تفشـی أخبار من آمنوا سـراً بنوح وتبوح بأسـرارهم للوثنيين، ممَّا يؤدی امثال القران، ص: ۴۹۲ إلى إيذاء النبی والموحّدين. أمَّا امرأة لوط فعندما شاهدت رسل اللَّه عند لوط خرجت إلى الناس تخبرهم بمجیء شـباب صبيحين إلى لوط، سعياً منها لإثارتهم جنسياً، وكما هو المعروف عن قوم لوط فانهم كانوا يمارسون اللواط. على أی حال، خيانة هاتين المرأتين فی إفشائهمـا اسـرار زوجيهما، وافتعال مشاكل لهما من خلال ذلك. ومن الصـعب بمكان احتمال زوجةٍ تفشـی أسـرار زوجها وتوجـد له المشاكل وتوتّر البيت وتعكّر صـفوه، رغم أن المفروض بها أن تكون سـبباً فی سـكينة البيت والعائلة «۱». «فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَـيئاً وقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الـدّاخِلِينَ». مقياس نجاة الانسان- كما تقـدّم- هو الأعمال الصالحـة لا العلقة الزوجية والعائلية وما شابه، لذلك لم ينفع هـاتين المرأتين علقتهمـا الزوجيـة باثنين من الأنبياء، فـدخلا جهنم كما يـدخل باقی الناس ممَّن لا علاقـة له بنبی. وهـذا لأجل أن يفهم الجميع بأنَّ الأعمال الصالحة هی الوحيدة التی يمكنها أن تنجی الانسان من العذاب الإلهی وتسبب له الفلاح والسعادة.

خطاب الآية

ملاک النجاة هو العمل الصالح

كما تقـدّم فإن الملاک الأساسـی والوحيد لإنقاذ الانسان يوم القيامة هو أعمال الانسان الصالحة لا العلقة العائلية والقبلية، ولا ينجو من ذلك اليوم من لم يكن له أعمال صالحـة ولو كان زوجة رسول. زوجة شـيخ الأنبياء نوح وابنه نموذجان كاملان لهذا المطلب، وعندما اسـتعدَّ نوح لركوب امثال القران، ص: ۴۹۳ السـفينة وشاهـد ابنه موشـكاً على الغرق طلب من اللَّه الطلبة التالية: «رَبِّ إنَّ ابنِی مِنْ أَهْلِی وإنَّ وَعـدَكَ الحَقُّ وَأنْتَ أحْكَمُ الحَاكِمينَ» «۱». وهو يشـير بالوعد إلى ما ورد ذكره فی الآية ۴۰ من سورة هود، حيث وعـد اللَّه نوحاً أن يحمل أهله ومعه ويركبهم السفينة. أجاب اللَّه نوحاً فی الآية ۴۶ من سورة هود، وأشار فيها إلى أنَّه لا تأثير للعلقة والقرابة النسبية فی هـذا الموضوع، إذ ورد هنـاك: «قَالَ يـا نُوحُ إنَّه لَيْسَ مِنْ أهْلِـكَ إنَّهُ عَمَـلٌ غَيرُ صَالـح فَلاـ تَسْألنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ إنّی أَعِظُكَ أنْ تكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ». نعم، العلقة لا تؤثر ولو كانت قوية بدرجة النبوّة، فهی غير مفيدة ما دام الانسان غير صالح، ولهذا كانت عاقبة ابن نوح، كبـاقی الكفار، الغرق. فی قصـة الامام السـجاد عليه السـلام مع طاوس الفقيه عبرة، نقرأها هنا: يقول طاووس الفقيه: رأيته يطوف من العشـاء إلى السـحر ويتعبّـد، فلمَّا لم يرَ أحـداً رمق السـماء بطرفه وقـال: «إلهی غـارت نجـوم سـماواتک، وهجعت عيـون أنامـک، وأبوابک مفتّحات للسائلين، جئتک لتغفر لی وترحمنی وترينی وجه جـدّی محمّـد صـلی الله عليه و آله فی عرصات القيامـة»، ثم بكى

وقال: «وعزّتک وجلالک ما أردت بمعصیتی مخالفتک، وما عصیتک إذ عصیتک وأنا بک شاک، ولا بنکالک جاهل، ولا لعقوبتک متعرّض، ولکن سوّلت لی نفسی وأعاننی علی ذلک سترک المرخی به علیَّ ...» ثم بکی وقال: «سبحانک تُعصی کأنَّک لا ـ تری وتحلم کأنَّک لم تعصَ، تتودَّد إلی خلقک بحسن الصنیع کأنَّ بک الحاجة إلیهم، وأنت یا سیدی الغنی عنهم» ثم خرَّ إلی الأرض ساجداً. قال: فدنوت منه وشلت برأسه ووضعته علی رکبتی وبکیت حتی جرت دموعی علی خدّه، فاستوی جالساً وقال: «من الذی أشغلنی عن ذکر ربّی»؟ فقلت: أنا طاووس یا ابن رسول اللَّه، ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن یلزمنا أن نفعل مثل هذا، امثال القران، ص: ۴۹۴ ونحن عاصون جانون، أبوک الحسین بن علی وامک فاطمة الزهراء، وجدّک رسول اللَّه صلی الله علیه و آله؟ قال: فالتفت إلیَّ وقال: «هیهات هیهات یا طاووس دع عنی حدیث أبی وامّی وجدّی، خلق اللَّه الجنّة لمن أطاعه وأحسن، ولو کان عبداً حبشیاً، وخلق النار لمن عصاه ولو کان ولداً قرشیاً «۱»، أما سمعت قوله تعالی: «فَإِذَا نُفِخَ فی الصُّورِ فَلا أنسَابَ بَیْنَهُمْ یَومَئِذٍ وَلَا یَتَساءَلُونَ» «۲» واللَّه لا ینفعک غداً إلَّاتقدمة تقدّمها من عمل صالح» «۳». نعم، إذا لم یصطحب الانسان معه عملًا صالحاً یوم القیامة فلا ینفعه شیء ولا ینجیه؛ لأن القیامة- کما عبَّر عنها القرآن الکریم- عبارة عن یوم «لا یَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ إلَّامَنْ أتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیم» «۴». النتیجة هی أن الحسد والکذب وإفشاء أسرار الآخرین توجب بعداً عن اللَّه، والملاک الأساسی لانقاذ الانسان یوم القیامة هو الأعمال الصالحة لا القرابة السببیة أو النسبیة.

المثل السادس والخمسون: استقامة زوجة فرعون

اشارة

یقول اللَّه فی الآیة الحادیة عشر من سورة التحریم: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للَّذِینَ آمَنُوا امرأةَ فِرْعَوْنَ إذْ قَالَتْ رَبِّ ابنِ لی عِنْدَکَ بَیْتاً فِی الجَنَّةِ ونجِّنی مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ونَجِنی مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِینَ».

تصویر البحث

کما قلنا فإنَّ سورة التحریم تحدَّثت عن بعض المشاکل التی واجهها الرسول صلی الله علیه و آله وفیها تنویه ببعض الضغوط التی أوردها الأعداء علی الرسول صلی الله علیه و آله، فَإنَّ ضغوط الأعداء بلغت درجة ما بات یشعر إثرها بالأمان الکافی حتی فی منزله، وقد مضی ذکر مؤامرة اثنین من زوجاته، حیث أفشتا سرّه صلی الله علیه و آله. المؤامرة المزبورة وإفشاء سرّ الرسول صلی الله علیه و آله سببتا نزول سورة التحریم، ولأجل أن تفهم أزواج النبی وکذا باقی الناس بأن الأعمال الصالحة هی الوحیدة التی تنجی الانسان من عذاب یوم القیامة ضرب اللَّه مثلین فی هذا المجال، فی أحدهما تحدّث عن امرأتین خانتا نبیین من أنبیاء اللَّه، وفی الآخر تکلَّم عن امرأة مؤمنة لم تؤثّر علاقتها بطاغوت مثل فرعون علی درجتها عند اللَّه تأثیراً سلبیاً.

الشرح والتفسیر

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للَّذِینَ آمَنُوا امرأةَ فِرْعَوْنَ». کانت هذه المرأة تعیش فی جهاز ملک هو أحد أکبر الملوک ظلماً، ورغم أنها کانت تعیش فی ظل نِعم ورفاه عالی إلَّاأنَّها وجدت نفسها فی مفترق طریقین، هما: الدنیا والآخرة، فإمَّا أن تختار العیش فی دنیا سعیدة مرفّهة، وإمَّا العیش بقرب اللَّه ودخول الجنة. اختارت القرب الإلهی ورجحته علی الحیاة الدنیا، واللَّه جعلها فی أفضل الجنان عنده، وعَدَّ حیاتها نموذجاً ومثلًا لکلِّ النساء بل حتی الرجال. رغم أنَّ آسیة بنت مزاحم کانت زوجة فرعون الظالم وقریبة منه إلَّا أنها اختارت ضابطة الإیمان باللَّه، وکونها زوجة جبار کفرعون لم یثنها عن اتباع الحق، ولم یجعل منها أمرأة تعیسة، کما لم یؤثّر القرب بالعباد

الصالحین فی زوجتی نوح علیه السلام ولوط علیه السلام، ولم ینقذهما من عذاب یوم القیامة، بل إحداهما غرقت کابنها، والاخری دفنت تحت تلٍّ من الأحجار الإلهیة؛ وهذا کله لأجل أن الانتساب والعلاقة لا دور لهما عند اللّه ولا یترجحان علی الضوابط، فهی الحاکمة فی جهاز الحکمة الإلهیة. «إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابنِ لی عِنْدَکَ بَیْتاً فِی الجَنَّةِ ونجّنی مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ونجّنی مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِینَ». حیاة آسیة بعد إیمانها بربّ موسی اسوة وقدوة فی کل لحظاتها، وهذه الآیة تشیر إلی بعضٍ من تلک اللحظات التی عاشتها تلک المرأة العظیمة، وهی لحظات کونها ترزخ تحت أشدّ الضغوط ومختلف أسالیب التعذیب، فضرب اللّه مثلًا بهذه اللحظات. أصبحت آسیة اسطورة فی الصبر والمقاومة، وفی أحلک اللحظات وأشدها رفعت یدیها إلی السماء طالبة من اللّه تعالی ثلاث طلبات: الاولی «رَبِّ ابنِ لی عِنْدَکَ بَیْتاً فی الجنَّة». کان القرب إلی اللّه تعالی یشکّل أول طلبة طلبتها هذه المرأة، وهو شیء أرفع من الجنة، ولا یمکن قیاسه بالجنة. امثال القران، ص: ۴۹۷ وقد استُخدم هذا التعبیر فی حقّ الشهداء کذلک «عِنْدَ ربِّهِمْ یُرْزَقُونَ» «۱» ، وآسیة علی عتبة الاستشهاد طلبت شیئاً هو جدیر بالشهداء. الثانیة: «ونجّنی مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ». وهذه الطلبة تکشف عن أنَّ الذی کان یؤذی آسیة لیس التعذیب والضغوط؛ لأنها تبدو لا شیء أمام رضا اللّه، بل الذی یؤذیها هو أعمال وأفکار وعقائد فرعون، فهی لا تحتمل هذه العقائد القاصرة، لذلک لا یحلو لها العیش بقرب فرعون، فدعت اللّه لانقاذها منه. فی اللحظات الأخیرة من العمر وتحت أشد الضغوط والآلام أعلنت آسیة عن استیائها من فرعون ومظالمه وجنایاته. الثالثة: «ونجّنی مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِینَ». الطلبة الأخیرة لهذه المرأة الصالحة هی النجاة من المجتمع الفاسد الذی تعیش فیه، أی لا أنها لا تنثنی للمجتمع الفاسد ولا تتأقلم معه بل تعتبر التأقلم معه والانصیاع له عاراً، ولهذا أعربت عن استیائها منه فی أعمالها وأقوالها. الجمل الثلاث التی شکّلت دعاء هذه المؤمنة والعارفة فی اللحظات الأخیرة من عمرها جمیلة ودقیقة ومحسوبة، وبإمکان هذه الجمل أن تنیر درب المؤمنین من الرجال والنساء، فهی تنفی ما یتمسک به البعض من ذریعة الضغط الذی یواجهه الانسان من قبل المجتمع أو الزوجة لترک طاعة اللّه ولالتزام التقوی

خطابات الآیة

۱- الاستقلال الفکری

لماذا آمنت آسیة بربِّ موسی رغم کونها تعیش فی قلب الشرک وإلی جنب فرعون؟ کیف استطاعت هذه المرأة الثوریة الصبورة أن تخرق الحجب جمیعها وتبلغ الدین الحق؟ امثال القران، ص: ۴۹۸ سرّ موفقیتها یکمن فی استقلالها الفکری، فما ترکت المسائل الهامشیة تؤثِّر سلباً علی فکرها وتحرفه أو تسلبه منها. آمنت آسیة وتنوّر قلبها عندما رأت معجزة موسی، حیث أسلم له سحرة فرعون وسیطر الاضطراب والخوف علی فرعون الذی کان یدّعی الربوبیة، وازداد إیمانها وشعلته النیّرة فی قلبها تدریجیاً بعد ما منعت من تأثیر المجتمع والعائلة علی فکرها ونفسها «۱».

۲- لماذا لم تستخدم آسیة التقیة؟

حقیقة التقیة هی تغییر شکل المواجهة، وتجب فیما إذا کان إظهار العقیدة یعرِّض الانسان للخطر دون فائدة، لکن لماذا لم تستخدم آسیة زوجة فرعون التقیة؛ حفظاً لنفسها وتغییراً لظاهر المواجهة؟ الجواب أولًا: التقیة تجری فیما إذا کان بإمکان الانسان أن یخفی عقیدته ویکتمها، لکن حبّ الانسان للّه بمثابة الشعلة التی تعلو ألسنتها لتظهر علی حرکات الانسان وسکناته حتی لو حاول إخفاءها. شعلة حب اللّه کانت قد اتقدت وارتفعت إلی درجة لا یمکن إخفاؤها بأی نحو من الأنحاء، وهذا هو الذی جعل من آسیة أن تعلن إیمانها وتصمد أمام المشاکل والعقبات. ثانیاً: قد یکون إظهار الایمان والشهادة فی هذا الطریق یعقبه فوائد أکثر من فوائد الحیاة وکتمان الایمان، وقد کان إظهار آسیة لإیمانها وانتشار خبرها وخبر تعذیبها وصمودها فی هذا الطریق حتی الشهادة من هذا القبیل.

مضافاً إلى أن هذه القضية بحدّ ذاتها تعدُّ وثيقة دامغة على حقانية موسى عليه السلام وبطلان دعاوى فرعون، وسبباً لطمأنة المؤمنين وتعزيز ثقتهم بأنفسهم، باعتبار أنها تكشف عن امكانية نفوذ الايمان قلوب الأعداء، وتهديدهم فى قعر دارهم. وهذا يسلب الذرائع التى قد يتمسك بها البعض لترك الايمان بالواحد الأحد. امثال القران، ص: ۴۹۹ وقد شهد التاريخ لعلماء أصبحوا شمعة أضاءت درب المؤمنين وزرعت الأمل فى قلوبهم إثر تركهم التقية.

۳- التعذيب عامل تكامل أو وسيلة قهر!

يتوسّل الجبابرة والظلمة بوسائل شتى للمنع عن الحقائق والخضوع لها، والتعذيب واحدة من تلك الوسائل. استخدم فرعون أقسى أنواع التعذيب فى حقِّ آسية لكى يثنيها ويثبط عزمها وإرادتها الحديدية ويردها عن اتِّخاذ دين الحق، ورغم كونها امرأة إلّاأنّها صمدت وقاومت وواجهت جميع حيل فرعون حتى آخر لحظات عمرها، عكس ما عليه ضعيفو الإيمان، حيث يستسلمون إثر أدنى نوع من التعذيب. من المسلَّم به أن لا وجود لجهاز ودنيا أعظم زخرفة وأكثر جبروتاً من جهاز فرعون، كما أنه لا تعذيب ولا اضطهاد أعظم ممَّا مارسه فرعون المجرم، لكن لا- زخرفة دنيا فرعون وجبروته أثنت آسية المؤمنة ولا- اضطهادة ولا- تعذيبه، بل قد جعلت من التعذيب- الذى هو وسيلة للقهر- وسيلة لتكاملها، وأفدت بنفسها فى طريق العشق الإلهى.

قصة إيمان آسية

ذهبت آسية ملكة مصر بصحبة فرعون إلى مشاهدة سحر السحرة ومعجزة موسى عليه السلام فى ساحة المدينة، فألقى السحرة حبالهم وعصيهم التى كانت مملوءة بالزئبق لتتحرّك إثر حرارة الشمس ولتبدو أفاعى حقاً «۱»، فرح الناس وأستأنسوا بعد ما حصل هذا وصفقوا للسحرة وأطلقوا شعارات لصالح فرعون. لكن لم يمضِ وقت طويل على الفرحة وعلى إغواء الناس حتى جاء الدور إلى موسى عليه السلام، فألقى بعصاه، امتثالًا لأمر اللَّه، فبدت حية كبيرة بلعت كل ما كان ألقاه السحرة من العصى والحبال وتحرّكت باتجاه فرعون. امثال القران، ص: ۵۰۰ عندئذٍ تبدَّل الموقف لصالح موسى عليه السلام، وتغيّرت الابتسامة والتصفيق والهلاهل إلى هموم واستياء وتعجّب، وخيَّم الرعب على فرعون والتعجّب على المشاهدين. ظنَّ فرعون أن هذه الأفعى ستبلعه، وبدا الاضطراب على وجهه واضحاً، وبخاصة بعد ما سقط التاج من على رأسه. أسلم السحرة جميعهم وسجدوا ولم تؤثر فيهم تهديدات فرعون ولم تثبط عزمهم على الايمان بربِّ موسى بعدما شاهدت آسية هذه اللقطات غرقت بالتفكير، وبعد مشوار انقدحت شعلة من الايمان فى قلبها ازدادت تدريجياً لتنير كل وجودها بل وحتى خارجه. أخذت آسية بمناجاة اللَّه فى الخلوة، وبادرت بالقيام بالأعمال الصالحة، وبعد ما شاهد فرعون آثار الايمان وحب اللَّه فى سلوكها سألها عن الحقيقة، فما استطاعت كتمان حبها المقدس وما استطاعت الكذب عليه فقالت الحقيقة له. غضب فرعون الجبار كثيراً وهدّدها، لكن تهديده لم يؤثّر فيها أدنى تأثير، وكما قال الصادق عليه السلام: «إن المؤمن أعزُّ من الجبل، إن الجبل يستقلُّ منه بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه» «۱» أى لا أنه لا ينثنى أمام الريح فحسب بل يغيّر اتجاهه. بدأت النصائح والملامات تمطر على آسية من كل مكان وبخاصة الأقرباء والأصدقاء، فكانوا يقولون لها: كيف يمكن لك أن تدبرى عن هذه النعم من الخدم والحشم والنعم التى تحيط بك كملكة لمصر؟! لكن جواب آسية لهذه الاعتراضات والملامات هو: أنّى لا أرفع يدى من الايمان باللَّه. ما كاد فرعون يحتمل نفوذ موسى فى بيته وفى قلب شريكة حياته، ولو استمرَّت آسية على إيمانها بإله موسى شكلت أزمة كبيرة لفرعون الطاغوت، لذلك أصدر حكماً بالقضاء عليها. أخذوا بآسية إلى صحراء قاحل وأوتدوا رجليها على الأرض ووضعوا صخرة ثقيلة على صدرها وحرموها من الماء والغذاء لعلَّها ترجع إلى دين فرعون أو تموت، فاختارت هذه البطلة الطريق الثانى. امثال القران، ص: ۵۰۱ عندما أوشكت أنفاسها على الانقضاء أخذت تدعو بالدعاء التالى: «رَبِّ ابنِ لى عِنْدَكَ بَيْتاً فِى الجَنَّةِ ونجّنى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ونجّنى مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ». استجاب اللَّه لدعاء آسية وجعلها قدوة للمؤمنين والمؤمنات، وصنّفها فى زمرة

أفضل نساء العالم، كما ورد ذلك على لسان الرسول صلى الله عليه و آله، إذ قال: «أفضل نساء أهل الجنّة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمّد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» «۱». ممّا يُلفت أن زوجة فرعون حقَّرت البلاط الفرعونى الطاغى بطلباتها الثلاث، حيث رجّحته على بيت فى الجنَّة، واعتبرته لا شىء فى قبال جوار رحمة اللّه، وبذلك أجابت من لامها على ترك كل هذه الامكانيات التى كانت فى متناول أيديها؛ باعتبارها ملكة مصر، وعلى توجهها إلى راعٍ مثل موسى وهذا درس وعبرة للجميع. إلهى، وفقنا لحفظ الايمان حتى آخر لحظات من عمرنا. ربّنا، نحن ضعفاء أمام الوساوس الشيطانية، فأعنَّا عليها. آمين رب العالمين. امثال القران، ص: ۵۰۳

المثل السابع والخمسون: مريم بنت عمران

اشارة

يقول اللّه تعالى فى الآية ۱۲ من سورة التحريم: «وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتى أحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنا فِيه مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ ربِّها وكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ».

تصوير البحث

ورد هذا المثل فى نفس الاتجاه الذى ورد فيه المثلان المتقدِّمان، وهو يؤكّد أن المعيار الوحيد للقرب إلى اللّه والحلول فى ضيافته هو العمل الصالح والالتزام بالضوابط الالهية، ولا تغنى الأواصر والعلاقات مهما كانت قوية. بالطبع، هناك اختلاف بين هذا المثل والمثلين المتقدّمين نشير إليه فيما بعد.

الشرح والتفسير

«وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتى أحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنا فِيه مِنْ رُوحِنا». الجانب الذى لاحظه القرآن فى التمثيل بآسية غير الجانب الذى لاحظه فى التمثيل بمريم بنت عمران، فقد لاحظ هناك جانب الصبر والاستقامة وهنا جانب العفّة والطهارة. بيَّن القرآن ثلاثة امتيازات لمريم: الأول: العفّة، فقد كانت مريم عفيفة بدرجة أنها كانت تخاف جبرئيل ويرتعش جسمها امثال القران، ص: ۵۰۴ عندما كان يأتيها متمثلًا بشاب جميل، وهى فى الخلوة تغسل جسمها وتقول له: «إنّى أعُوذُ بالرّحْمنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِياً» «۱» ، ورغم أن جبرئيل طمئنها وقال لها: «إنَّما أنَا رَسُولُ ربِّكَ لأهَبَ لكِ غُلاماً زكيّاً» «۲» إلّاأن الاضطراب لا زال يسيطر عليها، لذلك قالت له: «أنَّى يَكُونُ لِى غُلامٌ ولَمْ يَمْسَسْنى بَشَرٌ وَلَمْ أكُ بغيّاً» «۳»، وهذا كله يكشف عن مستوى عفتها وطهارتها. الثانى: «وَصَدَّقَتْ بكَلِمَاتِ رَبِّها وكُتُبِهِ». التسليم المطلق والخالص إلى اللّه والعبودية هى الامتياز الآخر الذى بيّنه القرآن لمريم. كانت مريم مصدِّقة لكتب اللّه السماوية ولكلمات ربّها. اختلف المفسِّرون فى أنّ (كتبه) عطف تفسيرى على (كلمات ربِّها) أم لا، وأنا أعتقد انعدام العطف التفسيرى أو قلة موارده فى القرآن. وعلى هذا يكون المراد من (كتبه) هو الكتب السماوية، أى التوراة والانجيل والقرآن، والمراد من (كلمات ربِّها) هو الأحاديث القدسية، أى كلام اللّه الذى لم يرد فى الكتب السماوية «۴». الثالث: «وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ». قنوت مريم هو امتيازها الثالث، وهو يعنى العبادة والطاعة، وبما أنه جاء مطلقاً ودون قيد كان يعنى أنها مفعمة بالطاعة والعبادة لربِّها ربّ العالمين. ليس من السهل أن يكون الانسان مطيعاً خالصاً دون قيد أو شرط، وكثير من أعمال عباد اللّه منتقاة، أى أنَّه ينتقى ما ينفعه ويذر ما لا ينفعه، بينما عباد اللّه المخلصون يعملون له مطلقاً مهما كانت آثار العمل ومردوداته. نتيجة العفَّة التى يُضرب بها المثل وكذا الايمان والاعتقاد بجميع ما أنزل اللّه والطاعة والعبادة الخالصة التى لا مثيل لها أن نفخ اللّه فيها من روحه ومنحها ولداً طاهراً كعيسى بن مريم عليه السلام.

فوارق هذا المثل مع المثلین المتقدِّمین

رغم أن الأمثال الثلاثة المذکورة فی سورة التحریم تابعت هدفاً واحداً، وهو بیان الملاک الأساسی لنجاة الانسان، أی الضوابط الالهیة لا ـ العلاقات والانتساب بأولیاء اللَّه، إلّاأنها متباینة فیما بینها. کان الحدیث فی المثل الاول عن امرأتین مشرکتین أدبرتا عن الضوابط الإلهیة فدخلتا جهنم مع الداخلین، ولم ینفعهما علاقتهما بزوجیهما اللذین کانا من کبار أنبیاء اللَّه، والمثل تحذیر لضعفاء الایمان الذین تمسکوا بالانتساب لبعض أولیاء اللَّه. فی المثل الثانی کان الحدیث عن أمرأة صبورة ومقاومة، قد تمسکت بالتعالیم الإلهیة وما أکترثت بشیء إلّابرضا اللَّه، ولم تنتسب إلی أحدٍ من أولیاء اللَّه، بل إلی طاغوت، فقد کانت زوجة فرعون الأکثر ظلماً فی البشریة، رغم ذلک لم تؤثّر هذه العلقة وهذا الانتساب فی عزمها وإرادتها، وکان قرارها التزام الإیمان باللَّه وحفظه حتی آخر لحظة من حیاتها. وهذا المثل یُضرب لمن عاش فی عائلة ومحیط غیر مساعد، تکثر فیه العقبات والموانع الموضوعة فی طریق الإیمان، فالاقتداء بها یعنی تجاوز الموانع والانتصار علیها وعدم التشبُّث بها کذرائع. الحدیث فی المثل الثالث عن إمرأة عفیفة تمتعت بامتیاز الانتساب وکذا العمل بالضوابط الإلهیة فی أعلی مستویاتها، ولهذا عُدَّت اسوة. مزید ایضاح: البیئة التی کانت تعیشها آسیة غیر مناسبة ولا تساعد علی انعقاد الإیمان من جمیع الجهات، فقد کانت تعیش منزلًا یُعدُّ بؤرة للکفر والشرک والعناد والوثنیة، وما کان یسمع فیه صوت التوحید أبداً، وکان زوجها یعدُّ نفسه ربّاً أعلی «۱» بل ربّ الأرباب، أمَّا البیئة التی کانت تعیشها مریم فکانت بیئة طاهرة ومفعمة بالإیمان، وقد کانت تسمع الترنمات الإلهیة وهی جنین فی بطن امِّها. ینقل القرآن المجید مناجاة ام مریم فی الآیة ۳۵ من سورة آل عمران کما یلی: امثال القران، ص: ۵۰۶ «رَبِّ إنّی نَذَرْتُ لَکَ مَا فِی بَطْنی مُحَرَّراً فتَقَبَّلْ مِنّی إنَّک أنْتَ السَّمیعُ العلیمُ». الطهارة حکمت بیئة مریم حتی بعد الولادة، فقد تکفّلها بعد وفاة أبیها نبی عصرها زکریا علیه السلام بعد حوادث لطیفة حصلت، ممَّا زاد فی قداستها وسمح لها دخول بیت المقدس والمسجد الأقصی لتقیم عباداتها هناک. وبلغ بها القرب إلی اللَّه أن کان اللَّه یبعث لها الغذاء، کما جاء ذلک فی الآیة ۳۷ من سورة آل عمران: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وکَفّلَها زَکَریّا کُلَّما دَخَل عَلَیْها المِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قَالَ یا مَرْیمُ أنَّی لَکِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ یَرزُقُ مَنْ یَشَاءُ بِغَیْرِ حِسَابٍ». خلاصة الکلام أن بیئة مریم عکس بیئة آسیة، رغم ذلک کلتاهما بلغتا الکمال. جاء فی روایة عن الرسول صلی الله علیه و آله: «کَمُلَ مِنَ الرِّجَال کثیرٌ ولم یکمل من النساء إلّاأربع، آسیة بنت مزاحم امرأة فرعون، ومریم بنت عمران، وخدیجة بنت خویلد، وفاطمة بنت محمد» «۱». مریم وآسیة عاشتا بیئتین متضادتین وبلغتا الکمال، وفی ذلک درس عظیم وعبرة للجمیع. وعلی الناس أن یفهموا أن المقیاس الأساس هو إرادة الانسان وعزمه، فلا یُعدُّ فساد العائلة أو المجتمع والبیئة وما شابه ذلک عذراً، فإنَّه یصعب بلوغ الهدف مع وجود هذه الامور لکن لا یستحیل، ویمکن الانتصار والتغلب علی الموانع من خلال التحلّی بإرادة صلبة؛ سعیاً لبلوغ القرب الالهی، کما فعلت آسیة، والارادة والعزم هما اللذان یلعبان الدور الاساسی فی هذا المجال.

خطابات الآیة

۱- العفّة رأس مال عظیم

آیة المثل أکّدت علی فضیلة العفة التی کانت مریم تتحلّی بها، وهی صفة لو تمتع به أحد (سواء کان رجلًا أو امرأة) حصل علی کل شیء ولو فقدها فقد کلّ شیء. لو تحلَّت المرأة بهذه امثال القران، ص: ۵۰۷ الصفة ما تلوّثت بالذنوب ولو توافرت جمیع العوامل والأرضیات المساعدة علی التلوّث، ولو لم یتمتّع بها شخص تلوّث بالذنوب ولو کان جنب أفضل البشریة. العفة تعدُّ النقطة التی تقابل عبادة الشهوة والبطن، ومن أهم فضائل الانسان، ویعتبرها علماء الأخلاق صفة بین عبادة الشهوة والاغتمام والکسل. وفی هذا المجال وردت مباحث مختلفة کثیرة فی القرآن والروایات «۱».

۲- الارادهٔ أساس العمل

لاشكَّ أن للعوامل والأرضيات، من قبيل: العائلهٔ والمجتمع والبيئهٔ والحكومهٔ وتوافر أرضيات الطاعهٔ أو المعصيهٔ، دوراً وتأثيراً على سعادهٔ الانسان وشقائه، لكنَّ أيّاً من العوامل المذكورهٔ لا يمكنها أن تقهر الانسان وتجبره على انتخاب الطريق الذى يخالف إرادته. نفهم من الأمثال الثلاثهٔ المتقدّمهٔ، وبخاصّهٔ مثل آسيهٔ ومريم عليه السلام، أن الارادهٔ تشكل أساس العمل أو العامل الأساسى لأفعال الانسان وأعماله واعتقاداته. أثبتت آسيهٔ أنَّ بامكان الانسان أن يحكِّم إرادته للايمان والتقوى فى أحلك الظروف وأتعسها، وأنه يتوفّق رغم هذه الظروف، كما عرفنا من سيرهٔ زوجهٔ نوح عليه السلام وزوجهٔ لوط عليه السلام أن عاقبهٔ الانسان لا تكون إلى خير حتى فى أفضل الظروف إذا لم يتمتع بإرادهٔ ثابتهٔ وقويهٔ. إذن، الآيات المتقدّمهٔ جواب داحض لمن يعتقد بالجبر، وتدلُّ بوضوح على أن السبب الاول والأخير للسعادهٔ والشقاء هو إرادهٔ الانسان.

المثل الثامن والخمسون: تصوير للمؤمنين والكافرين

اشارهٔ

يقول اللَّه تعالى فى الآيهٔ ۲۲ من سورهٔ الملك: «أَفَمَنْ يُمْشى مُكِباً عَلَى وجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِى سَوِيّاً عَلَى صِراطٍ مُسْتقيم».

تصوير البحث

الآيهٔ الكريمهٔ- بقرينهٔ ما سبقها وما لحقها- تصوير لحال المؤمنين والكافرين «۱»، ومثل جميل لهذه القافلهٔ التى تبدأ من نقطهٔ العدم ثم تلبس ثوب الوجود متّجههٔ نحو نقطهٔ اللا نهايهٔ، أى ذات اللَّه تعالى. وهى قافلهٔ قد ينحرف البعض عنها فى بدايهٔ حركتها أو فى وسطها، وبعض يستمر معها فى حركتها المستقيمهٔ حتى نهايهٔ شوطها.

نظرهٔ إلى الآيات التى سبقت المثل

الآيات الاولى لهذه السورهٔ تحدَّثت عن المبدأ وصفات اللَّه تعالى، ودعت الانسان للتفكير فى صفات اللَّه وآياته، ثم شرعت ببيان حال المؤمنين والكفار، وفى المرحلهٔ الثالثهٔ ذكَّرت ببعض آيات اللَّه، من قبيل آيهٔ خلق نظام الكون العجيب، وبخاصهٔ السماوات والكواكب والارض ونعمها وخلق الطيور. امثال القران، ص: ۵۱۰ ندرس هنا إحدى الآيات الإلهيهٔ ذات الصلهٔ بآيهٔ المثل. «أوَ لَمْ يَروْا إلى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ». خلق الطير وطيرانه بأشكال مختلفهٔ من آيات اللَّه المنَّان. وإذا دقّق الانسان فى خلق الطير وكيفيهٔ طيرانه العجيب أدرك قدرهٔ الخالق صاحب كل قدرهٔ فى الكون، وكل شىء يقابله هو كلا شىء، ويمكن الوثوق به والاتكاء عليه كافضل ما يمكن الاتكاء عليه. يمكن للانسان أن يكتسب القدرهٔ على الطيران بالتامُّل فى ظرافهٔ خلق الطير، ويمكنه كذلك اختراع الآليات التى يمكن فتح السماوات بها وبلوغ محالٍّ من السماوات لم تبلغها الطيور. كلَّما زاد العلماء من دراساتهم على الطيور كلّما استطاعوا أكثر على رفع نواقص الطائرات. وعلى سبيل المثال كانت عجلات الطائرات مفتوحهٔ عند الطيران ممَّا يسبب بعض المشاكل لها، وبعد تدقيق العلماء فى طيران الطير شاهدوا أنها تضمُّ رجليها عند الطيران، وهذا هو الذى دعاهم إلى صناعهٔ طائرات تضمُّ عجلاتها عند التحليق. وهذا ممَّا يدعو حقاً إلى تعظيم الخالق وتمجيده. «صَافَّات وَيقْبَضْنَ». من خلال هذين الجملتين القصيرتين بيّن اللَّه نوعين من طيران الطيور، ففى الجملهٔ الاولى بيَّن نوعاً مرموزاً من الطيران، وهو الطيران بصفّ الأجنحهٔ دون تحريكها، كما نلاحظ فى طيران بعض الطيور فى طبقات السماء المرتفعهٔ. والنوع الثانى هو الذى يتم من خلال تحريك الأجنحهٔ، كما هو ملحوظ فى أكثر الطيور. وهناك نوع ثالث من الطيران، وهو الذى يكون خليطاً من النوع الاول والثانى، فتقبض أجنحتها تارهٔ وتصفها تارهٔ اخرى. وهناك نوع رابع من الطيور، وهى

التی تحرّک أجنحتها لفترة ثم تضمّها وتتحرک فی الجو علی غرار الذی یرید الغطس، کما نلحظ ذلک فی العصافیر. والخلاصة أن جمیع الطیور تشترک فی أصل الطیران، لکن کلًا منها تطیر بنحو خاص یتناسب وفیزلوجیة جسمها والفضاء الذی تطیر فیه، والالتفات إلی نوعیات الطیران یزید من ایمان الشخص ویقینه بخالقه القادر. امثال القران، ص: ۵۱۱ «مَا یُمْسِکُهُنَّ إلَّاالرّحْمنُ إنَّه بکُلِّ شَیءٍ بَصِیرٌ». من الذی خلّص هذه الطیور من جاذبیة الأرض القویة التی تجذب حتی ذرات الغبار المتناهیة فی الصغر؟ ومن منعها من السقوط علی الأرض؟ یا لها من قدرة فائقة ساعدت هذه الطیور علی التحلیق والطیران کل یوم، متغلبة بذلک علی جاذبیة الارض؟! هناک بعض من الطیور المهاجرة التی تقطع بالطیران ۱۸۰۰۰ کیلو متراً فی السنة! من الذی أنقذها من جاذبیة الأرض؟ کیف یمکنها تهیئة الغذاء لنفسها فی سفراتها الطویلة؟ کیف أمکنها التعرّف علی الاتجاه الصحیح؟ «۱» هل هناک قدرة بإمکانها فعل ذلک غیر قدرة اللّه العالم والمحیط بکل شیء؟ مع الالتفات إلی ما تقدَّم من شرح مبسط للآیات التی سبقت آیة المثل، وبخاصة مسألة التأمّل فی خلق الطیور، نرجع إلی آیة المثل لنبتَّ بشرحها وتفسیرها.

الشرح والتفسیر

«أفَمَنْ یَمْشِی مُکِبّاً عَلَی وجْهِهِ أهْدَی . تقسَّم الحیوانات من حیث الحرکة والمشی إلی ثلاثة أقسام: الاول: مستقیمة القامة، وهی التی تمشی علی رجلین اثنین، مثل الانسان، الثانی: ذوات الأربع، وهی التی تمشی علی أربع، رجلین ویدین، الثالث: الزواحف، مثل الأفاعی. شبَّه اللّه الکفّار فی هذه الآیة بالزواحف التی تزحف علی بطنها. «أمَّنْ یَمْشی سَوِیّاً عَلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیم». کما شبّه المؤمنین بمستقیمی القامة الذین یمشون بنحو سوی وعلی طریق مستقیم. ومع هذا التشبیه کیف یمکن المقارنة بین من یمشی مستقیم القامة وسویاً وبین من یمشی زاحفاً علی بطنه؟ فمن هو أهدی منهما؟ امثال القران، ص: ۵۱۲ ترک اللّه الحکم والجواب علی المقارنة إلی مخاطبی القرآن، وحرّضهم علی معرفة الاختلاف بین الاثنین.

مشاکل حرکة الزواحف ومعایبها

للزحف مشاکل متعدّدة: الاولی تتحدّد عنده قدرة النظر، والأخطار تهدّده دائماً، ویکون عرضة للسقوط فی واد أو الانحراف عن الطریق؛ لأنه عاجز عن تحدید الأخطار وتشخیصها فی وقتها. الثانیة: سرعة الزحف قلیلة جداً، وقد تکون نسبتها إلی المشی العادی نسبة الواحد إلی العشرة. الثالثة: الزحف یتعب الانسان بسرعة، هذا علی فرض عدم مواجهة موانع فی الطریق وعدم انحرافه عنه وعدم سقوطه فی وادٍ والزاحف یتوقف عن الحرکة بسرعة؛ لکون الزحف متعباً جداً. إذن، الخطأ فی تحدید الخطر وعدم القدرة الکافیة للنظر وبطء الحرکة والتعب المفرط یعطل الزاحف عن الاستمرار فی الطریق، وتعدُّ تلک الامور من معایب الزحف ومشکلاته. أما الذی یمشی مستقیم القامة فقابلیته علی الرؤیة أکثر ویرصد الأخطار من بعید- وبخاصة أنَّ أکثر حواسه واقعة فی رأسه- ویحدّدها ویتّخذ القرار المناسب فی الوقت المناسب، ولا ینحرف عن الطریق، مضافاً إلی أنَّه یتمتع بالسرعة الکافیة ولا یتعب عاجلًا، فلا یتوقف. هل یتساوی هذان الاثنان؟ بالطبع لا، والذی یمشی مستقیم القامة أهدی لطریقه من الذی یمشی زاحفاً. المؤمن الذی یمشی سویاً ومستقیم القامة فی الصراط المستقیم ونور إیمانه یضیء له الدرب أهدی من الکافر الزاحف الذی لا نور له یضیء دربه ولا سرعة ولا قابلیة له لتحدید المخاطر ولا السیر لفترة طویلة. هذا مضافاً إلی أن الکافر الزاحف لا قدرة له علی إبصار آیات اللّه التی تقدَّمت الاشارة إلیها فی الآیات السابقة من السماوات والطیور وما شابه، أمَّا الذی یمشی سویاً فله القابلیة علی امثال القران، ص: ۵۱۳ إبصار آیات اللّه جیداً، فیتأمَّل فیها ویتدبّر، ویدرک بذلک عظمة اللّه وقدرته أکثر، فیخطو فی طریق الهدایة باستحکام واستقامة.

خطاب الآیة

الإيمان ينبوع المحاسن

تقدَّم أن الآيهٔ نزلت فى توصيف المؤمنين والكفّار، وهى ليست الوحيدهٔ التى وصفت الفريقين بل تقدمت آيات وكذلك روايات فى توصيفهما. لماذا كل هذا الحديث والتأكيد على الايمان وما يقابله، أى الكفر؟ الحقيقهٔ هى أن الايمان والتقوى مصدر الخيرات والبركات، وينبغى القول دون مبالغهٔ: كلّ شىء يتحقق فى ظل الايمان والتقوى

من هو المؤمن؟

إذا كان الايمان قلهٔ عاليهٔ وارتقاؤها يُعدُّ منشأً لجميع المحاسن وإذا كان ثوباً ثميناً فينبغى معرفهٔ من هو الجدير بهذا الثواب الثمين والصعود إلى هذه القلهٔ المليئهٔ بالافتخارات. وصف الرسول صلى الله عليه و آله المؤمن فى ثلاث جمل قصيرهٔ لكنَّها ذات معنى عميق، حيث قال: «المؤمن كيِّسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ» «۱»، ومن خلال هذه الصفات الثلاث يجتاز المخاطر، أمَّا غير المؤمن فكالزواحف لا يتمتع بفطنهٔ ولاـ كياسهٔ ولاـ حذر، ويقع فى المصيدهٔ ببساطهٔ، وانسان من هذا القبيل يظن نفسه كيّساً، وليس كذلك، وبذلك يتلف رأس ماله الأعظم، وهو عمره، ونهايته الهلاك دون جدوى

مراتب الايمان

كتاب الزرّاد: قال: قلت لأبى عبداللَّه عليه السلام: نخشى أن لا نكون مؤمنين. قال: «ولِمَ ذاک»؟ امثال القران، ص: ۵۱۴ قلت: وذلک أنا لا نجد فينا من يكون أخوه عنده آثر من درهمه وديناره، ونجد الدينار والدرهم آثر عندنا من أخ قد جمع بيننا وبينه موالاهٔ أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «كلَّا انكم مؤمنون ولكن لاـ تكملون إيمانكم حتى يخرج قائمنا، فعندها يجمع اللَّه أحلامكم فتكونوا مؤمنين كاملين، ولو لم يكن فى الأرض مؤمنون كاملون إذاً لرفعنا اللَّه إليه وأنكرتم الأرض وأنكرتم السماء، بل والذى نفسى بيده انّ فى الارض فى أطرافها مؤمنين ما قدر الدنيا كلها عندهم تعدل جناح بعوضهٔ» «۱». يتمنَّى الامام فى روايهٔ إدراک المؤمنين الذين تكامل الايمان عندهم وبلغوا القمهٔ فى الايمان، ويوصى من أدركهم أن يستفيض من نورهم، ودنيا الحرام عندهم لا تعدل أكثر من جناح بعوضهٔ. اللهمَّ وفقنا لطى مدارج الايمان حتى بلوغ قمهٔ جبله الشامخ. اللهمَّ ارزقنا كياسهٔ المؤمنين الحقيقيين وذكاءهم لكى يتسنَّى لنا رفع عقبات الرقى وبلوغ أعلى درجات الايمان.

المثل التاسع والخمسون: البخلاء

اشارهٔ

يقول اللَّه تعالى فى الآيات ۱۷- ۳۳ من سورهٔ القلم: «إنَّا بَلَوْنَاهُمْ كما بَلَوْنا أصحابَ الجَنَّة إذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصبحِينَ* وَلَا يَستَثْنُونَ* فَطَافَ عَليها طائِفٌ مِن رَّبِّک وَهُمْ نَائِمُونَ* فَأَصبَحَتْ كَالصَّرِيمِ* فَتَنَادوا مُصبِحِينَ* أن اغذُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إن كُنتُم صَارِمِينَ* فانطَلَقُوا وَهُم يَتَخافتُونَ* أن لا يدَخُلَنَّهَا اليومَ عَلَيكُم مِسكِينٌ* وَغَدَوا عَلَى حَردٍ قَادِرِينَ* فَلَمَّا رَأوهَا قَالُوا إنَّا لَضَالُونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُمُونَ* قَالَ أَوسَطُهُم أَلَمْ أَقُل لَكُم لَوْلَا تُسَبِّحُونَ* قَالُوا سُبحانَ رَبِّنا إنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَأَقبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْض يَتَلاوَمُونَ* قَالُوا ياوَيْلَنَا إنَّا كُنَّا طَاغِينَ* عَسَى رَبُّنَا أن يُبدِلَنَا خَيراً مَنهَا إنَّا إلى رَبِّنَا راغِبُونَ* كَذَلِکَ العَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أكبَرُ لَو كَانُوا يَعْلَمُونَ».

تصوير البحث

قد يجسِّم اللَّه الحقائق التربويهٔ المهمهٔ جداً فى قالب تشبيه محض، وقد يجسّـمها من خلال قولبهٔ قصهٔ حقيقيهٔ من الواقع الخارجى فى

إطار مثل، والآيات السبع عشرة من سورة القلم من قبيل القسم الثانى.

الشرح والتفسير

كـان الحـديث فى الآيـات السابقـة لآيات المثل عن المناعين عن الخير «۱»، وعقب ذلـك ذكر امثـال القران، ص: ۵۱۶ قصة أصحاب الجنّة فى قـالب تمثيل جميل. يستفاد من تعابير الآيات الجميلـة أن هـذه القصـة كانت معروفـة عنـد العرب قبل الاسلام، بالطبع ليس بالتفصيل المـذكور هنا، وحاول القرآن بيان نكات ظريفة فى هذه القصة، أوضح من خلالها عاقبة المنّاع للخير. جاءت قصة أصـحاب الجنـة فى القرآن كالتالى: «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كما بَلَوْنا أصحابَ الجَنَّة». يا رسول، إنَّا أدخلنا امتك فى اختبار كما أدخلنا من قبلهم أصـحاب الجنة «۱»، ويراد من الجنة هنا البسـتان لا ما تقابل جهنم. كان فى الامم السالفة والد خيّر، له بستان واسع، عندما يحلُّ فصل جنى الثمار كـان هـذا الرجل السـخى يخبر الفقراء والمساكين لينالوا نصيباً منها، ولأجل ذلك كان البسـتان ينمو ويثمر كل عام أكثر فأكثر. توفى هـذا الأب السـخى وترك البسـتان لُاولادِه، الـذين كانوا بخلاء وقصيرى النظر، ويرون ثمار البسـتان حقهم الخاص بهم دون غيرهم، فمنعوا الفقراء والمساكين من النيـل من البسـتان، كمـا كـان يفعـل ذلك والـدهم، وكان لسان حالهم يقول: لِمَ نعطِ هؤلاء مع أنّهم لم يفعلو لنا ولبستاننا شيئاً ولم يعملوا فيه، كما أنهم لم يسـتثمروا شيئاً من أموالهم فى البستان؟ وهل هم يدينون لنا بشيء؟ وهل هو إرث آبـائهم؟ والحق ينبغى أن يرجع لصـاحبه، ونحن أصـحاب هـذا الحق ومـا لنـا وهؤلاء الفقراء؟ ولمـاذا يعيش الفقراء؟ فليموتوا! ولأجل تحقيق أفكارهم الشيطانية رسموا الخطة التالية: «إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصبحِينَ* وَلَا يَستَثْنُونَ». تقضى خطتهم التى أقسموا عليها أن يذهبوا فى الصباح الباكر مع غلمانهم إلى البستان امثال القران، ص: ۵۱۷ ويجنون ثماره قبل أن يأتوا الفقراء، وإذا جاءوا فلا يشاهدون شيئاً يأخذونه معهم «۱»، فـذهبوا إلى فراشـهم بهذا الأمل. «فَطَافَ عَليها طائِفٌ مِن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ». الطائف تعنى الذى يطوف، وقد اطلق هـذا الاصـطلاح على من يطوف الكعبـة بهذا الاعتبار. كما يُطلق الطائف على البلاء الذى ينزل ليلًا، من قبيل السـرقة التى غالباً ما تحصـل ليلًا، وسبب الاطلاق هو أن السارق غالباً ما يطوف البيت الـذى يقصـد سرقته قبل أن يسطو عليه، وذلك ليتعرَّف على نقاط ضعفه وفجواته ليـدخل منهـا. تأوّهات المظلومين تبلورت على نحو طائف وبلاء إلهى نزل على بسـتانهم وأتلفه. «فَأَصبَحَتْ كَالصَّرِيم». عند الصـباح لم يجدوا أثراً من الثمار والفواكه التى خططوا لها بالأمس، فقد تبدَّلت جنتهم إلى قطعة من الفحم. ما هو البلاء الذى نزل على هـذه الجنـة؟ قـد يكون عبـارة عن صاعقـة أمرهـا اللَّه أن تحرق الجنـة لتبـدّله إلى فحم ورماد. تكفى درجـة حرارة بمسـتوى مائة لإحراق هـذه الجنـة، أمّا إذا كانت درجـة حرارة الصاعقـة خمسة عشـر ضـعفاً فما تفعل بالجنَّة؟ إنَّ هذه الدرجة من الحرارة تذيب كل أنواع الفلزات فضلًا عن الأشـجار والفواكه والخضـار. «فَتَنَادوا مُصبِحِينَ* أنِ اغدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إن كُنتُم صَارِمِينَ». استيقظ أصـحاب الجنة صباحاً ولم يكونوا على علم بما كان قد حصل لبسـتانهم، فنادى أحدهـم الآخر ليستعجلوا فى اليقظة والذهاب لجنى الثمار، وبعد حمـل المسـتلزمات الضـرورية امثال القران، ص: ۵۱۸ تحركوا باتجـاه البسـتان. «فـانطَلَقُوا وَهُم يَتَخـافَتُونَ* أن لا يـدَخُلَنَّهَا اليومَ عَلَيكُم مِسكِينٌ* وَغَـدَوا عَلَى حَردٍ قَـادِرِينَ». أيقـظ أحـدهم الآخر بإيجـاد ضوضـاء، لكنهم خرجـوا ببطء ودون إيجـاد أى صوت ودون أن يتكلّموا، وإذا أرادوا مبادلـة الكلامـ همس أحـدهم فى إذن الآخر، ومـا كان كلامهم إلَّاتحـذير أحـدهم الآخر من أن يطّلع واحـد من الفقراء على الموضوع. نعم، كـانوا قـد قرروا أن يحولوا دون اطلاع الفقراء، وأن يمنعوهم بقوّة دون الوصول إلى الجنـة، ومن المحتمل أنَّهم وظّفوا بعض الأقويـاء ليمنعوا الفقراء عن دخول الجنـة إذا مـا اطّلعوا رغم الإجراءات التى اتخـذوها للحؤول دون اطلاعهم. «فَلَمَّا رَأوهَا قَالُوا إنَّا لَضَالُونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُمُونَ» بعـد الاجراءات والاحتياطـات التى قاموا بها وصـلوا جنّتهم وفقاً لخطّتهم، لكنَّهم عنـدئذٍ تعجّبوا حيث لم يعثروا على أثرٍ للطراوة والخضار، ولا نسيم، ولا صوتاً للطيور ولا للقنوات، ولا فاكهة ولا شجرة، فلم يبقَ من الجنة غير الفحم والرماد، عندئذٍ اعترفوا بخطأهم وأقرّوا بصحة منهج والدهم واعتبروا أنفسـهم ضالين. «قَالَ أَوسَطُهُم أَلَمْ أَقُل لَكُم لَوْلَا تُسَبِّحُونَ». يبـدو أن واحـداً من الاـخوة كـان أعقلهم، وكان مخالفاً لهم منـذ البدايـة وكان مصـرّاً على العمل وفق نهـج الوالـد، إلَّاأنَّ إخوته كانوا

يشكّلون الأكثريـة، وهو الاقلية، لذلك لم يكن لرأيه تأثير عليهم، لكنه بعد ما شاهد- كاخوته- ما آلت إليه جنتهم قال لهم ما ورد في العبارة المتقدّمـة. «قَالُوا سُبحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَأَقبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ». كانت ملامة أخيهم بمثابة السوط الذي جلد ضميرهـم وأيقظه من سبات الغفلـة، عندئـذٍ جرى تقـديس اللّه وتسـبيحه على ألسـنتهم، وبـدأوا يعـترفون بـأنّهم ظـالمون. إنّهم ظلمـوا أنفسهم، كما ظلموا الفقراء، ثم أخذ أحدهم يلوم الآخر، ويحمّل أحدهم الآخر مسؤولية هذا العمل، وهو سيرة المذنبين دائماً. نعم، في الصـباح البـاكر كان أحـدهم يوقظ الآخر بصوت عال، وتحرّكوا باتجاه الجنَّة امثال القران، ص: ۵۱۹ باحتياط، وهم حالياً يتّهم بعضـهم الآخر. ممَّا يلفت أنَّ الآيـة «قَالُوا سُبحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» تكشف عن أنَّهم لم يتلقّوا نزول العذاب ظلماً من اللّه عليهم، بل نزّهوا اللّه من كل ظلم، واعتبروا أنفسـهم سـبباً لهـذا العذاب. إنهم أعلنوا من خلال هذه الجملة كونهم ظلموا الآخرين فكانوا أهلًا لنزول العذاب، ولم يكن ذلك ظلماً من اللّه عليهم، بل ما صـدر منه هو عين العدالـة والحكمـة ونوعٌ من اللطف في حقّهم؛ لأن وجـدانهم استيقظ من سبـاته إثر هـذا العـذاب فتابوا إلى اللّه وأنابوا إليه. «قَالُوا ياوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ». ربّنا، أغوتنا نعمك وأغفلتنا عن صاحب النعم، فانحرفنا. ربّنا، ما كنا نعلم أنَّ الأموال التي وهبتها لنا لم تكن بأكملها لنا، بل جعلت سـهماً للفقراء فيها. ربّنا، علمنا أن ذلك كان اختباراً منك لنا فنتوب ونقرُّ بـذنبنا، وهـا نحن جئنـاك تائبين نادمين داعيك بالـدعاء التالي: «عَسَى رَبُّنَا أن يُبـدِلَنَا خَيراً مَنهَا إنَّا إلى رَبِّنَا راغِبُونَ». يقظ أصحاب الجنة من سبات الغفلة بصفعة العذاب الإلهي، فاعتبروا ممَّا حدث لهم وتابوا ودعوا اللّه بهذا الدعاء. بعد التوبة والدعاء عزموا بجدٍّ ومثـابرة على العمـل على الأـرض، فلم يمضِ وقت طويـل- كما ينقل ابن مسـعود- حتى رزقهم اللّه بلطفه جنَّة أعظم وأفضل ممَّا كانت لهم «۱». لكن بعض المفسرين يرى أن توبتهم لم تُقبل لعدم توافر شروط التوبة فيهم «۲». «كَذَلِكَ العَذَاب وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أكبَرُ لَو كَانُوا يَعْلمُونَ». هـذه الآيـة اسـتنتاج لقصة أصـحاب الجنَّة، وهي تحذير لكلٍّ من كان يعيش حياة ذات وجوه شبه مع حياة أصـحاب الجنَّة، فهي تقول: إن العـذاب الاخروي أشـدّ وأكبر من العذاب امثال القران، ص: ۵۲۰ الأليم والمفجع الـذي أنزلناه على هؤلاء. وعلى كـل من توفَّرت عنـده امكانيات وثروة أن يترك منها سـهماً للفقراء، ولو بخل في ذلك وخطى في هـذا الاتجاه بحيث لا هو بـذل ولا ترك الآخرين يبـذلون فليطمئن من نزول عـذاب اللّه عليه في الـدنيا والآخرة. بالطبع لا ينبغي أن يكون العذاب دائماً عبارة عن صاعقة سماوية تحرق ممتلكات البخيل، بل للّهجنود لكل زمان ومكان، من قبيل: الآفات والحروب والسيول والأمراض المستعصيـة والجفاف وانعدام البركة، فهذه كلها جنود للّهيبعثها حيث يشاء.

خطابات الآية

۱- الاستئثار بلاء خطر

إذا اتُّخـذت الأموال والثروة جسـراً للوصول إلى الغايات، ولم يخرج حبّها عن مسـتوى الاعتدال كان ذلك أمراً مطلوباً ومستحسـناً، أما إذا بلغ حبُّهـا مسـتوى الإفراط وعـدَّت بحـد ذاتها هـدفاً وليس وسـيلة وأنتجت ثماراً من قبيل الاستئثار كان ذلك أمراً مـذموماً. ولأجل ذلك فرض الاسـلام الحقوق الواجب دفعها، كما دعى المسلمين إلى الإنفاق الزائد على ذلك (الانفاق المستحب) لكي يحول بذلك عن انتاج أو نمو شـجرة الاستئثار البغيضـة. تتجلّى أخطار الاستئثار عنـدما تتسع رقعـة آثاره الذميمـة لتشـمل المجتمع كله بعد ما كانت منحصـرة في المسـتأثر فقط، كما هو حال باقي الـذنوب، وذلك لأن آهات المظلومين والمسـتحقين والمساكين قـد تتبدَّل إلى إعصار يكتسح المجتمع بأسـره. علينا تطهير أنفسـنا من هذه الصفة الذميمة، وذلك من خلال إنفاق بعضٍ من أموالنا (قدر الإمكان) لمحرومي المجتمع وفقرائه، ولنقتـدِ في هـذا المجـال بالأئمـة المعصومين عليهم السـلام. ينقـل في أحوال الامام الصادق عليه السـلام قوله التالي: «كنت آمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم في حيطانها الثلم ليدخل الناس ويأكلوا، وكنت آمر في كل يوم أن يوضع عشـر بنيات يقعد على كل بنية عشـرة كلّما أكل عشرة جاء عشرة اخرى يلقى لكلّ نفس منهم مدّ من رطب، وكنت آمر لجيران الضيعة كلهم الشيخ والعجوز

والصبى امثال القران، ص: ۵۲۱ والمريض والمرأة ومن لا يقدر أن يجىء فيأكل منها لكلّ إنسان منهم مدّاً ...» «۱».

۲- الهدف من البلاء والعذاب

البلاء والعذاب والمرض والمشاكل الاجتماعية والفردية والغلاء والتضخّم وما شابه، كل ذلك ليس عقوبة دائماً، بل قد يكون بمثابة الصدمة التى يوردها الطبيب على المريض لكى يشعره ويحسّسه. واللّه قد يستهدف من العذاب تربية الانسان وإيقاضه من غفلته. العذاب الذى نزل على أصحاب الجنَّة كان من هذا القبيل، بناءً على رأى اولئك الذين يرون أنَّ توبتهم قد قبلت، بعد ما أعربوا عن ندمهم، لينتهجوا بعدها نهج أبيهم فى الانفاق على الفقراء والمساكين، ممَّا وفَّر الأرضية لأن يرزقهم اللّه الجنة مرَّة اخرى

۳- العلاقة بين الذنب وانقطاع الرزق

للعصيان والذنوب والتخلّف عن القوانين الالهية عواقب سيئة لا فى الآخرة فقط بل فى الدنيا كذلك، فآثار العصيان مشهودة فى الدنيا، كما هى ثابتة فى الآخرة. البحث فى الآثار الدنيوية للذنوب بحث جميل ويكشف عن وجود بعدين للدين لا بعد واحد، وقد انعكس هذا البحث فى آيات وروايات كثيرة. الآيات التى هى موضع بحثنا تشير إلى هذا المطلب، والبخل والأسوء منه منع الخير لا أنه لا يوجب زيادة ثروة الانسان وأمواله فحسب بل يكون بمثابة الحريق الذى يحرق الزرع ويترك الانسان يعيش البؤس والتعاسة. الرواية التالى ذكرها واحدة من كثير من الروايات الواردة فى هذا المجال، يقول الامام الباقر عليه السلام: «إنَّ الرجل ليذنب الذنب فيدرأُ عنه الرزق» وتلا هذه الآية: «إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصبحِينَ ...» «۲». امثال القران، ص: ۵۲۲ كما نقل عن ابن عباس قوله: إنَّ العلاقة بين الذنب وقطع الرزق أوضح من الشمس، كما بيّنها اللّه عزَّ وجلَّ فى سورة ن والقلم «۱». النتيجة: العلاقة بين الذنب وانقطاع الرزق واضحة، وعلى الانسان ترك العصيان حتى لو كان طالباً للدنيا فقط.

۴- العناد أو الإنابة؟

عندما يشاهد الانسان نتيجة أعماله فى الدنيا يختار أحد الطريقين، إمَّا اللجاجة والعناد وإمَّا الإنابة والرجوع. البعض يتلقى البلاء لطفاً من اللّه يوقظه به من سبات الغفلة ويمنعه دون تكرار الأخطاء، فيتوب ويخجل، ولاشك أن اللّه سيتغمدّه بألطافه. وبعض آخر فى سبات عميق، لا شيء يوقظه منه إلّاالموت، فلا توقظه هذه الحوادث من نومه فيستمر فى المضى فى درب الخطأ، بل تزيد الحوادث من سرعة مشيه فى هذا الطريق، أى طريق المعصية والذنوب عناداً ولجاجة، وهو فى الحقيقة فى عنادٍ مع سعادته، وكلَّما تقدَّم كلما نقص احتمال نجاته، وكلما ابتعد عن رحمة اللّه. العناد ناشئ عن الرذائل الأخلاقية، ومصدرها الأساسى هو الجهل، الذى خلَّف للانسان على طول التاريخ آثاراً مشؤومة وغير مباركة كثيرة «۲». وفقاً لما جاء فى بعض الروايات فإنَّ أصحاب الجنة اختاروا الطريق الاول فتابوا وأنابوا إلى اللّه فشملتهم الألطاف الالهية. أمَّا أفراد من قبيل أبى لهب وأبى سفيان ومعاوية فاختاروا درب العناد فأصبحوا لعنة على ألسن المؤمنين إلى يوم القيامة.

۵- العلاقة بين التسبيح والتوبة

عندما التفت أصحاب الجنة إلى خطأهم تابوا وبدأوا توبتهم بتسبيح اللّه، كما ورد فى الآية: «قَالُوا سُبحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ». كما نلحظ هذا المعنى فى قصة يونس التى وردت فى الآية ۸۷ من سورة الأنبياء، فعندما أدرك أنَّه ترك الأولى تاب وقال: «لا إِلَهَ إِلَّاأنتَ سُبْحَانَكَ إِنّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»، فسبَّح اللّه أولًا ثمّ تاب. كما نلحظ هذا المعنى فى قصة موسى عليه السلام الواردة فى الآية ۱۴۳ من سورة الأعراف. سؤال: ما العلاقة بين تسبيح اللّه والتوبة والندم؟ الجواب: حقيقة المذنب كونه جاهلًا لبعض صفات اللّه ذات الصلة

بـذنبه أو أنّه تجاهلها وأنكرها عملياً، فالسارق- مثلًا- يجهل صـفة الرزق التي يتصف بها اللّه أو أنه أنكرها عملياً، وعندما يدرك خطأه يصحِّح اعتقاده في البداية فيسبّح اللّه وينزهه من كل عيب ونقص ثم يبتُّ بإصلاح أعماله وسلوكه، ويجبر ما سبق منه بالتوبة والعمل الصالح. النتيجة: الذنب ينشأ عن عاملين، الاول: الاعتقاد، والثاني: السلوك والعمل، ولهذا يُفرض بالتوبة أن تكون اعتقادية وسلوكية. ابتُلينا حالياً «۱» باختبارات مختلفة، وما هي إلّانتيجة لأعمالنا واعتقاداتنا، فالجفاف بلغ مدناً كانت محاصرة بالأنهار والمياه، من قبيل اصفهان وعبادان، وقد أعملت الحكومة بعض القيود ونظام الحصص في اصفهان وغيرها من المدن ممّا سبب مشاكل للناس. هذا من جانب ومن جانب آخر فان حرب الصحافة والاتهامات والافتراءات تستمر بلا هوادة، وبعض الصحف استهدفت بجسارة جميع المقدسات، يستحي القلم من ذكر ولو نموذجاً واحداً منها «۲». امثال القران، ص: ۵۲۴ ومن جانب آخر كذلك فان مؤامرات الأعداء تزداد وتتعقّد يومياً ويزداد خطرها كل يوم. والأسوء من ذلك الاختلاف والنزاعات الكلامية بين الأحزاب السياسية، فقد بلغت مستوى أن نسوا أرباب الأحزاب مشاكل الناس إثرها. أَلَمْ تدعُنا هذه الحوادث للإنابة إلى اللّه؟ ألم يأن لنا أن نسبّح اللّه وننزّهه ثمّ نتوب إليه لكي يتغمّدنا بلطفه ورحمته وفيضه؟ اللهم، اجعل البلاء الذي سببناه لأنفسنا عاملًا ليقظتنا ووعينا. اللهم، أرنا طريق الإنابة ووفقنا للتوبة.

المثل الستون: الموقف تجاه الكلام الحق

اشارة

يقول اللّه في الآيات ۴۹- ۵۱ من سورة المدثر: «فَمَا لَهُمْ عَنِ التذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ* كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّت من قَسْوَرَةٍ».

تصوير البحث

في هذه الآيات الثلاث، التي تشكّل آخر مثل من أمثال القرآن الجميلة، شبّه اللّه جماعة الوثنيين المتعصبين والمعاندين المتهربين عن تذكرات القرآن والرسول بالحُمُر الفارّة من صوت الأسد.

الشرح والتفسير

«فَمَا لَهُمْ عَنِ التذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ». بعد ما ينقل القرآن المجيد حوار أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم، يطرح السؤال التالي: لماذا أعرض أصحاب الجحيم عن التذكرات في الدنيا؟ تكرَّرت مفردة (تذكرة) تسع مرّات في القرآن، واريد منها القرآن في جميع هذه الموارد، أمّا مفردة (ذكر)، التي هي من نفس المادة، فتكررت خمسين مرّة، واريد منها القرآن المجيد كذلك في كثير من الموارد، منها: الآية ۶ من سورة الحجر: «يَا أَيُّها الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لمَجْنُونٌ» والقرآن هو الذي نُزِّل على الرسول صلى الله عليه و آله. امثال القران، ص: ۵۲۶ وباعتبار أن الرسول صلى الله عليه و آله جاء بالذكر والتذكرة (القرآن المجيد) سُمِّي مُذكِّراً، فقد جاء في الآية ۲۱ و ۲۲ من سورة الغاشية: «فَذَكِّرْ إِنَّما أنْتَ مُذَكِّرٌ* لَستَ عَلَيْهِم بمُصَيْطِرٍ». إذن، القرآن المجيد ذكر، والرسول مذكِّر، لكن من المؤسف أن بعضاً من العنودين والمتعصبين لا يصغي إلى تذكرات الرسول، بل يفرُّ منها. «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ». الحُمُر جمع حمار، وبما أنها مطلقة فتشمل جميع ما يندرج تحت هذا الصنف من الحيوانات، لكن المراد منه هنا ليس الحمار الأهلي الذي يستخدمه الانسان لأداء أعماله بل المراد هو الحمار الوحشي؛ وذلك للُامور التالية: أولًا: الحمار الوحشي يخاف الأسد أكثر ويفرُّ منه، وقيد «مُسْتَنْفِرَة» يفيد كون المراد الحمار الوحشي لا الأهلي. ثانياً: الحديث في الآية عن الأسد والحمار «۱»، ومن الواضح أن هناك تناسباً أكثر بين الأسد والحمار الوحشي، وبخاصة أن للأسد رغبة خاصة بصيد الحمار الوحشي، والخوف يستولي على الحُمرُ بمجرّد أن تسمع صوته بحيث تفقد صوابها ولا تعلم إلى أين تتجّه، ويتفرّق الفصيل إلى جهات عديدة. أحسن القرآن بيان كلّ شيء أراد بيانه واستخدم أرفع

مستويات التعبير وأكملها فيه، وفى هذه الآية رسم اللَّه أكمل أنواع الفرار والهروب، وذلك من وجوه فصاحة القرآن وبلاغته. لماذا يفرُّ الوثنيون من تـذكيرات الأنبياء؟ لماذا يفرون من الجنـة المـدعوون لها باتجاه جهنَّم؟ لماذا يتجهون إلى الظلمات تاركين خلفهم النور؟ لماذا يتركون الأماكن الآمنـة ويتجهون نحو اماكن خطرة يحتمل السـقوط فيها؟ يزداد إعجاب الانسان عنـدما يفكر بهـذه الآيات وكذا روايـات وردت فى هـذا المجـال. امثال القران، ص: ۵۲۷ كان عبـدة الأصـنام المتعصـبون يفرّون من نـداء الحق بذرائع مختلفة، فبعض منهم كان يجعل القطن فى اذنيه لكى لا يسـمع شيئاً من كلام الحق. جاء أسعد بن زرارة (من كفار المدينة) يوماً إلى مكة لتهيئة بعض وسائـل الحرب وحاجـات اخرى، فشاهـد جنب بـاب المسـجد الحرام واحـداً من كفار مكـة بيـده كيس من القطن يـدعو كل من أراد دخول المسـجد أن يجعل قطناً فى اذنيه. سأله أسـعد عن سـبب ذلك، فقال له: هناك ساحر جنب الكعبـة يُـدعى محمّـد يسـحر الناس بكلماته، والقطن يحول دون تأثير سحره على الناس ... «۱». وكان بعض آخر منهم يجعل أصابعه فى اذنيه لكى لا يسمع شيئاً من كلام الحق الجـذّاب الـذى يتفوّه به الأنبياء، بل كان البعض لا يكتفى بذلك ويجعل ثيابه فوق رأسه لكى لا تنقر اذنيه ولو كلمة من كلمات الحق. فى هـذا المجـال خـاطب نـوح ربه قائلًا: «وإنّى كُلَّمـا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ واسْـتغشَوْا ثِيـابَهُمْ وأَصَرُّوا واسْـتَكْبَروا اسْتِكْباراً» «۲». وبعض آخر كان يأمر غلمانه ومن تحت يـديه أن يحـدث ضوضاء بالصـراخ والصـفير والتصـفيق عنـد تلاوة القرآن لكى يحولوا دون سـماع نغمات القرآن الجميلـة. يقول اللَّه فىى الآية ۲۶ من سورة فصّـلت: «وَقَالَ الَّذينَ كَفَروا لا تسْمَعُوا لِهذا القُرآنِ والغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ». خلاصـة الكلام: أن المشـركين والـوثنيين كـانوا يحولـون دون بلـوغ صـوت الحـق أسـماع النـاس، ويسـتخدمون لهـذا الغرض أساليب مختلفـة. أسأل تارة اخرى لماذا كانوا يفرّون من تـذكيرات الأنبياء والرسل؟ امثال القران، ص: ۵۲۸ لماذا كانوا أعداءً لسـعادتهم وهدايتهم ونجاتهم؟ جواب هذه الأسـئلة ينحصـر فى أربع جمل: العناد، والحماقة، والتعصّب الذى فى غير موضـعه، والجهل. نعم، هذه الامور تحـول دون سـماع صوت الحق وتؤدّى إلى فرار الانسان وهروبه من الحق. اللهم، وفقنا لترك هذه الرذائل الأربع، لكى نقبل نداءك الحق بكل وجودنا.

خطابات الآية

۱– القرآن ذكر والرسول مذكِّر

سؤال: لماذا اطلق على القرآن (ذكر) و (تـذكرة) وعلى الرسول صـلى الله عليه و آله (مـذكِّر)؟ وما السـر فى هذا التعبير؟ الجواب: هذه التعـابير تسـتبطن نقطتين مهمتين، همـا مصـادر لمعارف عليا. النقطـة الاولى ممَّا يمكن اسـتفادته من الآيـة التى هى موضع بحثنا وكـذا آيات وروايات اخرى كون التـذكير إحـدى مهام الأنبياء ووظائفهم. وهـذا يعنى أن فطرة الانسان الطاهرة مجبولـة على الايمان وتعاليم الأنبيـاء «فِطرَةَ اللَّهِ الـتى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا» «۱» ، لا ـ فيمـا يخصُّ اصول الـدين فحسب بل وكـذا فروعه، والفطرة بأعماقها تسـتبطن هـذه التعاليم الرفيعـة. بناءً على ذلك تكون وظيفة الأنبياء هى التذكير بهذه المعارف والقضايا الفطرية، لكى لا ينساها البشـر، بل يبقى واعياً متـذكّراً لها وموحـداً فى فكره وسلوكه، ومعتقداً بالمعاد والحياة بعد الموت، ومتداعياً فى ذهنه ما اسـتبطنته الفطرة بأعماقها من مفاهيم من قبيل: العدالـة والتقوى أوضح الامام على عليه السـلام فى الخطبة الاولى من (نهج البلاغة) وظيفة الانبياء ببيان جميل جداً، وقال فى الإجابة عن سـبب بعثة الانبياء: امثال القران، ص: ۵۲۹ «ليسـتأدوهم ميثاق فِطرته ويذكّروهم منسىَّ نعمته ويحتجّوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول ...». للبعثة أهداف مختلفة: الاول: مطالبة البشر بأداء ميثاق الفطرة. ومن هذه العبارة يستفاد أن اللَّه أبرم مع فطرة البشر عهـداً، وعلى الانسان أن يؤديه فى حياته، وقـد يكون العهـد الذى أشارت إليه الآية ۱۷۲ من سورة الأعراف هو هـذا. الثانى: تذكيرهم بمـا نسوه من نِعم اللَّه، فهـو نـوع تـذكير، ولـو بحث الانسـان عن تلـك النعم لوجـدها فى أعمـاق وجوده، لكنه نساهـا؛ لأنـه غرق فى الماديات، ومن خواص عالم المادة أنَّه يُنسـى، فالـدنيا تُغفل الانسان وتنسيه. الثالث: أن يتمّوا عليهم الحجـة عن طريق البراهين العقلية،

مضافاً إلى القضايا الفطرية، وبذلك يبلّغون الانسان تعاليم السماء. الرابع: أن يكتشفوا الأرضيات والجواهر المستودعة فى فطرة الانسان وعقله ويستخرجوها. الرسول بمثابة المزارع الذى لا يخلق البذر بل يزرعها ويهيىء الأرضية اللازمة لنموّها، والأنبياء بتذكيرهم بالتعاليم التى تستبطنها فطرة الانسان يسعون فى نموّها وازدهارها. هناك شواهد من الآيات والروايات على هذا الكلام، منها ما ورد عن الرسول صلى الله عليه و آله قوله: «الناس معادن كمعادنِ الذهب والفضة» «۱»، أى أن الجميع يتمتع بوجود ذى قيمة ينبغى استخراجه بإشراف الخبير. إذن، النقطة الاولى التى استبطنتها هذه التعابير هى كون اصول الدين وفروعه متجذّرة فى فطرتنا، وما يقوم به الانبياء هو التذكير بها. النقطة الثانية: هى ما ورد فى الآية ۲۶ من سورة الغاشية، من أن التذكير هو الوظيفة الوحيدة للأنبياء، ولا سلطة على أكثر من ذلك، وبعبارة اخرى: الدين غير اجبارى، فهم امثال القران، ص: ۵۳۰ يذكرون الناس بالمعارف الالهية ولا يمكنهم أن يجبروهم على قبول الدين، والدين من شؤون الناس ذاتهم قبلوه ام لم يقبلوه. لم يجبر الرسول المشركين على قبول الدين، بل دعاهم إليه، وتركهم يقررون ما يشاؤون، والنتيجة هى أن بعضاً منهم ما استعدَّ حتى للاصغاء إلى كلامه.

۲- ينبغى الإصغاء لنداء الحق

خطاب الآية الثانى هو ضرورة الإصغاء لنداء الحق من أى شخص صدر، حتى لو كان طفلًا وأصغر من الصاغى بل حتى لو كان عدواً، فينبغى الإصغاء للحق والانصياع له دائماً ومن أيٍّ صدر.

۳- عوامل التذكُّر

آيات القرآن وكلمات الأنبياء ليست الوحيدة التى تذكّر الانسان، بل جميع الحوادث التى تحصل للانسان تعدُّ عوامل للتذكُّر، فالكوارث والجفاف والأمراض والزلازل والسيول وما شابه، كلها عوامل تساعد على التذكُّر. لكل معلول علة ينبغى البحث عنها ومعرفتها للاعتبار منها، والتجربة تثبت وتدعو الانسان لأن يبحث عن علّة كل ما واجه من مشاكل ولو كانت من قبيل جرح بسيط، خوفاً من أن يكون نتيجة لجرح لسان أو سوء أدب صدر منه. الخلاصة: لا يحدث شىء من لا شىء، بالطبع هذه الحوادث بحد ذاتها ألطاف إلهية، وبمثابة السوط الذى يوقظ الانسان إذا ما جُلد به، وبمثابة الغرامة التى تمنع من حصول الجريمة مقبلًا. إلهى، نسألك بعظمة القرآن المجيد، هذه التذكرة العظمى وبحرمة المذكِّر أن تجعلنا يقظين نعى ونتذكَّر دائماً. وآخر دعوانا أن الحمد للَّهرب العالمين

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع " القائمیّة "الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله " الشمس آبادی – "رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللّهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم. مرکز" القائمیّة "للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمع من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی:

دينيّة، ثقافيّة و علميّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهـمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشـّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة –فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و... - مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَى. - من الأنشطة الواسعة للمركز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و... د) إبداع الموقع الانترنتى" القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَى ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة "تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة) رقم التسجيل: ۲۳۷۳ الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.


مركز
القائمية
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للایصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹